http://www.shamela.ws
تم إعداد هذا الملف آليا بواسطة المكتبة الشاملة

الكتاب : تفسير الشعراوي

وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (16)

قوله سبحانه : { وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ } [النمل : 16] أي : بقيتْ فيه النبوة وحمل المنهج ، لا الملك لأن الأنبياء لا تورث كما جاء في الحديث الشريف : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة »

وهذا يدل على أن سليمان جاء بعد داود ، وقد ورث عنه النبوة مع أنهما متعاصران ، بدليل قوله تعالى في موضع آخر : { وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الحرث إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ القوم وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ } [الأنبياء : 78] .

إذن : كان سليمان مع داود في هذه الحكومة وفي العلم ، لكن الحق سبحانه جعل العلم منازل ، بدليل أنه قال : { فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ } [الأنبياء : 79] مع أن أباه موجود ، وحكم في القضية بأن يأخذ صاحبُ الزرع الغنم التي أكلت .

فلما خرجوا من عند داود سألهم سليمان عن حكم أبيه ، فأخبروه بما قال ، فقال سليمان : بل يأخذ صاحب الزرع الغنم ينتفع بها ، ويأخذ صاحب الغنم الزرع يصلحه حتى يعود كما كان ، وعندها يأخذ صاحب الغنم غنمه ، وصاحب الزرع زرعه .

والحق تبارك وتعالى يعطينا هذا المثل مع نبي وأبيه ، لا مع نبيين مختلفين بعيدين ، وفي هذا إشارة أن حقّ الأبوة على سليمان لم يمنعه من مخالفة أبيه في الحكم؛ لأن الله تعالى قال عنهما { وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً } [الأنبياء : 79] فكلٌّ منهما يحكم على مقتضى علمه الذي منحه الله .

ومن هذه الحادثة أخذنا مشروعية الاستئناف والنقض وفي أحكام المحاكم ، فقاضي الاستئناف حينما يُعدِّل في حكم القاضي الابتدائي لا يُعَدُّ هذا طعناً فيه ، إنما كل منهما حكم بناءً على علمه ، وعلى ما توفّر له من أدلة ووقائع ، وربما فطِن القاضي الثاني لما لم يفطِنْ له القاضي الأول .

إذن : { وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ } [النمل : 16] لا تعني أنه جاء بعده ، إنما هما متعاصران ، وورثه في العلم والنبوة والحكمة ، لا في المُلْك والمال؛ لأن الله تعالى يريد أن يكون الرسول بعيداً

في رسالته وتبليغه عن الله عن أيِّ نفع يجيء له ، أو لذريته .
لذلك كان الفقراء من أهل النبي صلى الله عليه وسلم لا يأخذون من زكاة المؤمنين ، لكن أين هذا التشريع الحكيم مما يحدث الآن من الحكام والرؤساء والمسئولين ممَّنْ يوالون أقاربهم ، وينهبون البلاد من أجلهم .
{ وَقَالَ يا أيها الناس عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطير } [النمل : 16] فالطير له منطق ولغة؛ لأنه كما قال تعالى : { وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأرض وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ } [الأنعام : 38]
والآن ومع تقدُّم العلم يتحدث العلماء عن لغة للنمل ، ولغة للنحل ، ولغة للسمك . . إلخ .
وهذه المخلوقات تتفاهم بلغاتها بدقَّة تفاهم غريزي ، لكننا لا نفهم هذا المنطق ، والحق تبارك وتعالى يُعلِّمنا : { وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ولكن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ }

[الإسراء : 44] . فإنْ قلتَ كمَنْ قالوا : هو تسبيح دلالة لا منطقَ ومقال ، نقول : طالما أن الله تعالى قال { ولكن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ } [الإسراء : 44] فلا بُدَّ أنه مقال وكلام ، ولكن أنت لا تفهمه .
وعلماء اللغة يقولون : إن النطق خاصٌّ بالإنسان ، أما ما تُحدثه الحيوانات والطيور فأصوات تُحدِثها في كل وقت ، مثل مواء القطة ، ونُباح الكلب ، وخُوَار البقر ونقيق الضفادع ، لكن هذه الأصوات لها معنى (فنونوه) القطة حين تجوع غير (نونوتها) حين تخاف .
إذن : فهي تُعبِّر ، لكننا لا نعرف هذه التعبيرات ، كيف ونحن البشر لا يعرف بعضنا لغات بعض؛ لأننا لم نتعلمها ، وللغة ضرورة اجتماعية نتواضع عليها أي : نتفق أن هذا اللفظ يعني كذا ، فإذا نطقتَ به أفهمك ، وإن نطقتُ به تفهمني .
واللغة بنت الاستماع ، فاللفظ الذي تسمعه تستطيع نُطْقه ، والذي لم تسمعه لا تستطيع نُطْقه ، حتى لو كان لفظاً عربياً من لغتك ، ولا تعرف أيضاً معناه ، فلو قلت لك : (إنما الحيزبون و الدردبيس والطخا والنخاخ والعصلبيص) فلا شكَّ أن لا تعرف لهذا معنى؛ لأننا لم نتواضع على معناه .
والطفل الذي نشأ في بيئة عربية يتكلم العربية؛ لأنه سمعها و لايتكلم الإنجليزية مثلاً : لأنه لم يسمعها ، ولو وضعتَ نفس الطفل في بيئة إنجليزية لتكلم الإنجليزية؛ لأن اللغة لا ترتبط بجنس ولا دم ، اللغة سماع .
ومعنى { وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ } [النمل : 16] أي : من النِّعَم على الإطلاق ، وبعد قليل سنسمع نفس هذه العبارة يقولها الهدهد عن ملكة سبأ { وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ } [النمل : 23] إذن : فهي مثله فيما يناسب أمثالها من الملوك لا في النبوة وحَمْل المنهج { إِنَّ هذا لَهُوَ الفضل

المبين } [النمل : 16] الفضل المحيط بكل الفضائل .
ثم يقول الحق سبحانه : { وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ }

وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (17)

حُشِروا : جُمِعوا من كل مكان ، ومنه قوله تعالى : { وابعث فِي المدآئن حَاشِرِينَ } [الشعراء : 36] والحشْر : جَمْع الناس للحساب يوم القيامة .
وسُمِّي الجمع حَشْراً؛ لأن تجمع الناس من أماكن متفرقة في مكان واحد ، حتى يضيق بهم ويزدحم ، وهذا معنى الحشْر المتعارف عليه عندنا ، نقول : نحشرهم على بعض .
ومعنى { فَهُمْ يُوزَعُونَ } [النمل : 17] يعني : يُمنعون ، ومنه قوله « إن الله ليزع بالسُّلْطان ما يزع بالقرآن » يعني : أن السلطان والقوة والبطش تمنع ما لا يستطيع القرآن منعه؛ ذلك لأنهم يستبعدون القيامة والعذاب ، أمّا السلطان فرادع حاضر الآن .
لكن ، مِمَّ يمنعون وهم في موقف الحشر أمام سليمان؟ قالوا : يُمنعون أن يَسبق بعضهم بعضاً إلى سليمان ، إنما نمنعهم حتى يأتي المتأخر منهم ، ويدخلون جميعاً عليه مرة واحدة ، وفي ذلك إحداثُ توازنٍ بين الرعية كلها .
وقد حدَّثونا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان من صفاته إذا جلس في مجلس تزوعَتْ نظراته وعينه على كل الجالسين حتى يُسوّي بينهم ، ولا ينظر لأحد أكثر من الآخر ، ولا يُميز أحداً منهم على أحد ، حتى لا يظن أحدهم أن النبي فضَّله على غيره .
وكان صلى الله عليه وسلم لا يُقرِّب إلا أهل الفضل والتقوى الذي يُعرف منهم أنهم لا يستغلون هذه المكانة لنيل سلطة بين الناس؛ ولذلك كان صلى الله عليه وسلم لا يُوطِّن وينهي عن ذلك على خلاف ما نراه الآن من بعض المصلِّين الذين يضعون سجادة مثلاً في الصف الأول يشغلون بها المكان ، ثم يذهب ويقضي حاجاته ، ويعود وقد امتلأ المسجد فيتخطّى رقاب الناس ليصل إلى مكان في المقدمة ، وهي ليس مكانه عند الله .
فالله تعالى قد وزَّع الأماكن على حَسْب الورود ، فإتيانك إلى بيت الله أولاً يعطيك ثواب الصف الأول ، وإنْ صليت في الصفِّ الأخير ، وعدم توطين الأماكن ينشر الأُلْفة بين الناس ، ويزيل الفوارق ويساعد على التعارف ، فكل صلاة أنت بجانب شخص جديد تتعرف عليه وتعرف أحواله .
وهذا معنى { فَهُمْ يُوزَعُونَ } [النمل : 17] يمنع السابق أنْ يسبق حتى يأتي اللاحق ، ليكونوا سواسية في الدخول على نبي الله سليمان عليه السلام .
لكن في ضوء هذا المعنى لمادة (وزع) كيف نفهم قوله تعالى : { رَبِّ أوزعني أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ

التي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ } [النمل : 19] .
أوزعني هنا يعني : أقْدِرني وامنعني من الغفلة عن نعمتك ، لأظلَّ شاكراً لك .

حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (18)

الضمير في { أَتَوْا } [النمل : 18] يعود على جنود سليمان من الإنس والجن والطير ، أي جاءوا جميعاً صَفَّاً واحداً ومرُّوا { على وَادِ النمل } [النمل : 18] يعني : قرية النمل ، وقوله { على وَادِ النمل } [النمل : 18] يدلُّ على أنهم جاءوا من أعلى الجبل ، أو أنهم قطعوا الوادي كله ، كما نقول : فلان أتى على الطعام كله .
عندها { قَالَتْ نَمْلَةٌ ياأيها النمل ادخلوا مَسَاكِنَكُمْ } [النمل : 18] لماذا هذا التحذير؟ { لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ } [النمل : 18] ثم احتاطتْ النملة للأمر ، فقالت { وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ } [النمل : 18] فما كان سليمان وجنوده ليُحطِّموا بيوت النمل عن قَصْد منهم .
والمعنى : حالة كونهم لا يشعرون بكم ، وهذا من عدالة حكمها ومعرفتها بسليمان ، وأنه ليس جباراً ولا عاتياً . إذن : فالنملة رأتْ عن بُعْد ، ونطقتْ عن حق ، وحكمتْ بعدل ، لهذا كله تبسَّم سليمان ضاحكاً .
وواضح في هذا القول ما تتميز به مملكة النمل من نظام يعرف فيه كُلٌّ مهمته ، ويؤديها على أكمل وجه ، فهذه النملة لا بُدَّ أنها كانت تقوم بمهمة الحراسة وتقف في الدَّرَك ، ترقب الجو من حولها ، وكأنها جندي الدورية اليقظ .
وسبق أن قُلْنا : لو أنك جلستَ في مكان ، وتركتَ فيه بعض فضلات الطعام مثلاً أو الحلوى لرأيتَ بعض النمل يدور حولها دون أنْ يقربها ، ثم انصرفوا عنها ، وبعد مدة ترى جماعة منهم جاءت وحملت هذه القطعة ، وكأن الجماعة الأولى أفراد الاستطلاع الذين يكتشفون أماكن الطعام ، ويُقدِّرون كم نملة تستطيع حمل هذا الشيء .
بدليل أنك لو ضاعفتَ القطعةَ الملقاة لرأيتَ عدد النمل الذي جاء لحملها قد تضاعفت هو أيضاً . ولو قتلتَ النمل الأول الذي جاء للاستطلاع تلاحظ أن النمل امتنع عن هذا المكان ، لماذا؟ لأن النملة التي نجتْ من القتل ذهبت إلى مملكتها ، وحذَّرتهم من هذا المكان .
وفي مملكة النمل عجائب وآيات ، سبحان خالقها ، وسبحان مَنْ هداها إلى هذه الهندسة المحكومة بالغريزة .
ومن عجائب النمل أنك ترى في عُشِّ النمل الحبوب مفلوقة إلى نصفين حتى لا تنبت ، وتهدم عليهم عُشَّهم ، لكن حبَّة الكُسْبرة مثلاً تنبت حتى لو انفلقتْ نصفين ، حيث ينبت كل نصف على حِدَة ، لذلك لاحظوا أن النمل يفلق هذه الحبة بالذات إلى أربعة أقسام .

كما لاحظ المهتمون بدراسة النمل وجود حبات بيضاء صغيرة مثل رأس الدبوس أمام أعشاش النمل ، وبفحصها تبيَّن أنها زريعة النبات التي تحمل خلايا الإنبات أخرجوها كي لا تنبت .
وصدق الله العظيم : { وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأرض وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ } [الأنعام : **38**] .
وقد سمَّى الله تعالى ما قالت النملة قولاً { قَالَتْ نَمْلَةٌ } [النملة : **18**] ولا بُدَّ أن هذا التحذير { ادخلوا مَسَاكِنَكُمْ } [النملة : **18**] جاء قبل أنْ يأتي سليمان وجنوده ، وهم على مشارف الوادي .

وكلمة { مَسَاكِنَكُمْ } [النمل : **18**] تدل على أن لهم بُيوتاً ومساكنَ ، ومجالَ معيشة ، وكسْبَ أرزاق ، كما نقول (بيلقّطوا رزقهم) من هنا ومن هناك؛ لذلك تجده يتتبع مواضع الطعام والفضلات ، ويدخل إليها من أضيق الأماكن ، لكن نرى مثلاً محلات الحلوى مليئة بالسكر الذي يعشقه النمل ، ومع ذلك لا نجد في هذه المحلات نملة واحدة ، لماذا؟ لما تتبَّعوا هذه الظاهرة بالدراسة وجدوا أن النمل لا يدخل المكان إذا كان به سِمْسم ، وهذه من عجائب النمل أيضاً .
وقوله تعالى : { لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ } [النمل : **18**] الحَطْم هو التكسير ، ومنه قوله سبحانه عن النار : { وَمَآ أَدْرَاكَ مَا الحطمة } [الهمزة : **5**] لأنها تحطم ما يُلْقى فيها .

فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (19)

تبسَّم سليمان عليه السلام بالبسمة التي تتصل بالضحك لماذا؟ لأنه سمعها قبل أنْ يصل إليها ، ولأنها رأتْ قبل أن يأتي المرئي ، وقد تكلم البعض في هذه المسألة فقالوا : إن الريح نقلتْ إليه مقالة النملة ، وهو ما يزال بعيداً عنها ، وهذا الكلام يُقبل لو أن المسألة (ميكانيكا) إنما هي عمل رب وقدرة خالق مُنعِم ينعم بما يشاء .
ونطق قائلاً { رَبِّ أوزعني } [النمل : **19**] أي : امنعني أنْ أغفل ، أو أنْ أنسى هذه النِّعم ، فأظل شاكراً حامداً لك على الدوام؛ لأن هذه النعَم فاقتْ ما أنعمت به على عامة الخَلْق ، وفوق ما أنعمتُ به على إخواني من الأنبياء السابقين ، و على كل ملوك الدنيا؛ لأنه عليه السلام جمع بين المُلْك والنُّبوة ، وإنْ كان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عرض عليه المُلْك فرفضه ، وآثر أن يكون عبداً رسولاً .
لذلك وجب على كل صاحب نعمة أنْ يستقبلها بحمد الله وشكْره ، وسبق أنْ قُلْنا في قوله تعالى : { ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النعيم } [التكاثر : **8**] أن حق النعمة أن تحمد المنعم عليها ، فلا تُسأل عنها يوم القيامة .

وما أشبه الحمد على النعمة بما يُسمُّونه عندنا في الريف (الرقوبة) ، وهي بيضة تضعها ربَّة المنزل في مكان أمين يصلح عُشًّا يبيض فيه الدجاج ، فإذا رأتْ الدجاجة هذه البيضة جاءتْ فباضتْ عليها ، وهكذا شكر الله وحمده على النعم هو النواة التي يتجمع عليها المزيد من نِعَم الله .

وقد شُرِح هذا المعنى في قوله سبحانه : { لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ } [إبراهيم : 7] ألاَ ترى أن مَنْ علم علماً فعلم به أورثه الله علم ما لم يعلم؟ لماذا؟ لأنه ما دام عمل بعلمه ، فهو مُؤْتمن على العلم؛ لذلك يزيده الله منه ويفتح له مغاليقه ، على خلاف مَنْ عَلِم علماً ولم يعمل به ، فإنَّ الله يسلبه نور العلم ، فيغلق عليه ، وتصدأ ذاكرته ، وينسى ما تعلَّمه .

والحق تبارك وتعالى يقول : { وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ } [لقمان : 12] أي : تعود عليه ثمرة شُكْره؛ لأنه إنْ شكر الله بالحمد شكره الله بالزيادة؛ لذلك من أسمائه تعالى (الشكور) .

وقوله : { عَلَيَّ } [النمل : 19] هذه خصوصية { وعلى وَالِدَيَّ } [النمل : 19] لأنه ورث عنهما المُلْك والنبوة { وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ } [النمل : 19] وهذا ثمن النعمة أن أؤدي خدمات الصلاح في المجتمع لأكون مُؤْتمناً على النعمة أهْلاً للمزيد منها .

والحق تبارك وتعالى يريد منَّا أنْ نُوسِّع دائرة الصلاح ودائرة المعروف في المجتمع ، أَلاَ ترى إلى قوله سبحانه : { مَّن ذَا الذي يُقْرِضُ الله قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً } [البقرة : 245] .

فسمَّى الخير الذي تقدمه قَرْضاً ، مع أنه سبحانه واهب كل النِّعم ، وذلك لِيُحنِّن قلوب العباد بعضهم على بعض؛ لأنه تعالى خالقهم ، وهو سبحانه المتكفِّل برزقهم .

ثم يقول : { وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصالحين } [النمل : 19] وذكر الرحمة والفضل؛ لأنهما وسيلة النجاة ، وبهما ندخل الجنة ، وبدونهما لن ينجو أحد ، واقرأ قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله . قالوا : ولا أنت يا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : ولا أنا إلا أنْ يتغمّدني الله برحمته » .

ويقول سبحانه في هذا المعنى : { قُلْ بِفَضْلِ الله وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ } [يونس : 58] فالمؤمن الحق لا يفرح بعمله ، إنما يفرح : إنْ نال فَضْلَ الله ورحمته ، كأنه يقول لربه : لن أتكل يا رب على عملي ، بل فضلك ورحمتك هما المتكل ، لأنني لو قارنتُ العبادة التي كلفتني بها بما أسدْيتَ إليَّ من نِعَم وآلاء لَقصُرَتْ عبادتي عن أداء حقِّك عليَّ ، فإنْ أكرمتني بالجنة فبفضلك .

والبعض يقولون : كيف يعاملنا ربنا بالفضل والزيادة ، ويُحرِّم علينا التعامل بالربا؟ أليست الحسنة عنده بعشرة أمثالها أو يزيد؟ نقول : نعم ، لكن الزيادة هنا منه سبحانه وتعالى وليستْ من مُسَاوٍ ، إنها زيادة ربٍّ لعبيد .

وقوله { فِي عِبَادِكَ الصالحين } [النمل : 19] دليل على تواضع سيدنا سليمان عليه السلام فمع مكانته ومنزلته يطلب أنْ يُدخِله الله في الصالحين ، وأن يجعله في زمرتهم ، فلم يجعل لنفسه مَيْزةً ولا صدارة ولا أدَّعى خيرية على غيره من عباد الله ، مع ما أعطاه الله من المُلْك الذي لا ينبغي لأحد من بعده .

وأعطاه النبوة وحمَّله المنهج ، فلم يُورثه شيء من هذا غروراً ولا تعالياً ، وها هو يطلب من ربه أن يكون ضمن عباده الصالحين ، كما نقول (زقني مع الجماعة دول) ، حين تكون السيارة مثلاً كاملة العدد ، وليس لي مقعد أجلس عليه .

مَنْ يقول هذا الكلام؟ إنه سليمان بن داود عليهما السلام الذي آتاه الله مُلْكاً ، لا ينبغي لأحد من بعده ، ومن ذلك كان يُؤْثِر عبيده وجنوده على نفسه ، وكان يأكل (الردة) من الدقيق ، ويترك النقي منه لرعيته .

إذن : لم ينتفع من هذا المُلْك بشيء ، ولم يصنع لنفسه شيئاً من مظاهر هذا الملك ، إنما صنعه له ربه لأنه كان في عَوْن عباد الله ، فكان الله في عَوْنه ، وأنت حين تُعين أخاك تُعينه بقدرتك وإمكاناتك المحدودة ، أما معونة الله تعالى فتأتي على قَدْر قوته تعالى ، وقدرته وإمكاناته التي لا حدودَ لها ، إذن : فأنت الرابح في هذه الصفقة .

وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (20)

مادة : فقد الفاء والقاف والدال ، وكل ما يُشتقّ منها تأتي بمعنى ضاع منه الشيء ، ومنه قوله تعالى في قصة إخوة يوسف : { قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِمْ مَّاذَا تَفْقِدُونَ } [يوسف : 71] ، فإنْ جاءت بصيغة (تفقَّد) بالتضعيف دلَّتْ على أن الشيء موجود وأنا أبحث عنه في مظانّه .

فمعنى { وَتَفَقَّدَ الطير } [النمل : 20] أن الرئيس او المهيمن على شيء لا بُدَّ له من متابعته ، وسليمان عليه السلام ساعةَ جلس في مجلس العلم أو مجلس القضاء نظر للحاضرين من مملكته ، كأنه القائد يستعرض جنوده ، وفي هذا إشارة إلى أنه عليه السلام مع أن هذا ملكه ومُسخَّر له ومُنقَاد لأمره ، إلا أنه لم يتركه هَمَلاً دون متابعة .

لكن ، لماذا تفقَّد الطير بالذات؟ قالوا : لأنه أراد أنْ يقوم برحلة في الصحراء ، والهدهد هو الخبير بهذه المسألة؛ لأنه يعلم مجاهلها ، ويرى حتى الماء في باطن الأرض ، يقولون : كما يرى أحدكم الزيت في وعائه .

لذلك نرى أن من مميزات الهدهد أن الله تعالى جعل له منقاراً طويلاً؛ لأنه لا يأكل مما على سطح الأرض ، إنما ينبش بمنقاره ليُخرج طعامه من تحت الأرض .

ألاَ تراه حين كلَّم سليمان في دقائق العقيدة والإيمان بالله يقول عن أهل سبأ : { أَلاَّ يَسْجُدُواْ للَّهِ الذي يُخْرِجُ الخبء فِي السماوات والأرض } [النمل : 25] فاختار هذه المسألة بالذات؛ لأنه

الخبير بها ورزقه منها .
ولما لم يجد الهدهد في الحاضرين قال { فَقَالَ مَالِيَ لاَ أَرَى الهدهد أَمْ كَانَ مِنَ الغآئبين } [النمل : 20] فساعةَ يستفهم الإنسان عن شيء يعلم حقيقته ، فإنه لا يقصد الاستفهام ، إنما هو يستبعد أنْ يتخلَّف الهدهد عن مجلسه .
لذلك قال { مَالِيَ لاَ أَرَى الهدهد } [النمل : 20] يعني : ربما هو موجود ، لكنّي لا أراه لعلّة عندي أنا ، فلما دَقّق النظر وتأكد من خُلوّ مكانه بين الطيور ، قال { أَمْ كَانَ مِنَ الغآئبين } [النمل : 20] إذن : لا بد من معاقبته :

لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (21)

ومعاقبة المخالف أمر ضروري؛ لأن أيّ مخالفة لا تُقابل بالجزاء المناسب لا بُدَّ أن تثمر مخالفات أخرى متعددة أعظم منها ، فحين نرى موظفاً مُقصِّرًا في عمله لا يحاسبه أحد ، فسوف نكون مثله ، وتنتشر بيننا الفوضى والتكاسل واللامبالاة ، وتحدث الطَّامة حينما يُثاب المقصر ويُرَقى مَنْ لا يستحق .
لذلك توعَّد سليمان الهدهد : { لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ } [النمل : 21] .
وقد تكلَّم العلماء في كيفية تعذيب الهدهد ، فقالوا : بنتف ريشه الجميل الذي يزهوا به بين الطيور ، حتى يصير لحماً ثم يُسلط عليه النمل فيلدغه ، أو يجعْله مع غير بني جنسه ، فلا يجد لها إلفاً ولا مشابهاً له في حركته ونظامه ، أو : أنْ يُكلّفه بخدمة أقرانه من الهداهد التي لم تخالف ، أو : أجمعه مع أضداده ، وبعض الطيور إذا اجتمعتْ تنافرتْ وتشاجرتْ ، ونتف بعضها ريش بعض؛ لأنهم أضداد؛ لذلك قالوا : أضيق من السجن عِشْرة الأضداد .
والشاعر يقول :
وَمِنْ نكَدِ الدُّنْيا عليَ المرْءِ أنْ يرى ... عَدُواً لَهُ مَا مِنْ صَدَاقته بُدُّ
ثم رقَّى الأمر من العذاب الشديد إلى الذبح ، وهذه المسألة أثار حولها المتمردون على منهج الله والذين يريدون أنْ يُعدِّلوا على الله أحكامه ، أثاروا إشكالاً حول قوله تعالى في حَدّ الزنا : { الزانية والزاني فاجلدوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ } [النور : 2] أما الرَّجْم فلم يَرِدْ فيه شيء ، فمن أين أتيتم به؟
نقول أتينا به أيضاً من كتاب الله ، حيث قال سبحانه في جَلد الأمَة إنْ زنتْ وهي غير مُحْصنة : { فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى المحصنات مِنَ العذاب } [النساء : 25] فقالوا : وكيف نُنصِّف حدَّ الرجم؟ وهذا القول منهم دليل على عدم فهمهم لأحكام الله .
فالمعنى { فَعَلَيْهِنَّ } [النساء : 25] أي : على الإماء الجواري { نِصْفُ مَا عَلَى المحصنات } [النساء : 25] الحرائر ، ولم يسكت إنما خصص التنصيف هنا بالجَلْد ، فقال : { مِنَ العذاب }

[النساء : 25] فتجلد الأَمَة خمسين جلدة ، وهذا التخصيص يدلُّ على أن هناك عقوبة أخرى لا تُنصف هي الرجْم .
وينتهي تهديد سليمان للهدهد بقوله { أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ } [النمل : 21] أ ي : حجة واضحة تبرر غيابه ، فنفهم من الآية أن المرؤوس يجوز له أنْ يتصرف برأيه ، ودون أن يأخذ الإذن من رئيسه إنْ رأى مصلحة للجماعة لا تستدعي التأخير .
وعلى الرئيس عندها أن يُقدِّر لمرؤوسيه اجتهاده ، ويلتمس له عذراً ، فلعله عنده حجة أحمده عليها بل وأكافئه؛ لأن وقت فراغه مني كان في مصلحة عامة ،كما نقول في العامية (الغايب حجته معاه) .
إذن : المرؤوس إنْ رأى خيراً يخدم الفكر العام ، ووجد أن فرصته ضيقة يسمح له بالتصرف دون إذن ، وفي الحرب العالمية الأولى تصرّف أحد القادة الألمان تصرُّفاً يخالف القواعد الحربية ، لكنه كان سبباً في النصر؛ لذلك أعطوه وسام النصر ولم ينسُوا أنْ يُعاقبوه على مخالفة القواعد والقانون .
ثم يقول الحق سبحانه : { فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ }

فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (22)

معنى { فَمَكَثَ } [النمل : 22] أقام واستقر { غَيْرَ بَعِيدٍ } [النمل : 22] مدة يسيرة ، فلم يتأخر كثيراً؛ لأنه يعلم أنه تخلّف عن مجلس سليمان ، وذهب بدون إذنه؛ لذلك تعجَّل العودة ، وما إنْ وصل إليه إلا وبادره { فَقَالَ } [النمل : 22] بالفاء الدالة على التعقيب؛ لأنه رأى سليمان غاضباً مُتحفِّزاً لمعاقبته .
لذلك بادره قبل أنْ ينطق ، وقبل أنْ ينهره { أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ } [النمل : 22] أي : عرفتُ ما لم تعرف هذا الكلام مُوجَّه إلى سليمان الذي ملَك الدنيا كلها ، وسخَّر الله له كل شيء؛ لذلك ذُهل سليمان من مقالة الهدهد وتشوَّق إلى ما عنده من أخبار لا يعرفها هو .
ثم يستمر الهدهد : { وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ } [النمل : 22] .
أولاً : نقف عند جمال التعبير في سبأ ونبأ ، فبينهما جناس ناقص ، وهو من المحسّنات البديعية في لغتنا ، ويعطي للعبارة نغمة جميلة تتوافق مع المعنى المراد ، والجناس أن تتفق الكلمتان في الحروف ، وتختلفا في المعنى ،كما في قول الشاعر :
رَحَلْتُ عَنِ الدِّيَارِ لكُم أَسِيرُ ... وَقَلْبِي في محبتكُمْ أَسير
وقَوْل الآخر :
لَمْ يَقْضِ مِنْ حقِّكم عَليَّ ... بَعْضَ الذي يَجِبُ
قَلْبٌ متى مَا جَرَت ... ذِكْرَاكُمُ يَجِبُ

ومن الجناس التام في القرآن الكريم : { وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة يُقْسِمُ المجرمون مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ } [الروم : 55] .

فالتعبير القرآني { وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ } [النمل : 22] تعبير جميل لفظاً ، دقيق مَعنىً ، أَلاَ تراه لو قال (وجئتك من سبأ بخبر) لا ختلَّ اللفظ والمعنى معاً؛ لأن الخبر يُرَاد به مُطلْق الخبر ، أمّا النبا فلا تُقال إلا للخبر العجيب الهام الملفت للنظر ، كما في قوله تعالى : { عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ النبإ العظيم } [النبأ : 12] .

والجناس لا يكون جميلاً مؤثراً إلا إذا جاء طبيعياً غير مُتكلّف ، ومثال ذلك هذا الجناس الناقص في قوله تعالى : { وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ } [الهمزة : 1] فقد ورد اللفظ المناسب مُعبّراً عن المعنى المراد دون تكلّف ، فالهُمَزة هو الذي يعيب بالقول . واللمزة : الذي يعيب بالفعل ، فالقرآن لا يتصيَّد لفظاً ليُحدِث جناساً ، إنما يأتي الجناس فيه طبيعياً يقتضيه المعنى .

ومن ذلك في الحديث الشريف : « الخَيْل معقود بنواصيها الخير » فبيْن الخيل والخير جناس ناقص ، مُحسّناً للفظ ، مؤدّياً للمعنى .

وقد يأتي المحسّن البديعي مُضطرباً مُتكلِّفاً ، يتصيده صاحبه ، كقول أحدهم ينحت الكلام نحتاً فيأتي بسجع ركيك : في أثناء ما كنا نسير نزل المطر كأفواه القِرَب ، فوقع رجل كان يحمل العنب .

ومعنى { أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ } [النمل : 22] الإحاطة : إدراك المعلوم من كل جوانبه ، ومنه البحر المحيط لاتساعه ، ويقول سبحانه : { وَكَانَ الله بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطاً } [النساء : 126]

ومنه : الحائط يجعلونه حول البستان ليحميه ويُحدِّده ، ومنه : يحتاط للأمر .

ومحيط الدائرة الذي يحيط بالمركز من كل ناحية إحاطة مستوية بأنصاف الأقطار .

لكن أَيُعَدُّ قول الهدهد لسليمان { أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ } [النمل : 22] نقصاً في سليمان عليه السلام؟ لا ، إنما يُعَدُّ تكريماً له؛ لأن ربه عز وجل سخَّر له مَنْ يخدمه ، وفَرْق بين أن تفعل أنت الشيء وبين أن يُفعل لك ، فحين يفعل لك ، فهذه زيادة سيادة ، وعُلُوّ مكانة .

كما أن الله تعالى يُعلِّمنا ألاَّ نكتم مواهب التابعين ، وأن نعطي لهم الفرصة ، ونُفسِح لهم المجال ليُخرجوا مواهبهم ، وأن يقول كل منهم ما عنده حتى لو لم نكُنْ نعرفها؛ لأنها خدمة لي .

أليس من الكرامة أن يُحضر سليمان عرش بلقيس وهو في مكانه { قَالَ الذي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الكتاب أَنَاْ آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ } [النمل : 40] .

ونلحظ أن الهدهد لم يُعرِّف سبأ ما هي ، وهذا دليل على أن سليمان عليه السلام يعرف سبأ ، وما فيها من ملك ، إنما لا يعرف أنه بهذه الفخامة وهذه العظمة .

ثم يقول الحق سبحانه : { إِنِّي وَجَدتُّ امرأة تَمْلِكُهُمْ }

إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (23)

وقوله { تَمْلِكُهُمْ } [النمل : 23] يعني : تحكمهم امرأة ، ورأينا نساءً كثيرات نابهات حكمْن الدول في وجود الرجال .

ثم يذكر من صفاتها { وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْ } [النمل : 23] وكأنها إشارة إلى ما سبق أنْ قاله سليمان عليه السلام { وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ } [النمل : 16] فهي كذلك أُوتيتْ من كل شيء بالنسبة لأقرانها ، وإلا فسليمان أُوتي من الملْك ومن النبوة ما لم تُؤْتَهُ ملكة سبأ .

{ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ } [النمل : 23] العرش مكان جلوس الملك ، وكان العرش عادةً يتوافق مع عظمة الملك ، فمثلاً (شيخ الغفر) أو العمدة أو المحافظ . . إلخ لكل منهم كرسيٌّ يجلس عليه يناسب مكانته ، إذن : العرش هو جِلْسة المتمكّن الذي يتولّى تَدبير الأمور .

ووصْف العرش بأنه عظيم مع أن هذا الوصف لعرش الله تعالى ، فكيف؟ قالوا : عظيم بالنسبة لأمثالها من الملوك ، أمّا عرْش الله فعظيم بالنسبة لكل الخَلْق عظمةً مُطْلقة .

هكذا حدَّث الهدهُد سليمانَ فيما يخصُّ ملكة سبأ من حيث الملك الذي تشبه فيه سليمان كملك ، ثم يُحدِّثه بعد ذلك عن مسألة تتعلق بالنبوة والإيمان بالله ، وهذه المسألة التي غار عليها سليمان ، وثار من أجلها : { وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ }

وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (24)

ذلك لأنه لما طاف حول قصر بلقيس وجد فيه كُوَّة تدخل منها الشمس ، كما نرى في معابد الفراعنة ، ففي أحد هذه المعابد طاقات بعدد أيام السنة ، بحيث تدخل الشمس في كل يوم من واحدة بعينها لا تدخل من الأخرى . وكذلك كان عند بلقيس مثل هذه الكُوَّة تدخل منها الشمس فتتنبه لها وتستقبلها .

لذلك لما ذهب إليها بكتاب سليمان وقف على هذه الكُوَّة وسدَّها بجناحه ، فلم تدخل الشمس في موعدها كما اعتادت الملكة ، فقامت حتى وصلتْ إلى هذه الكُوَّة فرمى عندها الكتاب .

فالهدهد إذن مؤمن عارف بقضية العقيدة والإيمان بالله يَغَار عليها ويستنكر مخالفتها { وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ الله } [النمل : 24] فهو يعرف أن الله هو المعبود بحقٍّ ، بل ويعلم أيضاً قضية الشيطان ، وأنه سبب الانصراف عن عبادة الله .

{ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشيطان أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السبيل فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ } [النمل : 24] فالقضية عنده كاملة بكل تفاصيلها ، ولا تتعجب من مقالة الهدهد واقرأ : { وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ولكن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ } [الإسراء : 44] .

إنها موعظة بليغة من واعظ مُتمكِّن يفهم عن الله ، ويعلم منهجه ويدعو إليه ، بل ويعزّ عليه ويحزّ في نفسه أن ينصرف العباد عن الله المنْعِم : { أَلاَّ يَسْجُدُواْ لِلَّهِ }

أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (25)

{ أَلاَّ } [النمل : 25] مكوَّنة من أنْ ، لا ، وعند إدغامهما تُقلَبُ النون لاَماً فتصير : ألاَّ ، فالمعنى : وزيَّن لهم الشيطان أعمالهم ، لماذا؟ لألاَّ يسجدوا ، فهنا حرف جر محذوف كما تقول : عجبتُ من أن يَقْدم علينا فلان ، أو عجبت أن يقدم علينا فلان .

وفي قراءة أخرى : (ألاَ) للحثِّ والحضِّ .

وقلنا : إنه اختار هذه الصفة بالذات { الذي يُخْرِجُ الخبء فِي السماوات والأرض } [النمل : 25] لأنه خبير في هذه المسألة ، حيث يرى الماء في باطن الأرض ، كما يرى أحدكم الزيت في إنائه .

والمراد بالخبْء في السموات : المطر ، والخبْء في الأرض . النبات ، ومنهما تأتي مُقوِّمات الحياة ، فمن ماء المطر وخصوبة الأرض يأتي النبات ، وعلى النبات يتغذَّى الحيوان ، ويتغذّى الإنسان .

بل إن الحق سبحانه { وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ } [النمل : 25] ، كما قال في آية أخرى : { وَمَا يخفى عَلَى الله مِن شَيْءٍ فَي الأرض وَلاَ فِي السمآء } [إبراهيم : 38] ، وفي آية أخرى يقول سبحانه : { قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ الله } [آل عمران : 29] .

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (26)

لما تكلّم عن عرش بلقيس قال { وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ } [النمل : 23] يعني : بالنسبة لأمثالها من الملوك ولأهل زمانها . فإذا عُرِّف { العرش العظيم } [النمل : 26] فإنه لا ينصرف إلا إلى عرشه تعالى ، فله العظمة المطلقة عند كل الخَلْق .

قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (27)

{ قَالَ سَنَنظُرُ } [النمل : 27] والنظر محلُّه العين ، لكن هل يُعرف الصدق والكذب بالعين؟ لا ، فالكلمة انتقلت من النظر بالعين إلى العلم بالحجة ، فهي بمعنى نعلم ، ونقول : هذا الأمر فيه نظر يعني : يحتاج إلى دراسة وتمحيص .

وفي الآية مظهر من مظاهر أدب سليمان عليه السلام وتلطُّفه مع رعيته ، فهو السيد المطاع ، ومع ذلك يقول للهدهد : { أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الكاذبين } [النمل : 27] والصِّدْق يقابله

الكذب ، لكن سليمان عليه السلام يأبى عليه أدب النبوة أن يتهم أحد جنوده بالكذب فقال : { أَمْ كُنتَ مِنَ الكاذبين } [النمل : 27] .

يعني : حتى لو وقع منك الكذب فلست فذّاً فيه ، فكثير من الخَلْق يكذبون ، أو : من الكاذبين مَيْلاً لهم وقُرْباً منهم ، مما يدلُّ على أنه بإلهاماته كنبي يعرف أنه صادق ، إنما ما دام الأمر محلَّ نظر فلا بُدَّ أن نتأكد ، ولن أجامل جندياً من جنودي .

اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (28)

هذا هو النظر الذي ارتآه سليمان ليتأكد من صِدْق الهدهد : أنْ يرسله بكتاب منه إلى هؤلاء القوم ، وهنا مظهر من مظاهر الإيجاز البليغ في القرآن الكريم ، فبعد أن قال سليمان { سَنَنظُرُ } [النمل : 27] قال { اذهب بِّكِتَابِي هذا } [النمل : 28] .

فهل كان الكتاب مُعَدّاً وجاهزاً؟ لا ، إنما التقدير : قال سننظر أصدقتَ أم كنت من الكاذبين ، فكتب إليها كتاباً فيه كذا وكذا ثم قال للهدهد : { اذهب بِّكِتَابِي هذا } [النمل : 28] وقد حُذِف هذا للعلم به من سياق القصة .

وقوله : { ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ } [النمل : 28] يعني : ابتعِدْ قليلاً ، وحاول أنْ تعرف { مَاذَا يَرْجِعُونَ } [النمل : 28] يعني : يراجع بعضهم بعضاً ، ويتناقشون فيما في الكتاب ، ومن ذلك قوله تعالى : { أَفَلاَ يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلاَ يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً } [طه : 89] .

والسياق يقتضي أن نقول : فذهب الهدهد بالكتاب ، وألقاه عند بلقيس فقرأتْه واستشارتْ فيه أتباعها وخاصتها ، ثم قالت : { قَالَتْ يأيها الملأ }

قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (29)

نلحظ هنا سرعة جواب الأمر { اذهب } [النمل : 28] فبعده مباشرة قالت ملكة سبأ : { قَالَتْ يأيها الملأ إني أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ } [النمل : 29] وهذا يدل على أن أوامر سليمان كانت محوطة بالتنفيذ العاجل؛ لذلك حذف السياق كل التفاصيل بين الأمر { اذهب } [النمل : 28] والجواب { قَالَتْ } [النمل : 29] هكذا على وجه السرعة .

ومعنى { الملأ } [النمل : 29] هم أعيان القوم وأشرافهم والمستشارون والخاصة { إني أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ } [النمل : 29] فوصفتْ الكتاب بأنه كريم إما لأنها سمعتْ عن سليمان عليه السلام وعظمة مُلْكه ، أو : لأن الكتاب سُطِّر على ورق رَاقٍ وبخط جميل ، وبعد ذلك هو ممهور بخاتمه الرسمي ، مما يدل على أنه كتاب هام ينبغي دراسته وأَخذْ الرأي فيه .

إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (30)

إذن : فهي تعرف سليمان ، وتعرف نُبوّته وصفاته ، وأنه يكاتبهم باسْم الله ويَصْدُر في دعوتهم عن أوامر الله ، وكان مجمل الكتاب بعد بسم الله الرحمن الرحيم : { أَلاَّ تَعْلُواْ عَلَيَّ وَأْتُونِي }

أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (31)

إنها برقية موجزة في أبلغ ما يكون الإيجاز { أَلاَّ تَعْلُواْ عَلَيَّ } [النمل : 31] العلو هنا بمعنى الغطرسة والزَّهو الذي يعتاده الملوك خاصة ، وهي مِثْله ، ملكة لها عَرْش عظيم ، وأُوتيتْ من كل شيء وكونه يخاطبها بهذه اللهجة المختصرة البعيدة عن النقاش والجدال ، هذا أمر يحتاج منها إلى نظر وإلى أَنَاةٍ .

لذلك بعد أن اخبرتْ مستشاريها بأمر الكتاب ، وما ورد فيه طلبتْ منهم الرأي والمشورة : { قَالَتْ ياأيها الملأ }

قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ (32)

سبق أن تكلمنا في معنى الفتوى ، وأنها من الفُتوة أي : القوة ، وهي مثل : غَنِيَ فلان أي : صار غنياً بذاته ، وأغناه غيره أمدَّه بالغنى ، كذلك أفتاه يعني : أعطاه قوة في الحكم والحجة .

وقالت : { في أَمْرِي } [النمل : 32] مع أن الأمر خاصٌّ بالدولة كلها ، لا بها وحدها؛ لأنها رمز للدولة وللملْك ، وإنْ تعرض لها سليمان فسوف يُخدش مُلْكها أولاً ، ويُنال من هيبتها قبل رعيتها .

{ مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْراً حتى تَشْهَدُونِ } [النمل : 32] يعني : لا أَبُتُّ في أمر إلا في حضوركم ، وبعد استشارتكم . وهذا يدل على أنها كانت تأخذ بمبدأ الشورى رغم ما كان لها من الملْك والسيطرة والهيمنة .

فردّ عليها الملأ من قومها : { قَالُواْ نَحْنُ أُوْلُو قُوَّةٍ }

قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (33)

يعني : نحن أصحاب قوة في أجسامنا ، وأصحاب شجاعة وبأس أي جيوش فيها عَدَد وعُدة { والأمر إِلَيْكِ } [النمل : 33] أي : إنْ رأيتِ الحرب ، فنحن على أُهْبة الاستعداد ، فهم يعرضون عليها رأيهم دون أنْ يُلزموها به ، فهو رَأْي سياسي لا رأي حربي ، فهي صاحبة قرار الحرب إنْ أرادتْ { فانظري مَاذَا تَأْمُرِينَ } [النمل : 33] يعني : نحن على استعداد للسِّلْم

وللحرب ، وننتظر أمرك .

ثم يقول الحق سبحانه : { قَالَتْ إِنَّ الملوك }

قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (34)

وتعرض بلقيس رأيها { إِنَّ الملوك إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا } [النمل : 34] ، ذلك لأهم يريدون مُلْكاً ، فينهبون كل ما يمرُّون به بل ويُخربون ويفسدون لماذا؟ لأهم ساعةَ يصل الملِك المغير لا يضمن النصر؛ لذلك يُخرِّب كل شيء ، حتى إذا ما عرف أنه انتصر ، وأن الأمور قد استقرتْ له يحافظ على الأشياء ولا يُخربها .

{ وجعلوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً } [النمل : 34] لأن الملْك يقوم على أنقاض مُلْك قديم ، فيكون أصحاب العزة والسيادة هم أول مَنْ يُبدأ بهم؛ لأن الأمر أُخِذ من أيديهم ، وسوف يسعَوْن لاستعادته ، ولا بُدَّ أنْ يكون عندهم غَيْظ ولَدَد في الخصومة .

أما قوله تعالى : { وكذلك يَفْعَلُونَ } [النمل : 34] فللعلماء فيه كلام : قالوا إنه من كلام بلقيس ، وكأنه تذييل لكلامها السابق ، لكن ماذا يضيف { وكذلك يَفْعَلُونَ } [النمل : 34] بعد أن قالت { إِنَّ الملوك إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وجعلوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً } [النمل : 34]
.

فالرأي الصواب أن هذه العبارة من الحق سبحانه وتعالى ليُصدِّق على كلامها ، وأنها أصابت في رأيها ، فكذلك يفعل الملوك إذا دخلوا قرية ، مما يدل على أن الحق سبحانه رب الخلْق أجمعين ، إذا سمع من عبد من عبيده كلمة حق يؤيده فيها ، لا يتعصب ضده ، ولا يهضمه حقه .

وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (35)

بعد أنْ ترك لها المستشارون الأمر والتدبير أخذتْ تُعمِل عقلها ، وتستخدم فطنتها وخبرتها بحياة الملوك ، فقالت : إنْ كان سليمان مَلِكاً فسوف يطمع في خيرنا ، وإنْ كان نبياً فلن يهتم بشيء منه ، فقررتْ أنْ تُرسل له هدية تناسب مكانته كملك ومكانتها هي أيضاً ، لتثبت له أنها على جانب كبير من الثراء والغنى .

ولا بد أنها كانت ثمينة لتستميل الملك ، أو كما نقول (تلوحه أو تلويه) .

{ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ المرسلون } [النمل : 35] فإنْ كان ملكاً قَبِلها ، وعرفنا أن علاجه في بعض الخراج والأموال تُسَاق إليه كل عام ، وإنْ كان نبياً فلن يقبل منها شيئاً ، وهذا رَأْي جميل من بلقيس يدل على فِطْنتها وذكائها وحصافتها ، حيث جنَّبتْ قومها ويلات الحرب والمواجهة .

فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (36)

أي : فلما جاء رسول بلقيس إلى سليمان بالهدية { قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ آتَانِيَ الله خَيْرٌ مِّمَّآ آتَاكُمْ } [النمل : 36] فأيُّ هدية هذه ، وأنا أملك مُلْكاً لا ينبغي لأحد من بعدي؟ { بَلْ } [النمل : 36] يعني : اضرب عن الكلام السابق { أَنتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ } [النمل : 36] .

أضاف الهدية إليهم ، لا إليه هو ، والإضافة تأتي إما بمعنى اللام مثل : قلم زيد يعني لزيد ، أو : بمعنى من مثل : إردب قمح يعني : من قمح ، أو : بمعنى في مثل : مكر الليلَ يعني : في الليل . فقوله { بِهَدِيَّتِكُمْ } [النمل : 36] إما أن يكون المراد : هدية لكم . أي : فأنتم تفرحون إنْ جاءتكم هدية من أحد ، أو لأنني سأردُّها إليكم فتفرحوا بردِّها كمَنْ يقول (بركة يا جامع) أو : هدية منكم . أي : أنكم تفرحون إنْ أهديتم لي هدية فقبلتُها منكم .
فهذه معانٍ ثلاثة لقوله : { بَلْ أَنتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ } [النمل : 36] .

ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (37)

نذكر أن الملكة قالت { فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ المرسلون } [النمل : 35] فكأنه يستشعر نصَّ ما قالت ، وينطق عن إشراقات النبوة فيه ، فيقول : { ارجع إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُمْ بِهَا } [النمل : 37] .
وهكذا دخلتْ المسألة في طَوْر المواجهة؛ لأن كلامنا كلامُ النبوة التي لا تقبل المساومة ، لا كلام الملك الذي يسعى لحطام الدنيا .
{ وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ } [النمل : 37] وكأنه يكشف لهم عن قَوْل ملكتهم : { إِنَّ الملوك إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وجعلوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً } [النمل : 34] وهذه أيضاً من إشراقات النبوة .
ومعنى { لاَّ قِبَلَ لَهُمْ بِهَا } [النمل : 37] تقول : لا قِبَل لي بكذا . يعني : لا أستطيع مقابلته ، وأنا أضعف من أنْ أقابله ، أَوْ لا طاقة لي به { وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً } [النمل : 37] لأنه سيسلب مُلْكهم ، فبعد أنْ كانوا ملوكاً صاروا عبيداً ، ثم يزيد في حِدّته عليهم { وَهُمْ صَاغِرُونَ } [النمل : 37] لأنهم قد يقبلون حالة العبودية وعيشة الرعية ، فزاد { وَهُمْ صَاغِرُونَ } [النمل : 37] لأن الصَّغَار لا يكون إلا بالقَتْل والأَسْر .
ثم يقول الحق سبحانه : { قَالَ ياأيها الملأ }

قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (38)

الملأ : أشراف القوم وسادتهم وأصحاب الرأي فيهم { أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ } [النمل : 38] هنا أيضاً مظهر من إشراقات النبوة عند سليمان ، فهو يعلم ما سيحدث عندهم حينما تعود إليهم هديتهم ، وأنهم سيسارعون إلى الإسلام ، فردُّ الهدية يعني أننا أصحاب كلمة ورسالة ومبدأ ندافع عنه لا أصحاب مصلحة .

ولما علم أنهم سيأتون مسلمين طلب من جنوده أنْ يأتوه بعرشها ، وحدَّد زمن الإتيان بهذا العرش { قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ } [النمل : 38] .

إذن : لا بُدَّ من الذهاب إلى مملكة سبأ وفكِّ العرش ، وحَمْله إلى مملكة سليمان ، ثم إعادة تركيبه عنده ، وهذه مهمة بالطبع فوق قدرة البشر؛ لذلك لم يتكلم منهم أحد ، حتى الجن العادي لم يعرض على سليمان استعداده للقيام بهذه المهمة : { قَالَ عِفْرِيتٌ مِّن الجن }

قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (39)

والجن في القدرة والمهارة مثل الإنس ، منهم القوى الماهر ، ومنهم العَيِيّ الذي لا يجيد شيئاً .

نقول (لبخة) وكلمة عفريت من تعفير التراب ، وكانوا حينما يتسابقون في العَدْو بالخيل أو غيرها ، فمَنْ يسبق منهم يُثير الغبار في وجه الآخر فيُعطلّه عن السَّبْق . فقالوا : عفريت يعني عفَّر من وراءه . أو : المعنى أنه يُعفِّر وجه مَنْ عارضه بالتراب فسُمِّي عفريتاً .

إذن : فالعفريت هو الخبيث الماكر من الجنّ ، وصاحب القوة الخارقة فيهم ، وهو الذي تعرَّض لهذه المهمة ، وقال { أَنَاْ آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ } [النمل : 39] .

وهذا كلام مُجْمل؛ لأن مقام سليمان بين رعيته للحكم أو للمدارسة سوف يستغرق وقتاً : ساعة أو ساعتين مثلاً ، وقد تعهَّد العفريت أنْ يأتي بالعرش في هذا الوقت يعني : لن يُؤخِّره إلى جلسة أخرى .

وقوله : { وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ } [النمل : 39] يدل على أن هذا العفريت يعلم فخامة هذا العرش وضخامته ، وأنه شيء نفيس يستحق الاعتناء به ، خاصة في عملية نقله؛ لذلك قال من ناحية كبره وضخامته « فأنا عليه قوي » قادر على حَمْله ، ومن ناحية نفاسته وفخامته ، فأنا عليه أمين لن أُبدِّد منه شيئاً .

ثم تكلّم آخر لم يُحدِّده القرآن إلا بالوصف : { قَالَ الذي عِندَهُ عِلْمٌ }

قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (40)

الطرف : الجِفْن الأعلى للعين .

تكلم العلماء في هذه الآية : أولاً : قالوا { الكتاب } [النمل : 40] يُراد به اللوح المحفوظ ، يُعلم الله تعالى بعض خَلْقه أسراراً من اللوح المحفوظ ، أما الذي عنده علم من الكتاب فقالوا : هو آصف بن برخيا ، وكان رجلاً صالحاً أطلعه الله على أسرار الكون .

وقال آخرون : بل هو سليمان عليه السلام ، لما قال له العفريت { أَنَاْ آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ } [النمل : 39] قال هو : { أَنَاْ آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ } [النمل : 40] لأنه لو كان شخصاً آخر لكان له تفوُّق على سليمان في معرفة الكتاب .

لكن رَدُّوا عليهم بأن من عظمة سليمان أنْ يعلمَ أحد رعيته هذا العلم ، فمَنْ عنده علم من الكتاب بحيث يأتي بالعرش قبل طَرْفة عين هو خادم في مملكة سليمان ومُسخر له ، كما أن المزايا لا تقتضي الأفضلية ، وليس شَرْطاً في المِلك أنْ يعرف كل شيء ، وإلا لَقُلْنا للمِلك : تَعَال أصلح لنا دورة المياه .

أما نحن فنميل إلى أنه سليمان عليه السلام .

وفَرْق كبير في القدرات بين مَنْ يأتي بالعرش قبل أن يقوم الملك من مجلسه ، وبين مَنْ يأتي به في طَرْفة عين ، ونَقْل العرش من مملكة بلقيس إلى مملكة سليمان يحتاج إلى وقت وإلى قوة .

والزمن يتناسب مع القوة تناسباً عكسياً : فكلما زادت القوة قَلَّ الزمن ، فمثلاً حين تُكلِّف الطفل الصغير بنقل شيء من مكانه إلى مكان ما ، فإنه يذهب إليه ببُطْء ويحمله ببُطء حتى يضعه في مكانه ، أما الرجل فبيده وفي سرعة ينقله ، وهذه المسألة نلاحظها في وسائل المواصلات ، ففرْق بين السفر بالسيارة ، والسفر بالطائرة ، والسفر بالصاروخ مثلاً .

وهذه تكلّمنا عنها في قصة « الإسراء والمعراج » فقد أُسْرِي برسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه السرعة؛ لأن الله تعالى أَسْرى به ، ونقله من مكان إلى مكان؛ لذلك جاءت الرحلة في سرعة فوق تصوُّر البشر .

وما دام الزمن يتناسب مع القوة ، فلا تنسب الحدث إلى رسول الله ، إنما إلى الله ، إلى قوة القوى التي لا تحتاج إلى زمن أصلاً ، فإنْ قلتَ : فلماذا استغرقتْ الرحلة ليلةً وأخذت وقتاً؟ نقول : لأنه صلى الله عليه وسلم مرَّ بأشياء ، ورأى أشياء ، وقال ، وسأل ، وسمع ، فهو الذي شغل هذا الوقت ، أمّا الإسراء نفسه فلا زمنَ له .

لذلك قبل أن يخبرنا الحق تبارك وتعالى بهذه الحادثة العجيبة قال : { سُبْحَانَ الذي أسرى بِعَبْدِهِ } [الإسراء : 1] أي : نزِّهه عن مشابهة غيره ، كذلك مسألة نَقْل العرش في طرْفة عين لا بُدَّ أن مَنْ فعلها فعلها بعون من الله وبعلم أطلعه الله عليه ، فنقله بكُنْ التي لا تحتاج وقتاً ولا قوة ، وما دام الأمر بإرادة الله وقوته وإلهامه فلا نقول إلا : آمين .

وفي قوله للجن : { أَنَاْ آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ } [النمل : 40] تحدٍّ لعفريت الجن ، حتى لا يظن أنه أقوى من الإنسان ، فإنْ أراد الله منحني من القوة ما أتفوّق عليك به ، بل وأُسخِّرك بها لخدمتي .

ومن ذلك قوله سبحانه عن تسخير الجن : { يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كالجواب وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ } [سبأ : 13] .

وليعلموا أنهم جهلاء ، ظلُّوا يعملون لسليمان وهو ميت ومُتكيء على عصاه أمامهم ، وهم مرعوبون خائفون منه .

والتحدي قد يكون بالعُلُوِّ ، وقد يكون بالدُّنُو ،كالذي قال لصاحبه : أنا دارس باريس دراسة دقيقة ، وأستطيع أنْ أركب معك السيارة وأقول لك : أين نحن منها ، وأمام أيّ محل ، وأنا مُغْمض العينين ، فقال الآخر : وأنا أستطيع أن أخبرك بذلك بدون أن أُغمِض عَيْنيّ .

وقوله : { فَلَمَّا رَآهُ } [النمل : 40] أي : العرش { مُسْتَقِرّاً عِندَهُ قَالَ هذا مِن فَضْلِ رَبِّي } [النمل : 40] إما لأنه أقدره على الإتيان به بنفسه ، أو سخّر له مَنْ عنده علم من الكتاب ، فأتاه به ، فهذه أو ذلك فضل من الله .

{ ليبلوني } [النمل : 40] يختبرني { أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ } [النمل : 40] يعني : أشكر الله فأُوفَّق في هذا الاختبار؟ أم أكفر بنعمة الله فأخفق فيه؟ لأن الاختبار إنما يكون بنتيجته .

والشكر بأن ينسب النعمة إلى المنعم وألاَّ يلهيه جمال النعمة عن جلال واهبها ومُسْديها ، فيقول مثلاً : إنما أوتيته على علم عندي .

وقوله : { وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ } [النمل : 40] أي : أن الله تعالى لا يزيده شُكْرنا شيئاً ، فله سبحانه وتعالى صفات الكمال المطلق قبل أنْ يشكره أحد ، فمَنْ يشكر فإنما يعود عليه ، وهو ثمرة شُكْره .

{ وَمَن كَفَرَ } [النمل : 40] يعني : جحد النعمة ولم يشكر المنعم { فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ } [النمل : 40] أي : عن شكره { كَرِيمٌ } [النمل : 40] أي يعطي عبده رغم ما كان منه من جحود وكفر بالنعمة؛ لأن نعمه تعالى كثيرة لا تُعَدُّ ، وهذا من حِلمه تعالى ورأفته بخَلْقه .

لذلك لما نتأمل قوله تعالى : { وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ الله لاَ تُحْصُوهَا } [إبراهيم : 34] وقد تكررت هذه العبارة بنصِّها في آيتين من كتاب الله ، مما جعل البعض يرى فيها تكراراً لا فائدة منه ، لكن لو نظرنا إلى عَجُز كل منهما لوجدناه مختلفاً .

فالأولى تُختتم بقوله تعالى : { إِنَّ الإنسان لَظَلُومٌ كَفَّارٌ } [إبراهيم : 34] و الأخرى : { إِنَّ الله لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ } [النحل : 18] .

إذن : فهما متكاملتان ، لكلٍّ منهما معناها الخاص ، فالأولى تبين ظلم الإنسان حين يكفر بنعمة الله عليه ويجحدها ، وتضيف الأخرى أن الله تعالى مع ذلك غفور لعبده رحيم به .

كما نلحظ في الآية : { وَإِن تَعُدُّواْ } [إبراهيم : 34] استخدم (إنْ) الدالة على الشك؛ لأن أحداً لا يجرؤ على عَدِّ نِعَم الله في الكون ، فهي فوق الحصر؛ لذلك لم يُقْدِم على هذه المسألة أحد ، مع أنهم بوسائلهم الحديثة أحصُوا كل شيء إلا نعم الله لم يتصَدَّ لأحصائها أحد في معهد أو جامعة ممن تخصصت في الإحصاء .

وهذا دليل على أنها مقطوع بالعجز عنها ، كما لم نجد مثلاً مَنْ تصدّى لإحصاء عدد الرمل في الصحراء . كما نقف عند قوله سبحانه : { نِعْمَتَ الله } [إبراهيم : 34] ولم يقُلْ : نِعَم الله ، فالعجز عن الإحصاء أمام نعمة واحدة؛ لأن تحتها نِعَم كثيرة لو تتبعتها لوجدتها فوق الحصر .

ثم لما جاءته بلقيس أراد أن يُجري لها اختبارَ عقلٍ ، واختبارَ إيمان : { قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا }

قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ (41)

قوله : { نَكِّرُواْ } [النمل : 41] ضده عرِّفوا؛ لأنه جاء بالعرش على هيئته كما كان عندها في سبأ ، ولو رأته على حالته الأولى لقالتْ هو هو ، ولم يظهر له ذكاؤها؛ لذلك قال { نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا } [النمل : 41] يعني : غيّروا بعض معالمه ، ومنه شخص متنكر حين يُغيِّر ملامحه وزيّه حتى لا يعرف مَنْ حوله .

{ نَنظُرْ أتهتدي أَمْ تَكُونُ مِنَ الذين لاَ يَهْتَدُونَ } [النمل : 41] تهتدي إيماناً إلى الإسلام ، أو تهتدي عقلياً إلى الجواب في مسألة العرش .

فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (42)

جاء السؤال بهذه الصيغة { أَهَكَذَا عَرْشُكِ } [النمل : 42] ليُعمِّي عليها أمر العرش ، وليختبر دقة ملاحظتها ، فلو قال لها : أهذا عرشك؟ لكان إيحاءً لها بالجواب إنما { أَهَكَذَا عَرْشُكِ } [النمل : 42] كأنه يقول : ليس هذا عرشك ، فلما نظرتْ إليه اجمالاً عرفتْ أنه عرشها ، فلما رأتْ ما فيه من تغيير وتنكير ظنتْ أنه غيره؛ لذلك اختارتْ جواباً دبلوماسياً يحتمل هذه وهذه ، فقالت { كَأَنَّهُ هُوَ } [النمل : 42] وعندها فهم سليمان أنها على قَدْر كبير من الذكاء والفِطْنة وحصافة الرأي .

وكذلك كلام السَّاسَة والدبلوماسيين تجده كلاماً يصلح لكل الاحتمالات ولأيِّ واقع بعده ، فإذا جاء الأمر على خلاف ما قال لك يسبقك بالقول : ألم أَقُلْ لك كذا وكذا .

ومن ذلك ما قاله معاوية بن أبي سفيان للأحنف بن قيس : يا أحنف لماذا لا تسبّ علياً على المنبر كما يسبّه الناس؟ فقال الأحنف : اعفني يا أمير المؤمنين ، فقال معاوية : عزمتُ عليك إلاَّ فعلْتَ ، فقال : أما وقد عزمت عليَّ فسأصعد المنبر ، ولكني سأقول للناس : إن أمير المؤمنين

معاوية أمرني أنْ ألعنَ علياً ، فقولوا معي : لعنه الله . عندها قال معاوية : لا يا أحنفُ ، لا تقل شيئاً .

لماذا؟ لأن اللعن في هذه الحالة سيعود على مَنْ؟ على معاوية أو عَلَى عَلِيّ؟

وتُحكَى قصة الخيّاط الأعور الذي خاط لأحد الشعراء جُبَّة فجاءت وأحَد الكُمَّيْن أطول من الآخر ، فلم يستطع لبسها ، فلما سألوه عن عدم لُبْس الجبة الجديدة أخبرهم بما حدث من الخياط فقالوا : أُهْجه ، فقال :

قُلْت شِعْراً لَيْس يُدْرَى ... أَمديحٌ أَمْ هِجَاءُ

خَاطَ لِي عَمْروا قُباء ... لَيْتَ عينيه سَوَاءُ

فالكلام يحتمل المعنيين : الدعاء له ، والدعاء عليه . هذا هو الرد الدبلوماسي الذي يهرب به صاحبه من المواجهة .

وكذلك قالتْ بلقيس جواباً دبلوماسياً { كَأَنَّهُ هُوَ } [النمل : 42] أما { وَأُوتِينَا العلم مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ } [النمل : 42] فيحتمل أنْ يكون امتداداً لقوْل بلقيس ، يعني : أوتينا العلم من قبل هذه الحادثة ، وعرفنا أنك نبيّ لما رددتَ إلينا الهدية ، وقلت ما قلت ، فلم نكُنْ في حاجة إلى مثل هذه الحادثة لنعلم نُبوّتك .

ويُحتمل أنها من كلام سليمان عليه السلام .

وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ (43)

المعنى : صدَّها ما فعل سليمان من أحداث ، وما أظهر لها من آيات ، صدَّها عن الكفر الذي أَلِفَتْه { إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ } [النمل : 43] فصدَّها سليمان بما فعل عما كانت تعبد من دون الله .

قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (44)

الصَّرْح : إما أن يكون القصر المشيد الفخم ، وإما أن يكون البهو الكبير الذي يجلس فيه الملوك مثل : إيوان كسرى مثلاً ، فلما دخلتْ { حَسِبَتْهُ لُجَّةً } [النمل : 44] ظنَّته ماءً ، والإنسان إذا رأى أمامه ماءً أو بَلَلاً يرفع ثيابه بعملية آلية قَسْرية حتى لا يصيبه البَلَل؛ لذلك كشفتْ بلقيس عن ساقيها يعني : رفعتْ ذَيْل ثوبها .

وهنا نبهها سليمان { إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوارِيرَ } [النمل : 44] يعني : ادخلي لا تخافي بللاً ، فهذا ليس لُجةَ ماء ، إنما صَرْح ممرد من قوارير يعني : مبنيٌّ من الزجاج والبللور أو الكريستال ،

بحيث يتموج الماء من تحته بما فيه من أسماك .
{ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي } [النمل : 44] بالكفر أولاً ، وبظنِّ السوء في سليمان ، وأنه يريد أنْ يُغرقني في لجة الماء { وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ العالمين } [النمل : 44] ويبدو أنها لم تنطق بكلمة الإسلام صريحة إلا هذه المرة ، وأن القول السابق { وَكُنَّا مُسْلِمِينَ } [النمل : 42] كان من كلام سليمان عليه السلام .
وقولها { وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ } [النمل : 44] مثل قول سَحرة فرعون لما رأوا المعجزة : { آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وموسى } [طه : 70] لأن الإيمان إنما يكون بالله والرسول دال على الله ، لذلك قالت : { وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ } [النمل : 44] ولم تقُلْ : أسلمتُ لسليمان ، نعم لقد دانتْ له ، واقتنعتْ بنبوته ، لكن كبرياء الملك فيها جعلها لا تخضع له ، وتعلن إسلامها لله مع سليمان؛ لأنه السبب في ذلك ، وكأنها تقول له : لا تظن أنِّي أسلمتُ لك ، إنما أسلمتُ معك ، إذن : أنا وأنت سواء ، لا يتعالى أحد منا على الآخر ، فكلانا عبد لله .
وقد دخل هذه القصة بعض الإسرائيليات ، منها أن سليمان عليه السلام جعل الصرح على هذه الصورة لتكشف بلقيس عن ساقيها؛ لأنه بلغه أنها مُشْعِرة الساقين ، وإلى غير هذا من الافتراءات التي لا تليق بمقام النبوة .
ثم يأتي بنا الحق سبحانه إلى نبي آخر في موكب الأنبياء : { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إلى ثَمُودَ }

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (45)

مرَّتْ بنا قصة نبي الله صالح عليه السلام مع قومه ثمود في سورة الشعراء ، وأُعيد ذكرها هنا؛ لأن القرآن يقصُّ على رسول الله من موكب الأنبياء ما يُثبِّت به فؤاده ، كلّما تعرض لأحداث تُزلزل الفؤاد ، يعطيه الله النَّجْم من القرآن بما يناسب الظروف التي يمرُّ بها ، وهذا ليس تكراراً للأحداث ، إنما توزيع للقطات ، بحيث إذا تجمعتْ تكاملتْ في بناء القصة .
وقوله سبحانه { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إلى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً } [النمل : 45] لا بُدَّ أنه أرسل بشيء ما هو؟ { أَنِ اعبدوا الله } [النمل : 45] لذلك سُمِّيت (أنْ) التفسيرية ، كما في قوله تعالى : { وَأَوْحَيْنَآ إلى أُمِّ موسى } [القصص : 7] ماذا؟ { أَنْ أَرْضِعِيهِ } [القصص : 7] .
وقد يأتي التفسير بجملة ، كما في : { فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشيطان } [طه : 120] بأي شيء؟ { قَالَ ياآدم هَلْ أَدُلُّكَ على شَجَرَةِ الخلد وَمُلْكٍ لاَّ يبلى } [طه : 120] .
فشرح الوسوسة وهي شيء عام بقوله : { قَالَ ياآدم } [طه : 120] فرسالتنا إلى ثمود ملخصها ومؤداها { أَنِ اعبدوا الله } [النمل : 45] .
والعبادة كما ذكرنا أن نطيع الله بفعل ما أمر ، وبترْك ما نهى عنه وزجر ، أما ما لم يرِدْ فيه أمر ولا نَهْي فهو من المباحات إنْ شئتَ فعلتها ، وإنْ شئت تركتها ، وإذا ما استعرضنا حركة الأحياء

والخلفاء في الأرض وجدنا 5% من حركتهم تدخّل فيها الشارع بافعل ولا تفعل ، أما الباقي فهو مُباح .
إذن : فالتكليف منُوط بأشياء يجب أنْ تفعلها؛ لأن فيها صلاحَ مجتمعك ، أو أشياء يجب أن تتركها؛ لأن فيها فساد مجتمعك .
فماذا كانت النتيجة؟
{ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ } [النمل : 45] .
والاختصام أنْ يقف فريق منهم ضد الآخر ، والمراد أن فريقاً منهم عبدوا الله وأطاعوا ، والفريق الآخر عارض وكفر بالله .
وقد وقف عند هذه الآية بعض الذين يحبون أنْ يتهجَّموا على الإسلام وعلى أسلوب القرآن ، وهم يفتقدون الملَكة العربية التي تساعدهم على فَهْم كلام الله ، وإنْ تعلَّموها فنفوسهم غير صافية لاستقبال كلام الله ، وفيهم خُبْث وسُوء نية .
واعتراضهم أن { فَرِيقَانِ } [النمل : 45] مثنى و { يَخْتَصِمُونَ } [النمل : 45] دالة على الجمع ، فلماذا لم يَقُل : يختصمان؟ وهذه لغة القرآن في مواضع عدة .
ومنها قوله تعالى : { وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ المؤمنين اقتتلوا فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا على الأخرى فَقَاتِلُواْ التي تَبْغِي حتى تفياء إلى أَمْرِ الله فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا } [الحجرات : 9] .
والقياس يقتضي أن يقول : اقتتلتا . لكن حين نتدبَّر المعنى نجد أن الطائفة جماعة مقابل جماعة أخرى ، فإنْ حدث قتالٌ حمل كُلٌّ منهم السلاح ، لا أن تتقدم الطائفة بسيف واحد ، فهم في حال القتال جماعة .
لذلك قال (اقتتلوا) بصيغة الجمع ، أما في البداية وعند تقرير القتال فلكُلِّ طائفة منهما رأْي واحد يعبر عنه قائدها ، إذن : فهما في هذه الحالة مثنى .

كما أن الطائفة وإنْ كانت مفردة لفظاً إلا أنها لا تُطلَق إلا على جماعة ، فيقف كل واحد من الجماعة بسيفه في مواجهة آخر من الطائفة الأخرى .
وهنا أيضاً { فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ } [النمل : 45] أي : مؤمنون وكافرون { يَخْتَصِمُونَ } [النمل : 45] لأن كل فرد في هذه الجماعة يقف في مواجهة فرد من الجماعة الأخرى .
وفي موضع آخر ، شرح لنا الحق تبارك وتعالى هذه المسألة ، فقال سبحانه : { فالذين كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الحميم * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ والجلود * وَلَهُمْ مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ *كُلَّمَآ أرادوا أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ الحريق } [الحج : 1922] .

أما الفريق الآخر : { إِنَّ الله يُدْخِلُ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ * وهدوا إِلَى الطيب مِنَ القول وهدوا إلى صِرَاطِ الحميد } [الحج : 2324] .

فبيَّن لنا الحق سبحانه كل فريق منهما ، وبيَّن مصيره وجزاءه .

ونلحظ هنا { فَإِذَا } [النمل : 45] يسمُّونها الفجائية ، ويُمثِّلون لها بقولهم : خرجتُ فإذا أَسَدٌ بالباب ، والمعنى : أنك فُوجِئْت بشيء لم تكُنْ تتوقعه ، كذلك حدث من الكافرين من قوم ثمود حين قال لهم نبيهم { أَنِ اعبدوا الله } [النمل : 45] لكن يفاجئوننا بأنهم فريقان : مؤمنون وكافرون .

ومنطق العقل والحق والفطرة السليمة يقتضي أنْ يستقبلوا هذا الأمر بالطاعة والتسليم ، ولا يختلفوا فيه هذا الاختلاف : فريق في الجنة وفريق في السعير { إِنَّ الأبرار لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الفجار لَفِي جَحِيمٍ } [الانفطار : 1314] .

وقالوا : إن الله تعالى لا يرسل الرسل إلا على فساد في المجتمع ، الخالق عز وجل خلق في الإنسان النفس اللوامة التي تردُّه إلى رُشْده وتنهاه ، والنفس المطمئنة التي اطمأنتْ بالإيمان ، وأَمنت الله على الحكم في افعل ولا تفعل ، والنفس الأمَّارة بالسوء ، وهَي التي لا تعرف معروفاً ، ولا تنكر مُنْكَراً ، ولا تدعو صاحبها إلا إلى السوء .

والله عزَّ وجلَّ رب ، ومن عادة الرب أنْ يتعهّد المربَّي ليؤدي غايته على الوجه الأكمل ، أرأيتم أباً يُربِّي أبناءه إلا لغاية؟ وما دام هو سبحانه ربي فلا يأمرني إلا لصالحي ، وصالح مجتمعي ، فلا شيء من طاعتنا يعود عليه بالنفع ولا شيء من معاصينا يعود عليه بالضرر؛ لأنه سبحانه خلق الكون كله بصفات الكمال المطلق . إذن : كانت الفطرة السليمة تقتضي استقبال أوامر الله بالقبول والتسليم .

وهذه الخصومة تجمع المؤمنين في جهة؛ لأنهم اتفقوا على الإيمان . والكافرين في جهة؛ لأنهم اتفقوا على الكفر . لكن يمتاز المؤمنون بأن يظل وفاقهم إلى نهاية العمر ، بل وعند لقاء الله تعالى في الجنة؛ لأنهم اتفقوا في الدنيا في خطة العمل وفي الآخرة في غاية الجزاء ، كما يقول تعالى :

{ الأخلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ المتقين } [الزخرف : 67] .

أما الكفار فسوف تقوم بينهم الخصومات يوم القيامة ، ويلعن بعضهم بعضاً ، ويتبرأ بعضهم من بعض ، والقرآن حين يُصوِّر تخاصم أهل النار يقول بعد أنْ ذكر نعيم أهل الجنة :

{ هذا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ المهاد * هذا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ * وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ * هذا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لاَ مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُواْ النار * قَالُواْ بَلْ أَنتُمْ لاَ مَرْحَباً بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ القرار * قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هذا فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِي النار

* وَقَالُواْ مَا لَنَا لاَ نرى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِّنَ الأشرار * أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيّاً أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأبصار * إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النار } [ص : 5564] .

إذن : فالخصومة في الدنيا بين مؤمن وكافر ، أما في الآخرة فبين الكافرين بعضهم البعض ، بين الذين أَضَلُّوا والذي أُضِلُّوا ، بين الذين اتَّبعُوا ، والذي اتُّبِعوا .

قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (46)

لما ذُكِرت قصة ثمود في الشعراء ، لم تذكر شيئاً عن استعجال السيئة ، فما هي السيئة التي استعجلوها وربهم عز وجل يلومهم عليها؟ هي قولهم : { فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين } [الأعراف : 70] .

وعجيب أمْر هؤلاء القوم ، ماذا يفعلون لو نزل بهم؟ قالوا معاً : حينما تأتينا السيئة نستغفر ونتوب يظنون أن الاستغفار والتوبة تُقبل منهم في هذا الوقت .

والحق تبارك وتعالى يقول : { إِنَّمَا التوبة عَلَى الله لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السواء بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فأولئك يَتُوبُ الله عَلَيْهِمْ وَكَانَ الله عَلِيماً حَكِيماً * وَلَيْسَتِ التوبة لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السيئات حتى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الموت قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآن وَلاَ الذين يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أولئك أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً } [النساء : 1718] .

فلماذا تستعجلون السيئة والعذاب ، وكان عليكم أن تستعجلوا الحسنة ، واستعجالكم السيئة يحول بينكم وبين الحسنة؛ لأنها لن تقبل منكم { لَوْلاَ تَسْتَغْفِرُونَ الله لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } [النمل : 46] .

قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (47)

اطيَّر : استعمل الطير ، وهذه عملية كانوا يلجئون إليها عند قضاء مصالحهم أو عند سفرهم مثلاً ، فكان الواحد منهم يُمسك بالطائر ثم يرسله ، فإنْ طار ناحية اليمين تفاءل وأقبل على العمل ، وإنْ طار ناحية الشمال تشاءم ، وامتنع عما هو قادم عليه ، يُسمُّونها السانحات والبارحات .

فالمعنى : تشاءمنا منك ، وممَّنْ اتبعك .

{ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ الله } [النمل : 47] يعني : قضاء مقضيٌّ عليكم ، وليس للطير دَخْل في أقداركم ، وما يجري عليكم من أحكام ، فيكف تأخذون من حركته مُنطلقاً لحركتكم؟ إنما طائركم وما يُقدَّر لكم من عند الله قضاء يقضيه .

وفي آية يس : { قَالُواْ طَائِرُكُم مَّعَكُمْ } [يس : 19] يعني تشاؤمكم هو كفركم الذي تمسكتم به .

لكن ، لماذا جاء التشاؤم هنا ، ونبيهم يدعوهم إلى الله؟ قالوا : لأنه بمجرد أنْ جاءهم عارضوه ، فأصابهم قحْط شديد ، وضنَّتْ عليهم السماء بالمطر فقالوا : هو الذي جَرَّ علينا القَحْط والخراب .

وقوله : { بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ } [النمل : 47] الفتنة : إما بمعنى الاختبار والابتلاء ، وإما بمعنى فتنة الذهب في النار .

وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (48)

وهذه المسألة أيضاً لقطة جديدة من القصة لم تُذكَر في الشعراء ، وهكذا كل القَصَص القرآني لو تدبَّره الإنسان لوجده لقطاتٍ متفرقة ، كلٌّ منها يضيف جديداً ، ويعالج أمراً يناسب النجْم القرآني الذي نزل فيه لتثبيت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والرَّهْط : اسم جمع ، لا واحدَ له من لفظه ، ويدل على العدد من الثلاثة إلى العشرة ، فمعنى { تِسْعَةُ رَهْطٍ } [النمل : 48] كأنهم كانوا قبائل أو أسراً أو فصائل ، قبيلة فلان وقبيلة فلان . . إلخ .

{ يُفْسِدُونَ فِي الأرض } [النمل : 48] فلماذا قال بعدها : { وَلاَ يُصْلِحُونَ } [النمل : 48] ؟ قالوا : لأن الإنسان قد يُفسد في شيء ، ويُصلح في آخر ، كالذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، وهؤلاء عسى الله أنْ يتوبَ عليهم .

أما هؤلاء القوم ، فكانوا أهل فساد مَحْض لا يعرفون الصلاح ، فإنْ رأوْه عمدوا إليه فأفسدوه ، فكأنهم مُصِرُّون على الإفساد ، وللإفساد قوم ينتفعون به ، لذلك يدافعون عنه ويعارضون في سبيله أهل الإصلاح والخير؛ لأنهم يُعطِّلون عليهم هذه المنفعة .

وقلنا : إن صاحب الدين والخلق والمبادىء في أيِّ مصلحة تراه مكروهاً من هذه الفئة التي تنتفع من الفساد ، يهاجمونه ويتتبعونه بالهَمْز واللمز ، يقولون : حنبلي ، وربما يهزأون به . . إلخ؛ لذلك لم يقف في وجه الرسل إلا هذه الطائفة المنتفعة بالفساد .

قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (49)

{ قَالُواْ } [النمل : 49] أي : الرهط { تَقَاسَمُواْ بالله لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ } [النمل : 49] انظر إلى هذه البجاحة وقلة العقل وتفاهة التفكير : إنهم يتعاهدون ويُقسمون بالله أنْ يقتلوا رسول الله ، وهذا دليل غبائهم ، وكأن الحق تبارك وتعالى يجعل لهم منافذ يظهر منها حُمْقهم وقِلّة عقولهم .

ومعنى { لَنُبَيِّتَنَّهُ } [النمل : 49] نُبيّته : نجعله ينام بالليل ، والبيتوتة أن ينقطع الإنسان عن الحركة حالَ نومه ، ثم يعاود الحركة بالاستيقاظ في الصباح ، لكن هؤلاء يريدون أنْ يُبيِّتوه بيتوتة

لا قيامَ منها . والمعنى : نقلته .
فإذا ما جاء أولياء الدم يطالبوننا بدمه { لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ } [النمل : 49] أي : وليّ الدم من عُصْبته ورحمه { مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ } [النمل : 49] أي : ما شهدنا مقتل أهله ، فمن باب أَوْلَى ما شهدنا مقْتله ، ولا نعرف عنه شيئاً .
هذا ما دبره القوم لنبي الله صالح عليه السلام يظنون أن الله يُسْلِم رسوله ، أو يُمكِّنهم من قتله ، فحاكوا هذه المؤامرة ولم يفتهم تجهيز الدفاع عن أنفسهم حين المساءلة ، هذا مكرهم وتدبيرهم .

وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (50)

معنى { وَمَكَرُواْ مَكْراً } [النمل : 50] أي : ما دبّروه لقتل نبي الله ورسوله إليهم { وَمَكَرْنَا مَكْراً } [النمل : 50] وفَرْق بين مكر الله عز وجل { والله خَيْرُ الماكرين } [آل عمران : 54] وبين مكْر الكافرين { وَلاَ يَحِيقُ المكر السيىء إِلاَّ بِأَهْلِهِ } [فاطر : 43] .
إذن : حين تمكر بخير ، فلا يُعَدُّ مكراً ، إنما إبطال لمكْر العدو ، فلا يجوز لك أنْ تتركه يُدبِّر لك ويمكُر بك ، وأنت لا تتحرك؛ لذلك قال تعالى { والله خَيْرُ الماكرين } [الأنفال : 30] لأنهم يمكرون بشرٍّ ، ونحن نمكر لدفع هذا الشر لِنُصْرة رسولنا ، ونجاته من تدبيركم .
والمكْر : مأخوذ من قولهم : شجرة ممكورة ، وهذا في الشجر رفيع السَّاق المتسلق حين تلتفُّ سيقانه وأغصانه ، بعضها على بعض ، فلا تستطيع أن تُميّزها من بعضها ، فكُلٌّ منها ممكور في الآخر مستتر فيه ، وكذلك المكر أن تصنع شيئاً تداريه عن الخصم .
وقوله تعالى : { وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ } [النمل : 50] أي : أنه مكْر محبوك ومحكم ، بحيث لا يدري به الممكور به ، وإلا لا يكون مَكْراً .
وحين نتأمل : { وَلاَ يَحِيقُ المكر السيىء إِلاَّ بِأَهْلِهِ } [فاطر : 43] و { والله خَيْرُ الماكرين } [آل عمران : 54] نعلم أن المكر لا يُمدح ولا يُذَمُّ لذاته ، إنما بالغاية من ورائه ، كما في قوله تعالى عن الظن : { يأيها الذين آمَنُواْ اجتنبوا كَثِيراً مِّنَ الظن } [الحجرات : 12] فالظن منه الخيّر ومنه السيىء .
ونسمع الآن تعبيراً جديداً يعبر عما يدور في المجتمَّع من انتشار المكر وسوء الظن ، يقولون : الصراحة مكر القرن العشرين ، فالذي يمكر بالناس يظن أنهم جميعاً ماكرون فلا يصدق كلامهم ، ويحتاط له حتى إنْ كان صدقاً ، فأصبح المكر وسوء الظن هو القاعدة ، فإنْ صارحتَ الماكر لا يُصدقك ويقول في نفسه : إنه يُعمى عليَّ أو يُضلّلني .

فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (51)

أي : تأمل ما حاق بهم لما مكروا بنبي الله ، واتفقوا على التبييت له وقَتْله ، يُرْوى أنهم لما دخلوا عليه أُلْقي على كل واحد منهم حجر لا يدري من أين أتاه ، فهلكوا جميعاً ، فقد سخَّر الله له ملائكة تولَّتْ حمايته والدفاع عنه .

أو : أن الله تعالى صنع له حيلة خرج بها وذهب إلى حضرموت ، وهناك مات عليه السلام ، فَسُمِّيت حضرموت . وآخرون قالوا : بل ذهبوا ينتظرونه في سفح جبل ، واستتروا خلف صخرة ليُوقِعوا به فسقطت عليهم الصخرة فماتوا جميعاً .

المهم ، أن الله دمرهم بأيِّ وسيلة من هذه { وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ } [المدثر : 31] لقد أرادوا أنْ يقتلوه وأهلَه ، فأهلكهم الله .

فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (52)

قوله تعالى : { فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً } [النمل : 52] دليل على أن الله أهلكهم فلم يُبْقِ منهم أحداً ، وتُركَتْ بيوتهم خاوية بسبب ظلمهم { إِنَّ فِي ذلك لآيَةً } [النمل : 52] عبرة وعظة { لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } [النمل : 52] .

وفي مقابل إهلاك الكافرين : { وَأَنجَيْنَا الذين آمَنُواْ }

وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (53)

فمن آمن واتقى من قوم صالح نجّاه الله عز وجل من العذاب الذي نزل بقومهم قوم ثمود .

انتهى الكلام هنا عن قصة ثمود ، وحين نقارن الأحداث هنا بما ورد في سورة الشعراء نجد أحداثاً جديدة لم تُذكَر هناك ، كما لم يذكر هنا شيئاً عن قصة الناقة التي وردتْ هناك ، مما يدلُّ على تكامل لقطات القصة في السور المختلفة .

ثم يقصُّ علينا طرفاً من قصة نبي آخر ، وهو لوط عليه السلام : { وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ }

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (54)

(لُوطاً) جاءت منصوبة على أنها مفعول به ، والتقدير : أرسلنا لوطاً ، كما قال سبحانه : { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إلى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً أَنِ اعبدوا الله } [النمل : 45] .

وقوله تعالى : { إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الفاحشة وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ } [النمل : 54] فذكر الداء الذي استشرى فيهم . وفي سورة الشعراء قال سبحانه { أَتَأْتُونَ الفاحشة مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن العالمين } [الأعراف : 80] وهنا قال : { وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ } [النمل : 54] أي : تتعالمون بها وتتجاهرون بها ، فدلَّ على أنهم أجمعوا عليها وارتضوْها ، وأنه لم يَعُدْ عندهم حياء من

ممارستها .

أو : يكون المعنى : وأنتم تبصرون ما حَلَّ بأصحاب الفساد قبلكم من أقضية الله عليهم .

أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (55)

هذا بيان وتفصيل للداء وللفاحشة التي انتشرت بينهم ، ومعنى : { بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ } [النمل : 55] الآية في ظاهرها أنها تتعارض مع { وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ } [النمل : 54] لكن المعنى { تَجْهَلُونَ } [النمل : 55] الجهل هنا ليس هو ضد العلم ، إنما الجهل بمعنى السَّفه .

والبعض يظن أن الجهل أَلاَّ تعلم ، لا إنما الأمية هي الاَّ تعلم ، أمَّا الجهل فأنْ تعلم قضية مخالفة للواقع؛ لذلك الأميُّ أسهل في الإقناع؛ لأنه خالي الذِّهْن ، أمّا الجاهل فلديه قضية خاطئة ، فيستدعي الأمر أن تنزع منه قضية الباطل ، ثم تُدخِل قضية الحق ، فالجهل إذن أشقُّ على الدعاة من الأمية .

ثم يقول الحق سبحانه : { فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ }

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (56)

عجيبٌ أمر هؤلاء ، فعِلَّة الإخراج عندهم وحيثيته { إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ } [النمل : 56] سبحان الله ، ومتى كان الطُّهْر ذنباً وجريمة تستوجب أنْ يخرج صاحبها من بلدة؟ إنها نغمة نسمعها دائماً من أهل الباطل في كل زمان ومكان حينما يهاجمون أهل الحق ، ويَسْعَوْن لإبعادهم من الساحة لتخلو لباطلهم .

ومن عَدْل الله تعالى أن يظهر في منطقهم دليل إدانتهم وخُبْث طباعهم ، فكلمة { يَتَطَهَّرُونَ } [النمل : 56] التي نطقوا بها تعني : أنهم أنفسهم أنجاسٌ تزعجهم الطهارة ، وما أحلَّ الله من الطيبات ، وكأن الله تعالى يجعل في كلامهم منافذ لإدانتهم ، وليحكموا بها على أنفسهم .

ثم يقول الحق سبحانه : { فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امرأته }

فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ (57)

أي : من المُهْلَكين مع قومها ، فقد كانت تدل قومها على ضيفان لوط؛ ليأتوا إليهم ليفعلوا معهم الفاحشة ، لذلك أصابها من العذاب مثلما أصاب قومها .

وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (58)

أي : قَبُح هذا المطر ، وإنْ أبهم المطر هنا فقد وضَّحه الحق تبارك وتعالى في آيات أخرى فقال : من طين ، ومن سِجّيل ، وهو الطين إذا حُرِق ، فصار فخَّاراً ، وهذه الحجارة منظمة مُسوَّمة صنعها الله لهم بحساب دقيق ، فلكُلِّ واحد منهم حَجَره المسمَّى باسمه ، والذي لا يُخطِئه إلى غيره .

قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (59)

نعرف أن الله تعالى يُحمد على النعمة ، لكن هناك { الحمد لِلَّهِ } [النمل : 59] جاءت بعد نقمة وعذاب وأَخْذ للمكذّبين . قالوا : الخطاب هنا مُوجَّه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيه إشارة إلى أن جُنْد الله هم الغالبون ، وأن العاقبة لهم ليطمئن رسول الله ، كما أن تطهير الكون من المفسدين فيه ، وحين تستريح منهم البلاد والعباد ، هذه نعمة تستوجب { الحمد لِلَّهِ } [النمل : 59] .

وفي أهلاك الكافرين والمكذِّبين عبرة ودرسٌ لغيرهم ، حتى لا يتورطوا في أسباب الهلاك ، وهذه نعمة أخرى تستحق الحمد .

لذلك أمرنا ربنا تبارك وتعالى أن نحمده إنْ رأينا خيراً نزل بالأخيار ، أو شراً حَلَّ بالأشرار .

فالمعنى { قُلِ الحمد لِلَّهِ } [النمل : 59] أن الرسل انتصروا وغلبوا ، وأن المفسدين انهزموا واندحروا .

ألاَ ترى قَوْلَ أهل الجنة : { حتى إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فادخلوها خَالِدِينَ * وَقَالُواْ الحمد لِلَّهِ الذي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأرض نَتَبَوَّأُ مِنَ الجنة حَيْثُ نَشَآءُ } [الزمر : 7374] .

كذلك حين نرى الشرير الذي شاع شرُّه وكثُرَ فساده حين ينزل به ما يستحق من عقاب الله نقول جميعاً ساعةَ نسمع خبره : الحمد لله ، هكذا بعملية لا شعورية عند الجميع أنْ تلهج ألسنتُهم بالحمد عند نزول النعمة على أصحابها ، والنقمة على مَنْ يستحقها .

ويقول تعالى عن أهل الشر والفساد : { وَلَقَدْ أَرْسَلنَآ إلى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بالبأسآء والضرآء لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ * فلولا إِذْ جَآءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ ولكن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشيطان مَا كَانُواّ يَعْمَلُونَ * فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حتى إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أوتوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُّبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ القوم الذين ظَلَمُواْ والحمد لِلَّهِ رَبِّ العالمين } [الأنعام : 4245] .

فبعد أنْ قطع الله دابر الظالمين قال : الحمد لله رب العالمين ، ونلحظ هنا الفرق بين فتح لك ، وفتح عليك؛ فتح لك يعني : فتح في صالحك ، ومنه : { إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً } [الفتح : 1] .

أما فتح عليهم يعني : بالسوء نكايةً فيهم ، فمعنى { فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ } [الأنعام : 44] .

أعطاهم الخير ليهلكهم به ، وهم في حال نعمة ومكانة ، حتى إذا أخذهم الله كان أَخْذه أليماً شديداً .

وفي قصة نوح عليه السلام : { فَإِذَا استويت أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الفلك فَقُلِ الحمد للَّهِ الذي نَجَّانَا مِنَ القوم الظالمين } [المؤمنين : 28] .

فحَمْد الله هنا على أمرين : الحمد لله لأنه أغرق الكافرين الظالمين وخلَّصنا منهم ، والحمد لله لأنه نجَّى المؤمنين .

ثم يقول سبحانه : { وَسَلاَمٌ على عِبَادِهِ الذين اصطفى } [النمل : 59] وهم المؤمنون الذين نصرهم الله ، وجعل العاقبة لهم ، والسلام عليهم بعدها لاقوه من عَنَتِ الكفار وعنادهم ، فالحمد لله الذي أهلك المفسدين ، وأتى بالسلام على المهتدين .

ثم يطرح الحق سبحانه قضية ، ويأتي بها في صورة سؤال واستفهام؛ لتكون أبلغ في النفس من مجرد الإخبار بها : { ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ } [النمل : 59] .

ولو أن الآية قالت : قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى لأن الله خير وما يشركون به شرٌّ لكان الكلامُ خبراً ، والخبر في ذاته وبصرف النظر عن قائله يحتمل الصدق أو الكذب .

أمَّا حين تُعرض هذه القضية في صورة الاستفهام ، فقد جعلتَ مخاطبك هو الذي ينطق بها ، كما لو أنكر أحد الأصدقاء جميلَك وأياديك عليه ، فبدل أن تخبر أنت : فعلتُ لك كذا وكذا تدعْه هو الذي يُخبر فتقول : ألم أفعل لك كذا وكذا؟ ولا يقول هذا إلا واثقٌ ومعتقدٌ أن الإجابة ستكون في صالحه .

فالمعنى : { ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ } [النمل : 59] قولوا لنا أنتم ونحن نرتضي حكمكم بعدما رأيتُم وسمعتم من هذه القصة : آلله خير أم الذين أشركوا به خير؟ ولا بد أن تأتي الإجابة : الله خير؛ لذلك لما نزلت هذه الآية انفعل لها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسرع بالجواب : « بل الله خير وأبقى وأجلُّ وأكرم » .

مما يدل على أن الانفعال بالقرآن واجب ونقصد الانفعال بمعانيه ، لا الانفعال بالصوت والنغمات كالذي نسمعه من هؤلاء (الذكِّيرة) الذي يُشجِّعون المقرئين بالصياح والضجيج الذي لا يتناسب وجلال الآيات ، وهم مع ذلك لا يفهمون المعاني ولا يتأثرون بها ، لدرجة أن منهم مَنْ يسمع آيات العذاب فيقول بأعلى صوته : اللهم زِدْنا .

وقد كان الكتبة من الصحابة ينفعلون بالآيات معنىً ، حتى إن أحدهم ليكمل الآية ويختمها بما يناسبها قبل أن تُمْلَي عليه ، لماذا؟ لأنهم فهموا عن الله وتأثروا بالمعنى ، مما يدل على أن القرآن

جاء موافقاً للفطرة السليمة ، ومن هذا التوافق قول أحد الصحابة { فَتَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الخالقين } [المؤمنين : 14] فنزل بها القرآن كما قالها .

والنبي صلى الله عليه وسلم يقول عن سورة الرحمن « لقد قرأتُ سورة الرحمن على إخوانكم الجن ، فكانوا أحسن استجابة منكم ، فكانوا كلما قلت { فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ } [الرحمن : 13] .

قالوا : لا بشيء من نعمائك ربنا نكذب فلكَ الحمد » .

إذن : حين نسمع كلام الله علينا أن ننفعل به ، وأنْ نتجاوبَ معه تجاوباً واعياً ، فعند آية التسبيح نُسبِّح ، وعند آية الحمد نحمد الله ، وعند آية الدعاء نقول : آمين ، هذه مواجيد انفعالية لسماع القرآن والتجاوب معه ، لا أنْ نسمعه أو نهذه كهذ الشِّعْر .

ثم يقول الحق سبحانه : { أَمَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض }

أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (60)

{ أَمَّنْ } [النمل : 60] هذا استفهام آخر ، وكأن الحق تبارك وتعالى بعد أن كتب الهزيمة على الكافرين والنصر للمؤمنين أراد أنْ يُربِّب في النفس الإيمان بالله ، وأن تأخذ من نصر الله تعالى للمؤمنين خميرة إيمانية ، ومواجيد جديدة تظل شحنة قوية تدفعهم بحيث يكونون هم أنفسهم على استعداد للتصدي لأعداء الدعوة والمناهضين لها .

يقول سبحانه :

{ أَمَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض وَأَنزَلَ لَكُمْ مِّنَ السمآء مَآءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُواْ شَجَرَهَا أإله مَّعَ الله } [النمل : 60] .

إذن : المسألة لا تقف عند معركة انتصر فيها المؤمنين على الكافرين ، فهناك في خلق الله ما هو أعظم من ذلك ، فلو سألتَهم : مَنْ خلق السموات والأرض يقولون : الله ولئن سألتهم : مَنْ خلقهم يقولون : الله ، فهذه مسائل لا يستطيعون إنكارها ، فكأن الحق تبارك وتعالى يقول لهم : آلله خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء . . أم ما تشركون؟

وما دام أن الله تعالى ادَّعى مسألة الخَلْق لنفسه سبحانه ، ولم يَقُمْ لهذه الدعوى منازع ، فقد ثبتتْ له سبحانه إلى أنْ يدَّعيها غيره { أإله مَّعَ الله } [النمل : 60] فإنْ كان هناك إله آخر خلق الخَلْق فأين هو : إما أنه لم يَدْرِ بهذه الدعوى ، أو دَرَى بها وجَبُن عن المواجهة ، وفي كلتا الحالتين لا يصلح إلهاً ، وإلا فليأت هو الآخر بخَلْق ومعجزات أعظم مما رأينا .

فإذا قال الله تعالى أنا الله ، ولا إله غيري ، والخَلْق كله بسمائه وأرضه صنعتي ، ولم يوجد معارض ، فقد ثبتت له القضية؛ لذلك يقول سبحانه : { شَهِدَ الله أَنَّهُ لاَ إله إِلاَّ هُوَ والملائكة وَأُوْلُواْ

العلم } [آل عمران : 18] .
فقضية الوحداينة شهد الله أولاً بها لنفسه ، ثم شهد بها الملائكة أولو العلم من الخَلْق .
ويقول سبحانه في تأكيد هذا المعنى : { قُلْ لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ إلى ذِي العرش سَبِيلاً } [الإسراء : 42] .
أي : لاجتمع هؤلاء الآلهة ، وثاروا على الإله الذي أخذ منهم مُلْكهم ، وادعاه لنفسه ، أو لذهبوا إليه ليتقرَّبوا منه ويتودّدوا إليه .
وقوله تعالى : { وَأَنزَلَ لَكُمْ مِّنَ السمآء مَآءً } [النمل : 60] السماء : كلُّ ما علاك فأظلَّك ، والماء معروف أنه ينزل من السحاب وهو مما علانا ، أو أن الإنزال يعني إرادة الكون ، وإرادة الكون في كل كائن تكون من السماء ، ألاَ ترى قوله تعالى : { لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بالبينات وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الكتاب والميزان لِيَقُومَ الناس بالقسط } [الحديد : 25] .
وقوله تعالى : { وَأَنزَلْنَا الحديد فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ } [الحديد : 25] ومعلوم أن الحديد يأتي من الأرض ، لكن إرادة كونه تأتي من السماء .
ثم يقول سبحانه : { فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ } [النمل : 60] للماء فوائد كثيرة في حياتنا ، بل هو قِوَام الحياة؛ لذلك اقتصرتْ الآية على ذِكْر الحدائق؛ لأنها قوام حياة الإنسان في الأكل والشرب .

فإنْ قُلْتَ : نحن نعتبر الآن الحدائق الجميلة من باب الكماليات ، وليس بها مُقوِّمات حياتنا .
نقول : نعم هي كذلك الآن ، لكن في الماضي كانوا يسمون كل أرض زراعية محوطة بسور : حديقة ، أو حائط .
وقال { ذَاتَ بَهْجَةٍ } [النمل : 60] مع أنك لو نظرتَ إلى القمح مثلاً وهو عَصَب القوت لوجدته أقل جمالاً من الورد والياسمين والفُل مثلاً ، وكأن ربك عز وجل يقول لك : لقد تكفلتُ لك بالكماليات وبالجماليات ، فمن باب أَوْلَى أوفر لك الضروريات .
والحق تبارك وتعالى يريد أن يرتقي بِذَوْق عباده وبمشاعرهم ، واقرأ مثلاً قوله تعالى : { انظروا إلى ثَمَرِهِ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ } [الأنعام : 99] يعني : قبل أن تأكل من هذه الثمار تأمل في جمالها ومنظرها البديع ، وكأنها دعوة للرقي بالذوق العام والتأمل في بديع صُنْع الله .
أَلاَ ترى أن الله تعالى أباح لك النظر إلى كل الثمار لتشاهد جمالها ، ولم يُبح لك الأكل إلاّ مما تملك؟ لذلك قال : { انظروا إلى ثَمَرِهِ } [الأنعام : 99] فإنْ لم تكونوا تملكونه ، فكفاكم التمتُّع بالنظر إليه .
ومن هذا الارتقاء الجمالي قوله تعالى بعد أنْ حدَّثنا عن الضروريات في الأنعام : { وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ } [النحل : 6] .

وقال : { والخيل والبغال والحمير لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً } [النحل : 8] .
فأعطانا ربنا عز وجل ضروريات الحياة ، وأعطانا كمالياتها وجمالياتها . وتأمل دقة الأسلوب في { أَمَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض } [النمل : 60] فالضمير في { خَلَقَ } ضمير الغائب (هو) يعود على الله عز وجل ، وكذلك في (وَأَنزَلَ) أما في (فَأَنْبَتْنَا) فقد عدل عن ضمير الغائب إلى ضمير المتكلم (نحن) الدال على التعظيم ، فلماذا؟
قالوا : لأن نِعَم الله فيها أشياء لا دخْل للإنسان فيها كالخَلْق وإنزال المطر ، ومثل هذه المسائل لا شبهةَ لا شتراك الإنسان فيها ، وهناك أشياء للإنسان دَخْلٌ فيها كالزرع والإنبات ، فهو الذي يحرث ويزرع ويسقي . . الخ مما يُوحِي بأن الإنسان هو الذي يُنبت النبات ، فأراد سبحانه أنْ يُزيل هذا التوهم ، فنسب الإنبات صراحة إليه عز وجل ليزيل هذه الشبهة .
وربك سبحانه وتعالى يحترم فعْلَك ، ويذكر لك سَعْيك ، فيقول : { أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزارعون } [الواقعة : 6364] نعم لك عمل وسعي في هذه المسألة ، لكنك استخدمتَ الأرض المخلوقة لله ، وآلة الحديد المخلوقة لله ، والبذور المخلوقة لله ، والماء المخلوق لله ، أما مسألة الإنبات نفسها فلا دَخْلَ لك بها ، فلا تَقُلْ زرعت؛ لأننها نحن الزارعون حقيقة ، لكن قُلْ : حرثتُ وسقيتُ .
لذلك تجد الرد في آخر الآية نافياً لأيّ شبهة في أن لك دَخْلاً في مسألة الزرع : { لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً } [الواقعة : 65] وأكّد الفعل بلام التوكيد لينفي هذه الشبهة .
على خلاف الكلام عن الماء ، حيث لا شبهة لك فيه ، فيأتي نفس الفعل ، لكن بدون لام التوكيد :

{ أَفَرَأَيْتُمُ المآء الذي تَشْرَبُونَ * أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ المزن أَمْ نَحْنُ المنزلون * لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلاَ تَشْكُرُونَ } [الواقعة : 6870] .
ومعنى : { بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ } [النمل : 60] العدل معلوم أنه صفة مدح فساعةَ تسمع { بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ } [النمل : 60] قد تظن أنها صفة طيبة فيهم ، لكن لا بُدَّ في مثل هذا اللفظ من تدقيق؛ لأنه يحمل معاني كثيرة . نقول : عدلَ في كذا يعني : أنصف ، وعدل إلى كذا يعني : مال إليه ، وعدل عن كذا : يعني : تركه وانصرف عنه ، وعدل بكذا ، يعني : سوَّى .
فالمعنى هنا { يَعْدِلُونَ } [النمل : 60] عنه ، ويا ليتهم يعدلون عنه فحسب ، إنما يعدلون عنه إلى غيره ، ويسوّون به غيره ، كما قال سبحانه في موضع آخر : { الحمد للهِ الذي خَلَقَ السماوات والأرض وَجَعَلَ الظلمات والنور ثُمَّ الذين كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ } [الأنعام : 1] .
أي : يسوُّونه سبحانه بغيره .
ثم يقول الحق سبحانه : { أَمَّن جَعَلَ الأرض }

أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (61)

لما تكلم الحق سبحانه في الآية السابقة عن السموات والأرض أتى بأشياء مشتركة بينهما ، فالسماء ينزل منها الماء ، والأرض تستقبل الماء ، وتنبت لنا الحدائق ذات البهجة .

أما في هذه الآية ، فالكلام عن الأرض ، لذلك ذكر لنا مسائل من خصوصيات الأرض ، { أَمَّن جَعَلَ الأرض قَرَاراً } [النمل : 61] معنى : قراراً أي استقراراً ، حيث خلقها سبحانه على هيئة مريحة تصلح لأنْ يستقرَّ عليها الإنسان .

{ وَجَعَلَ خِلاَلَهَآ أَنْهَاراً } [النمل : 61] الماء ينزل من السماء وينتفع به مَنْ سقط عليه مباشرة ، أما ما ينزل على الجبال فيجتمع في الوديان وتُصنع له السدود لينتفع الناس به عند القحط ، ومن الماء المطر ما ينساب في مجَارٍ تُسمَّى الأنهار .

وتستطيع أنْ تُفرِّق بين النهر والقناة الصناعية ، فالنهر ينساب الماء فيه من أعالي الجبال ، ومن أماكن متفرقة تتبع المنخفضات والسهل من الأرض الذي يستطيع الماء أنْ يشقَّ مجراه فيه فتراه ملتوياً متعرجاً ، يدور حول الجبال أو الصخور ليشقَّ مجراه .

أما القناة الصناعية ، فتراها على هيئة الاستقامة ، إلا إذا اعترض طريق حفرها مثلاً أحد أصحاب النفوذ ، فيحملهم على تغيير المسار والانحراف به ليتفادى المرور بأرضه .

وتستطيع أنْ تلاحظ هذه الظاهرة إذا تبولْتَ في أرض رملية ونظرتَ إلى مجرى البول ، فتراه يسير متعرجاً حسب طبيعة الأرض التي يمرُّ بها .

{ وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ } [النمل : 61] الرواسي : هي الجبال الثابتة الراسية ، وفي موضع آخر بيَّن سبحانه الحكمة من هذه الجبال فقال : { وألقى فِي الأرض رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ } [النحل : 15] .

فالحكمة من خَلْق الجبال تثبيت الأرض حتى لا تضطرب ، ولو أنها خُلِقَتْ على هيئة الثبات والاستقرار لما احتاجتْ إلى الجبال ، إذن : هي مخلوقة على هيئة الحركة ، ولا بُدَّ لها من مُثقِّلات .

ولا تقتصر الحكمة من خَلْق الجبال على تثبيت الأرض ، إنما لها مهمة أخرى في قوله تعالى : { والجبال أَرْسَاهَا * مَتَاعاً لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ } [النازعات : 3233] .

فكيف تكون الجبال متاعاً للإنسان وللحيوان؟

نعم ، هي متاع؛ لأنها مخزن مياه ، حينما ينقطع المطر نجد المياه التي تساقطت على الجبال ، إما في الأنهار ، وإما في الشلالات ، وخلف السدود بين الوديان ، أو في العيون والآبار مما امتصته الأرض .

وكما أن الجبال هي مخازن للمياه ، هي أيضاً مخازن للخصوبة التي تمدُّ الأرض الزراعية عاماً بعد عام بقدر ، بحيث تستمر خصوبة الأرض ، وسبق أنْ تكلمنا عن ظاهرة التعرية التي تُفتِّت الطبقة العليا من الصخور ، فتنزل إلى الوديان مع ماء المطر ، وتختلط بالتربة الزراعية فتزيد من خصوبتها .

ولولا صلابة الجبال وتماسك صخورها لتفتتتْ في عدة سنوات ، ولفقدنا مصدر الخصوبة بعد ذلك ، فهذه الظاهرة من علامات رحمة الله بخَلْقه؛ لأنها تتناسب مع الزيادة السكانية بحيث كلما زاد السكان زادتْ الرقعة الخصبة الصالحة للزراعة .

وسبق أنْ قُلْنا : إنك حين تتأمل وضع الجبال مع الوديان تجد أن الجبل مُثلث قاعدته إلى أسفل ، وقمته إلى أعلى ، أما الوديان فعلى عكس الجبال ، فهي مثلث قاعدته إلى أعلى وقمته إلى أسفل ، وهكذا نرى أن كل زيادة من طَمْى الجبل والغِرْين الذي يتفتت منه يزيد في مساحة الوادي ، فتزداد الرقعة الخصبة كل عام مع زيادة السكان .

لذلك يقول تعالى عن الجبال : { قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بالذي خَلَقَ الأرض فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ العالمين * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا } [فصلت : 910] .

فجعل الجبال الرواسي هي مخازن القوت من طعام وشراب ، ولك أن تتأمل نيل مصر وواديه ، كيف تكوَّن من الطمي الذي حملتْه المياه من أعالي الجبال في إفريقيا ، ليُكوِّن هذه المنطقة الخِصْبة في مصر .

ثم يقول سبحانه : { وَجَعَلَ بَيْنَ البحرين حَاجِزاً } [النمل : 61] .

البحرين : أي العَذْب والمالح لأن الماء : منه العَذْب ، ومنه المالح ، ومن قدرته تعالى وحكمته أنْ يحجز بينهما ، وإنْ كان الماء المالح هو مصدر الماء العَذْب ، لذلك جعل الله تعالى مساحة السطح للماء ثلاثة أرباع الكرة الأرضية ، وكلما اتسع سطح الماء اتسع البَخْر الذي يكوِّن السحاب ، بحيث يسقط المطر الكافي لمعيشة أهل الأرض .

وما أجملَ قول الشاعر المادح :

أهدى لمجلسه الكريم وإنَّما ... أهدى لَهُ مَا حُزْتَ مَن نَعْمائِهِ

كَالبَحْرِ يُمطِرهُ السَّحابُ ومَا لَه ... فَضْلٌ عليْه لأنَّه مِنْ مَائِهِ

ولكي تعلم فضل الله علينا في إنزال المطر وتوفير الماء العَذْب ، انظر إلى التكلفة والمشقة التي تعانيها لتقطير عدة سنتميترات من الماء ، في حين أنك لا تدري بعملية التقطير الواسعة التي تسقي البلاد والعباد في كل أنحاء الدنيا .

وقد مثَّلْنا لمسألة اتساع رقعة البَخْر بكوب الماء إذا أرقْتَه على الأرض ، فإنه يجفُّ في عدة دقائق

، أمّا لو تركت الماء في الكوب لعدة أيام ، فإنه لا ينقص منه إلا القليل .
ومن الماء العَذْب ما سلكه الله تعالى ينابيع في الأرض ليخرجه الإنسان إذا أعوزه الماء على السطح ، أو سلكه ينابيع في الأرض بمعنى أن يسير العَذْب بجوار المالح ، لا يختلط أحدهما بالآخر مع ما عُرِف عن الماء من خاصية الاستطراق .
وهذه من عجائب قدرة الله الخالق ، فمِنْ قَعْر البحر المالح تخرج عيون الماء العَذْب؛ لأن لكل منهما طريقاً ومسلكاً وشعيرات يسير فيها بحيث لا يبغي أحدهما على الآخر ،كما قال تعالى : { مَرَجَ البحرين يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ } [الرحمن : **1920**] .
وكما أن الماء العَذْب يتسرب إلى باطن الأرض ليكوِّن الآبار والعيون ، فكذلك الماء المالح يتسرب في باطن الأرض ليكوِّن من تفاعلاته الأحجار الكريمة ،كالمرمر ، والمعادن كالحديد والمنجنيز والجرانيت . . الخ .
وبعد أن ذكر لنا هذه الآيات الخاصة بالأرض جاء بهذا الاستفهام

{ أإله مَّعَ الله } [النمل : **60**] يعني خلق هذه الأشياء { بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ } [النمل : **61**] والذين لا يعلمون أعلمناهم ، وقطعنا حُجَّتهم بعدم العلم .
ولو نظرنا إلى الأرض لوجدنا فيها آيات أخرى غير أنها مُستقرٌ وسَكَنٌ ، فالأرض كثيفة ، وفيها غبرة ليست صافية البياض؛ ذلك لأن الله تعالى يريد لها أنْ تستقبل حرارة الشمس وضوءها ليستفيد منها النبات ، ولو أن الأرض كانت شفافة تعكس الضوء والحرارة لما استفاد منها النبات؛ لذلك نجد بعض المشروعات تنمو في الصيف ، وأخرى في الشتاء .
ولما أجرَوْا بعض التجارب على النبات ، فوضعوه في مكان مظلم ، ثم جعلوا ثُقْباً في ناحية بحيث يدخل الضوء وجدوا أن النَّبْتة بما أودع الخالق فيها من غريزة تتجه ناحية الضوء لتأخذ حظها من النور والدفء ، فسبحان الذي خلق فسوّى ، والذي قدَّر فهدى .
ومن آيات الله في خَلْق الأرض أنْ جعلها على هيئة الحركة والدوران ، لتأخذ كل مناطقها حظها من الحرارة ومن البرودة ، ويتنوع فيها المناخ بين صيف وشتاء ، وخريف وربيع ، إنها أدوار تتطلبها مُقوّمات الحياة .
لذلك تجد علماء النبات يُقسِّمون المناطق الزراعية على الأرض يقولون : هذا حزام القمح مثلاً ، وهذا حزام الموز ، وهذا حزام البطاطس ، فتجد كل حزام منها يصلح لنوع خاص من المزروعات يناسب سكان هذه المنطقة وبيئتها وجوّها .
لذلك نجد أن كل نوع من المزروعات في مكانه المناسب لا تصيبه الآفات ، أمّا حين يُنقل إلى مكان غير مكانه ، وبيئة غير بيئته لا بُدَّ أنْ يُصاب .
وفي الأرض خاصية أخرى تتعلق بالإنسان تعلقاً مباشراً ، فمن خصائص الأرض وهي من الطين

الذي خُلِق منه الإنسان ، فهي في الحقيقة أمه الأولى فإذا مات لا يسعه إلا أحضان أمه حين يتخلى عنه أقرب الناس إليه ، وألصق الناس به ، عندها تستقبله الأم وتحتويه وتستر عليه كُلَّ ما يسوؤه .

ومن خصائص الأرض أنها تمتص فضلات الإنسان والحيوان ومخلَّفاته وتُحوِّلها بقدرة الله إلى مُخصِّب تزدهر به المزروعات ، ويزيد به المحصول ، وفي الريف يحملون رَوَثَ الحيوانات ذا الرائحة الكريهة إلى الحقول ، فإذا به ينبت فيه الوردة الجميلة الذكية التي يتشوَّق الإنسان لرائحتها .

إنها عجائب في الخَلْق ، لا يقدر عليها إلا الله عز وجل ، أتذكرون المثل الذي يقول : (فلان يعمل من الفسيخ شربات) هكذا قدرة الله التي تخلق الأضداد .

ألاَ تروْن أن أفضل الفاكهة نأكلها الآن من الجبل الأصفر بمصر وهي تُروى بماء المجاري .

وبعد أنْ حدَّثنا الحق تبارك وتعالى عن هذه المظاهر العامة التي يحتاجها كل الخلق في السماء والأرض والجبال والمطر . . الخ يُحدِّثنا سبحانه عن مسائل خاصة يحتاجها إنسان دون آخر ، وفي وقت دون آخر ، فيقول سبحانه : { أَمَّن يُجِيبُ المضطر }

أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (62)

(يجيب) الإجابة هي تحقيق المطلوب لداعية ، والمضطر : هو الذي استنفد الأسباب ، وأخذ بها فلم تُجْدِ معه ، فليس أمامه إلا أنْ يترك الأسباب إلى المسبِّب سبحانه فيلجأ إليه؛ ذلك لأن الخالق عز وجل قبل أنْ يخلق الإنسان خلق له مُقوِّمات حياته وضرورياتها وسخَّرها لخدمته .

لذلك جاء في الحديث القدسي : « يا ابن آدم خلقت الأشياء كلها من أجلك ، وخلقتك من أجلي فلا تنشغل بما هو لك عما أنت له » .

ثم خلق الله لك الطاقة التي تستطيع أن تُسخِّر بها هذه الأشياء وضمن لك القوت الضروري من ماء ونبات ، فإنْ أردتَ أنْ تُرفِّه حياتك فتحرك في الحياة بالأسباب المخلوقة لله ، وبالطاقة الفاعلة فيك ، وفكِّر كيف ترتقي وتُثرِي حركة الحياة من حولك .

فالماء الذي ينساب في داخل البيت حين تفتح الصنبور ، والضوء الذي ينبعث بمجرد أن تضغط على زر الكهرباء ، والسيارة التي تنقلك في بضع دقائق . . كلها ارتقاءات في حركة حياة الناس لما أعملوا عقولهم فيما أعطاهم الله من مادة وعقل وفكر وأسباب ، وهذه كلها يد الله الممدودة لعباده ، والتي لا ينبغي لنا ردّها .

فإذا ما حاولتَ ولم تفلح ، ولم تثمر معك الأسباب ، فعليك أنْ تلجأ مباشرة إلى المسبِّب سبحانه ، لأنه خالقك والمتكفِّل بك .

واقرأ قوله تعالى : { وَإِذَا مَسَّ الإنسان الضر دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً } [يونس : 12]

ويا ليته ساعةَ دعا ربه ولجأ إليه فاستجاب له يجعل له عند ربه رَجْعة ، ويتوقع أنْ يصيبه الضُّر مرة أخرى؛ لكن إنْ كشف الله عنه سرعان ما يعود كما كان .

{ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كذلك زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } [يونس : 12] .

{ أَمَّن يُجِيبُ المضطر } [النمل : 62] فالمضطر إذن لا بدَّ أنْ يُجيبه الله ، فمَنْ قال : دعوتُ فلم يُستجب لي . فاعلم أنه غير مضطر ، فليست كل ضائقة تمرُّ بالعبد تُعَدُّ من قبيل الاضطرار ، كالذي يدعو الله أن يسكن في مسكن أفضل مما هو فيه ، أو براتب ودَخْل أوفر مما يأخذه . . الخ ، كلها مسائل لا اضطرارَ فيها ، وربما علم الله أنها الأفضل لك ، ولو زادك عن هذا القدر طغيتَ وتكبرتَ .

كما قال الحق سبحانه وتعالى : {كَلاَّ إِنَّ الإنسان ليطغى * أَن رَّآهُ استغنى } [العلق : 67] .

فلقد طلبتَ الخير من وجهة نظرك ، وربُّك يعلم أنه لا خيرَ فيه { وَيَدْعُ الإنسان بالشر دُعَآءَهُ بالخير وَكَانَ الإنسان عَجُولاً } [الإسراء : 11] .

فربُّك يُصحِّح لك هذا الخطأ في فهمك للمسائل فيقول لك : سأحقق لك الخير ، لكن بطريقة أخرى أنسب من هذه ، فلو أجبتُك إلى ما تريد لحدث مَا لا تُحمد عقباه ، وكأن الله عز وجل وهو ربُّنا والمتولِّي أمرنا يجعل على دعائنا (كنترول) ولو كان الله سبحانه موظفاً يلبي لكل مِنّا طلبه ما استحق أن يكون إلهاً حاشا لله .

فالإنسان من طبيعته العجلة والتسرع ، فلا بُدَّ للرب أن يتدخل في أقدار عبده بما يصلحه ، وأنْ يختار له ما يناسبه؛ لأنه سبحانه الأعلم بعواقب الأشياء وبوقتها المناسب ، ولكل شيء عنده تعالى موعد وميلاد .

واقرأ قول الله تعالى : { وَلَوْ يُعَجِّلُ الله لِلنَّاسِ الشر استعجالهم بالخير لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ } [يونس : 11] .

أَلاَ ترى بعض الأمهات تحب الواحدة ولدها وتشفق عليه ، فإنْ عصاها في شيء أو ضايقها تقول رافعةً يديها إلى السماء (إلهي أشرب نارك) أو (إلهي أعمى ولا أشوفك) فكيف لو أجاب الله هذه الحمقاء؟

إذن : من رحمته تعالى بنا أنْ يختار لنا ما يُصلِحنا من الدعاء ، ويُعافينا من الحمق والعجلة .

وقوله تعالى : { وَيَكْشِفُ السواء } [النمل : 62] فكما أنه لا يجيب المضطر إلا الله لا يكشف السوء إلا الله ، ولو كان هناك إله آخر يجيب المضطر ويكشف السوء لتوجَّه الناسُ إليه بالدعاء ، لكن حينما يُصاب المرء لا يقول إلا يا رب ، ولا يجد غير الله يلجأ إليه لأنه لن يغشَّ نفسه في حال الضائقة أو المصيبة التي ألمت به .

وقد مثَّلنا لذلك ولله المثل الأعلى بحلاق الصحة في الماضي ، وكان يقوم بعمل الطبيب الآن ، فلما أنشئت كلية الطب وتخرَّج فيها أحد أبناء القرية اتجهتْ الأنظار إليه ، فكان الحلاق يذمُّ في الطب والأطباء ، وأنهم لا خبرةَ لديهم لتبقى له مكانته بين أهل القرية ، لكن لما مرض ابن الحلاق ماذا فعل؟ إنْ غشَّ الناس فلن يغشَّ نفسه : أخذ الولد في ظلام الليل ولفّه في البطانية ، وذهب به إلى (الدكتور) الجديد .

لذلك يقول كل مضطر وكل مَنْ أصابه سوء : يا رب يا رب حتى غير المؤمن لا بُدَّ أن يقولها ، ولا بُدَّ أنْ يتجه بعينه وقلبه إلى السماء إلى الإله الحق ، فالوقت جِدّ لا مساومة فيه .

ويقول تعالى بعدها : { وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ الأرض } [النمل : 62] أي : يخلفُ بعضكم بعضاً فيها ، كما قال : { لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأرض كَمَا استخلف الذين مِن قَبْلِهِمْ } [النور : 55] .

فهل يملك هذه المسائل إلا الله : { أإله مَّعَ الله } [النمل : 62] والاستفهام هنا ينكر وجودَ إله غير الله يفعل هذا { قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ } [النمل : 62] يعني : لو تفكرتُم وتذكرتُم لعرفتم أنه لا إله إلا الله .

ثم يقول الحق سبحانه : { أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ البر }

أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (63)

هذه أيضاً من الأمور الخاصة التي تخصُّ بعض الناس دون بعض ، وكانت قبل تقدُّم العلم ، حيث كانت النجوم هي العلامات التي يهتدي بها الملاحون في البحر والمسافرون في البر { وَعَلامَاتٍ وبالنجم هُمْ يَهْتَدُونَ } [النحل : 16] .

وقد برع في علوم الفلك والنجوم وفي علوم البحار علماء من العرب وضَعُوا أُسساً لهذه العلوم ، لا عن علم عندهم ، إنما عن مشاهدة لظواهر الكون ، وتوفيق وهداية من الله عز وجل .

وحين نتأمل ارتقاءات الإنسان في الحياة نجد أنها نتيجة مشاهدة حدثتْ صدفة ، أو حتى بطريق الخطأ ، وإلا فكيف اهتدى الإنسان إلى تخمير العجين ليخرج الخبز على هذه الصورة وبهذا الطعم؟ لذلك يُسمُّون العجين : فطير وهو المبلط الذي لم يتخمر ، وخمير وهو الذي تخمَّر وارتفع قليلاً وتخلّله الهواء .

وقد نقلوا هذه المعنى للرأي ، يقولون : فلان رأيه فطير يعني : سطحي متعجل ، وفكرة مختمرة يعني : مدروسة بتأنٍّ ، ومنه الفِطْرة يعني الشيء حين يكون على طبيعته .

وربما اكتشفتْ إحدى النساء مسألة الخمير هذه نتيجة خطأ أو مصادفة حين عجنتْ العجين ، وتأخرت في خَبْزه حتى خمر ، فلما خبزته جاء على هذه الصورة المحببة إلينا ، كذلك الأمر في اكتشاف البنسلين مثلاً ، والغواصات والبخار والعجلة . . الخ .

وتأمل مثلاً : لماذا نطبخ الملوخية ولا نطبخ النعناع ، إنها إذن هداية الله الذي خلق فسوَّى ، والذي قدَّر فهدى .

الحديد تعلمنا طَرْقه بعد إدخاله النار ليلين؛ لأن الله تعالى علمها لنبيه داود عليه السلام حين قال { وَأَلَنَّا لَهُ الحديد } [سبأ : 10] .

إذن : كثير من اكتشافات الكون وارتقاءاته تأتي بهداية الله ، وكلما مرَّ الزمن تكشفتْ لنا أسرار الكون ، كلٌ في ميعاده وميلاده الذي أراده الله ، إما أنْ يستنطبه الناس بمقدمات إذا جاء ميلاده ، وإلا فيأتي ولو مصادفة .

واقرأ إن شئت قوله تعالى : { وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَآءَ } [البقرة : 255] فحين يشاء الله يكشف لك الأشياء ، ويُيسر لك أسبابها ، فإذا لم تنتبه لها أراكها مصادفة ، ومن وسائل إعلام الله لخَلْقه مثلاً أهل البوادي ، ترى الواحد منهم متكئاً ينظر إلى السماء ويقول لك : السماء ستمطر بعدكم من الساعات ، وليس في السماء سحاب ولا غَيْمٌ يدل على المطر ، لكنه عرفها بالاستقراء والتجربة .

ومن هذه الهداية الإلهية أن ترى البهائم العجماوات وهي تأكل بالغريزة ، تأكل الحشيش الجاف ، ولا تأكل مثلاً النعناع الأخضر ، أو الريحان من أن رائحته جميلة ، لماذا؟

لأنه جُعِل للرائحة الطيبة ، لكن طعمه غير طيب ، وإذا أكل الحيوان وشبع لا يمكن أن يأكل بعدها أبداً على خلاف الإنسان الذي يأكل حتى التخمة ، ثم الحلو والبارد والساخن ، ويقولون (أَرِهَا الألوان تريك الأركان) . أي : أَرِ معدتك ألوان الطعام وأصنافه ، تريك الأركان الخالية فيها .

لذلك تجد رائحة رَوَث الحيوان أقلّ كراهية من رائحة فضلات الإنسان؛ لأنها تأكل بالغريزة التي خلقها الله فيها ، ونحن نأكل بالشهوة ، وبلا نظام نلتزم به .

وقوله تعالى : { وَمَن يُرْسِلُ الرياح بُشْرَاً } [النمل : 63] اي : مُبشِّرات بالمطر { بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ } [النمل : 63] والمطر مظهر من مظاهر رحمة الله { أإله مَّعَ الله } [النمل : 63] أي : لا إله إلا الله يهديكم في ظلمات البر والبحر ، ولا إله إلا الله يرسل الرياح تبشركم بالمطر { تَعَالَى الله عَمَّا يُشْرِكُونَ } [النمل : 63] تنزَّه أن يكون له في كَوْنه شريك .

ثم يقول الحق سبحانه : { أَمَّن يَبْدَأُ الخلق }

أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (64)

مسألة الخَلْق هذه لا يستطيعون إنكارها ، وقد سألهم الله { وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ الله } [الزخرف : 87] .

وفي موضع آخر : { وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض لَيَقُولُنَّ الله } [لقمان : 25] .

لأنهم لا يملَكون إنكارها ، وإنْ أنكروها فالردّ جاهز : على مَنْ خلق أولاً أن يُرينا شيئاً جديداً من خَلْقه .

ومعنى { يَبْدَأُ الخلق } [النمل : 64] يعني : الخلْق الأول من العدم { ثُمَّ يُعيدُهُ } [النمل : 64] لأن الذي خلقنا من عدم كتب علينا الموت ، وأخبرنا بالغيب أننا سنُبعث يوم القيامة ، وسيعاد هذا الخَلْق مرة أخرى ، فالذين لم يملكوا إنكار الخلق أنكروا البعث ، فقالوا كما حكى القرآن :

{ ق والقرآن المجيد * بَلْ عجبوا أَن جَآءَهُمْ مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الكافرون هذا شَيْءٌ عَجِيبٌ * أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ } [ق : 13] .

فاستبعدوا البعث بعد الموت ، وتحلّل الأجساد في التراب . وهذه القضية خَاضَ فيها الفلاسفة بكلام طويل ، وللردِّ عليهم نقول : أنتم في القوانين الوضعية تجعلون الثواب لمن أحسن ، والعقوبة لمن قصَّر ، وتُجرِّمون بعض الأعمال بعينها ، وتضعون لها العقوبة المناسبة ، وفي القانون : لا عقوبةَ إلا بتجريم ، ولا تجريمَ إلا بنصٍّ ، ولا نصَّ إلا بإعلام .

ولم نَرَ في القانون الوضعي جريمة تُرِكت بلا عقوبة ، فإذا كان البشر يضعون لمجتمعاتهم هذه القوانين التي تنظم حياتهم ، أليس رب البشر أَوْلَى بقانون الثواب والعقاب؟ وإذا كنتَ لا ترضي لنفسك أنْ يفلتَ المجرم من العقاب ، فكيف ترضى ذلك لله؟

ثم ألا تعلم أن كثيراً من المجرمين يرتكبون جرائمهم في غفلة من القانون ، أو يُعمُّون على العدالة ويهربون من العقاب ، ويُفلِتون من القوانين الوضعية في الدنيا ، ولو تركنا هؤلاء بلا عقاب أيضاً في الآخرة فهم إذن الفائزون ، وسوف نشجع بذلك كل منحرف خارج عن القانون .

أما إنْ علم أن له رباً قيوماً عليه ، وإنْ عمَّى على قضاء الأرض فلن يُعمِّي على قضاء السماء ، وإنْ أفلتَ من عقاب الدنيا فلن يُفلِتَ أبداً من عقاب الآخرة إنْ علم ذلك استقام .

لكن ، ما وجه استبعادهم للبعث { ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ } [ق : 3] .

يقولون : هَبْ إن إنساناً مات ودُفِن وتحلّل جسده إلى عناصر امتصتها الأرض ، ثم غُرِسَت شجرة في هذا المكان وتغذْت على هذه العناصر ، وأكل من ثمارها عدة أشخاص ، وانتقلت جزئيات الميت إلى الثمار ثم إلى من أكل منها ، فحين يُبعث الخَلْق يوم القيامة فلأيِّهما تكون هذه الجزئيات : للأول أم للثاني؟ إذا بعثتها للأول كانت نقصاً في الثاني ، وإنْ بعثتها للثاني كانت نقصاً في الأول .

وهذا الكلام منهم على سبيل أن الشخص مادة فقط ، لكن التشخيصات مادة ومعنى . وهَبْ

أن شخصاً بديناً يزن مثلاً مائة كيلو أصابه مرض أهزله حتى قَلَّ وزنه إلى خمسين كيلو مثلاً ، ثم عُولِج وتحسنت صحته حتى عاد كحالته الأولى .

فهل الجزئيات التي نقصت من وزنه هي نفسها التي دخلتْ فيه بالصحة والتغذية؟ بالطبع لا ، أتغيرتْ شخصيته بهذا النقص ، أو بهذه الزيادة؟ لا ، بل هو هو .

إذن : للشخص جزئيات مختلفة التكوين ، وله معنى وروح ، ساعةَ تتجمع هذه الأشياء يأتي الشخص المراد .

لذلك يقول تعالى رداً على هؤلاء المتفلسفين : { قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأرض مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ } [ق : 4] .

فلماذا تستبعدون الإعادة بعد الموت وقد أقررتُم بالخَلْق الأول واعترفتم بأن الله هو الخالق ، وأليست الإعادة من موجود أهونَ من الخَلْق بدايةً من العدم؟ ثم إن الإعادة تحتاج إلى قدرة على الإبراز وإلى علم .

أما العلم ، فالحق تبارك وتعالى يقول : { قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأرض مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ } [ق : 4] يعني : يعلم وزنك ، ويعلم جزئياتك ، لا يغيب منها ذرة واحدة .

أما القدرة ، فقد آمنتُم بها حين أقررتُم بقدرته تعالى على الخَلْق من عدم ، والإعادة أهون من الإنشاء الأول { وَهُوَ الذي يَبْدَؤُاْ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ } [الروم : 27] .

وإنْ كان الخالق عز وجل لا يُقَال في حقه هيِّن وأهْون ، لكنها بعُرْفكم أنتم ، وبما يُقرِّب المسألة إلى أذهانكم .

وفي القدرة أيضاً يقول الحق سبحانه وتعالى : { أَفَعَيِينَا بالخلق الأول } [ق : 15] .

ثم يقول سبحانه : { وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السمآء والأرض } [النمل : 64] .

الرزق : كلُّ ما يُنتفع به ، وهو إما من السماء وإما من الأرض ، وإما من التقائهما حين ينزل الماء من السماء ، ويختلط بتربة الأرض فيخرج النبات .

{ أإله مَّعَ الله } [النمل : 64] يكرر نفس الاستفهام السابق لتأكيد أنه لا إله إلا الله يأتيكم بهذه النعم .

{ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ } [النمل : 64] أي : هاتوا الدليل على وجود إله آخر يقول : أنا الذي بدأتُ الخَلْق ، وأنا الذي أرزق من السماء والأرض ، فإذا لم يأْتِ مَنْ يقول هذا فقد ثبتتْ الدعوة لصاحبها حيث لم يَقُم معارضَ ودَعْك من مسألة الإعادة هذه ، يكفي أن يدعي الخَلْق؛ لأن القادر على الخَلْق قادر على الإعادة ، فلا يستحيل على الذي خلق من أنْ يُعيد من موجود .

لكن ، ما مناسبة الكلام عن الرزق من السماء والأرض بعد مسألة الإعادة؟ لا بُدَّ أن تكون

هناك علاقة بينهما ، فللرزق الذي يأتي عن طريق التقاء ماء السماء بتربة الأرض وهو النبات دورة مثل دورة الإنسان وإعادة كإعادته ، حيث يتغذى الإنسان على نبات الأرض ، ويأخذ منه حاجته من الطاقة والغذاء ، وما تبقى منه يخرج على صورة فضلات تتحلل في الأرض ، حتى ما تبقَّى منها في جسم الإنسان يتحلل بعد موته إلى عناصر الأرض .

فالوردة مثلاً بعد نضارتها وطراوتها وجمالها حيث تُقطف تجفّ ويتبخر ماؤها ، وكذلك اللون والرائحة في الأثير الجوي ، وما تبقى منها من مادة جافة تتحلل في التربة ، فإذا ما زرعنا وردة أخرى ، فإنها تتغذى على ما في التربة من عناصر ، ما في الأثير الجوي من لون ورائحة .

إذن : فعناصر التكوين في الكون لم تَزِدْ ولم تنقص منذ خلق الله الخَلْق ، ولدورة النبات في الطبيعة بدء ونهاية وإعادة أشبه ما تكون بخَلْق الإنسان ، ثم موته ، ثم إعادته يوم القيامة .

وكأن الحق تبارك وتعالى يعطينا الدليل على الإعادة بما نراه من دورة النبات ، دليلاً بما نراه على الغيب الذي لا نراه .

ثم يقول الحق سبحانه : { قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السماوات }

قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (65)

كما قال الحق سبحانه وتعالى : { وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغيب لاَ يَعْلَمُهَآ إِلاَّ هُوَ } [الأنعام : 59] .

والغيب : كلّ ما غاب عن إدراكك وحِسِّك ، لكن مرة يكون الغيب غيباً إضافياً يغيب عنك ، ولا يغيب عن غيرك ، فأنا لا أعرف مثلاً ما في جيوبكم لكن أنتم تعرفون ، والذي سُرِق منه شيء وأخفاه السارق ، فالمسروق منه لا يعلم أين هو ، لكن السارق يعلم .

وإما يكون الغيب غيْباً مطلقاً ، وهو ما غاب عنّا جميعاً وهو قسمان : قسم يغيب عنا جميعاً ، لكن قد نكتشفه ككل الاكتشافات التي اهتدى إليها البشر . وهذه يكون لها مقدمات تُوصِّل إليها ، وهذا غيب نصف إضافي؛ لأنه غيب اليوم لكن نراه مشهداً بعد ذلك ، فلا يكون غيباً .

ومثال ذلك : تمرين الهندسة الذي نعطيه للأولاد بمقدّمات ومعطيات ، يُعمِلون فيها عقولهم حتى يتوصلوا إلى الحل المطلوب ، وهذا النوع يقول الله عنه : { وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَآءَ } [البقرة : 255] .

فإذا شاء الله وجاء ميلاد هذا الغيب أطلعهم الله تعالى على المقدمات التي توصِّل إليه ، إما بالبحث ، وإما حتى مصادفة ، وهذا يؤكده قوله تعالى : { سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفاق وفي أَنفُسِهِمْ حتى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحق } [فصلت : 53] .

ومن الغيب المطلق غَيْب حقيقي ، لا يطلع عليه ولا يعلمه إلا الله فقد استقبل سبحانه وتفرَّد بمعرفته ، وهذا الغيب يقول تعالى عنه : { عَالِمُ الغيب فَلاَ يُظْهِرُ على غَيْبِهِ أَحَداً * إِلاَّ مَنِ ارتضى مِن رَّسُولٍ } [الجن : 2627] .

ومن هذا الغيب المطلق قضية القيامة { قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السماوات والأرض الغيب إِلاَّ الله } [النمل : 65] فالقيامة لا يعلم وقتها إلا الله سبحانه ، إلا أنه جعل لها مُقدِّمات وعلامات تدلُّ عليها وتُنبىء بقُرْبها .

قال عنها : { أَكَادُ أُخْفِيهَا } [طه : 15] البعض يظن أن { أُخْفِيهَا } [طه : 15] يعني : أداريها وأسترها ، لكن المعنى ليس كذلك { أُخْفِيهَا } [طه : 15] يعني : أزيل خفاءها ، ففرْق بين خَفي الشيء وأخفاه : خَفَى الشيء عني : ستره وداراه ، أما أخفاه فيعني : أظهره ، وهذه تُسمَّى همزة الإزالة ، مثل : أعجم الشيء يعني : أزال عُجْمته . ومنه المعجم الذي يُوضِّح معاني المفردات .

وكما تكون الإزالة بالهمزة تكون بالتضعيف . نقول : مرض فلان يعني : أصابه المرض ، ومرَّض فلاناً يعني : عالجه وأزال مرضه ، ومنه : قشَّر البرتقالة : يعني أزال قشرها .

فالمعنى { أَكَادُ أُخْفِيهَا } [طه : 15] أي : أكاد أُظهِرها ، ألاَ ترى أن للساعة علامات كبرى وعلامات صغرى ، نرى بعضها الآن ، وتتكشف لنا من الأيام علامة بعد أخرى .

لكن يظل للقيامة وقتها الذي لا يعلمه إلا الله؛ لذلك يقول عنها : { لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلاَّ هُوَ } [الأعراف : 187] .

والنبي صلى الله عليه وسلم يفتخر بأنه لا يعلم موعدها ، فيقول حين سُئِل عنها : « ما المسئول عنها بأعلم من السائل » .

فشَرفٌ لرسول الله ألاَّ يعلم شيئاً استأثر الله بعلمه ، والقيامة غَيْبٌ مطلق لم يُعْطِ الله مفاتحه لأحد حتى الرسل .

وقد يُكرِم الله تعالى بعض خَلْقه ، ويُطلِعه على شيء من الغيب ، ومن ذلك الغيبيات التي أخبر بها النبي صلى الله عليه وسلم دون أن يكون لها مُقدِّمات توصِّل إليها ، فلا بُدَّ أنها أتته في وحي القرآن ، كما في قوله تعالى : { الم * غُلِبَتِ الروم * في أَدْنَى الأرض وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ } [الروم : 14] .

وكان الروم أقرب إلى الله؛ لأنهم أهل كتاب ، وكان الفرس كفاراً يعبدون النار ، لذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته يتمنْون انتصار الروم على الفرس ، فنزل الوحي على رسول الله يخبره { غُلِبَتِ الروم } [الروم : 2] لكنهم في النهاية { سَيَغْلِبُونَ } [الروم : 3] ولولا أن الله تعالى حدد غلبهم { فِي بِضْعِ سِنِينَ } [الروم : 4] لكان انتصارهم دائماً ، لكن مَنْ يستطيع تحديد مصير معركة بين قوتين عُظميين بعد بضع سنين إلا الله؟

ولأن انتصار الروم يُفرِح المؤمنين بالله ، قال سبحانه : { وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المؤمنون * بِنَصْرِ الله } [الروم : 45] .

وتشاء قدرة الله أنْ يأتيَ انتصار الروم على الفرس في نفس اليوم الذي انتصر فيه المؤمنون على الكافرين في بدر .

ومن الغيب الذي يفيض الله به على عبد من عباده ما حدث من الصِّديق أبي بكر رضي الله عنه وقد أعطى ابنته عائشة رضي الله عنها مالاً ، فلما حضرتْه الوفاة قال لها : هاتي ما عندك من المال ، إنما هما أخواك وأختاك : أخواك هما محمد وعبد الرحمن ، وأختاك : لا نعلم أن لعائشة أختاً غير أسماء ، فمن هي الأخرى؟

كان الصِّديق قد تزوج من ابنة خالته وكانت حاملاً ، لكن الحق تبارك وتعالى تجلى عليه وألهمه أنها ستُنجب بنتاً تنضم إلى عائشة وأسماء .

وقوله تعالى : { وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ } [النمل : 65] أي : كما أننا لا نشعر بالموت ولا نعرف ميعاده ، كذلك لا نشعر بالبعث ، ولا متى سنُبعث .

ثم يقول الحق سبحانه : { بَلِ ادارك عِلْمُهُمْ }

بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآَخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ (66)

معنى { ادارك } [النمل : 66] أي : تدارك ، يعني : توالى وتتابع الحديث عنها عند كل الرسل ، ومنه قوله تعالى : { حتى إِذَا اداركوا فِيهَا } [الأعراف : 38] يعني : جُمِع بعضهم على بعض .

إذن : تتابع الإعلام بالآخرة عند كل رسل الله ، فما منهم إلا وقد دعا إلى الإيمان بالله وباليوم الآخر ، وأتى بالدليل عليه .

ومع متابعة التذكير بالآخرة قال الله عنهم { بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا } [النمل : 66] أي : من الآخرة ، فلماذا؟ يقول تعالى : { بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ } [النمل : 66] أي : عميتْ أبصارهم وبصائرهم عنها ، فلم يهتدوا ، ولو تفتحتْ عيونهم وقلوبهم لآمنوا بها .

يقول تعالى : { فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي فِي الصدور } [الحج : 46] .

إذن : هناك شيء موجود بالفعل ، لكني أغفلته ، أو تغافلت عنه بإرادتي ، فآيات البعث والقيامة موجودة ومُتداركة ، لكن الناس عَمُوا عنها فلم يَرَوْها .

ومعنى : { عَمُونَ } [النمل : 66] جمع عَمٍ ، وهو الذي عميتْ بصيرته عن دلائل القيامة الواضحة .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَقَالَ الذين كفروا }

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ (67)

يريدون أنْ يستدلوا بعدم بعث الآباء على عدم بَعْثهم ، لكن مَنْ قال لهم : إن الآخرة ستأتي مع الدنيا ، ما سُمِّيت الآخرة إلا لأنها تأتي آخراً بعد انقضاء الدنيا .
ثم يقول الحق سبحانه : { لَقَدْ وُعِدْنَا هذا }

لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (68)

أي : من لدن آدم عليه السلام والناس يموتون والأنبياء تذكر بهذا اليوم الآخر ، لكنه لم يحدث { إِنْ هاذآ إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأولين } [النمل : 68] أي : كذِب وافتراء ونسج خيال كما في أساطير السابقين ، لكن ما الدافع لهم لأنْ يتهموا الرسل في بلاغهم عن الله هذا الاتهام؟
قالوا : لأن نفس المرء عزيزة عليه ، وكل مُسْرف على نفسه في المعاصي يريد أنْ يؤمِّن نفسه ، وأنْ يريحها ، وليس له راحة إلا إنْ يقول هذا الكلام كذب ، أو يتمنى أن يكون كذباً ، ولو اعترف بالقيامة وبالبعث والحساب فمصيبته عظيمة ، فليس في جُعْبته إلا كفر بالله وعصيان لأوامره ، فكيف إذن يعترف بالعبث؟ فطبيعي أن يؤنس نفسه بتكذيب ما أخبره به الرسول .
لذلك نجد من هؤلاء مَنْ يقول في القدر : إذا كان الله قد كتب عليَّ المعصية ، فلماذا يُعذِّبني بها؟ والمنطق يقتضي أن يكلموا الصورة فيقولون : وإذا كتب عليَّ الطاعة ، فلماذا يثيبني عليها؟ فلماذا ذكرتُم الشر وأغفلتم الخير؟
إذن : هؤلاء يريدون المنفذ الذي ينجون منه ويهربون به من عاقبة أعمالهم .

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (69)

يدعوهم الله تعالى إلى السير في مناكب الأرض للنظر وللتأمل لا فيمن بُعِث لأن البعث لم يأتِ بَعْد ، ولكن للنظر في عاقبة المجرمين الذي كّبوا رسلهم فيما أتَوا به ، وكيف أن هزمهم ودحرهم وكتب النصر للرسل .
والبعث مما جاء به الرسل ، فمَنْ كذَّب الرسل كذَّب بالبعث مع أنه واقع لا شكَّ فيه ، لكن الحق تبارك وتعالى يُخفيه لوقته ، كما قال سبحانه : { لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلاَّ هُوَ } [الأعراف : 187] .
ثم يُسلِّي الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم ليُخفِّف عنه ألم ما يلاقي في سبيل الدعوة ، فيقول تعالى : { وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ }

وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (70)

وقد خاطب الحق سبحانه رسوله بقوله : { فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ على آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بهذا الحديث أَسَفاً } [الكهف : 6] .

والعنى : مُهلِك نفسَك من الحزن ، والبخع كما قلنا : المبالغة في الذبح بحيث توصله إلى البخاع . والحق تبارك وتعالى يوضح أن مهمة الرسول البلاغ عن الله فقط ، ولا عليه آمن مَنْ آمن ، أو كفر مَنْ كفر ، إنما حب النبي صلى الله عليه وسلم لأمته وحِرْصه على نجاتها جعلاه يحزن ويألم إنْ شرد منه واحدٍ من أمته ، ألم يقُلْ عنه ربه : { لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بالمؤمنين رَءُوفٌ رَّحِيمٌ } [التوبة : 128] .

ثم يقول الحق سبحانه عنهم : { وَيَقُولُونَ متى هذا }

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (71)

يقول المكذبون بالبعث { متى هذا الوعد } [النمل : 71] أي : بالبعث { إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ } [النمل : 71] في أن هناك بَعْثاً .

وسمَّوْا إخبار الله لهم بالبعث وَعْداً ، مع أنه في حقهم وعيد ، وفَرْق بين وَعَد وأوعد : وَعَد للخير وأوعد للشر ، لكن الله تعالى يطمس على ألسنتهم ، وهم أهل الفصاحة فيقولون { متى هذا الوعد } [النمل : 71] وهو بالنسبة لهم وعيد ، لأن إيعاد المخالف لك بشرٍّ وَعْد لك بخير .

وكأن الحق تبارك وتعالى يقول : لقد وعدنا بأمرين : وعدنا رسلنا بالتأييد والنصرة ، ووعدنا العالم كله بالبعث ، فإذا كنا صادقين في الأولى وهي مُشاهدة لكم ومُحسَّة فخذوها مقدمة ودليلاً على صِدْقنا في الأخرى ، وقد عاينتُم أن جميع الرسل انتصروا على مُكذِّبيهم ، إما بعذاب الاستئصال ، وإما بعذاب الهزيمة والانكسار .

ثم يقول الحق سبحانه : { قُلْ عسى أَن يَكُونَ }

قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (72)

كلمة { عسى } [النمل : 72] تفيد الرجاء ، لكنها من الله تفيد التحقيق ، فلو قُلْت مثلاً : عسى أن يعطيك فلان ، ، لَكَان الرجاء ضعيفاً ، وأقوى منه لو قُلْت : عسى أن أعطيك لأني لا أملك فلاناً ، لكن أملك نفسي ، وأقوى من ذلك أن أقول : عسى أن يُعطيك الله لأن أسبابي أنا قد لا تمكّني من الوفاء ، أما إنْ قال الله تعالى عسى ، فهي قمة التأكيد والتحقيق في الرجاء ، وهي أعلى مراتبه وأبلغها .

ومعنى { رَدِفَ لَكُم } [النمل : 72] أي : تبعكم وجاء بعدكم من أردفه إذا أركبه خلفه على الدابة ، فهو خلفه مباشرة ، وفعلاً أصابهم ما يستعجلون ، فلم يمرّ طويلاً حتى حاقت بهم الهزيمة

في بدر ، فصدَقْنا في الأولى حين قلنا : { سَيُهْزَمُ الجمع وَيُوَلُّونَ الدبر } [القمر : 45] وقد عاينتُم ذلك ، فخذوه دليلاً على الغَيْب الذي أخبرناكم به .

ثم يقول رب العزة سبحانه : { وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ }

وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (73)

فمن فضله تعالى عليكم أنْ يُؤخِّر القيامة لعل الناس يرعوون ، وإلا لفاجأتهم من أول تكذيب ، وهذا يبين أن الله تعالى يُمهل الخَلْق ليزداد فيهم أهل الهدى والإيمان ، أَلاَ ترى أن المؤمنين برسول الله لم يأتُوا جميعاً مرة واحدة في وقت واحد ، إنما على فترات زمنية واسعة .

لذلك قلنا : إن المسلمين الأوائل كانوا في معاركهم مع الكفر يألمون إنْ فاتهم قَتْل واحد من رؤوس الكفر وقادته مثل عكرمة وعمرو وخالد وغيرهم ، ولو أطلعهم الله على الغيب لَعلِموا أن الله تعالى نجّاهم من أيديهم ليدخرهم فيما بَعْد لنُصْرة الإسلام ، وليكونوا قادة من قادته ، وسيوفاً من سيوفه المشْهَرة في وجوه الكافرين .

وقوله تعالى : { ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ } [النمل : 73] دليل على أن البعض منهم يشكر .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ }

وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (74)

ولك أنْ تقول في هذه الآية : إذا كان الله تعالى يعلم ما تُكنُّ صدورهم وما تخفيه ، فمن باب أَوْلَى يعلم ما يُعلنون ، فلماذا قال بعدها : { وَمَا يُعْلِنُونَ } [النمل : 74] ؟

نقول : لأن ما في الصدور غَيْب والله غَيْب ، وقد يقول قائل : ما دام أن الله غيْب فلا يعلم إلا الغيب . فنردّ عليه بأن الله تعالى يعلم الغيب ويعلم العلن .

وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (75)

معنى { غَآئِبَةٍ } [النمل : 75] يعني : الشيء الغائب ، ولحقتْ به التاء الدالة على المبالغة ، كما نقول في المبالغة : راوٍ ورواية ، ونسَّاب ونسَّابه ، وعالم وعلامة ، كذلك غائب وغائبة ، مبالغة في خفائها .

و (مِنْ) هنا يرى البعض أنها زائدة ، لكن كلمة زائدة لا تليق بأسلوب القرآن الكريم وفصاحته ، ونُنزِّه كلام الله عن الحشو واللغو الذي لا معنى له ، والبعض تأدب مع القرآن فقال (من) هنا صلة ، لكن صلة لأي شيء؟

إذن : لا بد أن لها معنى لكي نوضحه نقول : إذا أردتَ أنْ تنفي وجود مال معك تقول : ما عندي مال ، وهذا يعني أنه لا مالَ معك يُعتَدّ به ، ولا يمنع أن يكون معك مثلاً عدة قروش لا يقال لها مال ، فإن أردتَ نفي المال على سبيل تأصيل العموم في النفس تقول : ما عندي من مال ، يعني بداية ممَّا يُقال له مال مهما صَغُر ، فمِنْ هنا إذن ليست زائدةً ولا صلةً ، إنما هي للغاية وتأصيل العموم في النفي .

فالمعنى { وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي السمآء والأرض إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ } [النمل : 75] أن الله تعالى يحيط علمه أزلاً بكل شيء ، مهما كان صغيراً لا يُعتدُّ به ، واقرأ قوله تعالى :

{ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأرض وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ } [الأنعام : 59] .

كما أن قدرته تعالى لا تقف عند حد العلم إنما ويسجله { إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ } [النمل : 75] أي في أُمّ الكتاب الذي سجَّل الله فيه كل أحداث الكون ، فإذا ما جاءتْ الأحداث نراها مُوافِقة لما سجّله الله عنها أَزَلاً ، فمثلاً لما ذكر الحق تبارك وتعالى وسائل النقلِ والمواصلات في زمن نزول القرآن قال : { والخيل والبغال والحمير لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ } [النحل : 8] .

فلولا تذييل الآية بقوله تعالى : { وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ } [النحل : 8] لكان فيها مأخذ على القرآن ، وإلاَّ فأين السيارة والطائرة والصاروخ في وسائل المواصلات؟

إذن : نستطيع الآن أنْ نُدخِل كل الوسائل الحديثة تحت { وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ } [النحل : 8] .

وسبق أن قلنا : إن من عظمة الحق سبحانه وتعالى ألاَّ يُعلم بشيء لا اختيار للعبد فيه ، إنما بما له فيه اختيار ويفضحه باختياره ، كما حدث في مسألة تحويل القبلة : { سَيَقُولُ السفهآء مِنَ الناس مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ التي كَانُواْ عَلَيْهَا } [البقرة : 142] .

فيعلنها الله تعالى صراحة ، ويُسمّيهم سفهاء؛ لأنهم يعادون الله ويعادون رسول الله ، وبعد هذه الخصومة وهذا التجريح قالوا فعلاً ما حكاه القرآن عنهم .

ولم نَرَ منهم عاقلاً يتأمل هذه الآية ، ويقول : ما دام أن القرآن حكى عنا هذا فلن نقوله ، وفي هذه الحالة يجوز لهم أنْ يتهموا القرآن وينالوا من صِدْقه ومن مكانة رسول الله ، لكن لم يحدث وقالوا فعلاً بعد نزول الآية :

{ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ التي كَانُواْ عَلَيْهَا } [البقرة : 142] يعني : تركوا التوجه إلى بيت المقدس وتوجهوا إلى مكة ، قالوه مع ما لهم من عقل واختيار .

وهذه المسألة حدثتْ أيضاً في شأن أبي لهب لما قال الله عنه : { تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَآ

أغنى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سيصلى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ } [المسد : 13] .
لأنه قالها لرسول الله صلى الله عليه وسلم لما جمعهم ليبلغهم دعوة الله ، فقال له : تباً لك ألهذا جمعتنا . وأبو لهب عم رسول الله ، كحمزة والعباس ولم يكن رسول الله يدري مستقبل عمه ، فلعله يؤمن كما آمن حمزة وصار أسد رسول الله ، وكما آمن العباس بن عبد المطلب .
فلما نزلت { تَبَّتْ يَدَآ } [المسد : 1] كان بإمكانه أنْ يُكذِّبها وأن يؤمن فينطق بالشهادتين ولو نفاقاً ، فله على ذلك قدرة ، وله فيه اختيار ، لكنه لم يفعل .
إذن : من عظمة كلام الله ومن وجوه الإعجاز فيه أنْ يحكم حكماً على مختار كافر به ، وهو قرآن يُتْلَى علانيةً على رؤوس الأشهاد ، ومع ذلك لا يستطيع التصدِّي له ، ويبقى القرآن حُجَّة الله على كل كافر ومعاند .
ولما نتأمل قوله تعالى : { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } [الحجر : 9] نرى أن الحق سبحانه أنزل القرآن وتولَّى حفظه بنفسه سبحانه وتعالى ولم يُوكله إلى أحد ، مع أن في القرآن أشياء وأحداثاً لم توجد بعد ، فكأن الله تعالى يحفظها على نفسه ويُسجِّلها ويعلنها ، لماذا؟ لأنها ستحدث لا محالة .
فالحق سبحانه لا يخشى واقع الأشياء ألاَّ تطاوعه؛ لأنه مالكها ، ألاَ ترى أن الإنسان يحفظ (الكمبيالة) التي له ، ولا يهتم بالتي عليه؟ أما ربُّنا عز وجل فيحفظ لنا الأشياء وهي عليه سبحانه وتعالى .
واقرأ إن شئت : { سَيُهْزَمُ الجمع وَيُوَلُّونَ الدبر } [القمر : 45] فالله يُسجِّلها على نفسه ويحفظها؛ لأنه القادر على الإنفاذ ، وفعلاً هُزِم الجمع وولَّوْا الأدبار وصدق الله .

إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (76)

فَرْق بين أن تخاطب خاليَ الذهن ، وأنْ تخاطب مَنْ لديه فكرة مُسْبقة ، فخالي الذهن يقبل منك ، أما صاحب الفكرة المسْبقة فيعارضك ، كذلك جاء من الكفار ومن أهل الكتاب من يعارض كتاب الله وينكر ما جاء به ، ومع أنهم أعداء الإسلام وكارهون له لكن إنْ سألتهم عما أخبر به القرآن يقولون : نعم نعرف هذا من كتبنا { فَلَمَّا جَآءَهُمْ مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ الله عَلَى الكافرين } [البقرة : 89] .
لذلك سيدنا عبد الله بن سلام عندما نظر إلى رسول الله علم أنه الرسول الحق ، فمالتْ نفسه إلى الإسلام وقال : والله إنِّي لأعرف محمداً كمعرفتي بابني ، ومعرفتي بمحمد أشد ، وصدق الله حين قال عنهم : { يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ } [البقرة : 146] .
علم عبد الله أن الإسلام هو الطريق الذي يُوصِّله إلى الله والذي ينبغي لكل عاقل أنْ يتبعه ، فلما أراد أنْ يُسلم أحب أنْ يكسب الجولة بإعلان إسلامه وفضيحة المنافقين والكفار وأهل

الكتاب ، فقال : يا رسول الله لقد اشتشرفَتْ نفسي للإسلام ، وأخاف إنْ أسملتُ أن يذمَّني اليهود ويفعلوا بي كذا وكذا ، فاسألهم عنِّي قبل أنْ أُسلِم ، فسألهم رسول الله فقالوا : هو حَبْرنا وابن حَبْرنا . .

وكالوا له الثناء والمديح ، عندها قال عبد الله : أما وقد قلتم ما قلتم ، فأشهد ألا إلا إله الله وأن محمداً رسول الله ، فقالوا : بل هو شرُّنا وابن شرّنا . وكالوا له عبارات السب والشتم .

ثم يصف الحق سبحانه القرآن فيقول : { وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ }

وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (77)

معنى { لَهُدًى } [النمل : 77] أي : هداية دلالة وإرشاد ، وهذه للمؤمن وللكافر { وَرَحْمَةٌ } [النمل : 77] للمؤمنين فقط ، كما قال سبحانه : { وَنُنَزِّلُ مِنَ القرآن مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ } [الإسراء : 82] وفَرْق بين الشفاء والرحمة؛ لأن العطف هنا يقتضي المغايرة .

الشفاء : من الداء الذي جاء القرآن ليعالجه ، والرحمة ألاَّ يعاودك هذا الداء مرة أخرى .

ثم يقول الحق سبحانه : { إن رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم }

إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (78)

قوله تعالى { العزيز } [النمل : 78] أي : الذي يقهر ولا يُقهر ، ويغلب ولا يُغْلب ، ويجير ولا يُجَار عليه ، وهو مع ذلك في عزته { العليم } [النمل : 78] فقد يكون عزيزاً لا يُغلب ، لكن لا علم عنده ، فالحق سبحانه عزيز عليم يضع العزة في مكانها ، ويضع الذلة في مكانها .

كما قال سبحانه : { قُلِ اللهم مَالِكَ الملك تُؤْتِي الملك مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ الملك مِمَّنْ تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ الخير } [آل عمران : 26] .

وقد وقف العلماء عند قوله تعالى عن نفسه : { بِيَدِكَ الخير } [آل عمران : 26] فاجتهد بعضهم فقال : التقدير : بيدك الخير والشر ، وهذا التقدير يدل على عدم فهْم لمعنى الآية فما عند الله خير في كل الأحوال؛ لأن إيتاء المُلْك لمن ينصف في الرعية خير ، ونزع المُلْك مِمَّنْ يطغى به ويظلم خير أيضا؛ لأن الله سلب منه أداة الطغيان حتى لا يتمادى ، ففي كلٍّ خير .

وما دام من صفاته تعالى أنه عزيز عليم حكيم رحيم ذو فضل ، فاطمئن أيها المؤمن بالله ، وتوكل على الله .

ثم يقول الحق سبحانه : { فَتَوَكَّلْ عَلَى الله }

فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (79)

والتوكل : أن تستضعف نفسك في شيء تحاول أن تقضيه بقوة فلا تجدها عندك ، والتوكل الحق لا يكون إلا على الله الحي الذي لا يموت ، أما إن توكلْتَ على بشر مثلك فقد يُفاجِئه الموت قبل أنْ يقضي لك حاجتك .

وقال { إِنَّكَ عَلَى الحق المبين } [النمل : 79] أي : أنك تتوكل على الله وأنت على الحق وعلى الطاعة له عز وجل ، لا على معصيته ، وما دُمْتَ تتوكل على الله وأنت على حال الطاعة فلا بُدَّ أن يكون نصيرَكَ ومعينَك .

ثم يُسلِّي الحق سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم ويُعزيه كي لا يألم على مَنْ شردوا منه فلم يؤمنوا : { إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الموتى }

إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (80)

والمعنى : لا تحزن يا محمد ، ولا تُهلك نفسك على هؤلاء الذين لم يؤمنوا من قومك ، فما عليك إلا البلاغ . والبلاغ كلام له أداة استقبال في السامع هي الأذن ، فإذا تعطلَتْ هذه الأداة لن يسمعوا ، وهؤلاء القوم تعطلَتْ عندهم أداة السمع ، فهم كالموتى والذين أصابهم الصمم ، فآيات الله الكونية كثيرة من حولهم ، لكن لا يروْن ولا يسمعون .

وليت الأمر يقف بهم عند حَدِّ الصمم ، إنما يُولُّون مدبرين من سماع الدعوة ، وهذه مبالغة منهم من الانصراف عن دعوة الحق؛ لأنهم إنْ جلسوا فلن يسمعوا ، فما بالك إذا ولَّوْا مدبرين يجروْن بعيداً ، وكأن الواحد منهم يخاف أن يزول عنه الصمم وتلتقط أذنه نداء الله ، فيستميله النداء ، وعندها تكون مصيبته كبيرة على حَدِّ زعمهم .

وهذا دليل على أنهم يعلمون أنه حق ، وأنهم لو صَغَوْا إليه لا تبعوه ، ألم يقولوا : { لاَ تَسْمَعُواْ لهذا القرآن والغوا فِيهِ } [فصلت : 26] .

ذلك لأن القرآن جلالاً وجمالاً ياسِرُ الألباب؛ لذلك نَهَوْا عن سماعه ، ودَعَوْا إلى التشويش عليه ، حتى لا ينفذ إلى القلوب .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَمَآ أَنتَ بِهَادِي العمي }

وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (81)

فرْق بين سماع قالة أو قضية الصدق ، وانت خالي الذِّهْن ، وبين أن تسمعها وأنت مشغل بنقيضها ، فلكي يُثمِر السماع ينبغي أنْ تستقبل الدعوة بذهن خَالٍ ثم تبحث بعقلك الدعوة وما يناقضها ، فما انجذبتَ إليه واطمأنتْ إليه نفسك فأدخله .

وهذه يُسمُّونها حتى في الماديات نظرية الحيز أي : أن الحيز الواحد لا يتسع لشيئين في الوقت

نفسه . وسبق أنْ مثّلْنا لذلك بالقارورة حين تملؤها بالماء لا بُدَّ أنْ يخرج منها الهواء أولاً على شكل فقاعات؛ لأن الماء أكثفُ من الهواء .

ومعنى : { إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ } [النمل : 81] ولقائل أن يقول : ما دام تُسمِع مَنْ يؤمن بآياتنا ، فما فائدة السماع وهو مؤمن؟ نقول : الآيات ثلاثة؛ مترتبة بعضها على بعض ، فأولها : الآيات الكونية العقدية التي تشاهدها في الكون وتستدلّ بها على وجود إله خالق قادر فتسأل : مَنْ هذه الإله الخالق فيأتي دور الرسول الذي يُبيّن لك ويحلّ لك هذا اللغز ، ولا بُدَّ له من آيات تدل على صِدْقه في البلاغ عن الله هي المعجزة ، فإنْ غفلنا عن الآيات الكونية ذكرنا بها الرسول ، فقال : ومن آياته كذا وكذا .

فإذا آمنتَ بالآيات الكونية وبآيات المعجزات ، فعليك أنْ تؤمن بآيات الأحكام التي جاءتْ بها معجزة النبي صلى الله عليه وسلم .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَإِذَا وَقَعَ القول }

وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (82)

كلمة { وَقَعَ القول عَلَيْهِم } [النمل : 82] أي : سقط : كأنه وبطبيعته يسقط لا يحتاج لمَنْ يُجبره على السقوط . والسقوط { عَلَيْهِم } [النمل : 82] كما في قوله تعالى { فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السقف مِن فَوْقِهِمْ } [النحل : 26] .

والوقوع هنا يدل على أنهم سيتعرّضون لشدائد ومتاعب ، وبتتبع هذه المادة (وقع) في القرآن نجد أنها جاءت كلها في الشدائد إلا في موضع واحد هو قوله تعالى : { وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى الله وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الموت فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى الله } [النساء : 100] .

وما داموا لم يسمعوا للآيات ، ولم يقبلوها ، ولم يلتفتوا إلى منهج الله وصمُّوا عنه آذانهم ، فلم يسمعوا كلام أمثالهم من البشر فسوف نُخرج لهم دابة تكلمهم .

{ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ الأرض تُكَلِّمُهُمْ } [النمل : 82] وانظر إلى هذه الإهانة وهذا التوبيخ : أنتم لم تسمعوا كلام أمثالكم من البشر ، ولم تفهموا مَنْ يخاطبكم بلغتكم ، فاسمعوا الآن من الأدنى ، وافهموا عنها ، وفسّروا قولها .

لكن ماذا ستقول الدابة لهم؟ وما نوع كلامها؟ : { أَنَّ الناس كَانُوا بِآيَاتِنَا لاَ يُوقِنُونَ } [النمل : 82] أي : بآياتنا السابقة لا يؤمنون ، وها أنا ذا أُكلِّمهم ، وعلى الماهر فيهم أن يقول لي : كيف أكلمه .

وقد اختلف الناس في هذه الدابة ، وفي شكلها وأوصافها ، وكيف يأتي القول من غير مألوف

القول وهو الدابة؟ لكن ما دام أن الله تعالى أخبر بها فهي حقٌّ ، لا ينبغي معارضته ، وعلينا أن نأخذ وقوع ما حدَّث به القرآن قبل أن يكون دليلاً على صِدْقه فيما يحدِّث به فيما يكون .

وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (83)

الفوج : هم الجماعة والزمرة من الناس . وأول مَنْ يُجمع في هذا الموقف هم العتاة والجبابرة الذين تولَّوْا تكذيب آيات الله ، يحشرهم الله أولاً أمام العامة يتقدمونهم ويسبقونهم إلى النار ، كما قال سبحانه عن فرعون : { يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ القيامة فَأَوْرَدَهُمُ النار } [هود : 98] .
فكما تقدَّمهم من الضلال في الدنيا يتقدمهم إلى النار في الآخرة ، وحين يرى الضالون إمامهم في الضلال يقدمهم ينقطع أملهم في النجاة ، فربما تعلَّقوا به في هذا الموقف ينتظرونه أنْ يُخلِّصهم ، لكن كيف وهو يسبقهم إلى هذا المصير .
ومعنى { فَهُمْ يُوزَعُونَ } [النمل : 83] قلنا في معنى { يُوزَعُونَ } [النمل : 83] أي : يُمنعون ، والمراد يمنعون أن يسبق أولهم آخرهم بحيث يدخلون جميعاً ، فالحق تبارك وتعالى يجمع أولهم على آخرهم (ليشرفوا) سوياً في النار : التابع والمتبوع كلهم سواء في الذلة والمهانة ، فربما حاول أحد العتاة أو الجبابرة أن يسبق حتى لايراه تابعوه ، فيفتضح أمره ، فيؤخره الله ليفضحه على رؤوس الأشهاد .

حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (84)

في سورة الأعراف يُورِد الحق تبارك وتعالى مذكرة تفصيلية لهذا الموقف ، ولهذا الحوار الذي يدور في عَرَصات القيامة ، فيقول تعالى :
{ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أولئك يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الكتاب حتى إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قالوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ الله قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ على أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ * قَالَ ادخلوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ مِّن الجن والإنس فِي النار كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حتى إِذَا اداركوا فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ رَبَّنَا هؤلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النار قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ ولكن لاَّ تَعْلَمُونَ * وَقَالَتْ أُولاَهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ العذاب بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ } [الأعراف : 3739] .

وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ (85)

قوله { وَوَقَعَ } [النمل : 85] أي : وجب لهم العذاب { بِمَا ظَلَمُواْ } [النمل : 85] وكأنه شيء محسوس يسقط على رؤوسهم { فَهُمْ لاَ يَنطِقُونَ } [النمل : 85] فقد خرستْ ألسنتهم

من هَوْل ما رأوْا ، فلا يجدون كلاماً ينطقون به .
ثم يقول الحق سبحانه : { أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا }

أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (86)

ينتقل السياق من الكلام عن الآخرة إلى آية كونية ، وهذه سِمَة من سمات أسلوب القرآن الكريم ، حيث يراوح بين الدعوة إلى الإيمان وبين بيان الآيات الكونية ، فبعد أن حدثنا عن الآخرة ذكر هذه الآية الكونية ، وكأنه يقول : لا عُذْر لمن يُكذِّب بآيات الله؛ لأن الآيات موجودة مشاهدة . لذلك قال : { أَلَمْ يَرَوْاْ } [النمل : 86] أي : ألم يعلموا ويشاهدوا { أَنَّا جَعَلْنَا الليل لِيَسْكُنُواْ فِيهِ } [النمل : 86] أي : للنوم وللراحة { والنهار مُبْصِراً } [النمل : 86] أي : بما فيه من الأشعة والضوء الذي يُسبب الرؤيا .
وسبق أنْ بيَّنا دور العالم المسلم ابن الهيثم في تصحيح نظرية رؤية الأشياء ، وكانوا يعتقدون أن الشيء يُرى إذا خرج الشعاع من العين إليه ، والصحيح أن الشعاع يخرج من الشيء المرئي إلى العين ، فكأن الشعاع هو الذي يُبصر ، فهو سبب الرؤيا ، ولولاه لا نرى الأشياء .
{ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [النمل : 86] فربك عزّ وجلّ نظَّم لك حركة حياتك بليل تسكن فيه ، وتخلد للراحة ونهار تسعى فيه وتبتغي من فضل الله كما قال تعالى : { وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ الليل والنهار لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [القصص : 73] .
ولن تستقيم لنا حركة الحياة إلا إذا سِرْنا على هذا النظام الذي ارتضاه الله لنا ، فإنْ قلبَ الناس هذه الطبيعة فسهروا حتى الفجر ، فلا بُدَّ أنْ يلاقوا عاقبة هذه المخالفة في حركة حياتهم : تكاسلاً وتراخياً وقِلة في الإنتاج . . إلخ .
والحق تبارك وتعالى يشرح لنا هذه القضية في موضع آخر : { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ الله عَلَيْكُمُ الليل سَرْمَداً إلى يَوْمِ القيامة مَنْ إله غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِضِيَآءٍ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ الله عَلَيْكُمُ النهار سَرْمَداً إلى يَوْمِ القيامة مَنْ إله غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفلاَ تُبْصِرُونَ } [القصص : 7172] .
ففي الكلام عن الليل قال : { أَفَلاَ تَسْمَعُونَ } [القصص : 71] وعن النهار قال : { أَفلاَ تُبْصِرُونَ } [القصص : 72] لماذا؟ قالوا : لأن حاسة الإدراك في الليل هي السمع ، وفي النهار البصر . وفي هذا إشارة إلى طبيعة كل منهما حتى لا نُغيِّرها نحن ، فنسهر الليل ، وننام النهار .
وفي قوله تعالى { وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ الليل والنهار لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبتَغُواْ مِن فَضْلِهِ } [القصص : 73] ما يسميه العلماء باللف والنشر ، اي : لفّ المحكوم عليه وهو الليل والنهار معاً ، ثم

نشر حكم كل منهم على وجه الترتيب : لتسكنوا فيه وهي تقابل الليل ، ولتبتغوا من فضله ، وهي تقابل النهار .

إذن : بعد أنْ استدل الحق تبارك وتعالى بالموجود فعلاً من آيتي الليل والنهار أراد أنْ يستدل بعدمهما في { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ الله عَلَيْكُمُ اليل سَرْمَداً } [القصص : 71] و { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ الله عَلَيْكُمُ النهار سَرْمَداً } [القصص : 72] .

ثم يعود السياق مرة أخرى إلى الحديث عن القيامة : { وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصور }

وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ (87)

وكأن الله تعالى يقول لي : التفتْ إلى العبرة في الآيات الكونية ، حيث ستنفعك في يوم آت هو يوم القيامة { وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصور } [النمل : 87] وهو البوق { فَفَزِعَ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض إِلاَّ مَن شَآءَ الله } [النمل : 87] والفزع : الخوف الشديد الذي يأخذ كلَّ مَنْ في السموات ، وكل مَنْ في الأرض { إِلاَّ مَن شَآءَ الله } [النمل : 87] قالوا : هم الملائكة : إسرافيل الذي ينفخ في الصور ، وجبريل ، وميكائيل ، وعزرائيل .

لذلك لما تكلم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مسألة الصعق هذه قال : « فأفيق من الصعقة فأجد أخي موسى ماسكاً بالعرش » ذلك لأن موسى عليه السلام صعق في الدنيا مرة حين تجلَّى ربه للجبل ، كما حكى القرآن : { فَلَمَّا تجلى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ موسى صَعِقاً } [الأعراف : 143] .

وما كان الله تعالى ليجمع على نبيه موسى عليه السلام صعقتين ، لذلك لم يُصعَق صعقة الآخرة .

وقوله سبحانه : { وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ } [النمل : 87] أي : صاغرين أذلاء ، لا يتأبى على الله منهم أحد ، حيث لا قدرةَ له على ذلك؛ لأن القيامة أنهتْ الاختيار الذي كان لهم في الدنيا ، وبه ملّكهم الله شيئاً من المِلْك : { قُلِ اللهم مَالِكَ الملك تُؤْتِي الملك مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ الملك مِمَّنْ تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ } [آل عمران : 26] .

فأعطى الله تعالى طرفاً من المُلْك ، ووهبه لبعض عباده في دنيا الأسباب والاختيار ، أمَّا في الآخرة فالمُلْك لله تعالى وحده ، لا ينازعه فيه أحد : { لِّمَنِ الملك اليوم لِلَّهِ الواحد القهار } [غافر : 16] .

في القيامة يُنزع منك كلّ شيء تملكه وكلّ قدرة لك على ما تملك حتى جوارحك لا قدرةَ لك عليها ، ولا إرادةَ لتنفعل لك ، هي تبع إرادتك في الدنيا ، وبها ترى وتسمع وتمشي وتبطش ، أمَّا في الآخرة فقد سُلِبت منك هذه الإرادة ، بدليل أنها ستشهد عليك ، وتُحاجّك يوم القيامة .

ثم ينتقل السياق بنا مرة أخرى إلى آية كونية : { وَتَرَى الجبال تَحْسَبُهَا }

وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (88)

قوله تعالى { تَحْسَبُهَا جَامِدَةً } [النمل : 88] اي : تظنها ثابتة ، وتحكم عليها بعدم الحركة؛ لذلك نسميها الرواسي والأوتاد { وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السحاب } [النمل : 88] أي : ليس الأمر كما تظن؛ لأنها تتحرك وتمر كما يمرّ السحاب ، لكنك لا تشعر بهذه الحركة ولا تلاحظها لأنك تتحرك معها بنفس حركتها .

وهَبْ أننا في هذا المجلس ، أنتم أمامي وأنا أمامكم ، وكان هذا المسجد على رحاية أو عجلة تدور بنا ، أيتغير وضعنا وموقعنا بالنسبة لبعضنا؟

إذن : لا تستطيع أن تلاحظ هذه الحركة إلا إذا كنتَ أنت خارج الشيء المتحرك ، ألاَ ترى أنك تركب القطار مثلاً ترى أن أعمدة التليفون هي التي تجري وأنت ثابت .

ولأن هذه الظاهرة عجيبة سيقف عندها الخَلْق يزيل الله عنهم هذا العجب ، فيقول { صُنْعَ الله الذي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ } [النمل : 88] يعني : لا تتعجب ، فالمسألة من صُنع الله وهندسته وبديع خَلْقه ، واختار هنا من صفاته تعالى : { الذي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ } [النمل : 88] يعني : كل خَلْق عنده بحساب دقيق مُتقَن .

البعض فهم الآية على أن مرَّ السحاب سيكون في الآخرة ، واستدل بقوله تعالى : { وَتَكُونُ الجبال كالعهن المنفوش } [القارعة : 5] .

وقد جانبه الصواب لأن معنى {كالعهن المنفوش } [القارعة : 5] أنها ستتفتت وتتناثر ، لا أنها تمر ، وتسير هذه واحدة ، والأخرى أن الكلام هنا مبنيٌّ على الظن { تَحْسَبُهَا جَامِدَةً } [النمل : 88] وليس في القيامة ظن؛ لأنها إذا قامتْ أحداثها مُتيقنةٌ .

ثم إن السحاب لا يتحرك بذاته ، وليس له موتور يُحرِّكه ، إنما يُحرِّكه الهواء ، كذلك الجبال حركتها ليست ذاتيةٌ فيها ، فلم نَرَ جبلاً تحرَّك من مكانه ، فحركة الجبال تابعة لحركة الأرض؛ لأنها أوتاد عليها ، فحركة الوتد تابعة للموتود فيه .

لذلك لما تكلم الحق سبحانه وتعالى عن الجبال قال : { وألقى فِي الأرض رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ } [النحل : 15] .

ولو خُلِقتْ الأرض على هيئة السُّكون ما احتاجتْ لما يُثبِّتها ، فلا بُدَّ أنها مخلوقة على هيئة الحركة .

في الماضي وقبل تطور العلم كانوا يعتقدون في المنجِّمين وعلماء الفلك الكفرة أنهم يعلمون الغيب ، أما الآن وقد توصَّل العلماء إلى قوانين حركة الأرض وحركة الكواكب الأخرى في المجموعة الشمسية واستطاعوا حساب ذلك كله بدقة مكّنتهم من معرفة ظاهرة الخسوف والكسوف مثلاً

ونوع كل منهما ووقته وفعلاً تحدث الظاهرة في نفس الوقت الذي حددوه لا تتخلف .
واستطاعوا بحساب هذه الحركة أنْ يصعدوا إلى سطح القمر ، وأن يُطلِقوا مركبات الفضاء ويُسيِّروها بدقة حتى إنَّ إحداها تلتحم بالأخرى في الفضاء الخارجي .
كل هذه الظواهر لو لم تكن مبنية على حقائق مُتيقَّنة لأدتْ إلى نتائج خاطئة وتخلفتْ .
ومن الأدلة التي تثبت صحة ما نميل إليه في معنى حركة الجبال ، أن قوله تعالى { صُنْعَ الله الذي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ } [النمل : 88] امتنان من الله تعالى بصنعته ، والله لا يمتنُّ بصنعته يوم القيامة ، إنما الامتنان علينا الآن ونحن في الدنيا .

مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (89)

لهذه الآية صلة لطيفة بما قبلها : فكما أن الآيات الكونية التي أخبر بها الحق تبارك وتعالى حقيقة واقعة ، وتأكدتَ أنت من صِدْقها حيث شاهدتها بنفسك وأدركتها بحواسك ، فكما أخبرناك بهذه الآيات نُخبرك الآن بحقيقة أخرى ينبغي أن تصدقها ، وأن تأخذ من صدْق ما شاهدتَ دليلاً على صِدْق ما غاب عنك ، فربُّك يُخبِرك بأنه { مَن جَآءَ بالحسنة فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا } [النمل : 89] .
الحسنة : فعل الانفعال فيه يكون لمطلوب الله في العبادة ، فإن فعلتَ الفعل على مراد الله تعالى كانت لك حسنة ، والحسنة عند الله بعشر أمثالها ، وتضاعف إلى سبعمائة ضِعْف على مقدار طاقة الفاعل من الإخلاص والتجرُّد لله في فعله .
والمعنى : { مَن جَآءَ بالحسنة } [النمل : 89] أي : في الدنيا { فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا } [النمل : 89] أي : ناشيء عنها في الآخرة .
ونسمع من البعض مَنْ يقول : إذا كان قولنا : لا إله إلا الله حسنة فالثواب عليها خَيْر منها .
وهذا القول ناتج عن فَهْم غير دقيق لمعنى الآية؛ لأن الله تعالى الذي أُقر به في الشهادة هو الذي يهبني هذا الثواب ، فمَنْ جاء بالحسنة له خير ناشيء من هذه الحسنة ومُسبّب عنها . كما لو قلت : مأمور المركز خير من وزير الداخلية : أي خَيْر جاءنا من ناحيته ، ووصل إلينا من طرفه ، أليس هو صاحب قرار تعيينه؟
ومن ذلك ما يقوله أصحاب الطريق والمجاذيب يقولون : محمد خير من ربه ، وفي مثل هذه الأقوال لعب بأفكار الناس وإثارة لمشاعرهم ، وربما تعرض للإيذاء ، فكيف يقول هذه الكلمة ومحمد مُرْسَل من عند الله؟ وحين تُمعِن النظر في العبارة تجدها صحيحة ، فمراد الرجل أن محمداً خير جاءنا من عند الله .
أو : يكون المعنى { فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا } [النمل : 89] أن الجزاء على الحسنة خير من الحسنة؛

لأنك تفعل الحسنة فِعْلاً موقوتاً ، أمّا خيرها والثواب عليها ، فسيظل لك خالداً بلا نهاية .
ثم يقول الحق سبحانه : { وَمَن جَآءَ بالسيئة }

وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (90)

معنى : { فَكُبَّتْ } [النمل : 90] ألقيت بعنف ، وخصّ الوجوه مع أن الأعضاء كلها ستكبُّ؛ لأنه أشرفها وأكرمها عند صاحبها ، والوجه موضع العزة والشموخ ، فالحق تبارك وتعالى يريد لهم الذلَّة والمهانة ، وفي موضع آخر يُبيِّن أن كل الأعضاء ستكبُّ في النار ، فيقول تعالى : { فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ والغاوون } [الشعراء : 94] .
وليس هذا المصير ظلماً لهم ، ولا افتراءً عليهم { هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ } [النمل : 90] وكما يقول سبحانه : { لاَ ظُلْمَ اليوم } [غافر : 17] فلم نجامل صاحب الحسنة ، ولم نظلم صاحب السيئة .

إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (91)

فما دام أن الله تعالى أعطانا هذه المعلومات التي تلفتنا إلى قدرته في آياته الكونية ، وذكَّرنا بالآخرة ، وما فيها من الثواب والعقاب ، فما عليك إلا أنْ تلتزم (عرفت فالزم) واعلم أن مَنْ أبلغك منهج الله سيسبقك إلى الالتزام به ، فالشرع كما أمرك أمرني .
{ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ البلدة } [النمل : 91] فإنْ طلبتُ منكم شيئاً من التكاليف فقد طالبتُ نفسي به أولاً؛ لأنني واثق بصدق تبليغي عن الله؛ لذلك ألزمتُ نفسي به .
والعبادة كما قلنا : طاعة العابد للمعبود فيما أمر وفيما نهى؛ لأن ربك خلقك من عَدَم ، وأمدك من عُدْم ، ونظّم لك حركة حياتك ، فإنْ كلَّفك فاعلم أن التكليف من أجلك ولصالحك؛ لأنه رب مُتولٍّ لتربيتك ، فإنْ تركك بلا منهج ، وبلا افعل ولا تفعل ، كانت التربية ناقصة .
إذن : من تمام الربوبية أن يوجهني ربي كما نُوجِّه نحن أولادنا الصغار ونُربّيهم ، ومن تمام الربوبية أن توجد هذه الأوامر وهذه النواهي لمصلحة المربّي ، وما دام أن ربك قد وضعها لك فلا بُدَّ أن تطيعه .
لذلك نلحظ في هذه الآية { إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ البلدة } [النمل : 91] ولم يقُلْ : أُمِرت أن أطيع الله؛ لأن الألوهية تكليف ، أمّا الربوبية فعطاء وتربية ، فالآية تُبيّن حيثية سماعك للحكم من الله ، وهي أنه تعالى يُربّيك بهذه الأوامر وبهذه النواهي ، وسوف تعود عليك ثمرة هذه التربية .

لذلك ، الصِّدّيق أبو بكر حينما حدثوه عن الإسراء والمعراج لم يُمرِّر المسألة على عقله ، ولم يفكر في مدى صِدْقها ، إنما قال عن رسول الله : « إن كان قال فقد صدق » فالميزان عنده أن يقول رسول الله ، ثم يُعلِّل لذلك فيقول : إني لأُصدِّقه في الخبر يأتي من السماء ، فكيف لا أُصدِّقه في هذه .

وقال تعالى : { رَبَّ هَذِهِ البلدة } [النمل : 91] أي : مكة وخصّها بالذكْر؛ لأن فيها بيته { إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً } [آل عمران : 96] ثم يذكر سبحانه وتعالى من صفات مكة { الذي حَرَّمَهَا } [النمل : 91] فهي مُحرَّمة يحرم فيها القتال ، وهذه وسيلة لحماية العالم من فساد الحروب وفساد الخلاف الذي يُفضي بكل فريق لأنْ تأخذه العزة ، فلا يجد حلاً إلا في السيف .

وكأن الحق تبارك وتعالى يعطي لخَلْقه فرصة للمداراة وعُذْراً يستترون خلفه ، فلا ينساقون خلف غرورهم ، فحين تمنعهم من الحروب حُرْمة المكان في الحرم ، وحُرْمة الزمان في الأشهر الحرم لأن كل فعل لا بُدَّ له من زمان ومكان حين يمنعهم الشرع عن القتال فإن لأحدهم أن يقول : لم أمتنع عن ضعف . ولولا أن الله منعني لفعلْتُ وفعلْتُ ، ويستتر خلف ما شرَّع الله من منع القتال ، إلى أنْ يذوق حلاوة السلام فتلين نفسه ، وتتوق للمراجعة .

ولحرمة مكة كان الرجل يلاقي فيها قاتل أبيه ، فلا يتعرَّض له احتراماً لحرمة البيت ، وقد اتسعتْ هذه الحرمة لتشمل أجناساً أخرى ، فلا يُعضد شجرها ، ولا يُصاد صَيْدها .

ثم يقول تعالى : { وَلَهُ كُلُّ شَيءٍ } [النمل : 91] لأن الله تعالى حين يصطفي من الملائكة رسلاً ، ومن الناس رسلاً ، ويصطفي من الأرض أمكنة ، ومن الزمان ، يريد أن يشيع الاصطفاء في كل شيء .

فالحق تبارك وتعالى لا يُحابي أحداً ، فحين يرسل رسولاً يُبلِّغ رسالته للناس كافة ، فيعود نفعه على الجميع ، وكذلك في تحريم المكان أو الزمان يعود نفعه على الجميع؛ لذلك عطف على { الذي حَرَّمَهَا } [النمل : 91] فقال {كُلُّ شَيءٍ } [النمل : 91] فالتحريم جُعل من أجل هؤلاء .

ثم يقول سبحانه : { وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ المسلمين } [النمل : 91] أي : المنفذين لمنهج الله يعني : لا أعتقد عقائد أخبر بها ولا أُنفِّذها ، وقد قرن الله تعالى بين الإيمان والعمل الصالح؛ لأن فائدة الإيمان أنْ تعملَ به ، كما قال تعالى : { والعصر * إِنَّ الإنسان لَفِى خُسْرٍ * إِلاَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات } [العصر : 13] .

فالله تعالى يريد أن يُعدِّي الإيمان والأحكام إلى أن تكون سلوكاً عملياً في حركة الحياة .

وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ (92)

أنت حين تقرأ القرآن في الحقيقة لا تقرأ إنما تسمع ربنا يتكلم ، ومعنى { وَأَنْ أَتْلُوَ القرآن } [النمل : 92] يعني : استدم أُنْسك بالكتاب الذي كُلِّفت به ، ليدل على أنك من عِشْقك للتكليف ، عشقتَ المكلّف ، فأحببتَ سماعه ، وتلاوة القرآن في ذاتها لذة ومتعة؟ .

فأنا سآخذ من تلاوته لذةَ ، وأستديم البلاغ بالقرآن للناس ، وبعد ذلك أنا نموذج أمام أمتي ، كما قال سبحانه : { لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ } [الأحزاب : 21] .

يعني : شيء يُقتدى به ، وما دام أن الرسول قدوة ، فكل مقام للرسول غير الرسالة مَنْ سار على قدم الرسول يأخذ منه ، وكذلك مكان كل إنسان في التقوى ، على قَدْر اعتباره واقتدائه بالأُسْوة ، أما الرسالة فدَعْك منها؛ لأنك لن تأخذها .

ومعنى { اهتدى } [النمل : 92] أي : وصلته الدلالة واقتنع بها { فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ } [النمل : 92] لأن الله سيعطيه المعونة ، ويزيده هدايةً وتوفيقاً { والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ } [محمد : 17] .

إذن : فالهداية والتقوى لا تنفع المشرِّع ، إنما تنفع العبد الذي اهتدى .

ثم يذكر المقابل { وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ مِنَ المنذرين } [النمل : 92] أنا لا يعنيني إلا أنني من المنذرين ، وأنت إنما تضلّ على نفسك ، وتتحمل عاقبة ضلالك .

وبعد أنْ أتممتَ ما خاطبك ربك به بأنْ تعبدَ ربَّ هذه البلدة وكنتَ من المسلمين ، وبعد أنْ تلوتَ القرآنَ ، واستدمت الأُنس واللذَّة بسماع الله يتكلم ، ثم بلَّغته للناس ، فإذا فعلتَ كل هذا أحمد الله الذي وفَّقك إليه : { وَقُلِ الحمد للَّهِ }

وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (93)

أي : الحمد لله على نعمه وعلى ما هدانا ، والحمد لله الذي لا يُعذِّب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه ، والإنذار إليه .

والله سيريكم آياته في أنفسكم وفي غيركم ، فتعرفون دلائل قدرته سبحانه ووحدانيته في أنفسكم ، وفي السماوات والأرض .

{ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ } [النمل : 93] .

بل هو شهيد على كل شيء .

طسم (1)

الحروف المقطعة في بدايات سور القرآن مرة يأتي حرف واحد مثل (ق ، ن) أو حرفان مثل (طس ، حم) أو ثلاثة أحرف مثل (الم ، طسم) أو أربعة مثل (المر) أو خمسة مثل (حمعسق ،

كهيعص) وكل منها له مفتاح وأسرار لم يفتح علينا بعد لمعرفته وما قلنا في معنى هذه الحروف مجرد محاولات على الطريق .

تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2)

يعني : ما يأتي في هذه السورة آيات الكتاب المبين .

نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (3)

أي : نقص عليك { مِن نَّبَإِ موسى وَفِرْعَوْنَ } [القصص : 3] والنبأ : الخبر الهام الذي يجب الالتفات إليه ، وهل هناك أهم من إرسال موسى عليه السلام إلى مَن ادعى الألوهية؟ لذلك أفرد لهما هذه السورة ، فلم يَرِدْ فيها ذِكْر آخر إلا لقارون؛ لأنها تعالج مسألة القمة ، مسألة التوحيد ، وتردّ علىَ مَنِ ادّعى الألوهية ، ونازع الله تعالى في صفاته .
قوله { بالحق } [القصص : 3] لأن تلاوته وقصصه حق ، كما في قوله تعالى : { إِنَّ هذا لَهُوَ القصص الحق } [آل عمران : 62] .
والقصص مأخوذ من قصِّ الأثر وتتبّعه ، وقد اشتُهِر به بعض العرب قديماً ، ومهروا فيه حتى إنهم ليعرفون أثر الرجل من أثر المرأة . . ألخ ، وقد اشتُهِرت عندهم قصة الرجل الذي فقد جمله ، وقابل أحد القصاصين ، وسأله عنه فقال : جملك أبتر الذَّنَب؟ قال : نعم ، قال : أعور؟ قال : نعم ، قال : أعرج؟ عندها لم يشكّ صاحب الجمل أن هذا الرجل هو الذي أخذ جمله ، فأمسك به وقاضاه .
وفي مجلس القضاء ، قال الرجل : والله ما أخذتُ جملك ، كلني رأيتُ الجمل يبعثر بَعْره خلفه ، أما هذا فيضع بَعْره مرة واحدة ، فعرفتُ أنه مقطوع الذنب ، ورأيت أحد أخفافه لا يؤثر في الرمل فعرفتُ أنه أعرج ، ورأيته يأكل من ناحية ويترك الأخرى فعرفتُ أنه أعور .
والحق تبارك وتعالى حين يقصُّ علينا يقصُّ الواقع ، فقَصص القرآن لا يعرف الخيال كقصص البشر؛ لذلك يسميه القصص الحق ، وأحسن القصص ، لأنه يروي الواقع طِبْق الأصل .

إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4)

معنى { عَلاَ } [القصص : 4] من العلو أي : استعلى ، والمستعلَى عليه هم رعيته ، بل علا على وزرائه والخاصة من رعيته ، وعلا حتى على الله عز وجل فادَّعى الألوهية ، وهذا منتهى الاستعلاء ، ومنتهى الطغيان والتكبُّر ، وما دامت عنده هذه الصفات وهو بشر وله هوىً فلا بُدَّ

أنْ يستخدمها في إذلال رعيته .
{ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً } [القصص : 4] جمع شيعة ، وهي الطائفة التي لها استقلالها الخاص ، والمفروض في المُمَلَّك أنْ يُسوِّي بين رعيته ، فلا تأخذ طبقة أو جماعة حظوه عن الأخرى ، أما فرعون فقد جعل الناس طوائف ، ثم يسلِّط بعضها على بعض ، ويُسخِّر بعضها لبعض .
ولا شكَّ أن جَعْل الأمة الواحدة عدة طوائف له مَلْحظ عند الفاعل ، فمن مصلحته أن يزرع الخلاف بين هذه الطوائف ويشغل بعضها ببعض ، فلا تستقر بينهم الأمور ، ولا يتفرغون للتفكير فيما يقلقه ويهزّ عرشه من تحته ، فيظل هو مطلوباً من الجميع .
والقبط كانوا هم سكان مصر والجنس الأساسي بها ، ثم لما جاءها يوسف عليه السلام واستقرَّ به الأمر حتى صار على خزائنها ، ثم جاء إخوته لأخْذ أقواتهم من مصر ، ثم استقروا بها وتناسلوا إلا أنهم احتفظوا بهويتهم فلم يذوبوا في المجتمع القبطي .
وبالمناسبة يخطىء الكثيرون فيظنون أن القبطيَّ يعني النصراني وهذا خطأ ، فالقطبي يعني المصري كجنس أساسي في مصر ، لكن لما استعمرت الدولةُ الرومانية مصرَ كان مع قدوم المسيحية فأطلقوا على القبطي (مسيحي) .
لكن ، ما السبب في أن فرعون جعل الناس طوائف ، تستعبد كلٌّ منها الأخرى؟ قالوا : لأن بني إسرائيل كانوا في خدمة المستعمر الذي أزاح حكم الفراعنة ، وهم ملوك الرعاة ، فلما طُرِد ملوك الرعاة من مصر كان طبيعياً فيمَنْ يحكم مصر أن يضطهد بني إسرائيل؛ لأنهم كانوا موالين لأعدائه ، ويسيرون في ركابهم ، ومن هنا جاء اضطهاد فرعون لبني إسرائيل .
والقرآن الكريم حينما يتحدث عن ملوك مصر في القديم وفي الحديث يُسمِّيهم فراعنة ، كما في قوله تعالى : { وَفِرْعَوْنَ ذِى الأوتاد } [الفجر : 10] .
وهنا في قصة موسى عليه السلام قال أيضاً : فرعون : أما في قصة يوسف عليه السلام فلم يأْتِ ذكْر للفراعنة ، إنما قال { الملك } [يوسف : 43] وهذه من مظاهر الإعجاز في القرآن الكريم؛ لأن الحكم في مصر أيام يوسف كان لملوك الرعاة ، ولم يكُنْ للفراعنة ، حيث كانوا يحكمون مصر قبله وبعده لما استردوا مُلْكهم من ملوك الرُّعاة؛ لذلك في عهد يوسف بالذات قال { الملك } [يوسف : 50] فلم يكُنْ للفرعون وجود في عصر يوسف .
فمعنى { سْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ } [القصص : 4] يعني : تستبد طائفة الأقباط ، وهم سكان مصر الأصليون بطائفة بني إسرائيل لينتقموا منهم جزاءَ موالاتهم لأعدائهم .
وأول دليل على بطلان ألوهية فرعون أن يجعل أمته شِيَعاً ، لأن المألوهين ينبغي أن يكونوا جميعاً عند الإله سواء؛ لذلك يقول تعالى في الحديث عن موكب النبوات :

{ إِنَّ الذين فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ } [الأنعام : 159] .
ذلك لأن دين الله واحد ، وأوامره واحدة للجميع ، فلو كنتم مُتمسِّكين بالدين الحق لجعلتُم الناس جميعاً شيعة واحدة ، لا يكون لبعضهم سلطة زمنية على الآخرين ، فإذا رأيت في الأمة هذه التفرقة وهذا التحزُّب فاعلم أنهم جميعاً مدينون؛ لأن الإسلام كما قُلْنا في صفائه كالماء الذي لا طعمَ له ، ولا لون ، ولا رائحة .
وهذا الماء يحبه الجميع ولا بُدَّ لهم منه لاستبقاء حياتهم ، أما أن نُلوِّن هذا الماء بما نحب ، فأنت تحب البرتقال ، وأنا أحب المانجو . وهذا يحب الليمون . . إلخ إذن : تدخلتْ الأهواء ، وتفرَّق الدين الذي أراده الله مجتمعاً .
لذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ستفترق أمتي بِضْع وستون ، أو بضع وسبعون فرقة ، كلُّهم في النار إلا ما أنا عليه وأصحابي » .
فشيعة الإسلام إذن واحدة ، أما أن نرى على الساحة عشرات الفِرَق والشِّيَع والجماعات ، فأيّها يتبع المسلم؟ إذن : ما داموا قد فرَّقوا دينهم ، وكانوا شِيعاً فلسْتَ منهم في شيء .
ثم يُفسِّر الحق سبحانه هذا الاستضعاف { يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ } [القصص : 4] فيقول { يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ } [القصص : 4] وقلنا : إن الإفساد أن تأتي على الصالح بذاته فتفسده ، فمن الفساد إذن قتْل الذُّكْران واستحياء النساء؛ لأن حياة الناس لا تقوم إلا باستبقاء النوع ، فقتل الذّكْران يمنع استبقاء النوع ، واختار قَتْل الذكْران : لأنهم مصدر الشر بالنسبة له ، أمّا النساء فلا شوكة لهُنَّ ، ولا خوفَ منهن؛ لذلك اتسبقاهُنَّ للخدمة وللاستذلال .
وحين نتتبع هذه الآية نجد أنها جاءت في مواضع ثلاثة من كتاب الله ، لكل منها أسلوب خاص ، ففي الآية الأولى يقول تعالى : { وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سواء العذاب يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ } [البقرة : 49] .
وفي موضع آخر : { يَسُومُونَكُمْ سواء العذاب يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ } [الأعراف : 141] وهاتان الآيتان على لسان الحق تبارك وتعالى .
أما الأخرى فحكاية من الله على لسان موسى عليه السلام حين يُعدِّد نِعَم الله تعالى على بني إسرائيل ، فيقول :
{ اذكروا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سواء العذاب وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ } [إبراهيم : 6] .
فالواو في { وَيُذَبِّحُونَ } [إبراهيم : 6] لم ترد في الكلام على لسان الله تعالى ، إنما وردتْ في كلام موسى؛ لأنه في موقف تَعداد نِعَم الله على قومه وقصده؛ لأن يُضخِّم نعم الله عليهم ويُذكِّرهم بكل النعم ، فعطف على { يَسُومُونَكُمْ سواء العذاب } [إبراهيم : 6] قوله { وَيُذَبِّحُونَ } [إبراهيم : 6] .

لكن حين يتكلَّم الله تعالى فلا يمتنُّ إلا بالشيء الأصيل ، وهو قتْل الأولاد واستحياء النساء؛ لأن الحق تبارك وتعالى لا يمتنّ بالصغيرة ، إنما يمتنُّ بالشيء العظيم ، فتذبيح الأبناء واستحياء النساء هو نفسه سوء العذاب .

وقوله مرة { يُذَبِّحُونَ } [البقرة : 49] ومرة { يُقَتِّلُونَ } [الأعراف : 141] لأن قتل الذّكْران أخذ أكثر من صورة ، فمرَّة يُذبِّحونهم ومرة يخنقونهم .

ومعنى : { يَسُومُونَكُمْ } [الأعراف : 141] من السَّوْم ، وهو أنْ تطلب الماشية المرعى ، فنتركها تطلبه في الخلاء ، وتلتقط رزقها بنفسها لا نقدمه نحن لها ، وتسمى هذه سائمة ، أما التي نربطها ونُقدِّم لها غذاءها فلا تُسمَّى سائمة .

فالمعنى { يَسُومُونَكُمْ سواء العذاب } [الاعراف : 141] يعني : يطلبون لكم سوء العذاب ، وما داموا كذلك فلا بُدَّ أنْ يتفنَّنوا لكم فيه .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ }

وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5)

فلن يدوم لفرعون هذا الظلم؛ لأن الله تعالى كتب ألاّ يفلح ظَلُوم ، وألاَّ يموت ظلوم ، حتى ينتقم للمظلوم منه ، ويُريه فيه عاقبة ظلمه ، حتى إن المظلوم ربما رحم الظالم ، وحَسْبك من حادث بامرىء ترى حاسديه بالأمس ، راحمين له اليوم .

وهنا تُطالعنا غضبة الحق تبارك وتعالى للمؤمنين { وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الذين استضعفوا فِي الأرض } [القصص : 5] والمنة : عطاء مُعوّض ، وبدون مجهود من معطي المنة ، كأنها هِبَة من الحق سبحانه ، وغضبة لأوليائه وأهل طاعته؛ لأن الحق تبارك وتعالى كما قال الإمام علي : إن الله لا يُسلِم الحق ، ولكن يتركه ليبلو غَيْرة الناس عليه ، فإذا لم يغاروا عليه غَارَ هو عليه .

والحق تبارك وتعالى حينما يغَارُ على الذين استُضعِفوا لا يرفع عنهم الظلم فحسب ، وإنما أيضاً { وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً } [القصص : 5] أئمة في الدين وفي القيم ، وأئمة في سياسة الأمور والملك { وَنَجْعَلَهُمُ الوارثين } [القصص : 5] أي : يرثون مَنْ ظلمهم ، ويكونون سادةً عليهم وأئمةً لهم ، فانظر على كم مرحلة تأتي غيرة الله لأهل الحق .

ولولا أن فرعون الذي قوي على المستضعفين وأذلَّهم تأبَّى على الله ورفض الانقياد لشملته رحمة الله ، ولعاشَ هو ورعيته سواء؟

لذلك أهل الثورات الذين جاءوا للقضاء على أصحاب الفساد وإنصاف شعوبهم ممَّنْ ظلمهم ، كان عليهم بعد أنْ يقضوا على الفساد ، وبعد أن يمنعوا المفسد أن يُفسِد ، ويحققوا العدالة في المجتمع ، كان عليهم أنْ يضموا الجميع إلى أحضانهم ورعايتهم ، ويعيش الجميع بعد تعديل

الأوضاع سواسية في مجتمعهم ، وبذلك نأمن الثورة المضادة .
ثم يقول تعالى استكمالاً لِمنَّته : { وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأرض }

وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (6)

قوله تعالى { وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأرض } [القصص : 6] نعرف أن الأرض مكان يحدث فيه الحدَث ، لأن كل حَدَث يحتاج إلى زمان وإلى مكان ، فالمعنى : نجعل الأرض مكاناً لممكَّن فيها ، والتمكين يعني : يتصرف فيها تسلطاً ، ويأخذ خيرها .
وقد شرح الحق سبحانه لنا التمكين في عدة مواضع من القرآن ، ففي قصة يوسف عليه السلام : { إِنَّكَ اليوم لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ } [يوسف : 54] مكين يعني : لك عندنا مكانة ومركز ثابت لا ينالُك أحد بشيء ، ومنها قوله تعالى : { وكذلك مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأرض } [يوسف : 21] يعني : أعطيناه سلطة يأخذ بها خير المكان ، ثم يُصرِّف هذا الخير للآخرين .
وقوله تعالى : { وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ } [القصص : 6] وهامان هو وزير فرعون ، ولا بد أنه كان لكل منهما جنود خاصة غير جنود الدولة عامة ، كما نقول الآن : الحرس الجمهوري ، و الحرس الملكي ، والجيش .
أو : أن هامان يصنع من باطن فرعون ، فالملِك لا يزاول أموره إلا بواسطة وزرائه ، وفي هذه الحالة يأخذ الجنود الأوامر من هامان . أو : أن هامان كان له سلطة ومركز قوة لا تقل أهمية عن سلطة فرعون ، وربما رفع رأسه وتطاول على فرعون في قوت من الأوقات .
وقد رأينا هذا عندنا في مصر لذلك يقولون في المثل الريفي المعروف : تقول لمن يحاول خداعك (على هامان) ؟ يعني : أنا لا تنطلي عليَّ هذه الحيل .
والضمير في { مِنْهُمْ } [القصص : 6] يعود على المستضعفين { مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ } [القصص : 6] أي : سنريهم الشيء الذي يخافون منه ، والمراد النبوءة التي جاءتهم ، إما عن طريق الكهنة ، أوعن طريق الرُّؤيا ، حيث رأى فرعون ناراً تأتي من بيت المقدس ، وتتسلط على القِبْط في مصر ، لكنها لا تؤذي بني إسرائيل ، فلما عبَّروا له هذه الرؤيا قال : لا بد أنه سيأتي من هذه البلد من يسلب مني مُلْكي .
ويُرْوى أنه الكهنة أخبروه أنه سيُولد في هذه السنة مولود يكون ذهاب مُلْكك على يديه .
فسوف يرى فرعون وقومه هذه المسألة بأعينهم ويباشروها بأنفسهم ، وسيقع هذا الذي يخافون منه؛ لذلك أمر فرعون بقتْل الذكْران من بني إسرائيل ليحتاط لأمره ، ويُبقِي على مُلْكه ، لكن هذا الاحتياط لم يُغنِ عنه شيئاً .
ثم يقول الحق سبحانه : { وَأَوْحَيْنَآ إلى أُمِّ موسى }

وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (7)

عجيب أمر فرعون ، فبعد أن أمر بقتل الأولاد من بني إسرائيل يأتيه في البحر تابوت به طفل رضيع ، فلا يخطر على باله أن أهله ألقوه في البحر لينجو من فرعون ، فكيف فاتتْه هذه المسألة وهو إله؟ لم يعرفها بألوهيته ، ولا عرفها حتى بذكائه وفِطْنته .

وإذا كان الكهنة أخبروه بأن ذهاب مُلْكه على يد وليد من هؤلاء الأولاد ، وإذا كانت هذه النبوءة صحيحة فلا بُدَّ أن الولد سينجو من القتل ويكبر ، ويقضي على مُلْك فرعون ، وما دام الأمر كذلك فسوف يقتل فرعون الأولاد غير الذي سيكون ذهاب مُلْكه على يديه .

وتشاء إرادة الله أنْ يتربَّى موسى في قصر فرعون ، وأنْ تأتي إليه أمه السيدة الفقيرة لتعيش معه عيشة الترف والثراء ، ويصير موسى بقدرة الله قُرَّة عَيْن للملكة ، فانظر إلى هذا التغفيل ، تغفيل عقل وطمس على بصيرة فرعون الذي ادَّعى الألوهية .

وبذلك نفهم قول الله تعالى : { وَاعْلَمُواْ أَنَّ الله يَحُولُ بَيْنَ المرء وَقَلْبِهِ } [الأنفال : 24] فقلبه يُغطِّي على بصيرته ويُعمِّيها .

قوله تعالى لأم موسى : { أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي اليم } [القصص : 7] فمَنْ مِنَ النساء تقبل إنْ خافت على ولدها أنْ تُلقيه في اليم؟ مَنْ ترضى أَنْ تُنجيه من موت مظنون إلى موت محقق؟ وقد جعل الحق سبحانه عاطفة الأمومة تتلاشى أمام وارد الرحمن الذي أتاها ، والذي لا يؤثر فيه وارد الشيطان .

ثم يهيىء الحق سبحانه كذلك امرأة فرعون ليتم هذا التدبير الإلهي لموسى فتقول { قُرَّةُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ } [القصص : 9] .

فيرد عليها فرعون : بل لك أنت وحدك ، وكأنه يستشعر ما سيحدث ، ولكن إرادة الله لا بُدَّ نافذة ولا بُدَّ أن يأخذ القدر مجراه لا يمنعه شيء؛ لأن الله تعالى إذا أراد شيئاً فلا رادّ لإرادته .

فمع ما علمه فرعون من أمر الرؤيا أو النبوءة رُبِّي الوليد في بيته ، ولا يخلو الأمر أيضاً من سيطرة المرأة على الرجل في مثل هذا الموقف .

لذلك النبي صلى الله عليه وسلم حينما قُرِئت هذه الآية قال : « والذي يُحلف به ، لو قال فرعون كما قالت امرأته قرة عين لي ولك لهداه الله كما هداها » إنما ردَّ الخير الذي ساقه الله إليه؛ لذلك أسلمتْ زوجته وماتت على الإيمان .

وهي التي قالت : { رَبِّ ابن لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الجنة وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ القوم الظالمين } [التحريم : 11] أما هو فمات على كفره شَرَّ ميتة .

وسبق أنْ تكلّمنا في وحي الله لأم موسى { وَأَوْحَيْنَآ إلى أُمِّ موسى أَنْ أَرْضِعِيهِ } [القصص : 7]

وقلنا : إن الوحي في عموم اللغة : إعلام بطريق خفي دون أن تبحث عن الموحِي ، أو الموحَى إليه ، أو الموحَى به .

أما الوَحْي الشرعي فإعلام من الله تعالى لرسوله بمنهج لخَلْقه .
فالله تعالى يوحي للملائكة : { إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الملائكة أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الذين آمَنُواْ } [الأنفال : 12] .
ويُوحى إلى الرسل : { إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إلى نُوحٍ والنبيين مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَآ إلى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ } [النساء : 163] .
ويُوحي للمؤمنين الصادقين في خدمة رسول : { وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الحواريين أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي } [المائدة : 111] .
يوحي إلى النحل ، بل وإلى الجماد : { إِذَا زُلْزِلَتِ الأرض زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الأرض أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الإنسان مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أوحى لَهَا } [الزلزلة : 15] .
وقد يكون الإعلام والوحي من الشيطان : { وَإِنَّ الشياطين لَيُوحُونَ إلى أَوْلِيَآئِهِمْ } [الأنعام : 121] .
ويكون من الضالين : { يُوحِي بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ زُخْرُفَ القول غُرُوراً } [الأنعام : 112] .
فالوَحْي إلى أم موسى كان وَحْياً من المرتبة الرابعة بطريق النَّفْث في الروع ، أو الإلهام ، أو برؤيا ، أو بملَك يُكلِّمها ، هذا كله يصح .
وهذا الوحي من الله ، وموضوعه { أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي اليم } [القصص : 7] وهذا أمر { وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تحزني } [القصص : 7] نهى { إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ المرسلين } [القصص : 7] وهذه بشارة في خبرين . فهذه الآية إذن جمعتْ لأم موسى أمرين ، ونهيين ، وبشارتين في إيجاز بليغ مُعْجز .
ومعنى { أَرْضِعِيهِ } [القصص : 7] يعني : مدة أمانك عليه { فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ } [القصص : 7] ولم يقل من أيّ شيء ليدلّ على أيّ مخوف تخشاه على وليدها { فَأَلْقِيهِ فِي اليم } [القصص : 7] ويراعي الحق سبحانه مشاعر الأم وقَلَقها على ولدها ، خاصة إذا ألقتْه في البحر فيطمئنها { وَلاَ تَخَافِي } [القصص : 7] لأن الله سيُيسِّر له تربية خيراً من تربيتك في ظل بيت الغِنَى والمُلْك .
{ وَلاَ تحزني } [القصص : 7] أي : لفراقه؛ لأن هذا الفراق سيُعوِّضك ، ويُعوِّض الدنيا كلها خيراً ، حين يقضي على هذا الطاغية ، ويأتي بمنهج الله الذي يحكم خَلْق الله في الأرض .
ثم اعلمي بعد هذا أن الله رادُّه إليك ، بل وجاعله من المرسلين ، إذن : أنا الذي أحفظه ، وليس من أجلك فحسب ، إنما أيضاً لأن له مهمة عندي .

يقولون : ظلت أم موسى تُرضِعه في بيتها طالما كانت آمنة عليه من أعين فرعون ، إلى أنْ جاءها أحَد العسس يفتش البيت فخافت على الولد فلفته في خرقة ودسته في فجوة بجوارها ، كانت هذه الفجوة هي الفُرْن ، ألقتْه فيه وهو مسجور دون أن تشعر يعني من شدة خوفها عليه حتى إذا ما انصرف العَسَس ذهبت إليه ، فإذا به سالماً لم يُصِبْه سوء . وكأن الله تعالى يريد لها أنْ تطمئن على حِفْظ الله له ، وأن وعده الحق .

وقد وردت مسألة وحي الله لأم موسى في كتاب الله مرتين مما دعا السطحيين من المستشرقين إلى اتهام القرآن بالتكرار الذي لا فائدةَ منه ، وذكروا قوله تعالى :

{ إِذْ أَوْحَيْنَآ إلى أُمِّكَ مَا يوحى * أَنِ اقذفيه فِي التابوت فاقذفيه فِي اليم فَلْيُلْقِهِ اليم بالساحل يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ على عيني } [طه : 3839] .

لكن فَرْق بين الوحي الأول والوحي الآخر : الوحي الأول خاص بالرضاعة في مدة الأمان ، أما الآخر فبعد أنْ خافت عليه أوحى إليها لتقذفه في اليم .

وتأمل { أَنِ اقذفيه } [طه : 39] والقذف إلقاء بقوة ، لا أنْ تضعه بحنان ورفق؛ لأن عناية الله ستحفظه على أي حال { فَلْيُلْقِهِ اليم بالساحل } [طه : 39] وهذا أمر من الله تعالى لليمّ أن يخرج الوليد سالماً إلى الساحل؛ لذلك لم يأت في هذا الوحي ذِكْر لعملية الرضاعة .

فكأن الوحي الأول جاء تمهيداً لما سيحدث؛ لتستعد الأم نفسياً لهذا العمل ، ثم جاء الوحي الثاني للممارسة والتنفيذ ، كما تُحدِّث جارك ، وتُحذِّره من اللصوص وتنصحه أنْ يحتاط لهذا الأمر ، فإذا ما دخل الليل حدث فعلاً ما حذّرتَه منه فَرُحْت تنادي عليه ليسرع إليهم ويضربهم .

لذلك يختلف أسلوب الكلام في الوحي الأول ، فيأتي رتيباً مطمئناً : { أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي اليم وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تحزني إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ المرسلين } [القصص : 7] هكذا في نبرة هادئة لأن المقام مقام نصح وتمهيد ، لا مقام أحداث وتنفيذ .

أما الوحي الثاني فيأتي في سرعة ، وبنبرة حادة : { أَنِ اقذفيه فِي التابوت فاقذفيه فِي اليم فَلْيُلْقِهِ اليم بالساحل } [طه : 39] فالعَجلة في اللفظ تدلُّ على أن المقام مقام مباشرة للحدث فعلاً .

وفي الأولى قال { فَأَلْقِيهِ } [القصص : 7] ، أما في الثانية فقال { فاقذفيه } [طه : 39] والأم لا تقذف وليدها ، بل تضعه بحنان وشفقة ، لكن الوقت هنا ضيِّق لا يتسع لممارسة الحنان والشفقة .

والأمر لليمّ بأن يلقي التابوت بالساحل له حكمة؛ لأن العمق موضع الحيوانات البحرية المتوحشة التي يُخاف منها ، أمَّا بالقُرْب من الساحل فلا يوجد إلا صغار الأسماك التي لا خطورة منها ، وكذلك ليكون على مَرْأى العين ، فيطمئن عليه أهله ، ويراه مَنْ ينقذه ليصل إلى البيت الذي

قُدِّر له أنْ يتربّى فيه .

وفعلاً ، وصل التابوت إلى الساحل ، وكان فرعون وزوجته آسية وابنته على الشاطىء ، فلما أُخرِج لهم التابوت وجدوا فيه الطفل الرضيع ، وكان موسى عليه السلام أسمر اللون ، مُجعَّد الشعر ، كبير الأنف ، يعني لم يكُنْ عليه السلام جميلاً تنجذب إليه الإنظار ويفرح به مَنْ يراه .

لذلك يمتنُّ الله عليه بقوله : { وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي } [طه : 39] أي : ليس بذاتك أن يحبك مَنْ يراك إنما بمحبة الله ، لذلك ساعة رأته آسية أحبَّته وانشرح صدرها برؤيته ، فتمسكَّت به رغم معارضة فرعون لذلك .

كما أن ابنة فرعون ، وكانت فتاة مبروصة أصابها البرص ، ورأت في الرؤيا أن شفاءها سيكون بشيء يخرج من البحر ، فتأخذ من ريقه ، وتدهن موضع البرص فيشفى ، فلما رأتْ موسى تذكرتْ رؤياها ، فأخذت من ريقه ودهنتْ جلدها ، فشُفِيت في الحال فتشبثتْ به هي أيضاً .

فاجتمع لموسى محبة الزوجة ، ومحبة البنت ، وهما بالذات أصحاب الكلمة المسموعة لدى فرعون ، بحيث لا يرد لهما طلباً .

وفي انصياع فرعون لرغبة زوجته وابنته وضعفه أمامهما رغم ما يعلم من أمر الطفل دليلٌ على أن الزوجة والأولاد هما نقطة الضعف عند الرجل ، ووسيلة السيطرة على شهامته وحزمه ، والضغط على مراداته .

لذلك يطمئننا الحق تبارك وتعالى على نفسه ، فيقول سبحانه وتعالى { مَا اتخذ صَاحِبَةً وَلاَ وَلَداً } [الجن : 3] .

ذلك لأن الصاحبة غالباً ما تستميل زوجها بوسيلة أو بأخرى ، أما الولد فيدعو الأب إلى الجبْن والخضوع ، والحق تبارك وتعالى لا يوجد لديه مراكز قوى ، تضغط عليه في أي شيء ، فهو سبحانه مُنزَّه عن كل نقص .

وحكوا في دعابات أبي نواس أن أحدهم وسَّطه ليشفع له عند الخليفة هارون الرشيد ، فشفع له أبو نواس ، لكن الخليفة لم يُجِبْه إلى طلبه ، وانتظر الرجل دون جدوى ، ففكر في وساطة أخرى ، واستشفع بآخر عند زبيدة زوجة الرشيد ، فلما كلَّمته أسرع إلى إجابة الرجل ، وهنا غضب أبو نواس وعاتب صاحبه الرشيد ، لكنه لم يهتم به ، فقال له اسمع إذن :

ليسَ الشَّفِيعُ الذِي يأتِيكَ مُؤتزراً ... مثْلَ الشَّفِيع الذِي يأتِيكَ عُرْيانا

ولهذه العناية الإلهية بموسى عليه السلام نلحظ أنه لما قال له ربه { اذهب إلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طغى } [طه : 24] خاف موسى من هذه المهمة ، وكان اسم فرعون في هذا الوقت يُلقي الرعب في النفوس ، حتى أن موسى وهارون قالا { رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يطغى } [طه : 45] .

لذلك طلب موسى من ربه ما يُعينه على القيام بمهمته : { قَالَ رَبِّ اشرح لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لي أَمْرِي * واحلل عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُواْ قَوْلِي * واجعل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشدد بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي *كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً * وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً * إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً * قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ ياموسى * وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أخرى } [طه : 2537] .

أي : أوتيت كل مسئولك ومطلوبك .

ثم يقول الحق سبحانه : { فالتقطه آلُ فِرْعَوْنَ }

فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (8)

اللَّقطُ واللُّقطة : أن تجد شيئاً بدون طلب له ، ومنه اللقيط ، وهو الطفل الرضيع تجده في الطريق دون قَصْد منك ، أو بحث . وكذلك كان الأمر مع التابوت ، فقد جاء آل فرعون وهم جلوس لم يَسْمعَوْا إليه ، ولم يطلبوه ، فما أنْ رأوه أخذوه ، لكن ما علة التقاطه؟

الزوجة قالت { قُرَّةُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ } [القصص : 9] وقالت في حيثية أخرى : { عسى أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً } [القصص : 9] فلم يكن لهم بنون ، فأرادوا أخاً للبنت ، وأرادته البنت صيدلية علاج ، لكن هل ظلتْ هذه العلة قائمة ووجدت فعلاً؟

لا ، إنما التقطوه لتقدير آخر { لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً } [القصص : 8] لا ليكون قرة عين ، فاللام هنا في { لِيَكُونَ } [القصص : 8] لام العاقبة يعني : كان يفكر لشيء ، فجاءت العاقبة بشيء آخر .

وفي هذا إشارة وبيان لغباء فرعون والطمس على بصيرته وهو الإله!! فبعد أنْ حذَّره الكهنة ، وبعد الرُّؤْيا التي رآها وعِلْمه بخطورة هذا المولود على مُلْكه وعلى حياته يرضى أنْ يُربّيه في بيته ، وهذا دليل صِدْق قوله تعالى : { وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ المرءِ وَقَلْبِهِ } [الأنفال : 24] .

ومعنى { وَحَزَناً } [القصص : 8] يعني حُزْن مثل : عَدَم وعُدْم ، وسَقَم وسُقْم ، وبَخَل وبُخْل ، فالمعنى يأتي بالصيغتين .

وقول الحق سبحانه : { إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَاطِئِينَ } [القصص : 8] .

هم خاطئون؛ لأن تصرفاتهم لا تتناسب مع ما عرفوه من أمر الوليد ، فلم يُقدِّروا المسائل ، ولم يستنبطوا العواقب ، وكان عليهم أن يشكُّوا في أمر طفل جاء على هذه الحالة ، فلا بُدَّ أن أهله قصدوا نجاته من يد فرعون .

وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (9)

معنى { قُرَّةُ عَيْنٍ } [القصص : 9] مادة قرَّ تقول : قرَّ بالمكان يعني : أقام وثبت به ، ومنه قرور يعني : ثبات ، وتأتي قرَّ بمعنى البرد الشديد ، ومنه قول الشاعر :

أَوْقِدْ فإنَّ الليْلَ لَيْلٌ قُرٌّ ... والرِّيحُ يَا غُلاَمُ رِيحٌ صرّ

إنْ جلبْتَ ضَيْفاً فأنتَ حُرّ ... إذن : قرة العين إما بمعنى ثباتها وعدم حركتها ، وثبات العين واستقرارها إما يكون ثباتاً حسياً ، أو معنوياً ، والثبات المعنوي : أنْ تستقر العين على منظر أو شيء بحيث تكتفي وتقنع به ، ويغنيها عن التطلُّع لغيره .

ومنه قولهم : فلان ليس له تطلعات أخرى ، يعني اكتفى بما عنده ، ومنه ما قال تعالى مخاطباً نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم : { وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إلى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ } [طه : 131] .

لذلك يُسمُّون الشيء الجميل الذي يجذب النظر ، فلا ينظر إلى غيره (قيد النظر) يقول الشاعر :

سَمَّرْتُ عَيْنِي فِي القَمَرِ ... فَنَالَ مِنِّي مَنْ نَظَر

يَا لَيْتَ لائمي عذر ... فحُسْنه قَيْد النَّظْرْ

أما الثبات الحسي فيعني : ثبات العين في ذاتها بحيث لا ترى ، ومنه قول المرأة للخليفة : أقرَّ الله عينك ، وأتم عليك نعمتك . تُوهِم أنها تدعو له ، وهي في الحقيقة تدعو عليه تقصد : أقرَّ الله عينك .

يعني : سكَّنها وجمدها بالعمى ، وأتمَّ عليك نعمتك . وتمام الشيء بداية نقصه على حَدِّ قول الشاعر :

إِذَا تَمَّ شَيء بَدَا نَقْصُه ... ترقَّبْ زَوَالاً إِذاَ قِيلَ تَمّ

أما القرُّ بمعنى البرد ، فمن المعلوم عن الحرارة أن من طبيعتها الاستطراق والانتشار في المكان ، لكن حكمة الله خرقتْ هذه القاعدة في حرارة جسم الإنسان ، حيث جعل لكل عضو فيه حرارته الخاصة ، فالجلد الخارجي تقف حرارته الطبيعية عند 37° ، في حين أن الكبد مثلاً لا يؤدي مهمته إلا عند 40° .

أما العين فإذا زادتْ حرارتها عن 9° تنصهر ، ويفقد الإنسان البصر ، والعجيب أنهما عضوان في جسم واحد ، فهي آية من آيات الله في الخلق ، لذلك حين ندعو لشخص نقول له : أقرَّ الله عينك يعني : جعلها باردة سالمة ، ألاَ ترى أن الإنسان إذا غَضِب تسخنُ عينه ويحمّر وجهه؟

فالمعنى هنا { قُرَّةُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ } [القصص : 9] يعني يكون نعمة ومتعة لنا ، نفرح به ونقنع ، فلا ننظر إلى غيره .

وفي موضع آخر يشرح لنا الحق سبحانه قُرَّة العين : { قَدْ يَعْلَمُ الله المعوقين مِنكُمْ والقآئلين لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلاَ يَأْتُونَ البأس إِلاَّ قَلِيلاً * أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَآءَ الخوف رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ

إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كالذي يغشى عَلَيْهِ مِنَ الموت } [الأحزاب : 1819] .
فهؤلاء تدور أعينهم هنا وهناك كما نقول نحن : (فلان عينه لا بجة) يعني : لا تهدأ ، إما من خوف ، أو من قلق ، أو من اضطراب ، وهذا كله ينافي قُرَّة العين .
وقولها بعد ذلك { لاَ تَقْتُلُوهُ } [القصص : 9] تعني : أنهم فعلاً همُّوا بقتله ، ففي بالهم إذن أن هلاك فرعون على يدي هذا الطفل ، وهم على يقين من ذلك .
{ عسى أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ } [القصص : 9] يعني : لا يشعرون بنفعه لهم أو عدم نفعه ، وهل سيكون لهم ولداً أم عدواً؟
ثم يقول الحق سبحانه : { وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ موسى }

وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (10)

الفؤاد : هو القلب ، لكن لا يُسمى القلب فؤاداً إلا إذا كانت فيه قضايا تحكم حركتك ، فالمعنى : أصبح فؤاد أم موسى { فَارِغاً } [القصص : 10] أي : لا شيء فيه مما يضبط السلوك ، فحين ذهبتْ لترمي بالطفل وتذكرت فراقه وما سيتعرض له من أخطار كادت مشاعر الأمومة عندها أن تكشف سِرَّها ، وكادت أنْ تسرقها هذه العاطفة .
{ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ } [القصص : 10] يعني : تكشف أمره { لولا أَن رَّبَطْنَا على قَلْبِهَا } [القصص : 10] .
وسبق أنْ قُلْنا : إن الإنسان يدرك الأشياء بآلات الإدراك عنده ، ثم يتحول هذا الإدراك إلى وجدان وعاطفة ، ثم إلى نزوع وعمل ، ومثَّلْنا لذلك بالوردة التي تراها بعينيك ، ثم تعجب بها ، ثم تنزع إلى قطفها ، وعند النزوع تواجهك قضايا في الفؤاد تقول لك : لا يحق لك ذلك ، فربما رفض صاحب البستان أو قاضاك ، فالوردة ليست مِلْكاً لك .
وكذلك أم موسى ، كان فؤادها فارغاً من القضية التي تُطمئنها على وليدها ، بحيث لا تُفشي عواطفها هذا السر .
ومعنى { رَّبَطْنَا على قَلْبِهَا } [القصص : 10] أي : ثبَّتْناها ليكون الأمر عندها عقيدة راسخة لا تطفو على سطح العاطفة ، ومن ذلك قوله تعالى عن أهل الكهف : { وَرَبَطْنَا على قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ السماوات والأرض } [الكهف : 14] .
إذن : الربْط على القلب معناه الاحتفاظ بالقضايا التي تتدخل في النزوع ، فإنْ كان لا يصح أن تفعل فلا تفعل ، وإنْ كان يصح أنْ تفعل فافعل ، فهذه القضايا الراسخة هي التي تضبط التصرفات ، وكان فؤاد أم موسى فارغاً منها .
لذلك نقول لمن يتكلم بالكلام الفارغ الذي لا معنى له : دَعْكَ من هذا الكلام الفارغ أي :

الذي لا معنى له ولا فائدةَ منه ، ومن ذلك قولهم : فلان عقله فارغ يعني : من القضايا النافعة . وإلا فليس هناك شيء فارغ تماماً ، لا بُدَّ أن يكون فيه شيء ، حتى لو كان الهواء .

ومنه قوله تعالى : { وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَآءٌ } [إبراهيم : 43] ويقولون في العامية : (فلان معندوش ولا الهوا) ذلك لأن الهواء آخر ما يمكن أن يفرغ منه الشيء .

ومعنى : { إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ } [القصص : 10] يعني : قاربت من فراغ فؤادها أن تقول إنه ولدي { لولا أَن رَّبَطْنَا على قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ المؤمنين } [القصص : 10] لإن الإيمان هو الذي يجلب لك النفع ، ويمنعك من الضار ، وإنْ كان فيه شهوة عاجلة لك ، فمنعها إيمانُها من شهوة الأمومة في هذا الموقف ، ومن ممارسة العطف والحنان الطبيعيين في الأم؛ لأن هذه شهوة عاجلة يتبعها ضرر كبير ، فإنْ أحسُّوا أنه ولدها قتلوه .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ }

وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (11)

قُصِّيه : يعني : تتبعي أثره ، وراقبي سيره إلى إين ذهب؟ وماذا فُعِل به؟ وحين سمعت الأخت هذا الأمر سارعتْ إلى التنفيذ؛ لذلك استخدم الفاء الدالة على التعقيب وسرعة الاستجابة { فَبَصُرَتْ بِهِ } [القصص : 11] ولم يقُلْ : فقصَّته؛ لأن البصر وإنْ كان بمعنى الرؤية إلا أنه يدل على العناية والاهتمام بالمرئي .

ومعنى : { عَن جُنُبٍ } [القصص : 11] من ناحية بحيث لا يراها أحد ، ولا يشعر بتتبعها له ، واهتمامها به . ومن ذلك ما حكاه القرآن من قول السامري : { بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِ } [طه : 96] أي : رأى من حيث لا يطَّلِع أحد عليه .

ونلحظ هنا أن أخت موسى أخذتْ الأمر من أمها { قُصِّيهِ } [القصص : 11] فقط ولم تلفت نظرها إلى هذا الاحتياط { عَن جُنُبٍ } [القصص : 11] مما يدلُّ على ذكاء الفتاة وقيامها بمهمتها على أكمل وجه ، وإن لم تُكلَّف بذلك ، وهذا من حكمة المرسَل الحريص على أداء رسالته على وجهها الصحيح .

ما أجملَ ما قاله الشاعر في هذا المعنى :

إِذَا كُنْتَ في حَاجةٍ مُرْسِلاً ... فأَرسِلْ حَكيماً ولاَ تُوصِهْ

وقوله تعالى : { عَن جُنُبٍ } [القصص : 11] يظن البعض أن جنب يعني قريب مني ، وهذا غير صحيح؛ لأن معنى الجنب ألاَّ تكون في مواجهتي ، لذلك يقول تعالى : { والجار ذِي القربى والجار الجنب } [النساء : 36] إذن : الجار الجنب مقابل الجار القريب ، فمعناه الجار البعيد .

فكأن الفتاة حين ذهبت لتتبع سَيْر التابوت أخذتْ مكاناً بعيداً منه ، حتى لا يفطن أحد إلى

متابعتها له .
ومن ذلك قولنا : (فلان تجنّبني ، أو فلان واخد جنب مني) أي : يبتعد عني ، إذن : البعض يفهم هذه الكلمة على عكس مدلولها .
ألاَ ترى لقول إبراهيم عليه السلام : { واجنبني وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأصنام } [إبراهيم : 35]
وقوله تعالى : { واجتنبوا قَوْلَ الزور } [الحج : 3] فالاجتناب يعني : الابتعاد .
وفي تحريم الخمر قال تعالى : { إِنَّمَا الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشيطان فاجتنبوه } [المائدة : 90] فطلع علينا مَنْ يقول : هذا ليس نصاً في التحريم ، لأنه لم يقُلْ حرَّمْت عليكم ، فهي مجرد موعظة ونصيحة .
ونقول : لو فهمت معنى { فاجتنبوه } [المائدة : 90] لعلمتَ أنها أقوى في التحريم من حرمت عليكم؛ لأن معنى حرَّمتْ عليكم الخمر يعني : لا تشربوها ، أما { فاجتنبوه } [المائدة : 90] يعني : ابتعدوا عنها كلية شُرْباً أو بَيْعاً ، أو شراء ، أو نقلاً ، أو حتى الجلوس في مجالسها .

ثم تتحدث الآيات بعد ذلك عن تمهيدات الأقدار للأقدار ، فتقول : { وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ المراضع }

وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (12)

التحريم هنا لا يعني التحريم بالنسبة للمكلَّف : هذا حلال وهذا حرام ، إنما { وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ المراضع } [القصص : 12] يعني : منعناه أنْ يرضع من المرضعات اللائي يأتونَ بهن لتتقلب عليه المراضع واحدة بعد الأخرى ، إلى أن تأتيه أمه .
و { المراضع } [القصص : 12] جمع مُرضِع ، ونقول أيضاً : مرضعة ، ولكل من اللفظين مدلول ، على خلاف ما يظنه البعض أنهما بمعنى واحد .
واقرأ أول سورة الحج : { يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ } [الحج : 2] .
المرضِع : التي من شأنها أنْ تُرضع ، وصالحة لهذه العملية ، لكن المرضعة التي تُرضع الآن فعلاً ، وعلة حِجْرها طفل يلتقم ثديها ، وفي موقف القيامة ستذهل هذه عن طفلها من هَوْل ما ترى ، إذن : فالتي تذهل هي المرضعة لا المرضع .
والضمير في { فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ } [القصص : 12] يعود على أخت موسى؛ لأنها ما زالت في مهمة تتبُّع الولد ، وقد سمعها هامان تقول { هَلْ أَدُلُّكُمْ على أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ } [القصص : 12] فقال لها : لا بدَّ أنك من أهل هذا الولد؟ وتعرفين قصَّته ، فقالت : بل ناصحون للملك مخلصون له . وفعلاً وافقوها على ما نصحتْ به؛ لأنهم معذورون ،

فالولد يأبى الرضاعة من الأخريات .

ثم يقول الحق سبحانه : { فَرَدَدْنَاهُ إلى أُمِّهِ }

فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (13)

وسبق أنْ وعدها الله : { إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ } [القصص : 7] وها هو أوانُ تحقيق الوعد الأول ، وهو بُشْرى بتحقُّق الوعد الثاني { وَجَاعِلُوهُ مِنَ المرسلين } [القصص : 7] لكن هذا في مستقبل الأيام ، وسوف يتحقق أيضاً .

وقوله سبحانه : { فَرَدَدْنَاهُ إلى أُمِّهِ } [القصص : 13] يدل على أن الاسباب في يد المسبب سبحانه ، فنحن الذين رددناه ، لا أخته ولا فرعون؛ لأننا نُسيِّر الامور على وَفْق مرادنا ، ونُمهّد لها الطريق حتى أننا نحول بين المرء وقلبه ، ولينفذ قضاؤنا فيه .

وقوله تعالى : { ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ } [القصص : 13] يعني : لا يعلمون أن وَعْد الله حق .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ }

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (14)

الأشُدّ : يعني القوة واكتمال النمو ، وقد حدّدوا لذلك سِنَّ الثامنة عشرة إلى العشرين { واستوى } [القصص : 14] الاستواء هو بلوغُ العقلِ مرحلةَ النضج الفكري ، فلما اكتملت لموسى عليه السلام قوة الجسم ونُضْج العقل { آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي المحسنين } [القصص : 14] .

ثم يقصُّ الحق سبحانه ، فيقول : { وَدَخَلَ المدينة على حِينِ غَفْلَةٍ }

وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (15)

أراد موسى عليه السلام أن يدخل القرية على حين غفلة من أهلها ، لأن بني إسرائيل كانوا مُضطهدين ، وكان القبط في بعض المدن ذاتَ الكثافة العددية منهم يُحرِّمون على بني إسرائيل دخول قراهم؛ لذلك اختار موسى وقت غفلة الناس ، لكنه لم يدخل في الليل لأنه لا يهتدي إلى الطريق ، فقيل : دخلها وقت القيلولة والناس في بيوتهم .

{ فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلاَنِ هذا مِن شِيعَتِهِ } [القصص : 15] يعني : من بني إسرائيل {

وهذا مِنْ عَدُوِّهِ } [القصص : 15] يعني : الأقباط { فاستغاثه } [القصص : 15] أي : طلب منه العَوْن والنجدة { فَوَكَزَهُ موسى } [القصص : 15] يعني : ضربه بجُمْع يديه ، فجاءت نهاية القبطي وأجله مع هذه الضربة ، لا أنه مات بها ، وكثيراً ما تحدثُ هذه المسألة في شجار مثلاً بين شخصين ، فيضرب أحدهما الآخر فيقع ميتاً ، وبتشريح جثته يتبين أنه مات بسبب آخر .

ومثال ذلك : حين تكلِّف شخصاً بقضاء حاجة لك ، أو تُوسّطه في أمر ما ، فيدخل عند المسئولين ويسعى إلى أن يقضي لك حاجتك فتقول : « فلان قضالي كذا وكذا » وهو في الحقيقة ما قضى في الأرض إلا بعد أن قضى الله في السماء .

لكن الله تعالى أراد أنْ يُكرم الواسطة ، فجعل قضاءها موافقاً لقضائه سبحانه ، فنقول في هذه الحالة : قضي الله المصلحة معه لا به .

كان القبط كما قُلْنا يكرهون بني إسرائيل ويُعذِّبونهم ، فلما قتلَ موسى القبطي زاد غضبهم وكراهيتهم لبني إسرائيل؛ لذلك أحسَّ موسى أن هذا العمل من الشيطان ، ليزيد هذه العداوة { إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ } [القصص : 15] .

قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (16)

يُعلمنا موسى عليه السلام أن الإنسان ساعة يقترف الذنب ، ويعتقد أنه أذنب لا يكابر ، إنما ينبغي عليه أنْ يعترف بذنبه وظلمه لنفسه ، ثم يبادر بالتوبة والاستغفار { قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فاغفر لِي } [القصص : 16] يعني : يا ربّ حكْمك هو الحقّ ، وأنا الظالم المعترف بظلمه .

ومن هنا كان الفَرْق بين معصية آدم عليه السلام ومعصية إبليس : آدم عصى واعترف بذنبه وأقرَّ به ، فقال { رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا } [الأعراف : 23] فقبل الله منه وغفر له . أما إبليس فعلَّل عدم سجوده : { أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً } [الإسراء : 61] وقال : { أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ } [ص : 76] فردَّ الحكم على الله .

لذلك نقول لمن يُفتي بغير ما شرع الله فيُحلِّل الحرام لسبب ما ، نقول له : احذر أنْ تردَّ على الله حكمه؛ لأنك إنْ فعلتَ فأنت كإبليس حين ردَّ على الله حُكمه ، لكن أفْتِ بالحكم الصحيح ، ثم تعلَّل بأن الظروف لا تساعد على تطبيقه ، فعلى الأقل تحتفظ بإيمانك ، والمعصية تمحوها التوبة والاستغفار ، أما الكفر فلا حيلةَ معه .

فلما استغفر موسى ربه غفر له { إِنَّهُ هُوَ الغفور الرحيم } [القصص : 16] يُعرف الذنب ، ثم يغفره رحمة بنا؛ لأن الإنسان حين تصيبه غفلة فيقع في المعصية إذا لم يجد باباً للتوبة وللرجوع يئس وفقد الأمل ، وتمادى في معصيته ونسميه (فاقد) عنده سُعار للجريمة ، ولا مانع لديه من

ارتكاب كل الذنوب .

إذن : فمشروعية التوبة الاستغفار تعطي المؤمن أملاً في أنه لن يُطرَدَ من رحمة الله ، لأن رحمة الله واسعة تسَع كل ذنوبه مهما كثُرتْ .

لذلك يقول تعالى في مشروعية التوبة { ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ليتوبوا } [التوبة : 118] والمعنى : شرع لهم التوبة ، وحثَّهم عليها ليتوبوا بالفعل فيقبل منهم .

ثم يقول الحق سبحانه : { قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ }

قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ (17)

قوله : { بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ } [القصص : 17] يعني : بالمغفرة وعذرتني وتُبْت عليَّ { فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ } [القصص : 17] أي : عهد الله عليَّ ألاَّ أكون مُعيناً للمجرمين .

ثم يقول الحق سبحانه : { فَأَصْبَحَ فِي المدينة }

فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ (18)

أي : بعد أن قتل موسى القبطيَّ صار خائفاً منهم { يَتَرَقَّبُ } [القصص : 18] .

ينظر في وجوه الناس ، يرقب انفعالاتهم نحوه ، فربما جاءوا ليأخذوه ، كما يقولون : يكاد المريب أنْ يقول : خذوني ، فلو جلس قوم في مكان ، ثم فاجأهم رجال الشرطة تراهم مطمئنين لا يخافون من شيء ، أما المجرم فيفر هارباً .

ومن ذلك ما يقوله أهل الريف : (اللي على راسه بطحة يحسس عليها) .

وهو على هذه الحال من الخوف والترقُّب إذ بالإسرائيلي الذي استغاث به بالأمس { يَسْتَصْرِخُهُ } [القصص : 18] استصرخ يعني : صرخ ، ونادى على مَنْ يُخلِّصه ، وهو انفعال للاستنجاد للخلاص من مأزق ، ومن ذلك قوله تعالى حكاية عن إبليس { مَّآ أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ } [إبراهيم : 22] .

وسبق أن تكلَّمنا في همزة الإزالة نقول : صرخ فلان يعني استنجد بأحد فأصرخه يعني : أزال سبب صراخه ، فمعنى الآية : أنا لا أزيل صراخكم ، ولا أنتم تزيلون صراخي .

عندها قال موسى عليه السلام لصاحبه الذي أوقعه في هذه الورطة بالأمس { إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ } [القصص : 18] تريد أنْ تُغْويَنِي بأنْ أفعل كما فعلت بالأمس ، وما كان موسى عليه السلام ليقع في نفس الخطأ الذي وقع فيه ، فلا يُلْدَغ المؤمن من جُحْر مرتين .

فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (19)

قوله تعالى : { فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بالذي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا } [القصص : 19] يعني : أن موسى حَنَّ مرة أخرى للذي من شيعته وهو الإسرائيلي وناصره ، ولكن الرجل القبطي هذه المرة واجهه { أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بالأمس } [القصص : 19] فهو يعرف ما حدث من موسى ، وما داموا قد عرفوا أنه القاتل ، فلا بُدَّ لهم أنْ يطلبوه ، وأن ينتقموا منه .

وقوله تعالى : { إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّاراً فِي الأرض وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ المصلحين } [القصص : 19] إنْ هنا نافية يعني : ما تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض ، فقد قتلتَ نفساً بالأمس ، وتريد أنْ تقتلني اليوم .

إذن : عرفوا أن موسى هو القاتل ، وهناك ولا بُدَّ مَنْ يسعى للإمساك به ، وفي هذا الموقف لحقه الرجل المؤمن : { وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى المدينة }

وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (20)

هو الرجل المؤمن من آل فرعون ، جاء لينصح موسى بالخروج والهرب قبل أنْ يُمسِكوا به فيقتلوه .

فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (21)

لأنهم يضطهدوننا ويعذبوننا من غير ما جريرة ، فما بالك بعد أنْ وجدوا فرصة وذريعة ليزدادوا ظلماً لنا؟

ثم يقول الحق سبحانه : { وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ }

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (22)

معنى { تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ } [القصص : 22] يعني : ناحيتها ، وأراد أنْ يهرب من مصر كلها ، ولم يكُنْ يقصد مدين بالذات ، إنما سار في طريق صادف أنْ يؤدي إلى مدين بلد شعيب عليه السلام .

ولو كانت مَدْينُ مقصودة له لما قال بعد توجهه : { عسى ربي أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ السبيل } [القصص : 22] فموسى حينما خرج من مصر خائفاً يريد الهرب لم يفكر في وجهة معينة ، فالذي يُهمه أنْ يخرج من هذه البلدة ، وينجو بنفسه .

وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (23)

عرض القرآن الكريم هذه القصة في إيجاز بليغ ، ومع إيجازها فقد أوضحتْ مهمة المرأة في مجتمعها ، ودور الرجل بالنسبة للمرأة ، والضرورة التي تُلجىء المرأة للخروج للعمل .

معنى { وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ } [القصص : 23] يعني : جاء عند الماء ، ولا يقتضي الورود أن يكون شَرِب منه . والورود بهذا المعنى حلَّ لنا الإشكال في قوله تعالى : { وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا } [مريم : 71] فليس المعنى دخول النار ، ومباشرة حَرِّها ، إنما ذاهبون إليها ، ونراها جميعنا إذن : وردْنا العَيْن . يعني : جئنا عندها ورأيناها ، لكن الشرب منها ، شيء آخر .

{ وَجَدَ عَلَيْهِ } [القصص : 23] أي : على الماء { أُمَّةً } [القصص : 23] جماعة { يَسْقُونَ } [القصص : 23] أي : مواشيهم { وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ } [القصص : 23] يعني : بعيداً عن الماء { امرأتين تَذُودَانِ } [القصص : 23] أي : تكفّان الغنم وتمنعانها من الشُّرْب لكثرة الزحام على الماء { قَالَ مَا خَطْبُكُمَا } [القصص : 23] أي : ما شأنكما؟

وفي الاستفهام هنا معنى التعجُّب يعني : لماذا تمنعان الغنم أنْ تشربَ ، وما أتيتُما إلا للسُّقْيا؟

{ قَالَتَا لاَ نَسْقِي حتى يُصْدِرَ الرعآء وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ } [القصص : 23] .

وقولهما { حتى يُصْدِرَ الرعآء } [القصص : 23] يعني : ينصرفوا عن الماء ، فصدر مقابل ورد ، فالآتي للماء : وارد ، والمنصرف عنه : صادر : نقول : صدر يَصْدُر أي : بذاته ، وأصدر يُصْدر أي : غيره .

فالمعنى : لا نَسْقِي حتى يسقي الناس وينصرفوا . و { الرعآء } [القصص : 23] جمع رَاعٍ . ثم يذكران العلَّة في خروجهما لِسقْي الغنم ومباشرة عمل الرجال { وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ } [القصص : 23] .

ثم يقول الحق سبحانه : { فسقى لَهُمَا ثُمَّ تولى }

فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (24)

معنا إذن في هذه القصة أحكام ثلاثة { لاَ نَسْقِي حتى يُصْدِرَ الرعآء } [القصص : 23] أعطَتْ حكماً و { وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ } [القصص : 23] أعطتْ حُكْماً و { فسقى لَهُمَا } [القصص : 24] أعطت حكماً ثالثاً .

وهذه الأحكام الثلاثة تُنظم للمجتمع المسلم مسألة عمل المرأة ، وما يجب علينا حينما تُضطر المرأة للعمل ، فمن الحكم الأول نعلم أن سَقْي الأنعام من عمل الرجال ، ومن الحكم الثاني نعلم أن المرأة لا تخرج للعمل إلا للضرورة ، ولا تؤدي مهمة الرجال إلا إذا عجز الرجل عن أداء هذه

المهمة { وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ } [القصص : 23] .
أما الحكم الثالث فيعلم المجتمع المسلم أو حتى الإنساني إذا رأى المراة قد خرجت للعمل فلا بد أنه ليس لها رجل يقوم بهذه المهمة ، فعليه أن يساعدها وأنْ يُيسِّر لها مهمتها .
وأذكر أنني حينما سافرت إلى السعودية سنة 1950 ركبتُ مع أحد الزملاء سيارته ، وفي الطريق رأيته نزل من سيارته ، وذهب إلى أحد المنازل ، وكان أمامه طاولة من الخشب مُغطَّاة بقطعة من القماش ، فأخذها ووضعها في السيارة ، ثم سِرْنا فسألتُه عما يفعل ، فقال : من عاداتنا إذا رأيتُ مثل هذه الطاولة على باب البيت ، فهي تعني أن صاحب البيت غير موجود ، وأن ربة البيت قد أعدَّتْ العجين ، وتريد مَنْ يخبزه فإذا مَرَّ أحدنا أخذه فخبزه ، ثم أعاد الطاولة إلى مكانها .
وفي قوله تعالى : { لاَ نَسْقِي حتى يُصْدِرَ الرعآء } [القصص : 23] إشارة إلى أن المرأة إذا اضطرتْ للخروج للعمل ، وتوفرْت لها هذه الضرورة عليها أنْ تأخذَ الضرورة بقدرها ، فلا تختلط بالرجال ، وأنْ تعزل نفسها عن مزاحمتهم والاحتكاك بهم ، وليس معنى أن الضرورة أخرجتْ المرأة لتقوم بعمل الرجال أنها أصبحتْ مثلهم ، فتبيح لنفسها الاختلاط بهم .
وقوله تعالى : { ثُمَّ تولى إِلَى الظل فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ } [القصص : 24] فكان موسى عليه السلام طوال رحلته إلى مَدْين مسافراً بلا زاد حتى أجهده الجوع ، وأصابه الهزال حتى صار جِلْداً على عظم ، وأكل من بقل الأرض ، وبعد أن سقى للمرأتين تولَّى إلى ظلِّ شجرة ليستريح ، وعندها لَهَج بهذا الدعاء { رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ } [القصص : 24] .
كأن الحق سبحانه وتعالى يريد من الضعيف أنْ يتجه إلى المعونة ، وحين يتجه إليها فلن يفعل هو ، إنما سيفعل الله له؛ لذلك نلحظ أن موسى في ندائه قال { رَبِّ } [القصص : 24] واختار صفة الربوبية ، ولم يقُلْ يا الله؛ لأن الألوهية تقتضي معبوداً ، له أوامر ونواهٍ ، أمّا الرب فهو المتولِّي للتربية والرعاية ، فقال : يا رب أنا عبدك ، وقد جئتَ بي إلى هذا الكون ، وأنا جائع أريد أن آكل .
ومعنى { أَنزَلْتَ } [القصص : 24] أن الخير منك في الحقيقة ، وإنْ جاءني على يد عبد مثلي؛ ذلك لأنك حين تُسلسل أيَّ خير في الدنيا لا بُدَّ أن ينتهي إلى الله المنعِم الأول ، وضربنا لذلك مثلاً برغيف العيش الذي تأكله ، بدايته نبتة لولا عناية الله ما نبتتْ .

لذلك يقولون في (الحمد لله) صيغة العموم في العموم ، حتى إنْ حمدتَ إنساناً على جميل أسداه إليك ، فأنت في الحقيقة تحمد الله حيث ينتهي إليه كُلُّ جميل .
إذن : فحمْد الناس من باطن حمد الله ، والحمد بكل صوره وبكل توجهاته ، حتى ولو كانت الأسباب عائدة على الله تعالى ، حتى يقول بعضهم : لا تحمد الله حتى تحمد الناس .

ذلك لأن أَزِمّة الأمور بيده تعالى ، وإنْ جعل الأسباب في أيدينا ، وهو سبحانه القادر وحده على تعطيل الأسباب ، وأذكر أن بعض الدول (باكستان) أعلنت عن وفرة عندهم في محصول القمح ، وأنها ستكفيهم وتفيض عنهم للتصدير ، وقبل أنْ ينضج المحصول أصابته جائحة فأهلكته ، فاختلفت كل حساباتهم ، حتى استوردوا القمح في هذا العام .

هذا معنى { رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ } [القصص : 24] فالخير منك يا رب ، وإنْ سُقْته إليَّ على يد عبد من عبيدك ، وفقري لا يكون إلا إليك ، وسؤالي لا يكون إلا لك .

ولم يكَدْ موسى عليه السلام ينتهي من مناجاته لربه حتى جاءه الفرج : { فَجَآءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي }

فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (25)

قوله : { إِحْدَاهُمَا } [القصص : 25] أي : أحدى المرأتين { تَمْشِي عَلَى استحيآء } [القصص : 25] يعني : مُستحية في مجيئها ، مُستحية في مِشْيتها { قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا } [القصص : 25] .

لما جاءتْه هذه الدعوة لم يتردد في قبولها ، وانتهز هذه الفرصة ، فهو يعلم أنها استجابة سريعة من ربه حين دعاه { رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ } [القصص : 24] وهي سبب من الأسباب يَمدُّه الله له ، وما كان له أنْ يردَّ أسباب الله ، فلم يتأبَّ ، ولم يرفض دعوة الأب .

ولم يذكر لنا السياق هنا كيف سار موسى والفتاة أبيها ، لكن يُرْوَى أنهما سارا في وقت تهبُّ فيه الرياح من خلفها ، وكانت الفتاة في الأمام لتدلّه على الطريق ، فلما ضمَّ الهواء ملابسها ، فوصفت عجيزتها ، قال لها : يا هذه ، سيري خلفي ودُلِّيني على الطريق .

وهذا أدب آخر من آدام النبوة .

{ فَلَمَّا جَآءَهُ } [القصص : 25] أي : سيدنا شعيب عليه السلام { وَقَصَّ عَلَيْهِ القصص } [القصص : 25] أي : ما كان بينه وبين القبطي { قَالَ لاَ تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ القوم الظالمين } [القصص : 25] يعني : طمأنه وهدَّأ من رَوْعه .

قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (26)

وهذا حكم رابع نستفيده من هذه الآيات ، نأخذه من قول الفتاة { يأبت استأجره } [القصص : 26] .

وفي قولها دليل على أنها لم تعشق الخروج للعمل ، إنما تطلب مَنْ يقوم به بدلاً عنها؛ لِتقَر في بيتها

.

ثم تذكر البنت حيثيات هذا العرض الذي عرضته على أبيها { إِنَّ خَيْرَ مَنِ استأجرت القوي الأمين } [القصص : 26] وهذان شرطان لا بُدَّ منهما في الأجير : قوة على العمل ، وأمانة في الاداء . وقد تسأل : ومن أين عرفتْ البنت أنه قوي أمين؟

قالوا : لأنه لما ذهب ليسقي لهما لم يزاحم الناس ، وإنما مال إلى ناحية أخرى وجد بها عُشْباً عرف أنه لا ينبت إلا عند ماء ، وفي هذا المكان أزاح حجراً كبيراً لا يقدر على إزاحته إلا عدة رجال ، ثم سقى لهما من تحت هذا الحجر ، وعرفتْ أنه أمين حينما رفض أن تسير أمامه ، حتى لا تظهر له مفاتن جسمها .

ويأتي دور الأب ، وما ينبغي له من الحزم في مثل هذه المواقف ، فالرجل سيكون أجيراً عنده ، وفي بيته بنتان ، سيتردد عليهما ذهاباً وإياباً ، ليلَ نهار ، والحكمة تقتضي إيجاد علاقة شرعية لوجوده في بيته؛ لذلك رأى أن يُزوِّجه إحداهما ليخلق وَضْعاً ، يستريح فيه الجميع : { قَالَ إِنِي أُرِيدُ }

قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (27)

في الأمثال نقول : (اخطب لبنتك ولا تخطب لابنك) ذلك لأن كبرياء الأب يمنعه أنْ يعرض ابنته على شاب فيه كلُّ صفات الزوج الصالح وإنْ كان القلة يفعلون ذلك وهذه الحكمة من الأب في أمر زواج ابنته تحلُّ لنا إشكالات كثيرة ، فكثيراً ما نجد الشاب سويَّ الدين ، سويَّ الأخلاق ، لكن مركزه الاجتماعي كما نقول دون مستوى البنت وأهلها ، فيتهيب أنْ يتقدّم لها فيُرفض .

وفي هذه الحالة على الأب أنْ يُجرِّىء الشاب على التقدم ، وأن يُلمح له بالقبول إن تقدَّم لابنته ،كأن يقول له : لماذا لم تتزوج يا ولد حتى الآن ، وألف بنت تتمناك؟ أو غير ذلك من عبارات التشجيع .

أما أن نرتقي إلى مستوى التصريح كسيدنا شعيب { إِني أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابنتي هَاتَيْنِ } [القصص : 27] فهذا شيء آخر ، وأدب عَالٍ من العارض ، ومن المعروض عليه ، وفي مجتمعاتنا كثير من الشباب والفتيات ينتظرون هذه الجرأة وهذا التشجيع من أولياء أمور النبات .

ألاَ ترى أن الله تعالى أباح لنا أن نُعرِّض بالزواج لمن تُوفِّي عنها زوجها ، قال تعالى : { وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النسآء } [البقرة : 235] ولا تخفي علينا عبارات التلميح التي تلفت نظر المرأة للزواج .

وقوله : { على أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ } [القصص : 27] أي : تكون أجيراً عندي ثماني

سنوات ، وهذا مَهْر الفتاة ، أراد به أن يُغلِي من قيمة ابنته ، حتى لا يقول زوجها : إنها رخيصة ، أو أن أباها رماها عليه .

{ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ الله مِنَ الصالحين } [القصص : 27] يعني : حينما تعايشني ستجدني طيبَ المعاملة ، وستعلم أنك مُوفّق في هذا النسب ، بل وستزيد هذه المدة محبة في البقاء معنا .

فأجاب موسى عليه السلام : { قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ }

قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (28)

أي : أنا بالخيار ، أقضي ثمانية ، أم عشرة { فَلاَ عُدْوَانَ عَلَيَّ والله على مَا نَقُولُ وَكِيلٌ } [القصص : 28] .

وقد أ خذ العلماء حُكْماً جديداً من هذه الآية ، وهو أن المطلوب عند عقد الزواج تسمية المهر ، ولا يشترط قبضه عند العقد ، فلَك أنْ تُؤجله كله وتجعله مُؤخّراً ، او تُؤجل بعضه ، وتدفع بعضه .

والمهر ثمن بُضْع المرأة ، بحيث إذا ماتت ذهب إلى تركتها ، وإذا مات الزوج يُؤخَذ من تركته ، بدليل أن شعيباً عليه السلام استأجر موسى ثماني أو عشر سنين ، وجعلها مهراً لابنته .

ونلحظ أن السياق هنا لم يذكر شيئاً عن الطعام ، مع أن موسى عليه السلام كان جائعاً ودعا ربه : { رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ } [القصص : 24] .

لكن يروي أهل السير أن شعيباً عليه السلام قدّم لموسى طعاماً ، وطلب منه أن يأكل ، فقال : أستغفر الله ، يعني : أنْ آكل من طعام .كأنه مقابل ما سقى للبنتين الغنم؛ لذلك قال : إنَّا أهل بيت لا نبيع عمل الآخرة بملء الأرض ذهباً ، فقال شعيب : كُلْ ، فإنَّا أهل بيت نطعم الطعام ونقري الضيف ، قال : الآن نأكل .

ثم يقول الحق سبحانه : { فَلَمَّا قضى مُوسَى الأجل }

فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (29)

قوله تعالى : { فَلَمَّا قضى مُوسَى الأجل } [القصص : 29] أي : الذي اتفق عليه مع شعيب عليه السلام { وَسَارَ بِأَهْلِهِ } [القصص : 29] قلنا : إن الأهل تُطلق على الزوجة ، وفي لغتنا العامية نقول : معي أهلي أو الجماعة ونقصد الزوجة؛ لذلك لأن الزوجة تقضي لزوجها من المصالح ما لا يقدر عليه إلا جماعة ، بل وتزيد على الجماعة بشيء خاص لا يؤديه عنها غيرها ،

وهو مسألة المعاشرة؛ لذلك حَلَّتْ محلَّ جماعة .

ومعنى { آنَسَ } [القصص : 29] يعني : أبصر ورأى أو أحسَّ بشيء من الأُنْس ، { الطور } [القصص : 29] اسم الجبل { قَالَ لأَهْلِهِ امكثوا } [القصص : 29] انتظروا { إني آنَسْتُ نَاراً } [القصص : 29] يخبرها بوجود النار ، وهذا يعني أنها لم تَرَها كما رآها هو .

وهذا دليل على أنها ليست ناراً مادية يُوقِدها بشر ، وإلا لاستوى أهله معه في رؤيتها ، فهذا إذن أمر خاص به { لعلي آتِيكُمْ مِّنْهَا بِخَبَرٍ } [القصص : 29] يعني : رجاءَ أنْ أجد مَنْ يخبرنا عن الطريق ، ويهدينا إلى أين نتوجه { أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النار لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ } [القصص : 29] .

الجذوة : قطعة من نار متوهجة ليس لها لَهَب ، ومعنى تصطلون أي : تستدفئون بها ، وفي موضع آخر قال : { بِشِهَابٍ قَبَسٍ . . . } [النمل : 7] يعني : شعلة لها لسان ولهب ، فمأربهم – إذن – على هذه الحال أمران : مَنْ يخبرهم بالطريق حيث تاهَتْ بهم الخُطَى في مكان لا يعرفونه ، ثم جذوة نار يستدفئون بها من البرد .

وفي موضع آخر لهذه القصة لم يذكر قوله تعالى : { قَالَ لأَهْلِهِ } [القصص : 29] وهذا من المآخذ التي يأخذها السطحيون على أسلوب القرآن ، لكن بتأمل الموقف نرى أنه أخذ صورة المحاورة بين موسى وأهله .

فزوجة وزوجها ضَمَّهما الظلام في مكان موحش ، لا يعرفون به شيئاً ، ولا يهتدون إلى طريق ، والجو شديد البرودة ، فمن الطبيعي حين يقول لها : إني رأيت ناراً سأذهب لأقتبس منها أن تقول له : كيف تتركني وحدي في هذا المكان؟ فربما تضلّ أنت أو أضلّ أنا ، فيقول لها { امكثوا . . . } [القصص : 29] إذن : لا بُدَّ أن هذه العبارة تكررتْ على صيغتين كما حكاها القرآن الكريم .

كذلك في : { سَآتِيكُمْ . . . } [النمل : 7] وفي مرة أخرى { لعلي آتِيكُمْ . . . } [القصص : 29] قالوا : لأنه لما رأى النار قال : { سَآتِيكُمْ . . . . } [النمل : 7] على وجه اليقين ، لكن لما راجع نفسه ، فربما طفئت قبل أن يصل إليها استدراك ، فقال { لعلي آتِيكُمْ . . } [القصص : 29] على سبيل رجاء غير المتيقن . { فَلَمَّآ أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِىءِ الوادي . . . } .

فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (30)

وكأن الحق – تبارك وتعالى – يريد أنْ يعطينا خريطة تفصيلية للمكان ، فهناك مَنْ قال : من جانب الطور ، والجانب الأيمن من الطور . وهنا : { مِن شَاطِىءِ الوادي الأيمن في البقعة المباركة مِنَ الشجرة . . . } [القصص : 30] .

ومضمون النداء : { ياموسى إني أَنَا الله رَبُّ العالمين } [القصص : 30] سمع موسى هذا النداء يأتيه من كل نواحيه ، وينساب في كل اتجاه؛ لأن الله تعالى لا تحيزه جهة؛ لذلك لا تقُلْ : من أين يأتي الصوت؟ وليس له إِلْفٌ بأن يخاطبه الرب – تبارك وتعالى .

ومع النداء يرى النار تشتعل في فرع من الشجرة ، النار تزداد اشتعالاً ، والشجرة تزداد خضرة ، فلا النار تحرق الشجرة بحرارتها ، ولا الشجرة تُطفيء النار برطوبتها . فهي – إذن – مسألة عجيبة يحَارُ فيها الفكر ، فهل يستقبل كُلَّ هذه العجائب بسهولة أم لا بُدَّ له من مراجعة؟

ثم يقول الحق سبحانه : { وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ . . . } .

وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (31)

وفي موضع آخر يسأله ربه ليُؤنسه : { وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ ياموسى } [طه : 17] وقلْنا : إن موسى – عليه السلام – أطال في هذا الموقف ليطيل مُدَّة الأُنْس بربه ، فلما أحسَّ أنه أسرف وأطال قال : { وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أخرى } [طه : 18] فأطنب أولاً ليزداد أُنْسه بربه ، ثم أوجز ليظل أدبه مع ربه .

أما هنا فيأتي الأمر مباشرة ليُوظِّف العصا : { وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ . . } [القصص : 31] .

وقوله : { فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ ولى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ . . . } [القصص : 31] لأنه رأى عجيبة أخرى أعجب مما سبق فلو سلَّمنا باشتعال النار في خُضْرة الشجرة ، فكيف نُسلِّم بانقلاب العصا جاناً يسعى ويتحرك؟

وكان من الممكن أنْ تنقلبَ العصا الجافة إلى شجرة خضراء من جنس العصا ، وتكون أيضاً معجزة ، أما أنْ تتحول إلى جنس آخر ، وتتعدَّى النباتية إلى الحيوانية والحيوانية المتحركة المخيفة ، فهذا شيء عجيب غير مألوف .

وهنا كلام محذوف؛ لأن القرآن الكريم مبنيٌّ على الإيجاز ، فالتقدير : فألقى موسى عصاه { فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ ولى مُدْبِراً . . . } [القصص : 31] ذلك ليترك للعقل فرصة الاستنباط ، ويُحرِّك الذِّهْن لمتابعة الأحداث .

والجانُّ ، قُلْنا هو فرخ الحية ، وقد صُوِّرَتْ العصا في هذه القصة بأنها : جانٌّ ، وثعبان ، وحية . وهي صورة ثلاثة للشيء الواحد ، فهي في خفَّتِها جانٌّ ، وفي طولها ثعبان ، وفي غِلَظها حية .

ومعنى { ولى مُدْبِراً . . } [القصص : 31] يعني : انصرف خائفاً ، { وَلَمْ يُعَقِّبْ . . } [القصص : 31] لم يلتفت إلى الوراء ، فناداه ربه : { ياموسى أَقْبِلْ وَلاَ تَخَفْ . . . } [القصص : 31] يعني : ارجع ولا تخَفْ من شيء ، ثم يعطيه القضية التي يجب أن تصاحبه في كل تحركاته في دعوته { إِنَّكَ مِنَ الآمنين } [القصص : 31] فلم يقل ارجع فسوف أؤمنك في هذا الموقف

إنما { إِنَّكَ مِنَ الآمنين } [القصص : 31] .
يعني : هي قضية مستمرة ملازمة لك؛ لأنك في مَعيّة الله ، ومَنْ كان في معية الله لا يخاف ، وإلا لو خِفْتَ الآن ، فماذا ستفعل أمام فرعون .
وهكذا يعطي الحق – سبحانه وتعالى – لموسى – عليه السلام – دُرْبة معه سبحانه ، ودُرْبة حتى يواجه فرعون وسَحرته والملأ جميعاً دُرْبة مع سبحانه ، ودُرْبة حتى يواجه فرعون وسَحرته والملأ جميعاً دون خوف ولا وَجَل ، وليكون على ثقة من نصر الله وتأييده في جولته الأخيرة أمام فرعون .

وقد انتفع موسى – عليه السلام – بكل هذه المواقف ، وتعلَّم من هذه العجائب التي رآها فزادتْه ثقةً وثباتاً؛ لذلك لما كاد فرعون أنْ يلحق بجنوده موسى وقومه ، وقالوا : { إِنَّا لَمُدْرَكُونَ } [الشعراء : 61] استعاد موسى عليه السلام قضية { إِنَّكَ مِنَ الآمنين } [القصص : 31] فقال بملء فيه : { قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ } [الشعراء : 62] .
فحيثية الثقة عند موسى – عليه السلام – هي معيّة الله له ، قالها موسى ، ويمكن أنْ تكذب في وقتها حالاً ، فهاجم البحر من أمامهم ، وفرعون من خلفهم ، لكنها ثقة مَنْ أمَّنه الله ، وجعله في معيَّته وحِفْظه .

وهذا الأمن قد كفله الله تعالى لجميع أنبيائه ورسله ، فقال تعالى : { وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المرسلين * إِنَّهُمْ لَهُمُ المنصورون * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون } [الصافات : 171-173] .
وقال : { ياموسى لاَ تَخَفْ إِنِّي لاَ يَخَافُ لَدَيَّ المرسلون } [النمل : 10] .
وقد قُصَّ هذا كله على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، فانتفع به ووثق في نصر الله ، فلما قال له الصِّدّيق وهما في الغار : يا رسول الله ، لو نظر أحدهم تحت قدميْه لرآنا ، قال صلى الله عليه وسلم : « يا أبا بكر ، ما ظنُّك باثنين ، الله ثالثهما » .
وحكى القرآن قوله صلى الله عليه وسلم لصاحبه : { لاَ تَحْزَنْ إِنَّ الله مَعَنَا . . . } [التوبة : 40] وما دُمْنا في معيَّة مَنْ لا تدركه الأبصار ، فلن تدركنا الأبصار .
ثم ينقل الحق – تبارك – وتعالى – موسى عليه السلام إلى آية أخرى تضاف إلى معجزاته : { اسلك يَدَكَ فِي جَيْبِكَ . . . } .

اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (32)

معنى { اسلك يَدَكَ . . . } [القصص : 32] يعني : أدخلها { فِي جَيْبِكَ . . } [القصص : 32] الجيب : فتحة الثوب من أعلى ، وسَمَّوْها جَيْباً؛ لأنهم كانوا يجعلون الجيوب مكان حِفْظ

الأموال في داخل الثياب حتى لا تُسرق ، فكان الواحد يُدخِل يده في قبَّة الثوب لتصل إلى جيبه .

ونلحظ هنا دقة الأداء القرآني { تَخْرُجْ بَيْضَآءَ . . . } [القصص : 32] ولم يقُلْ بصيغة الأمر : وأخرجها كما قال { اسلك يَدَكَ . . . } [القصص : 32] وكأن العملية عملية آلية منضبطة بدقة ، فبمجرد أن يُدخِلها تخرج هي بيضاء ، فكأن إرادته على جوارحه كانت في الإدخال ، أما في الإخراج فهي لقدرة الله .

وكلمة { بَيْضَآءَ . . . } [القصص : 32] أي : مُنوّرة دون مرض ، والبياض لا بُدَّ أن يكون عجيباً في موسى – عليه السلام – لأنه كان أسمر اللون؛ لذلك قال { مِنْ غَيْرِ سوء . . . } [القصص : 32] حتى لا يظنوا به بَرصاً مثلاً ، فهو بياض طبيعي مُعْجِز .

وقوله تعالى : { واضمم إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرهب . . . } [القصص : 32] الجناحان في الطائر كاليدين في الإنسان ، وإذا أراد الإنسان أن يعوم مثلاً يفعل كما يفعل الطائر حين يطير ، فالمعنى : اضمُمْ إليك يديك يذهب عنك الخوف .

وهذه العملية يُصدِّقها الواقع ، فنرى المرأة حين ترى ولدها مثلاً يسيء التصرف تضرب صَدْرها وتولول ، وسيدنا ابن عباس يقول : كل من خاف يجب عليه أن يضرب صدره بيديه ليذهب عنه ما يلاقي ، ولك أن تُجرِّبها لتعلم صِدْق هذا الكلام .

ومعنى { فَذَانِكَ . . . } [القصص : 32] ذا : اسم إشارة للمفرد ونقول : ذان اسم إشارة للمثنى ، والكاف للخطاب ، والمراد : الإشارة لمعجزتي العصا واليد { بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ . . . } [القصص : 32] أي ربك الحق { إلى فِرْعَوْنَ . . . } [القصص : 32] الرب الباطل ، ولا يمكن أنْ يجتمع الحق والباطل ، لا بد للباطل أنْ يزهق؛ لأنه ضعيف لا يصمد أمام قوة الحق { بَلْ نَقْذِفُ بالحق عَلَى الباطل فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ } [الأنبياء : 18] .

والبرهان : هو الحجة والدليل على صِدْق المبرهَن عليه { إلى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ . . . } [القصص : 32] لأن فرعون ادَّعى الألوهية ، وملؤه استخفهم فأطاعوه { إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فَاسِقِينَ } [القصص : 32] أي : جميعاً فرعون والملأ { فَاسِقِينَ } [القصص : 32] أي : خارجين عن الطاعة من قولنا فسقتِ الرُّطَبة يعني : خرجتْ من قشرتها .

والمراد هنا الحجاب الديني الذي يُغلِّف الإنسان ، ويحميه ويعصمه أنْ يتأثر بعوامل المعصية ، فإذا انسلخ من هذا الثوب ، ونزع هذا الحجاب ، وتمرَّد على المنهج تكشفتْ عورته ، وبانتْ سَوْءَته .

قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (33)

فما زال موسى – عليه السلام – خائفاً من مسألة قتْل القبطيِّ؛ لذلك يطلب من ربه أنْ يؤيده ، ويعينه بأخيه .

وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (34)

معنى الرِّدْء : المعين ، وعرفنا من قصة موسى – عليه السلام – وهو صغير في بيت فرعون أنه أصابته لَثْغة في لسانه ، فكان ثقيل النطق لا ينطلق لسانه؛ لذلك أراد أنْ يستعين بفصاحة أخيه هارون ليؤيده ، ويُظهر حجته ، ويُزيل عنه الشبهات .
وكان بإمكان موسى أن يطلب من ربه أن يستعين بأخيه هارون ، فيكون هارون من باطن موسى ، لكنه أحب لأخيه أن يشاركه في رسالته ، وأن ينال هذا الفضل وهذه الرِّفْعة ، فقال : { فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي . . . } [القصص : 34] يعني : معيناً لي حتى لا يُكذِّبني الناس ، فيكون رسولاً مِثْلِي بتكليف من الله .
لذلك نرى الآيات تتحدث عن هارون على أنه رسول شريك لموسى في رسالته ، يقول تعالى في شأنهما : { اذهبآ إلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طغى * فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يخشى } [طه : 43-44] .
فإذا نظرنا إلى وحدة الرسالة فَهُما رسول واحد ، وهذا واضح في قوله تعالى :
{ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فقولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ العالمين } [الشعراء : 16] .
وجاء في قول فرعون : { إِنَّ رَسُولَكُمُ الذي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ } [الشعراء : 27] بصيغة المفرد . كما لو بعث رئيس الجمهورية رسالة مع اثنين أو ثلاثة إلى نظيره في دولة أخرى ، نُسمِّي هؤلاء جميعاً (رسول) ؛ لأن رسالتهم واحدة ، فإذا نظرتَ إلى وحدة الرسالة من المرسل إلى المرسَل إليه فهما واحد ، وإذا نظرتَ إلى كلٍّ على حِدَة فهما رسولان .
وقد ورد أيضاً : { إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ . . . } [طه : 47] فخاطبهم مرة بالمفرد ، ومرة بالمثنى .
لذلك لما دعا موسى – عليه السلام – على قوم فرعون لما غرَّهم الأموال ، وفتنتهم زينة الحياة الدنيا قال { رَبَّنَا اطمس على أَمْوَالِهِمْ واشدد على قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حتى يَرَوُاْ العذاب الأليم } [يونس : 88] .
المتكلِّم هنا موسى وحده ، ومع ذلك قال تعالى : { قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَّعْوَتُكُمَا . . . } [يونس : 89] فنظر إلى أنهما رسول واحد ، فموسى يدعو وهارون يُؤمِّن على دعائه ، والمؤمِّن أحد الدَّاعِيَيْن .

قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (35)

أجابه ربه : { قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ . . . } [القصص : 35] لأن موسى قال في موضع آخر : { اشدد بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ في أَمْرِي } [طه : 31-32] وقوله تعالى { سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ . . . } [القصص : 35] تعبير بليغ يناسب المطلوب من موسى؛ لأن الإنسان يزاول أغلب أعماله أو كلها تقريباً بيديه ، والعضلة الفاعلة في الحمل والحركة هي العَضُد .

لذلك حين نمدح شخصاً بالقوة نقول : فلان هذا (عضل) ، وحين يصاب الإنسان والعياذ بالله بمرض ضمور العضلات تجده هزيلاً لا يقدر على فعْل شيء ، فالمعنى : سنُقوِّيك بقوة مادية .

{ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً . . . } [القصص : 35] هذه هي القوة المعنوية ، وهي قوة الحجة والمنطق والدليل ، فجمع لهما : القوة المادية ، والقوة المعنوية .

لذلك قال بعدها { فَلاَ يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا . . . } [القصص : 35] أي : نُنجيكم منهم ، لكن معركة الحق والباطل لا تنتهي بنجاة أهل الحق ، إنما لا بُدَّ من نُصْرتهم على أهل الباطل ، وفَرْق بين رجل يهاجمه عدوه فيغلق دونه الباب ، وتنتهي المسألة عند هذا الحد ، وبين مَنْ يجرؤ على عدوه ويغالبه حتى ينتصر عليه ، فيكون قد منع الضرر عن نفسه ، وألحق الضرر بعدوه .

وهذا هو المراد بقوله تعالى : { أَنْتُمَا وَمَنِ اتبعكما الغالبون } [القصص : 35] وهكذا أزال الله عنهم سلبية الضرر ، ومنحهم إيجابية الغلبة .

ونلحظ توسط كلمة { بِآيَاتِنَآ . . . } [القصص : 35] بين العبارتين : { فَلاَ يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا . . . } [القصص : 35] و { أَنْتُمَا وَمَنِ اتبعكما الغالبون } [القصص : 35] فهي إذن سبب فيهما : فبآياتنا ومعجزاتنا الباهرات ننجيكم ، وبآياتنا ومعجزاتنا ننصركم ، فهي كلمة واحدة تخدم المعنيين ، وهذا من وجوه بلاغة القرآن الكريم .

ومن عجائب ألفاظ القرآن كلمة (النجم) في قوله تعالى : { الشمس والقمر بِحُسْبَانٍ * والنجم والشجر يَسْجُدَانِ } [الرحمن : 5-6] فجاءت النجم بين الشمس والقمر ، وهما آيتان سماويتان ، والشجر وهو من نبات الأرض؛ لذلك صلحت النجم بمعنى نجم السماء ، أو النجم بمعنى النبات الصغير الذي لا ساقَ له ، مثل العُشْب الذي ترعاه الماشية في الصحراء .

لذلك قال الشاعر :

أُرَاعِي النَّجْم في سَيْرِى إليكُمْ ... ويَرْعَاهُ مِنَ البَيْدا جَوَادِي

ثم يقول الحق سبحانه : { فَلَمَّا جَآءَهُم موسى بِآيَاتِنَا . . . } .

فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (36)

قوله تعالى : { بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ . . . } [القصص : 36] أي : بمعجزاتنا واضحات باهرات ، فلما بُهِتوا أمام آيات الله ، وحاروا كيف يخرجون من هذا المأزق ، فقد جاءهم موسى ليهدم عرش

الألوهية الباطلة عند فرعون ، ولم يملكوا إلا أنْ قالوا { مَا هاذآ إِلاَّ سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بهذا في آبَآئِنَا الأولين } [القصص : 36] .

لذلك يُعلِّم الحق – تبارك وتعالى – موسى عليه السلام مُحَاجَّة هؤلاء ، فكأنه قال له : أنت مُقبل على أُنَاس متمسكين بالباطل ، حريصين عليه ، منتفعين من ورائه ، ولا بُدَّ أنْ يغضبوا إنْ قضيتَ على باطلهم ، وصرفتهم عنه إلى الحق ، فقد أَلِفُوا الباطل ، فإنْ أخرجتَهم مما أَلِفوا إلى ما لا يألفون فلا بُدَّ لك من اللين وألاَّ تُهيِّجهم حين تجمع عليهم قسوة تَرْك ما ألِفوه مع قسوة الدعوة إلى ما لم يألفوه .

ويكفي أنك ستسلبهم سلطان الألوهية الذي عاشوا في ظله ، فإنْ زِدْتَ في القسوة عليهم ولّدْتَ عندهم لدداً وعناداً في الخصومة .

لذلك قال تعالى : { فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً . . . } [طه : 44] يعني : اعذروه فيما يلاقي حين تُسلَب منه ألوهيته ، ويصير واحداً من الرعية .

وإنْ قابلوك هم بالقسوة حين قالوا : { مَا هاذآ إِلاَّ سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بهذا في آبَآئِنَا الأولين } [القصص : 36] فقابلهم أنت باللين .

وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (37)

وتأمل هنا اللين وأدب الجدل عند موسى – عليه السلام – فلم يرد عليهم بالقسوة التي سمعها منهم ولم يتهمهم كما اتهموه ، إنما ردّ بهذا الأسلوب اللَّبِق ، وبهذا الإيحاء : { ربي أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بالهدى مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدار . . . } [القصص : 37] ولم يقُلْ : إني جئت بالهدى .

ثم قال : { إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظالمون } [القصص : 37] سواء كنا نحن أم أنتم ، ولم يقُلْ : أنتم الظالمون ، لقد أطلق القضية ، وترك للعقول أنْ تميز .

ومعنى { عَاقِبَةُ الدار . . } [القصص : 37] الدار يعني : الدنيا وعاقبتها تعني : الآخرة .

وهذا الأدب النبوي في الجدل والحوار رأيناه في سيرة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع كفار مكة والمعاندين له ، وقد خاطبه ربه : { وَلاَ تجادلوا أَهْلَ الكتاب إِلاَّ بالتي هِيَ أَحْسَنُ . . . } [العنكبوت : 46] .

والعلَّة أنك ستُخرجهم من الباطل الذي أحبوه وأَلِفوه إلى الحق الذي يكرهون ، فلا تجمع عليهم شدتين ، لذلك في أشد ما كان إيذاء الكفار لرسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : « اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون » .

ورحم الله شوقي الذي صاغ هذه المسألة في عبارة موجزة فقال : (النُّصْح ثقيل فلا ترسله جبلاً ،

ولا تجعله جدلاً) فنُصْحك معناه أنك تقول لمن أمامك : أنت على خطأ وأنا على صواب .
فلكي يسمع لك لا بُدَّ أنْ تستميله أولاً إليك ليقبل منك ، ولا تجرح مشاعره فيزداد عناداً ومكابرة ، وما أشبه صاحب الخطأ بالمريض الذي يحتاج لمن يأخذ بيده ، ويأسو مرضه .
وقد مثَّلوا لذلك بشخص يغرق ، وصاحبه على الشاطيء يلومه على نزوله البحر ، وهو لا يجيد السباحة ، فقال له : (آسِ ثم انصح) انقذني أولاً وأدركني ، ثم قُلْ ما شئتَ .
وقال آخر : الحقائق مُرَّة ، فاستعيروا لها خِفَّة البيان .
أما إنْ يئس الناصح من استجابة المنصوح كما في قصة نبي الله نوح عليه السلام ، والذي ظل يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، فالأمر يختلف . فالنبي صبر على قومه علَّهم يثوبون إلى رشدهم ، أو لعلهم ينجبون الذرية الصالحة التي تقبل ما رفضه الآباء .
فما أطولَ صبر نوح على قومه ، وما أعظمَ أدبه في الحوار معهم وهو يقول لهم وقد اتهموه بالكذب والافتراء : { قُلْ إِنِ افتريته فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَاْ برياء مِّمَّا تُجْرِمُونَ } [هود : 35] .
فنسب الإجرام إلى نفسه ليُسوِّي نفسه بهم لعلَّه يستميل قلوبهم ، لكن ، لما كان في علم الله تعالى أنهم لن يؤمنوا ، ولا فائدة منهم ، ولا من أجيالهم المتعاقبة ، وبعد أنْ قضى نوح في دعوتهم هذا العمر المديد أمره الله أن يدعو عليهم ، حيث لا أملَ في هدايتهم ، فقال :
{ رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأرض مِنَ الكافرين دَيَّاراً * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلاَ يلدوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً } [نوح : 26-27] .
ومحمد صلى الله عليه وسلم يقول في محاورته مع كفار مكة : { قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلاَ نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ } [سبأ : 25] .
سبحان الله ما هذا التواضع ، وهذا الأدب الجم في استمالة القوم ، ينسب الإجرام إلى نفسه وهو رسول الله ، وحينما يتكلم عنهم يقول { تَعْمَلُونَ } [سبأ : 25] فيُسمِّي إجرامهم وإيذاءهم وكفرهم عملاً ، ولو قال كما قال أخوه لكان تواضعاً منه صلى الله عليه وسلم .
ثم يقول الحق سبحانه : { وَقَالَ فِرْعَوْنُ يأيها الملأ . . . } .

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38)

خشي فرعون من كلام موسى على قومه ، وتصوَّر أنه سيحدث لهم كما نقول (غسيل مخ) فأراد أن يُذكِّرهم بألوهيته ، وأنه لم يتأثر بما سمع من موسى { يأيها الملأ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرِي . . . } [القصص : 38] يعني : إياكم أنْ تصدّقوا كلام موسى ، فأنا إلهكم ، وليس لكم إله غيري .
ثم يؤكد هذه الألوهية فيقول لهامان وزيره : { فَأَوْقِدْ لِي ياهامان عَلَى الطين فاجعل لِّي صَرْحاً لعلي

أَطَّلِعُ إِلَى إِلهِ موسى . . . } [القصص : 38] وفي موضع آخر قال : { ياهامان ابن لِي صَرْحاً لعلي أَبْلُغُ الأسباب * أَسْبَابَ السماوات فَأَطَّلِعَ إلى إله موسى . . . } [غافر : 36 – 37] .

وكأنه يريد أن يُرضي قومه ، فها هو يريد أنْ يبحث عن الإله الذي يدَّعيه موسى ، وكأنه إنْ بنى صرحا واعتلاه سيرى رب موسى ، لكن هل بنى له هامان هذا الصرح؟ لم يَبْن له شيئاً ، مما يدل على أن المسألة هَزْل في هَزْل ، وضحك على القوم الذين استخفّهم ولعِب بعقولهم .

وإلا ، فما حاجتهم لحرق الطين ليصير هذه القوالب الحمراء التي نراها ونبني بها الآن وعندهم الحجارة والجرانيت التي بنَوْا بها الأهرامات وصنعوا منها التماثيل؟ وعملية حَرْق الطين تحتاج إلى كثير من الوقت والجهد ، إذن : المسألة كسب الوقت من الخَصْم ، وتخدير الملأ من قومه .

وقوله : { لعلي أَطَّلِعُ إِلَى إِله موسى . . . } [القصص : 38] وقبل أنْ يصل إلى حكم فيرى إله موسى أو لا يراه ، يبادر بالحكم على موسى { وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الكاذبين } [القصص : 38] ؛ ليصرف ملأه عن كلام موسى .

وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (39)

أي : تكبروا دون حق ، وبغير مبررات للكِبْر ، فليس لديهم هذه المبررات؛ لأن الإنسان يتكبَّر حين تكون عظمَته ذاتية فيه ، أمّا العظمة المخلوقة لك من الغير فلا تتكبر بها ، مَنْ يتكبر يتكبَّر بشيء ذاتي فيه ، كما يقولون (اللي يخرز يخرز على وركه) .

وكذلك في دواعي الكِبْر الأخرى : الغِنَى ، القوة ، الجاه ، والسلطان . . . إلخ .

لذلك يكره الله تعالى المتكبرين ، ويقول في الحديث القدسي : « الكبرياء ردائي ، والعظمة إزاري ، فمن نازعني واحداً منهما أدخلته جهنم » .

والكبرياء والعظمة صفة جلال وجمال لله تعالى تجعل الجميع أمام كبرياء الله سواء ، فلا يتكبَّر أحد على أحد (ونرعى جميعاً مساوي) في ظل كبرياء الله الذي يحمي تواضعنا ، فلو تكبَّر أحدنا على الآخر لتكبَّر بشيء موهوب له ، ليس ذاتياً فيه؛ لذلك ينتصر الله لمن تكبَّرت عليه ، ويجعله أعلى منك ، وعندنا في الأرياف يقولون : (اللي يرمي أخاه بعيب لن يموت حتى يراه في نفسه) .

والمتكبّر في الحقيقة ناقصُ الإيمان؛ لأنه لا يتكبَّر إلا حين يرى الناس جميعاً دونه ، ولو أنه استحضر كبرياء خالقه لاستحيا أنْ يتكبَّر أمامه ، وهكذا كان استكبار فرعون وجنوده في الأرض بغير حق .

أما إنْ كان الاستكبار من أجل حماية الضعيف ليعيش في ظلاله فهو استكبار بحق؛ لذلك نقول حين يصف الحق – تبارك وتعالى – نفسه بأنه العظيم المتكبّر نقول : هذا حق . لأنه حماية لنا

جميعا من أنْ يتكبَّر بعضنا على بعض .
وقوله تعالى : { وظنوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لاَ يُرْجَعُونَ } [القصص : 39] فاستكبارهم في الأرض جاء نتيجة ظنهم بأنهم لن يرجعوا إلى الله ، وأنه تعالى خلقهم ورزقهم ، ثم تفلَّتوا منه ، ولن يعودوا إليه ، لكن هيهات ، لا بُدَّ – كما نقول – لهم رَجْعة .

فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (40)

{ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي اليم فانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظالمين }
كأن الحق سبحانه لم يُمهلهم إلى أن يعودوا إليه يوم القيامة ، إنما عاجلهم بالعذاب في الدنيا قبل عذاب الآخرة { فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ . . } [القصص : 40] أي : جميعاً في قبضة واحدة ، التابع والمتبوع { فَنَبَذْنَاهُمْ فِي اليم } [القصص : 40] ألقينا بهم في البحر ، وهذا الأخذ الذي يشمل الجميع في قبضة واحدة يدلُّ على قدرة الآخذ ، وهذه مسألة لا يقدر عليها إلا الله القوي العزيز .
كما قال سبحانه : { وكذلك أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ القرى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ } [هود : 102] .
ولم يُوصَف أخْذ الإنسان بالقوة إلا في قوله تعالى يحثُّنا على أنْ نأخذ مناهج الخير بقوة : { خُذُواْ مَآ ءاتيناكم بِقُوَّةٍ . . . } [البقرة : 93] .
ثم يقول سبحانه : { فانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظالمين } [القصص : 40] أي : نهايتهم وقد جاءت عجيبة من عجائب الزمن وآية من آيات الله ، فالبحر والماء جُنْد من جنود الله ، تنصر الحق وتهزم الباطل ، وقد ذكرنا كيف أنجى الله موسى – عليه السلام – وأهلك فرعون بالشيء الواحد حين أمر الله موسى أنْ يضرب بعصاه البحر ، فصار كل فِرْق كالطود العظيم .
فلما أنْ جازه موسى وقومه إلى الناحية الأخرى أراد أنْ يضرب البحر مرة أخرى؛ ليعود الماء إلى سيولته واستطراقه فيصُحِّح الله له ويأمره أنْ يدَعَهُ على حاله ، فالحق – تبارك – وتعالى – يتابع نبيه موسى خُطْوة بخطوة كما قال له : { إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وأرى } [طه : 46] .
وحاشا لله أن يُكلِّفه بأمر ثم يتركه ، ولما رأى فرعون الطريق اليابس أمامه عبر بجنوده ، فأطبقه الله عليهم ، فصاروا آية وعبرة ، كما قال سبحانه : { فاليوم نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً . . . } [يونس : 92] .
وتأمَّلْ قدرة الله التي أنجَتْ موسى من الغرق ، وقد ألقتْه أمه بيديها في الماء ، وأغرقتْ فرعون .

وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ (41)

أئمة : جمع إمام ، وهو مَنْ يُؤتَم به ، والمأموم أسيرُ إمامه ، فلو كنا في الصلاة لا نركع حتى يركع ، ولا نرفع حتى يرفع ، فمتابعتنا له واجبة ، فإنْ أخطأ وجب على المأموم أنْ يُنبِّهه وأن يُذكِّره يقول له : سبحان الله ، تنبه لخطأ عندك ، إذن : نحن مأمومون له في الحق فقط ، فإنْ أخطأ عدَّلْنا له .

والإمام أُسْوة وقدوة للمأمومين في الخير ومنهج الحق ، كما قال تعالى في حَقّ نبيه إبراهيم عليه السلام : { وَإِذِ ابتلى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً . . . } [البقرة : 124] .

وعندها أراد إبراهيم عليه السلام أنْ تظلَّ الإمامة في ذريته من بعده ، فقال { قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي . . . } [البقرة : 124] فصحَّح الله له وأعلمه أن الإمامة لا تكون إلا في أهل الخير { قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظالمين } [البقرة : 124] .

لذلك لما دعا نوح – عليه السلام – ربه : { رَبِّ إِنَّ ابني مِنْ أَهْلِي . . . } [هود : 45] صحح الله له { إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ . . . } [هود : 46] .

إذن : أهلية النبوة وأهلية الإمامة عمل وسلوك لا قرابة ولا نَسَب .

وقد تكون الإمامة في الشر ، كهذه التي نتحدث عنها : { وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النار . . . } [القصص : 41] فهم أُسْوة سيئة وقدوة للشر ، وقد جاء في الحديث الشريف : « من سَنَّ سُنّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، ومَنْ سنَّ سُنَّة سيئة فعليه وزرها ووزر مَنْ عمل بها إلى يوم القيامة » .

ويقول تعالى في أصحاب القدوة السيئة : { لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ القيامة وَمِنْ أَوْزَارِ الذين يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ . . . } [النحل : 25] .

فكان فرعون وملؤه أسوة في الشر ، وأسوة في الضلال والإرهاب والجبروت ، وكذلك سيكونون في الآخرة أئمة وقادة ، لكن إلى النار { وَيَوْمَ القيامة لاَ يُنصَرُونَ } [القصص : 41] .

وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ (42)

قوله تعالى : { وَأَتْبَعْنَاهُم . . . } [القصص : 42] يعني : جعلنا من خلفهم : { فِي هَذِهِ الدنيا لَعْنَةً . . . } [القصص : 42] فكل مَنْ ذكرهم في الدنيا يقول : لعنهم الله ، فعليهم لعنة دائمة باقية ما بقيتْ الدنيا ، وهذا اللعْن والطرد من رحمة الله ليس جزاء أعمالهم ، إنما هو مقدمة لعذاب بَاقٍ وخالد في الآخرة ، كما قال تعالى : { وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ . . . } [الطور : 47] .

{ وَيَوْمَ القِيَامَةِ هُمْ مِّنَ المقبوحين } [القصص : 42] مادة : قبح ، تقول للشرير : قبَّحك الله ، أي : طردك وأبعدك عن الخير . ولها استعمال آخر : تقول : قَبَحْتُ الدُّمل أي : فتحته

ونكأته قبل نُضْجه فيخرج منه الدم مع الصديد ويشوه مكانه .

وسبق أنْ قُلْنا : إن الدُّمَّل إذا تركته للصيدلية الربانية في جسمك حتى يندمل بمناعة الجسم ومقاومته تجده لا يترك أثراً ، أما إنْ تدخلت فيه بالأدوية والجراحة ، فلا بُدَّ أنْ يترك أثراً ، ويُشوِّه المكان .

ويكون المعنى إذن : { هُمْ مِّنَ المقبوحين } [القصص : 42] أي : الذين تشوَّهَتْ وجوههم بعد نعومة الجلد ونضارته ، وقد عبَّر القرآن عن هذا التشويه بصور مختلفة .

يقول تعالى : { وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ } [عبس : 40-41] .

ويقول سبحانه { يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ . . . } [آل عمران : 106] .

ويقول : { وَنَحْشُرُ المجرمين يَوْمِئِذٍ زُرْقاً } [طه : 102] .

ومعلوم أن زُرْقة الجسم لا تأتي إلا نتيجة ضربات شديدة وكدَمات تُحدِث تفاعلات ضارة تحت الجلد ، فتُسبِّب زُرْقته ، وكذلك زُرْقة العين ، ومن أمراض العيون المياه الزرقاء ، وهي أخطر من البيضاء .

لذلك يقول الشاعر :

وَللْبخيلِ عَلَى أَمْواله عِلَلٌ ... زُرْق العُيونِ عَلَيْها أَوْجُه سُودُ

لأنه حريص على أمواله ولا يريد إنفاقها .

ويُستخدم اللون الأزرق للتبشيع والتخويف ، وقد كانوا في العصور الوسطى يَطْلُون وجوه الجنود باللون الأزرق لإخافة الأعداء وإرهابهم ، وتعارف الناس أنه لَوْن الشيطان؛ لذلك نقول في لغتنا العامية (العفاريت الزرق) ونقول في الذم : (فلان نابه أزرق) .

ويقول الشاعر :

أَيَقْتلُنِي والْمشرَفِيُّ مُضاجِعي ... ومَسْنُونَة زُرْقٌ كأنْيابِ أغْوالِ

أما السواد فيقْصد به الوجه المشوّه المنفِّر ، وإلا فالسواد لا يُذَم في ذاته كلون ، وكثيرا ما نرى صاحب البشرة السوداء يُشع جاذبية وبشاشة ، بحيث لا تزهد في النظر إليه ، ومعلوم أن الحُسْن لا لونَ له .

والله تعالى يَهبُ الحُسْن والبشاشة ويُشِعّهما في جميع الصور . وقد ترى للون الأسود في بعض الوجوه أَسْراً وإشراقاً ، وترى صاحب اللون الأبيض كالحاً ، لا حيوية فيه .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكتاب . . . } .

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (43)

قوله تعالى : { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكتاب مِن بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا القرون الأولى . . . } [القصص : 43] قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم ، يعني : أن موسى – عليه السلام – جاء بَرْزخاً وواسطة بين رسل كذَّبتهم أممهم ، فأخذهم الله بالعذاب ، ولم يقاتل الرسل قبل موسى ، إنما كان الرسول منهم يُبلِّغ الرسالة ويُظهر الحجة ، وكانوا هم يقترحون الآيات ، فإنْ أجابهم الله وكذَّبوا أوقع الله بهم العذاب .

كما قال سبحانه :

{ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصيحة وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأرض وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ الله لِيَظْلِمَهُمْ ولكن كانوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } [العنكبوت : 40] .

وهذا كله عذاب استئصال ، لا يُبقي من المكذبين أحداً .

ثم جاء موسى – عليه السلام – برزخاً بين عذاب الاستئصال من الله تعالى للمكذِّبين دون تدخُّل من الرسل في مسألة العذاب ، وبين رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، حيث أمره الله بقتال الكفار والمكذّبين دون أن ينزل بهم عذاب الاستئصال ، ذلك لأن رسالته عامة في الزمان وفي المكان إلى أن تقوم الساعة ، وهو صلى الله عليه وسلم مأمون على حياة الخَلْق أجمعين .

لذلك يقول تعالى في مسألة القتال في عهد موسى عليه السلام : { أَلَمْ تَرَ إِلَى الملإ مِن بني إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ موسى . . . } [البقرة : 246] إنما في عهده وعصره { إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابعث لَنَا مَلِكاً نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ الله قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ القتال أَلاَّ تُقَاتِلُواْ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ الله وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ القتال تَوَلَّوْاْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ } [البقرة : 246] .

وقد ورد أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ما عذَّب الله قوماً ولا قرناً ، ولا أمة ، ولا أهلَ قرية منذ أنزل الله التوراة على موسى » .

كأن عذاب الاستئصال انتهى بنزول التوراة ، ولم يستثْن من ذلك إلا قرية واحدة هي (أيلة) التي بين مدين والأردن .

والحق – تبارك وتعالى – يعطينا أول تجربة لمهمة ، وتدخّل الرسل في قصة موسى عليه السلام .

ورُوِى عن أبي أمامة أنه قال : وإني لتحت رَحْل رسول الله – يعني : ممسكاً برحْل ناقة الرسول – يوم الفتح ، فسمعته يقول كلاماً حسناً جميلاً ، وقال فيما قال : « أيُّما رجل من أهل الكتاب يؤمن بي فَلَهُ أجران – أي : أجر إيمانه بموسى ، أو بعيسى ، وأجر إيمانه بي – له ما لنا وعليه ما علينا » .

وهذا يعني أن القتال لم يكُنْ قدكُتِب عليهم .

وقوله تعالى : { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكتاب . . . } [القصص : 43] أي التوراة : { مِن بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا القرون الأولى . . } [القصص : 43] أي : بدون تدخُّل الأنبياء { بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ .

. . } [القصص : 43] أي : آتيناه الكتاب ليكون نوراً يهديهم ، وبصيرة ترشدهم ، وتُنير قلوبهم { وَهُدًى وَرَحْمَةً . . . } [القصص : 43] هدى إلى طريق الخير ورحمة تعصم المجتمع من فساد المناهج الباطلة ، وتعصمهم أن يكونوا من أهل النار { لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ } [القصص : 43] .

والتذكر يعني : أنه كان لديك قضية ، ثم نسيتها فاحتجْتَ لمن يُذكرك بها ، فهي ليست جديدة عليك ، هذه القضية هي الفطرة :

{ فِطْرَتَ الله التي فَطَرَ الناس عَلَيْهَا . . . } [الروم : 30] .

لكن هذه الفطرة السليمة تنتابها شهوات النفس ورغباتها ، وتطرأ عليها الغفلة والنسيان؛ لذلك يذكِّر الحق سبحانه الناس بما غفلوا عنه من منهج الحق ، إذن : في الفطرة السليمة المركوزة في كل نفس مُقوِّمات الإيمان والهداية ، لولا غفلة الإنسان .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الغربي . . . } .

وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (44)

قوله : { بِجَانِبِ الغربي . . . } [القصص : 44] أي : الجانب الغربي من البقعة المباركة من الشجرة ، وهو المكان الذي كلَّم الله فيه موسى وأرسله { إِذْ قَضَيْنَآ إلى مُوسَى الأمر . . . } [القصص : 44] يعني : أمرناه به أمراً مقطوعاً به ، وهو الرسالة .

{ وَمَا كنتَ مِنَ الشاهدين } [القصص : 44] .

ولك أنْ تسأل : إذا لم يكُنْ رسول الله صلى الله عليه وسلم شاهداً لهذه الأحداث ، فمَنْ أخبره بها؟ نقول : أخبره الله تعالى ، فإنْ قُلْت فربما أخبره بها شخص آخر ، أو قرأها في كتب السابقين .

نقول : لقد شهد له قومه بأنه أُميٌّ ، لا يقرأ ولا يكتب ، ولم يُعْلَم عنه أنه جلس في يوم من الأيام إلى مُعلِّم ، كذلك كانوا يعرفون سيرته في حياته وسفرياته ورحلاته ، ولم يكُنْ فيها شيء من هذه الأحداث .

لذلك لما اتهموا رسول الله أنه جلس إلى معلم ، وقالوا : كما حكى القرآن : { وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ . . . } [النحل : 103] ردَّ القرآن عليهم في بساطة : { لِّسَانُ الذي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وهذا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ } [النحل : 103] .

وكانوا يقصدون بذلك حدادين روميين تردد عليهما رسول الله . وكذلك كانت الأمة التي بُعِث

فيها رسول الله أمة أمية ، فمَّمن تعلَّم إذن؟

وإذا كانت الأمية صفة مذمومة ننفر منها ، حتى أن أحد سطحيي الفهم يقول : لا تقولوا لرسول الله أميٌّ ونقول : إن كانت الأمية مَذمَّة ، فهي ميزة في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الأمي يعني المنسوب إلى الأم وما يزال على طبيعته لا يعرف شيئاً .

واقرأ قوله تعالى : { والله أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً . . . } [النحل : 78]

ونقول في المثل (فلان زي ما ولدتْه أمه) يعني : لا يعرف شيئاً ، وهذه مذمة في عامة البشر؛ لأنه لم يتعلم ممَّنْ حوله ، ولم يستفِدْ من خبرات الحياة .

أما الأمية عند رسول الله فشرف؛ لأن قصارى المتعلِّم في أيّ أمة من الأمم أنْ يأخذ بطرفٍ من العلم من أمثاله من البشر ، فيكون مديناً له بهذا العلم ، أمَّا رسول الله فقد تعلم من العليم الأعلى ، فلم يتأثر في علمه بأحد ، وليس لأحد فضل عليه ولا منة .

لذلك تعجب الدنيا كلها من أمة العرب ، هذه الأمة الأمية المتبدية التي لا يجمعها قانون ، إنما لكل قبيلة فيها قانونها الخاص ، يعجبون : كيف سادتْ هذه الأمةُ العالمَ ، وغزتْ حضارتهم الدنيا في نصف قرن من الزمان .

ولو أن العرب أمة حضارة لقالوا عن الإسلام قفزة حضارية ، كما قالوا بعد انتصارنا في أكتوبر ، وبعد أن رأى رجالنا أشياء غير عادية تقاتل معهم ، حتى أنهم لم يشكُّوا في أنها تأييد من الله تعالى لجيش بدأ المعركة بصيحة الله أكبر ، لكن ثالث أيام المعركة طلع علينا في جرائدنا من يقول : إنه نصر حضاري ، وفي نفس اليوم فُتحت الثغرة في (الدفرسوار) .

وعجيب أمر هؤلاء من أبناء جلدتنا؛ لماذا تردُّون فضل الله وتنكرون تأييده لكم؟ وماذا يضايقكم في نصر جاء بمدد من عند الله؟ ألم تقرأوا : { وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ . . . } [المدثر : 31] وبعد أن فُتحت الثغرة ماذا قدمتم لسدِّها ، تعالوا بفكركم الحضاري وأخرجونامن هذا المأزق .

وإذا ثَقُلَ على هؤلاء الاعتراف بجنود الله بين صفوفهم ، أليس المهندس الذي اهتدى إلى فكرة استخدام ضغط الماء في فتح الطريق في (بارليف) لينفذ منه الجنود ، أليس من جنود الله؟

لقد أخذتْ منَّا هذه الفكرة كثيراً من الوقت والجهد دون فائدة ، إلى أن جاء هذا الرجل الذي نوَّر الله بصيرته وهداه إلى هذه العملية التي لم تَأْتِ اعتباطاً ، إنما نتيجة إيمان بالله وقُرْب منه سبحانه وتضرُّع إليه ، فجزاه الله عن مصر وعن الإسلام خيراً .

ومن العجيب ، بعد نهاية الحرب أنْ يُجروا للحرب بروفة تمثيلية ، فلم يستطيعوا اجتياز خط بارليف ، وهم في حال أمْن وسلام .

نعود إلى قضية الأمية ونقول لمن ينادي بمحو الأمية عند الناس بأن يعلمهم من علم البشر؛ ليتكم قُلْتُم نمحو الأمية عندهم لنعلمهم عن الله .

إذن : فقوله تعالى : { وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الغربي إِذْ قَضَيْنَآ إلى مُوسَى الأمر وَمَا كنتَ مِنَ الشاهدين } [القصص : 44] يعني : ما رأى محمد هذه الأحداث ولا حضرها ، ومنه قوله تعالى عن شهر رمضان : { فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ . . . } [البقرة : 185] يعني : حضره . ثم يقول الحق سبحانه : { وَلَكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ . . . } .

وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (45)

أهل مدين هم قوم شعيب عليه السلام ، وكان لهم شُغُل بالقراءة ، لذلك قال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : { وَمَا كُنتَ ثَاوِياً . . . } [القصص : 45] أي : مقيماً { في أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا . . . } [القصص : 45] أي : تلاوة المتعلم كما يتلو التلميذ على أستاذه ليُصحّح له { وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ } [القصص : 45] أي : أن الرسالات كلها منا : مَنْ كان يقرأ ، ومن كان أمياً .

وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (46)

قوله تعالى : { وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطور إِذْ نَادَيْنَا . . . } [القصص : 46] أي : موسى عليه السلام { ولكن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ . . . } [القصص : 46] أي : أنك يا محمد ما شهدت هذه الأحداث ، إنما جاءتْك بالفضل من الله { لِتُنذِرَ قَوْماً مَّآ أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ } [القصص : 46] يتذكَّرون ما غفلوا عنه من الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها .

وكلمة (وما كنت) في مواضع عدة في القرآن تدل على أن رسول الله جاء بأخبار لم يقرأها في كتاب ، ولم يسمعها من مُعلِّم؛ لأنه لا يقرأ ، ولم يُعرف عنه أنه جلس إلى مُعلِّم ، وأهل الكتاب هم الذين يعرفون صِدْق هذه الأخبار؛ لأنها ذُكِرت في كتبهم ، لذلك قال القرآن عنهم : { يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ . . } [الأنعام : 20] .

ويقول سبحانه : { إِنَّ هذا لَفِي الصحف الأولى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وموسى } [الأعلى : 18-19] .

ومن علامات النبوة أن يخرق الحق سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم حُجُب الغيب ، والشيء يغيب عنك إما لأنه ماضٍ ، ولا وسيلةَ لك إليه ، وهذا هو حجاب الزمن الماضي ، وهو لا يُعرف إلا بواسطة القراءة في كتاب أو التعلم من مُعلِّم ، وقد نفى الله تعالى هذا بالنسبة لرسوله

صلى الله عليه وسلم ، وإما أن يكون الحجابُ الزمن المستقبل والأحداث التي لم تأْتِ بعْد ، ولا يستطيع أن يخبرك بها إلا الذي يعلمها أزَلاً .

لذلك يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : { سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تنسى } [الأعلى : 6] فكان النجم من القرآن ينزل على رسول الله فلما يُسرى عنه يُمليه على أصحابه ، كل آية في مكانها وترتيبها من السورة ، ثم يقرؤها بعد ذلك كما أُنزلت ، وكما أملاها .

وسبق أنْ قُلْنا : تستطيع أن تتحدَّى أيَّ شخص بأن يتكلم مثلاً لمدة ثُلث الساعة ، ثم يعيد ما قال ، ولن يستطيع ، أما المسألة مع سيدنا رسول الله فتختلف؛ لأنها من الله تعالى { سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تنسى } [الأعلى : 6] .

وقلنا : إن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في أول نزول القرآن عليه كان يُردد الآية خلف جبريل عليه السلام مخافة أن ينساها ، فإنْ قال جبريل : { والضحى } [الضحى : 1] قال رسول الله { والضحى } [الضحى : 1] وهكذا ، فأنزل الله عليه : { لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فاتبع قُرْآنَهُ } [القيامة : 16-18] .

وقال سبحانه : { وَلاَ تَعْجَلْ بالقرآن مِن قَبْلِ أَن يقضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ . . . } [طه : 114] .

أي : أرح نفسك يا محمد ، ولا تَخْشَ النسيان ، وانتظر حتى تنتهي الآيات ، وسوف تعيدها كما هي ، لا تَنْسى منها حرفاً واحداً .

ومن كشف حُجُب الغيب المستقبل قوله تعالى : { والخيل والبغال والحمير لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً . . . } [النحل : 8] ولو انتهتْ الآية إلى هذا الحدِّ لقالوا : ذكر القرآن البدائيات ، ولم يذكر شيئاً عن السيارة والصاروخ . . إلخ .

لكن الحق – تبارك وتعالى – يكمل الآية

{ وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ } [النحل : 8] ليجعل في القرآن رصيداً لكل ما يستجد من وسائل المواصلات والانتقال إلى يوم القيامة .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : { سُبْحَانَ الذي خَلَق الأزواج كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأرض وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ } [يس : 36] فكلُّ شيء في الوجود قائم على الزوجين ذكورةً وأنوثة حتى الجمادات التي لا نرى فيها حياة .

ومن ذلك قوله تعالى : { الم * غُلِبَتِ الروم * في أَدْنَى الأرض وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ . . . } [الروم : 1-4]

فمَنْ يستطيع أن يحكم على نتيجة معركة بعد سبع سنين؟ وبعد ذلك يُصدِّقه الله ، وتنتصر الروم ، وكانوا أهل كتاب على الفرس ، وكانوا يعبدون النار؛ لذلك قال سبحانه : { وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المؤمنون * بِنَصْرِ الله . . . } [الروم : 4-5] .

ولما تشوَّق الصحابة لأداء العمرة ونزل على رسول الله قوله تعالى : { لَتَدْخُلُنَّ المسجد الحرام إِن شَآءَ الله آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لاَ تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً } [الفتح : 27] .

« فخرج بهم رسول الله حتى بلغوا الحديبية على بُعْد 22 كيلو من مكة تعرَّضَتْ لهم قريش ، ومنعتهم من العمرة ، واشترطوا عليهم العودة في العام المقبل ، وقد كتبوا وثيقة تعاهدوا فيها ، فلما أملى رسول الله على الكاتب : هذا ما تعاهد عليه محمد رسول الله ، قام عمرو بن سهيل فقال : لو كنا نعلم أنك رسول الله ما حاربناك ولا رددناك ، إنما اكتب : هذا ما تعاهد عليه محمد بن عبد الله .

وعندها ثار صحابة رسول الله وغضبوا حتى راجعوا رسول الله فقال عمر : يا رسول الله ألسْنا على الحق؟ قال : بلى ، قال : أليسوا على الباطل؟ قال : بلى قال : فَلِمَ نعطى الدَّنية في ديننا ، فقال الصِّدِّيق : الزم غَرْزَهُ يا عمر ، يعني قف عند حدِّك – إنه رسول الله .

ولما أصر علي بن أبي طالب أن يكتب محمد رسول الله نظر إليه رسول الله ، وقال : » يا علي ستُسام مثلها فتقبل « ومرَّتْ الأيام والسنون ، وقُبض رسول الله ، ثم أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، فلما تولّى عليٌّ الخلافة وحدثت الفتنة بينه وبين معاوية ، وقامت بينهما حرب الجمل ثم صفِّين حتى اضطر عليّ لأنْ يكتب مع معاوية وثيقة لإنهاء القتال أملى عليّ : هذا ما تعاهد عليه علي بن أبي طالب أمير المؤمنين ، فقالوا له : لو أنك أمير المؤمنين ما حاربناك ، فاسترجع عليٌّ قول رسول الله : » سَتُسام مثلها فتقبل « .

إذن : خرق الله لرسوله حجاب الزمن الماضي ، والزمن المستقبل ، فماذا عن الزمن الحاضر؟ وكيف يكون خرق الحجاب فيه؟ هذا في مثل قوله تعالى : { وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلاَ يُعَذِّبُنَا الله بِمَا نَقُولُ . . . } [المجادلة : 8] فأطلعه الله على ما في نفوس القوم .

وفي غزوة مؤتة ، وهي الغزوة الوحيدة التي لم يحضرها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومع ذلك سُمِّيت غزوة – لأن الغزوة لا تُقَال إلا للمعركة التي حضرها رسول الله ، أما في مؤتة فقد حضرها وشاهدها وهو في المدينة ، حيث كشف الله له حجاب الحاضر ، فصار يخبر أصحابه في المدينة بما يجري في مؤتة وكأنها رَأْيُ العين .

ويومها تولى القيادة جماعة من كبار الصحابة : زيد بن حارثة ، وابن رواحة ، وجعفر بن أبي طالب ، وخالد بن الوليد ، فكان صلى الله عليه وسلم يقول : قُتِل فلان وسقطت الراية ، فأخذها فلان وقُتِل وحملها فلان . . إلخ فلما عادوا من الغزوة أخبروا بنفس ما أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم يقول الحق سبحانه : { ولولا أَن تُصِيبَهُم . . . } .

وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (47)

المعنى : لولا أن تصيبهم مصيبة بما قدَّمَتْ أيديهم لَعذَّبناهم فاحتجوا قائلين : { رَبَّنَا لولا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ المؤمنين } [القصص : 47] فلو عذَّبهم الله دون أن يرسل إليهم رسولاً لكانت حجة لهم .

وسبق أنْ قُلْنا : إنه لا عقوبة إلا بتجريم ، ولا تجريم إلا بنصٍّ ولا نصَّ إلا بإعلام ، لذلك تُنشر الأحكام في الوقائع الرسمية ليعرفها الجميع ، فتلزمهم الحجة ، ولا يُعْذَر أحد بالجهل بالقانون ، ولا يُعفى من العقاب .

إذن : قطع الله عليهم الحجة ، حين بعث إليهم رسول الله بمنهج الحق الذي يدلهم على الخير والثواب عليه في الجنة ، ويحذرهم من الشر والعقاب عليه في النار { لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى الله حُجَّةٌ بَعْدَ الرسل . . . } [النساء : 165] .

إذن : الحكمة من إرسال الرسول إقامة الحجة على المرسَل إليهم مجرد إقامة الحجة؛ لأن قضايا الدين قضايا حقٍّ فطري يهتدي إليها العقل السليم بفطرته؛ لذلك وقف المستشرقون طويلاً عند شخصية عمر - رضي الله عنه - .

يقولون : تذكرون عمر في كل شيء : في العدل تقولون عمر ، وفي القوة تقولون عمر ، وفي وجود رسول الله تقولون نزل القرآن موافقاً لكلام عمر ، أليس عندكم إلا عمر؟

وكأن الحق - تبارك وتعالى - يدلُّنا بشخصية عمر إلى أنه سبحانه لم يُكلِّفنا بقضايا تنفر منها الفطرة ، إنما بقضايا تقبلها فطرتنا السليمة ، وتهتدي إليها بطبيعتها السوية الخالية من الهوى ، وهذا عمر لم يكُنْ نبياً ولا رسولاً ، لكن كان يصل إلى الحق بما فيه من فطرة إيمانية وعقلية سالمة من الأهواء ، حتى وصلت به الفطرة السليمة إلى أنْ ينطق القرآن بنفس ما نطق به .

وكلمة { ولولا . . . } [القصص : 47] تأتي بأحد معنيين : إنْ دخلتْ على الجملة الاسمية فهي حرف امتناع لوجود ، كما لو قلت : لولا زيد عندك لَزرتُك ، فامتنعتْ الزيارة لوجود زيد ، ومن هذه قوله تعالى : { ولولا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ . . . } [القصص : 47] والتقدير : لولا إصابتهم .

فإنْ دخلتْ (لولا) على الجملة الفعلية أفادتْ الحثَّ والحضَّ ، كما تقول لولدك : لولا ذاكرتَ دروسك ، وكذلك لولا الثانية في الآية { فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لولا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ المؤمنين } [القصص : 47] .

ثم يقول الحق سبحانه : { فَلَمَّا جَآءَهُمُ الحق مِنْ عِندِنَا . . . } .

فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ (48)

قوله تعالى : { فَلَمَّا جَآءَهُمُ الحق مِنْ عِندِنَا . . . } [القصص : 48] أي : الرسول الذي طلبوه { قَالُواْ لولا أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ موسى . . . } [القصص : 48] سبحان الله ، إنْ كنتَ كذوباً فكُنْ ذَكُوراً ، لقد طلبتم مجرد الرسول ولم تطلبوا معه معجزة معينة فقلتم : { رَبَّنَا لولا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً . . . } [القصص : 47] والآن تطلبون آيات حِسيِّة كالتي أرسل بها موسى من قبل .

والمتأمل يجد أن الآيات قبل محمد صلى الله عليه وسلم كانت آيات حِسيِّة كونية ، مثل سفينة نوح عليه السلام ، وناقة صالح عليه السلام ، وعصا موسى عليه السلام ، وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله بالنسبة لسيدنا عيسى عليه السلام . وهذه كلها معجزات حسية تنتهي بانتهاء وقتها ، فهي مناسبة للرسل المحدودي الزمن ، والمحدودي المكان .

أما الرسول الذي أُرسِلَ للناس كافَّة في الزمان وفي المكان ، فلا تناسبه الآية الحسيِّة الوقتيَة؛ لأنها ستكون معجزة لزمانها ، وتظل العصور فيما بعد بلا معجزة ، لذلك جاء الحق – تبارك وتعالى – على يد محمد صلى الله عليه وسلم بمعجزة باقية خالدة محفوظة بحِفْظ الله إلى يوم القيامة .

وقلنا : إن الرسل قبل محمد صلى الله عليه وسلم كان الرسول يأتي بمعجزة تثبت صِدْق بلاغه عن الله ، ومعه كتاب يحمل منهجه ، فالكتاب غير المعجزة ، أما محمد صلى الله عليه وسلم فجاءت معجزته هي عَيْن الكتاب والمنهج الذي أُرسِل به ليظل الدليل على صِدْقه باقياً مع المنهج الذي يطالب الناس به ، وإلى أن تقوم الساعة نظل نقول : محمد رسول الله معجزته هي عَيْن الكتاب والمنهج الذي أُرسل به ليظل الدليل على صِدقْه باقياً مع المنهج الذي يطالب الناس به ، وإلى أن تقوم الساعة نظل نقول : محمد رسول الله وهذه معجزته .

أمَّا إخوانه من الرسل السابقين فنقول فلان ، وكانت معجزته كذا على سبيل الإخبار ، والخبر يحتمل الصِّدْق ويحتمل الكذب .

وقد صدَّقنا بهذه المعجزات كلها؛ لأن الله أخبرنا بها في القرآن الكريم ، فللقرآن الذي جاء معجزة ومنهجاً الفضل في إبقاء هذه المعجزات؛ لأنه أخبر بها وخلَّد ذكرها .

ثم يرد الله عليهم : { أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ موسى مِن قَبْلُ . . . } [القصص : 48] ثم يحكي ما قالوا عن معجزة موسى ، وعن معجزة محمد { قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَاهَرَا . . . } [القصص : 48] أي : أن موسى جاء بسحر ، ومحمد جاء بسحر آخر ، وقد { تَظَاهَرَا . . } [القصص : 48] علينا يعني : تعاونا ، وهي مأخوذة من الظهر كأنك قُلْت : أعطني ظهرك مع ظهري لنحمل الحِمْل معاً ، والظهْر محلُّ الحمل .

والرد على هذا الاتهام يسير ، فمعجزة موسى وإنْ كانت من جنس السحر إلا أنها ليست سحْراً ، فالسحر يُخيِّل لك أن الحبال حية تسعى ، أمّا ما فعله موسى فكان قلب العصا إلى حية حقيقية تسعى وتبتلع سحرهم ، لذلك أُلقي السحرة ساجدين؛ لأنهم رأوا معجزة ليستْ من جنس ما نبغوا فيه فآمنوا من فورهم .

أما الذين قالوا عن محمد صلى الله عليه وسلم : إنه ساحر فالردُّ عليهم بسيط : فلماذا لم يسحركم أنتم أيضاً كما سحر المؤمنين به؟

ثم يؤكدون كفرهم بكل من الرسولين : موسى ومحمد : { وَقَالُواْ إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ } [القصص : 48] .

قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (49)

معنى { قُلْ . . . } [القصص : 49] أي : في الردّ عليهم { فَأْتُواْ بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ الله هُوَ أهدى مِنْهُمَآ . . . } [القصص : 49] أي : أهدى من التوراة التي جاء بها موسى ، وأهدى من القرآن الذي جاء به محمد ما دام أنهما لم يُعجباكم { أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ } [القصص : 49] يعني : لو جئتمُ به لاتبعته .

وهذا يعني منهجين : منهج حقّ جاء به محمد ، ومنهج باطل يُصرون هم عليه ، وهذا التحدي من سيدنا رسول الله للكفار يعني أنه لا يوجد كتاب أهدى مما جاء به ، لا عند القوم ، ولا عند مَنْ سيأتي من بعدهم ، وحين يُقر لهم رسول الله بإمكانية وجود كتاب أَهْدى من كتابه يطمعهم في طلبه ، فإذا طلبوه لم يجدوا كتاباً أهدى منه ، فيعرفوا هم الحقيقة التي لم ينطق بها رسول الله ، وهل يستطيع بشر أن يضع للناس منهجاً أهدى من منهج الله؟

إذن : يقول لهم : { إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ } [القصص : 49] وهو يعلم أنهم غير صادقين ، لأن الله تعالى جعل محمداً صلى الله عليه وسلم خاتَم الرسل ، فلن يأتي رُسُل بعده ، بحيث يأتي الرسول فتستدركوا عليه فيأتي آخر بكتاب جديد ، وأنتم لن تستطيعوا أنْ تأتوا بكتاب من عند أنفسكم؛ لأن كل مُقنّن سيأتي الذي يخدم مذهبه ، ويُرضي هواه .

لذلك نقول : ينبغي في المقنِّن ويُشترط فيه :

أولاً : أن يكون على علم واسع ، بحيث لا يُسْتدرك عليه فيما بعد ، وهذه لا تتوفر في أحد من البشر ، بدليل أن القوانين التي وُضِعت في الماضي لم تَعُدْ صالحة الآن ينادي الناس كثيراً بتعديلها ، حيث طرأتْ عليهم مسائل جديدة غابتْ عن ذِهْن المشرِّع الأول ، فلما جدَّتْ هذه المسائل أتعبت البشر بالتجربة ، فَطالبوا بتعديلها .

ثانياً : يشترط في المشرِّع ألاَّ يكون له هوى فيما يُشرِّع للناس ، ونحن نرى الرأسماليين والشيوعيين ، وغيرهم كُلٌّ يشرع بما يخدم مذهبه وطريقته في الحياة؛ لذلك يجب ألاّ يُسند التشريع للناس لأحد

منهم؛ لأنه لا يخلو من هوى .

ثالثاً : يُشترَط فيه ألاَّ يكون منتفعاً بشيء مما يشرع .

وإذا اقتضت مسائل الحياة وتنظيماتها أنْ نُقنّن لها ، فلا يُقنِّن لنا من البشر إلا أصحاب العقل الناضج والفكر المستقيم ، بحيث يتوفر لهم نُضْج التقنين ، لكن إلى أنْ يوجد عندهم نضج التقنين أيّ منهج يسيرون عليه؟

فإنْ حدثتْ فجوة في التشريع عاش الناس بلا قانون ، وإلاَّ فما الذي قنَّنَ لأول مُقنِّن؟ الذي قنّن لأول مُقنِّن هو الذي خلق أول مَن خُلق .

ثم يقول الحق سبحانه : { فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فاعلم أَنَّمَا . . . } .

فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (50)

وهذا يعني أن الله تعالى لم يطاوعهم إلى ما أرادوا ، فلم يأْتِهم بكتاب آخر ، لكن كيف كان سيأتيهم هذا الكتاب؟ يجيب الحق – تبارك وتعالى – على هذا السؤال بقوله تعالى : { لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ } [الزخرف : 31] .

إذن : الكلام عندهم ليس في الكتاب ، إنما فيمن أُنزِل عليه الكتاب ، وهذا معنى : { فاعلم أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ . . . } [القصص : 50] .

ثم يقول سبحانه : { وَمَنْ أَضَلُّ . . . } [القصص : 50] يعني لا أضل { مِمَّنِ اتبع هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ الله . . . } [القصص : 50] أي : أتبع هوى نفسه ، أما إنْ وافق هواه هوى المشرِّع ، فهذا أمر محمود أوضحه رسول الله في الحديث الشريف : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » .

فنحن في هذه الحالة لا نتبع الهوى إنما نتبع الشرع؛ لذلك يقول أحد الصالحين الذين أفنوا عمرهم في الطاعة والعبادة : اللهم إنِّي أخشى ألاَّ تثيبني على طاعتي؛ لأنك أمرتنا أنْ نحارب شهوات أنفسنا ، وقد أصبحت أحب الطاعة حتى صارت شهوة عندي .

وأضلُّ الضلال أن يتبع الإنسان هواه؛ لأن الأهواء متضاربة في الخَلْق تضارب الغايات ، لذلك المتقابلات في الأحداث موجودة في الكون .

وقد عبَّر المتنبي عن هذا التضارب ، فقال :

أَرَى كُلَّنَا يَبْغي الحياةَ لنفسهِ ... حَرِيصاً عَليها مُسْتهاماً بها صبَّا

فحبُّ الجبانِ النفس أوردَهُ التقى ... وحُبُّ الشجاع النفسَ أَوردَهُ الحَربَا

فنحن جميعاً نحب الحياة ونحرص عليها ، لكن تختلف وسائلنا ، فالجبان لحبه الحياة يهرب من الحرب ، والشجاع يُلقي بنفسه في معمعتها مع أنه مُحِبٌّ للحياة ، لكنه محب لحياة أخرى أبقى ،

هي حياة الشهيد .
وآخر يقول :
كُلُّ مَنْ فِي الوُجودِ يطلبُ صَيْداً ... غير أنَّ الشباك مُختلِفَات
فالرجل الذي يتصدق بما معه رغم حاجته إليه ، لكنه رأى مَنْ هو أحوج منه ، وفيه قال تعالى :
{ وَيُؤْثِرُونَ على أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ . . . } [الحشر : 9] .
نقول : هذا آثر الفقير على نفسه ، لكنه من ناحية أخرى يبغي الأجر ويطمع في عَشْرة أمثال ما أنفق ، بل يطمع في الجنة ، إذن : المسألة فيها نفعية ، فالدين عند المحققين أنانية ، لكنها أنانية رفيعة راقية ، ليست أنانية حمقاء ، الدين يرتقي بصاحبه ، ويجعله إيجابياً نافعاً للآخرين ، ولا عليه بعد ذلك أن يطلب النفع لنفسه .
فالشرع حين يقول لك : لا تسرق . وحين يأمرك بغضِّ بصرك ، وغير ذلك من أوامر الشرع ، فإنما يُقيِّد حريتك وأنت واحد ، لكن يُقيِّد من أجلك حريات الآخرين جميعاً ، فقد أعطاك أكثر مما أخذ منك ، فإذا نظرت إلى ما أخذ منك باتباعك للمنهج الإلهي فلا تَنْسَ ما أعطاك .
لذلك حين « نتأمل النبي صلى الله عليه وسلم وهو يعالج داءات النفوس حينما أتاه شاب من الأعراب الذين آمنوا ، يشتكي إليه ضَعْفه أمام النساء ، وقلة صبره على هذه الشهوة ، حتى قال له : يا رسول الله ائذن لي في الزنا ، ومع ذلك لم ينهره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل علم أنه أمام مريض يحتاج إلى مَنْ يعالجه ، ويستل من نفسه هذه الثورة الجامحة ، خاصة وقد صارح رسول الله بما يعاني فكان صادقاً مع نفسه لم يدلس عليها .
لذلك أدناه رسول الله ، وقال له : يا أخا العرب ، أتحب ذلك لأمك؟ أتحب ذلك لزوجتك؟ أتحب ذلك لأختك؟ أتحب ذلك لابنتك؟ والشاب في كل هذا يقول : لا يا رسول الله جُعِلْتُ فِداك .
عندها قال صلى الله عليه وسلم : »كذلك الناس يا أخا العرب لا يحبون ذلك لأمهاتهم ولا لزوجاتهم ولا لأخواتهم ولا لبناتهم « .

فانصرف الشاب وهو يقول : والله ما شيء أبغض إليَّ من الزنا بعدما سمعتُ من رسول الله ، وكلما هَمَّتْ بي شهوة ذكرتُ قول رسول الله في أمي ، وزوجتي ، وأختي ، وابنتي .
فالذي يُجرِّيء الناس على المعصية والولوع بها عدم استحضار العقوبة وعدم النظر في العواقب ، وكذلك يزهدون في الطاعة لعدم استحضار الثواب عليها .
وسبق أن قلنا لطلاب الجامعة : هَبُوا أن فتى عنده شَرَه جنسي ، فهو شرهٌ منطلق يريد أنْ يقضي شهوته في الحرام ، ونريد له أن يتوب فقلنا له : سنوفر لك كل ما تريد على أنْ تُلقي بنفسك في هذا (الفرن) بعد أن تُنهي ليلتك كما تحب ، ماذا يصنع؟

ثم يقول تعالى : { إنَّ الله لاَ يَهْدِي القوم الظالمين } [القصص : 50] وفي مواضع أخرى : { لاَ يَهْدِي القوم الفاسقين } [المائدة : 108] ، { لاَ يَهْدِي القوم الكافرين } [البقرة : 264] ، وكلها دلَّتْ على أن الله لا يصنع عدم الهداية والتقوى – وإلاَّ فقد هدى الله الجميع هداية الدلالة والإرشاد فلم يأخذ بها هؤلاء فحُرِموا هداية الإيمان .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ . . . } .

وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (51)

كلمة { وَصَّلْنَا . . } [القصص : 51] تُشعر بأشياء ، انفصل بعضها عن بعض ، ونريد أنْ نُوصِّلها ، فقوله تعالى { وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ القول لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ } [القصص : 51] أي : وصَّلنا لهم الرسالات ، فكلما انقضى عهد رسول وكفر الناس أتاهم الله برسالة أخرى ليظلَّ الخَلْق مُتصلِين بهدي الخالق وبمنهجه ، أو : أن الأمر خاصٌّ برسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمعنى وصَّلنا له الآيات ، فكلما نزل عليه نجم من القرآن وصَّلنا بنجم آخر حسب الأحداث .

لذلك كانت هذه المسألة من الشبهات التي أثارها خصوم رسول الله ، حين قالوا كما حكى عنهم القرآن { وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ القرآن جُمْلَةً وَاحِدَةً . . . } [الفرقان : 32] فردَّ عليهم القرآن ليبين لهم حكمة نزوله مُنجَّماً : {كَذَلِكَ . . . } [الفرقان : 32] أي : أنزلناه كذلك مُنجَّماً { لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً } [الفرقان : 32] .

فلو نزل القرآن جملة واحدة لكان التثبيت لرسول الله مرة واحدة ، وهو محتاج إلى تثبيت مستمر مع الأحداث التي سيتعرَّض لها ، فيوصل الله له الآيات ليظل على ذِكْر من سماع كلام ربه كلما اشتدتْ به الأحداث ، فيأتيه النجم من القرآن لَيُسلّيه ، ويُسرّي عنه ما يلاقي من خصومه .

وحكمة أخرى في قوله : { وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً } [الفرقان : 32] فكلما نزل قِسْط من القرآن سَهُلَ عليهم حفظه وترتيبه والعمل به ، كما أن المؤمنين المأمورين بهذا المنهج ستستجد عليهم قضايا ، وسوف يسألون فيها رسول الله ، فكيف سيكون الجواب عليها إنْ نزل القرآن جملة واحدة .

لا بُدَّ أن يتأخر الجواب إلى أنْ يطرأ السؤال؛ لذلك يقول تعالى : { وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بالحق وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً } [الفرقان : 33] .

وقد ورد الفعل يسألونك في القرآن عدة مرات في سور شتى ، فكيف تتأتى لنا الإجابة لو جاء القرآن كما تقولون جملة واحدة ، ثم سبحان الله هل اطقتموه مُنجمَّاً حتى تطلبوه جملة واحدة؟

ثم تختم الآية بحكمة أخرى : { لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ } [القصص : 51] فكلما نزل نجم من القرآن ذكَّرهم بما غفلوا عنه من منهج الله .

ثم يقول الحق سبحانه : { الذين آتَيْنَاهُمُ . . . } .

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (52)

كأن الحق – تبارك وتعالى – يقول لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : سأجعل خصومك من أهل الكتاب هم الذين يشهدون بصِدْقك؛ لأنهم يعرفونك كما يعرفون أبناءهم ، وما جاء في كتابك ذُكرَ في كتبهم وذكِرت صورتك وأوصافك عندهم .

لذلك تجد آيات كثيرة من كتاب الله تُعوِّل على أهل الكتاب في معرفة الحق الذي جاء به القرآن ، يقول تعالى : { وَيَقُولُ الذين كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كفى بالله شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الكتاب } [الرعد : 43] .

فهم أيضاً شهداء على صدق رسول الله بما عندهم من الكتب السابقة فاسألوهم .

ويقول تعالى : { بَلْ تُؤْثِرُونَ الحياة الدنيا * والآخرة خَيْرٌ وأبقى * إِنَّ هذا لَفِي الصحف الأولى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وموسى } [الأعلى : 16–19] .

ويقول سبحانه : { وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الكتاب لَمَن يُؤْمِنُ بالله وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ للَّهِ . . . } [آل عمران : 199] .

وإلا ، فلماذا أسلم عبد الله بن سلام وغيره من علماء اليهود؟

إذن : أهل الكتاب الصادقون مع أنفسهم ومع كتبهم لا بُدَّ أنْ يؤمنوا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، أما الذين لم يؤمنوا فحجبتهم السلطة الزمنية والحرص على السيادة التي كانت لهم قبل الإسلام ، سيادةً في العلم ، وفي الحرب ، وفي الثروة .

وكان من هؤلاء عبد الله بن أُبَيّ ، وكان أهل المدينة يستعدون لتنصيبه مَلِكاً عليهم ، فلما هاجر سيدنارسول الله إليها أفسد عليهم ما يريدون ، ونزع منهم هذه السيادة ، والسلطة الزمنية حينما تتدخل تعني أن يشترك هوى الناس فيستخدمون مرادات الله لخدمة أهوائهم ، لا لخدمة مرادات الله .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَإِذَا يتلى عَلَيْهِمْ . . . } .

وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (53)

هؤلاء المؤمنون من أهل الكتاب إذا يُتْلَى عليهم القرآن قالوا : آمنا به ، وشَهِدوا له أنه الحق من عند الله ، وأنهم لم يزدادوا بسماع آياته إيماناً ، فهم كانوا من قبله مسلمين ، فقد آمنوا أولاً بكتبهم ، وآمنوا كذلك بالقرآن .

أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (54)

الحق – سبحانه وتعالى – يريد أنْ يُعلِّمنا أن الذي يريد ديناً حقاً لا بُدَّ أن ينظر إلى دين يأتي بعده بمعجزة ، لأنه إذا كان قد آمن حين يجيء بعد عيسى رسول ، فوجب عليه أنْ يبحث في الدين الجديد ، وأنْ ينظر أدلة تبرر له إيمانه بهذا الدين .

هذا إذا كان الدين الأول لم يتبدَّل ، فإذا كان الدين الأول قد تبدَّل ، فالمسألة واضحة؛ لأن التبديل يُحدث فجوة عند مَنْ يريد ديناً { الذين يَتَّبِعُونَ الرسول النبي الأمي الذي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التوراة . . . } [الأعراف : 157] .

آمنوا به؛ لأنهم وجدوا نَعْته ، ووجدوا العقائد التي لا تتغير موجودة في كتابه ، وهو أُميٌّ لم يعرف شيئاً من هذا ، فأخذوا من أميته دليلاً على صِدْقه .

فقوله تعالى : { أولئك . . . } [القصص : 54] أي : أهل الكتاب الذين يؤمنون بالقرآن وهم خاشعون لله ، والذين سبق وصفهم { أولئك يُؤْتُونَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ . . . } [القصص : 54] أجر لإيمانهم برسلهم ، وأجر لإيمانهم بمحمد صلى الله عليه وسلم .

لذلك جاء في الحديث الشريف : « ثلاثة يُؤْتَوْن أجرهم مرتين رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه مثل آمن بي ، وعبد مملوك أدى حق الله وأدى حق أوليائه ، ورجل عنده أَمَة – جارية – فأدَّبها فأحسن تأديبها ، فأعتقها بعد ذلك ، ثم تزوجها » .

وهؤلاء الذين آمنوا برسلهم ، ثم آمنوا برسول الله استحقوا هذه المنزلة ، ونالوا هذين الأجرين لأنهم تعرضوا للإيذاء ممَّنْ لم يؤمن في الإيمان الأول ، ثم تعرَّضوا للإيذاء في الإيمان الثاني ، فصبروا على الإيذاءين ، وهذه هي حيثية { يُؤْتُونَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ . . . } [القصص : 54] .

وكما أن الله تعالى يُؤتِي أهلَ الكتاب الذين آمنوا بمحمد أجرهم مرتين ، كذلك يُؤتِي بعض المسلمين أجرهم مرتين ، ومنهم – كما بيَّن سيدنا رسول الله : « عبد مملوك أدى حق الله ، وأدَّى حق أوليائه ، ورجل عنده أَمَةٌ . . . » .

ولا يُحرم هذا الأجر الدين الذي باشر الإسلام ، وأتى قبله ، وهو المسيحية ، فلهم ذلك أيضاً؛ لذلك يقول تعالى : { لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بالبينات وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الكتاب والميزان لِيَقُومَ الناس بالقسط وَأَنزَلْنَا الحديد فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ . . . } [الحديد : 25] وأهم هذه المنافع { وَلِيَعْلَمَ الله مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بالغيب . . . } [الحديد : 25] وذكر الحديد ، لأن منه سيصنع سلاح الحرب .

إذن : أنزل الله القرآن لمهمة ، وأنزل الحديد لمهمة أخرى؛ لذلك يقول الشاعر :

فَمَا هُوَ إلاَّ الوَحْي أَوْ حَدُّ مُرْهَف ... يُقيم ظباه أَخْدعَيْ كلِّ مائلِ

فَهَذا دَوَاءُ الدَّاء من كُلِّ عَاقِلٍ ... وذَاك دَوَاءُ الدَّاءِ من كُلِّ جاهل

ولي أنا شخصياً ذكريات ومواقف مع هذه الآية { أولئك يُؤْتُونَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ . . . } [القصص : 54] وقد كنا في بلد بها بعض من إخواننا المسيحيين ، وكان من بينهم رجل ذو

عقل وفكر ،كان دائماً يُواسي المسلمين ، ويحضر مآتمهم ويستمع للقرآن ، وكانت تعلَق بذهنه بعض الآيات ، فجاءني مرة يقول : سمعت المقريء يقرأ :

{ وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ } [الأنبياء : 107] .

فألسنا من العالمين ، قلت له : نعم أُرسِل محمد رحمة للعالمين جميعاً ، فمَنْ آمن به نالته رحمته ، ومَنْ لم يؤمن به حُرِم منها ، ومع ذلك لو نظرتَ في القرآن نظرة إمعانٍ وتبصُّر تجد أنه رحِم غير المؤمن ، قال : كيف؟ فقرأتُ له قوله تعالى : { إِنَّآ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكتاب بالحق لِتَحْكُمَ بَيْنَ الناس . . . } [النساء : 105] ولم يقل بين المؤمنين { بِمَآ أَرَاكَ الله وَلاَ تَكُنْ لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيماً } [النساء : 105] .

فمن رحمة الرسول بغير المؤمنين أنْ يُنصف المظلوم منهم ، وأنْ يردَّ عليه حقَّه ، ثم { واستغفر الله إِنَّ الله كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً } [النساء : 106] لأن الله لا يحب الخوَّان الأثيم ولو كان مسلماً .

ثم ذكرتُ له سبب نزول هذه الآية وهي قصة الدرع الذي أودعه اليهودي زيد بن السمين أمانة عند طعمة بن أبيرق المسلم ، وكان الدرع قد سُرِق من قتادة بن النعمان ، فلما افتقده قتادة ذهب يبحث عنه ، وكان قد وضعه في كيس من الدقيق ، فتتبع أثر الدقيق حتى ذهب إلى بيت زيد بن السمين اليهودي فاتهمه بسرقته ، وأذاع أمره بين الناس ، فقصَّ اليهودي ما كان من أمر طُعْمة بن أبيرق ، وأنه أودع الدرع عنده على سبيل الأمانة؛ لأنه يخشى عليه أنْ يُسرق من بيته .

وهنا أحب المسلمون تبرئة صاحبهم؛ لأنه حديث عهد بإسلام ، وكيف ستكون صورتهم لو شاع بين الناس أن أحدهم يسرق ، ومالوا إلى إدانة اليهودي ، وفعلاً عرضوا وجهة نظرهم هذه على رسول الله ليرى فيه حلاً يُخرجه من هذا المأزق ، مع أنهم لا يستبعدون أنْ يسرق ابن أبيرق .

وجلس رسول الله يفكر في هذا الأمر ، لكن سرعان ما نزل عليه الوحي ، فيقول له : هذه المسألة لا تحتاج إلى تفكير ولا بحث : { إِنَّآ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكتاب بالحق لِتَحْكُمَ بَيْنَ الناس بِمَآ أَرَاكَ الله وَلاَ تَكُنْ لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيماً } [النساء : 105] .

فأدانت الآية ابن أبيرق ، ودلَّتْ على أن هذه ليست الحادثة الأولى في حقِّه ، ووصفتْه بأنه خوّان أي : كثير الخيانة وبرَّأتْ اليهودي ، وصححتْ وجهة نظر المسلمين الذين يخافون من فضيحة المسلم بالسرقة ، وغفلوا عن الأثر السيء لو قلبوا الحقائق ، وأدانوا اليهودي .

فالآية وإنْ أدانت المسلم ، إلا أنها رفعتْ شأن الإسلام في نظر الجميع : المسلم واليهودي وكل من عاصر هذه القصة بل وكل من قرأ هذه الآية ، ولو انحاز رسول الله وتعصَّب للمسلم لاهتزتْ صورة الإسلام في نظر الجميع . ولو حدث هذا ماذا سيكون موقف اليهود الذين يراودهم الإسلام ، وقد أسلموا فعلاً بعد ما حدث؟

وما أشبهَ هذه المسألة بشاهد الزور الذي يسقط أول ما يسقط من نظر صاحبه الذي شهد

لصالحه ، حتى قالوا : مَنْ جعلك موضعاً للنقيصة فقد سقطت من نظره ، وإنْ أعَنْتَه على أمره ، فشاهد الزور يرتفع رأسُك على الخصم بشهادته ، وتطأ قدمُك على كرامته .
وقوله تعالى : { وَيَدْرَؤُنَ بالحسنة السيئة . . . } [القصص : 54] هذه أيضاً من خصالهم أن يدفعوا السيئة بالحسنة ، فمن صفاتهم العفو والصفح كما قال تعالى : { وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأمور } [الشورى : 43] { وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ } [القصص : 54] النفقة الواجبة على نفسه وعلى آله ، والنفقة الواجبة للفقراء وهي الزكاة ، ثم نفقة المروءات للمساكين وأهل الخصاصة .

وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (55)

هذه صفة أخرى من صفات المؤمنين { وَإِذَا سَمِعُواْ اللغو أَعْرَضُواْ عَنْهُ . . . } [القصص : 55] واللغو : هو الكلام الذي لا فائدة منه ، فلا ينفعك إنْ سمعتَه ، ولا يضرك عدم سماعه ، وينبغي على العاقل أنْ يتركه ، فهو حقيق أنْ يُترك وأنْ يُلْغى .
ولذلك كان من صفات عباد الرحمن : { وَإِذَا مَرُّواْ بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً } [الفرقان : 72] أي : لا يلتفتون إليه .
وسبب نزول هذه الآية : لما استقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم رُسُل النجاشي وكانوا جماعة من القساوسة ، فلما جلسوا أسمعهم سورة (يس) ، فتأثروا لها حتى بكَوْا جميعاً ، ثم آمنوا برسول الله ، ولما انصرفوا تعرَّض لهم أبو جهل ونهرهم وقال : خيَّبكم الله من رَكْب - وهم الجماعة يأتون في مهمة - أرسلكم من خلفي - يعني : النجاشي - لتعلموا له أخبار الرجل ، فسمعتموه فبكيتُم وأسلمتُم ، والله ما رأينا رَكْباً أحمق منكم ، فما كان منهم إلا أنْ أعرضوا عنه .
هذا معنى قول الحق سبحانه : { وَإِذَا سَمِعُواْ اللغو أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ . . . } [القصص : 55] .
وهؤلاء مرُّوا باللغو مرورَ الكرام ، وأعرضوا عنه ، فلم يلتفتوا إليه ، وزادوا على ذلك أنهم لم يسكتوا على اللغو إنما قالوا : { لَنَآ أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي الجاهلين } [القصص : 55] لنا أعمالنا الخيِّرة التي يجب أنْ نُقبل عليها ، ولكم أعمالكم الباطلة التي ينبغي أنْ تُترك ، فكلٌّ مِنَّا له شأن يشغله .
{ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ . . } [القصص : 55] والسلام إما سلام تحية كما هو شائع بيننا ، وإما سلام للمتاركة كما لو دخلتَ مع صاحبك في جدل ، فلما رأيتَ أنه سيطول وربما تعدَّيْتَ عليه فتقول له تاركاً : سلام عليكم . تعني : إنني ليس لديَّ ما أقوله لمفارقتك إلا هذه الكلمة .
ومن ذلك ما دار بين الخليل إبراهيم - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - وبين عمِّه ، فبعد أنْ

ناقشه ولم يَصل معه إلى نتيجة قال له : { سَلاَمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ ربي . . . } [مريم : 47] .

ثم يقول الحق سبحانه : { إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ . . . } .

إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (56)

هذا خطاب لسيدنا رسول الله ، خاصٌّ بدعوته لعمه أبي طالب الذي ظلَّ على دين قومه ، ولكنه كان يحمي رسول الله حماية عصبية قربى وأهل ، لا محبة في الإسلام ، ولله تعالى حكمة في أنْ يظلَّ أبو طالب على الكفر؛ لأنه بذلك كسب قريشاً ونال احترامهم ، حيث أعجبهم عدم إيمانه بمحمد وعدم مجاملته له ، وأعجبهم أن يظل على دين الآباء ، فاحترموا حمايته لابن أخيه ، وهذا منع عن رسول الله إيذاءهم ، وحمى الدعوة من كثير من الاعتداءات عليها .

لذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حريصاً على أنْ يردَّ له هذا الجميل ، وردُّ رسول الله للجميل لا يكون بعرَض من الدنيا ، إنما بشيء باقٍ خالد ، فلما حضرت أبا طالب الوفاة قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا عم ، قُلْ لا إله إلا الله كلمة أشفع لك بها عند الله يوم القيامة » فقال : يا ابن أخي ، لولا أن قريشاً تُعيّرني بهذه الواقعة ، ويقولون ما آمن إلا جزعاً من الموت لأقررت عينك بها .

لكن يُروى أنه بعدما انتقل أبو طالب ، جاء العباس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له : يا محمد ، إن الكلمة التي طلبتَ من عمّك أنْ يقولها قالها قبل أن يموت وأنا أشهد بها .

ونلاحظ هنا دقة الأداء من العباس ، حيث لم يقُلْ : إن هذه الكلمة لا إله إلا الله ، بل سماها (الكلمة) لماذا؟ لأنه لم يكن قد أسلم بعد .

وسبق أنْ تكلَّمنا في معنى الهداية { إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ . . . } [القصص : 56] وقلنا : إنها تأتي بأحد معنيين : بمعنى الإرشاد والدلالة ، وبمعنى المعونة لمن يؤمن بالدلالة ، ومن ذلك قوله تعالى : { والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقُوَاهُمْ } [محمد : 17] أي : سمعوا الدلالة وأطاعوها ، فزادهم الله هداية أخرى ، هي هداية الإيمان والمعونة .

يقول تعالى في هذه المسألة : { وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ } [فصلت : 17] يعني : دللناهم { فاستحبوا العمى عَلَى الهدى } [فصلت : 17] ؛ لذلك حُرموا هداية المعونة .

إذن : الهداية المنفية عن سيدنا رسول الله { إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ . . . } [القصص : 56] هي هداية المعونة والتوفيق للإيمان؛ لأنه صلى الله عليه وسلم هدى الجميع هداية الدالة والإرشاد ، وكان مما قال : { يأيها الذين آمَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ على تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ } [الصف : 10] .

فهداية الدلالة صدرت أولاً عن الله تعالى ، ثم بالبلاغ من رسوله صلى الله عليه وسلم ثانياً .
ثم يقول الحق سبحانه : { وقالوا إن نَّتَّبِعِ الهدى مَعَكَ . . . } .

وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (57)

وهذه المقولة { إن نَّتَّبِعِ الهدى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ . . . } [القصص : 57] قالها الحارث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف ، فقد ذهب إلى سيدنا رسول الله ، وقال : إننا نعلم أنك جئتَ بالحق ، ولكن نخاف إنْ آمنا بك واتبعنا هواك أنْ نُتخطّف من أرضنا ، ولا بُدَّ أنه كان يتكلم بلسان قومه الذين ائتمروا على هذا القول .
والخطْف : هو الأخْذ بشدة وسرعة .
إذن : فهم يُقرُّون للرسول بأنه جاء بالحق ، وأنه على الهدى ، لكن علة امتناعهم أنْ يتخطفوا ، وكان عليهم أنْ يقارنوا بعقولهم بين أن يكونوا مع رسول الله على الحق وعلى الهدى ويُتخطَّفوا وبين أنْ يظلُّوا على كفرهم .
فقصارى ما يصيبهم إنْ اتبعوا رسول الله أن يتخطفهم الناس في أموالهم أو في أنفسهم – على فرض أن هذا صحيح – قصارى ما يصيبهم خسارة عَرَض فانٍ من الدنيا لو استمر لك لتمتعتَ به مدة بقائك فيها ، وهذا الخير الذي سيفوتك من الدنيا محدود على مقتضى قوة البشر ، ولا يضيرك هذا إنْ كنتَ من أهل الآخرة حيث ستذهب إلى خير بَاقٍ دائم ، خير يناسب قدرة المنعم سبحانه .
أما إنْ ظلُّوا على كفرهم ، فمتاع قليل في الدنيا الفانية ، ولا نصيبَ لهم في الآخرة الباقية . إذن : فأيُّ الطريق أهدى؟ إن المقارنة العقلية ترجح طريق الهدى واتباع الحق الذي جاء به رسول الله ، هذه واحدة .
ثم مَنْ قال إنكم إن اتبعتم الهدى مع رسول الله تُتخطَّفوا وتُضطهدوا؟ لذلك يرد الله عليهم : قُلْ لهم يا محمد : كذبتم ، فلن يتخطفكم أحد بسبب إسلامكم { أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً آمِناً يجبى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقاً مِّن لَّدُنَّا ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ } [القصص : 57] .
فقد أنعم الله عليكم وأنتم كافرون مشركون به ، تعبدون الأصنام في جاهلية ، ومكَّن لكم حياة آمنة في رحاب بيته الحرام ، ووفّر لكم رَغَد العيش وأنتم بوادٍ غير ذي زرع حيث يُجْبي إليه الثمرات من كل مكان ، فالذي صنع معكم هذا الصنيع أيترككم ويتخلى عنكم بعد أنْ آمنتم به ، واهتديتم إلى الحق؟ كيف يكون منكم هذا القياس؟
ومعنى : { نُمَكِّن لَّهُمْ . . . } [القصص : 57] نجعلهم مكينين فيه ، كما في قوله تعالى : { وكذلك مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأرض . . . } [يوسف : 21] والتمكين يدل على الثبات؛ لأن

ظرف المكان ثابت على خلاف ظرف الزمان .
وقال : { حَرَماً آمِناً . . } [القصص : 57] مع أن الأمن لمن في المكان ، لكن أراد سبحانه أن يُؤمِّن نفس المكان ، فيكون كل ما فيه آمناً ، حتى القاتل لا يُقتصّ منه في الحرم ، والحيوان لا يُثار فيه ولا يُصَاد ، والنبات لا يُعضد حتى الحجر في هذا المكان آمن ، ألاَ تراهم يرجمون حجراً في رمي الجمرات في حين يُكرِّمون الحجر الأسود ويُقبّلونه .

وحينما نتأمل الحرم منذ أيام الخليل إبراهيم – عليه السلام – نجد أن له خطة ، وأن الحق سبحانه يُعدُّه ليكون حرماً آمناً ، فلما جاءه إبراهيم قال : { رَّبَّنَآ إني أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ المحرم . . . } [إبراهيم : 37] .
هذا يعني أن المكان ليس به من مقومات الحياة إلا الهواء ، لأن نفي الزرع يعني عدم وجود الماء؛ لذلك اعترضت السيدة هاجر على هذا المكان القفر ، فلما علمتْ أنه اختيار الله لهم قالت : إذن لن يضيعنا .
وقد رأتْ بنفسها أن الله لم يُضيّعهم ، فلما احتاجت الماء لترضع وليدها وسعتْ في طلبه بين الصفا والمروة سبعة أشواط على قَدْر ما أطاقتْ لم تجد الماء في سَعْيها ، ولو أنها وجدته لكان سعيها سبباً إنما أراد الله أنْ يُصدِّقها في كلمتها ، وأن يثبت لها أنه سبحانه لن يُضيّعهم من غير أسباب لتتأكد أن كلمتها حق ، ثم شاءتْ قدرة الله أن يخرج الماء من تحت قدم الوليد ، وهو يضرب بقدمه الأرض ، ويبكي من شدة الجوع والعطش ، وانبجستْ زمزم .
ولما أسكن إبراهيم أهله في هذا المكان المقْفر أراده لهم سكناً دائماً ، لا مجرد استراحة من عناء السفر؛ لذلك قال : { رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصلاة فاجعل أَفْئِدَةً مِّنَ الناس تهوي إِلَيْهِمْ وارزقهم مِّنَ الثمرات . . . } [إبراهيم : 37] .
وكأنه – عليه السلام – يريد أن يطمئن على إقامة أهله في هذا المكان ، وأن يكون البيت مُصلًّى لله ، لا تنقطع فيه الصلاة ، وهذا هو الفرق بين بيت الله باختيار الله وبيت الله باختيار عباد الله .
فالبيت الذي نبنيه لله تعالى قد يُغلق حتى في أوقات الفروض ، أما بيت الله الذي اتخذه لنفسه فلا يخلو من الطواف والصلاة في أيِّ وقت من ليل أو نهار ، ولا ينقطع منه الطواف إلا لصلاة مكتوبة ، فإذا قُضيتْ الصلاة رأيتهم يُهرعون إلى الطواف .
وقد رأيت الحرم في إحدى السنوات وقد دهمه سيل جارف حتى ملأ ساحته ، ودخل الماء الكعبة وغطَّى الحجر الأسود ، فكان الناس يطوفون سباحة ، ورأينا أناساً يغطسون عند الحجر ليُقبِّلوه ، وكأن الحق – سبحانه وتعالى – يريد أن يظلَّ الطواف حول بيته لا ينقطع على أيِّ حال .
كذلك نفهم من قوله تعالى : { تهوي إِلَيْهِمْ . . . } [إبراهيم : 37] .

من الفعل هَوَى يهوي ، يعني : سقط؛ لأن الذي يسقط لا إرادةَ له في عدم السقوط ، كذلك مَنْ يأتي بيت الله أو يجلب إليه الخيرات يجد دافعاً يدفعه كأنه لا إرادة له .
كما نفهم منها معنى آخر ، فكل تكاليف الحق سبحانه ربما تكاسل الناس في أدائها ، فمنّا مَنْ لا يصلي أو لا يُزكِّي . إلا الحج حيث قال الله فيه : { وَأَذِّن فِي الناس بالحج يَأْتُوكَ رِجَالاً . . . } [الحج : 27] فمجرد أن تؤذن يأتوك .
لذلك نجد من غير القادرين على نفقات الحج من يجوع ويُمسك على أهله ليوفِّر تكاليف الحج ، فهو – إذن – الفريضة الوحيدة التي يتهافت عليها مَنْ لم تطلب منه .

ونلحظ أن إبراهيم – عليه السلام – دعا بالأمن للحرم مرتين : مرة في قوله : { رَبِّ اجعل هذا بَلَداً آمِناً . . . } [البقرة : 126] يعني : اجعل هذا المكان بلداً آمناً ، كأيِّ بلد آمن لا تُقام إلا في مكان يُؤَمّنون فيه كل مُقوِّمات الحياة ، فأيّ بلد لا تُبنى حتى من الكافر إلا إذا كان آمناً فيها ، فالطلب الأول أنْ يتحول هذا المكان الخالي إلى بلد آمن ، كما يأمن كل بلد حين ينشأ ، وهذا أمن عام .
ثم يدعو مرة أخرى { رَبِّ اجعل هذا البلد آمِناً . . . } [إبراهيم : 35] بعد أن أصبحتْ مكة بلداً آمناً يطلب لها مزيداً من الأمن ، وهذا أمن خاص ، حيث جعلها بلداً حراماً ، يأمن فيها الإنسان والحيوان والنبات ، بل والجماد .
وقد وقف البعض عند قوله تعالى :
{ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً . . . } [آل عمران : 97] .
وقالوا : أين هذا الأمن ، وقد حدث في الحرم الاعتداء والقتل وترويع الآمنين ، كما حدث في أيام القرامطة لما دخلوا الحرم ، وقتلوا الناس فيه ، وأخذوا الحجر ، وفي العصر الحديث نعرف حكاية جهيمان ، وما حدث فيها من قَتْل في الحرم .
وهذه الآية : { وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً . . . } [آل عمران : 97] جملة خبرية غرضها الأمر والحثّ ، كأنه تعالى قال : أمِّنوا من دخل الحرم . وهذه ليست قضية كونية ، إنما قضية شرعية ، وفرْق بين القضيتين : الكونية لا بُدَّ أن تحدث ، أما الشرعية فأمر ينفذه البعض ، ويخرج عليه البعض ، فمَنْ أطاع الأمر الشرعي لله وأراد أنْ يجعل أمر الله صادقاً يُؤمِّن أهل الحرم ، ومَنْ أراد أنْ يكذِّب ربه يهيج الناس ويروعهم فيه .
ومن الآيات التي كثيراً ما يُسأل عنها في هذا الصدد قوله تعالى : { الخبيثات لِلْخَبِيثِينَ والخبيثون لِلْخَبِيثَاتِ والطيبات لِلطَّيِّبِينَ والطيبون لِلْطَّيِّبَاتِ . . . } [النور : 26] يقولون : كثيراً ما يتزوج خبيث من طيبة ، أو طيبة من خبيث ، فالواقع لا يتفق مع الآية . نقول أيضاً هنا : هذه قضية شرعية تحمل أمراً قد يُطاع وقد يُعْصَى ، وليست قضية كونية لا بُدَّ أنْ تأتي كما أخبر الله تعالى بها

، ولا يتخلّف مدلولها .

فالمعنى في الآية : إن زوجتُم فزوِّجوا الخبيث للخبيثة ، والطيب للطيبة؛ ليتحقق التكافؤ بين الزوجين ويحدث بينهما الوفاق ، حتى إنْ عيَّر الخبيث زوجته كانت مثله تستطيع أنْ تردّ عليه ، لا بُدَّ من وجود التكافؤ حتى في (القباحة) ، وإلا فكيف تفعل الطيبة مع الخبيث ، أو الخبيث مع الطيبة؟

إذن : فالآية وأمثالها قضية شرعية في صيغة الخبر ، وإنْ كانت تعني الأمر ، كما تقول عن الميت : رحمه الله بصيغة الماضي ، وأنت لا تدري رحمه الله ، أو لم يرحمه ، إذن : لا بُدَّ أن المعنى دعاء : فليرحمه الله ، قلتها أنت بصيغة الماضي ، رجاء أن تكون له الرحمة .

نعود إلى قوله تعالى : { أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً آمِناً . . . } [القصص : 57] ونلحظ هذا التمكين وهذا الأمن من قصة الفيل ، حيث جاء أبرهة ليهدم الكعبة ، ويتقدّم الجيش فيل ضخم يقال له محمود ، فلما قالوا في أذنه (أبرُكْ محمود وارجع راشداً) يعني : انفد بجلدك (فإنك ببلد الله الحرام) فبرك الفيل واستجاب .

ثم جاءت معركة الطير الأبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول . هذا كله من الأمن الذي جعله الله لقريش فجعلهم كعصف مأكول . هذا كله من الأمن الذي جعله الله لقريش سكان حرمه؛ لتظل الكعبة مسكونة بهم ، وما داموا هم سكان الحرم والناس تأتيهم من كل الأنحاء للحج كل عام ، فسوف يظل لهم الأمن بين القبائل ، ولا يجرؤ أحد على الأعتداء عليهم ، أو التعرُّض لقوافلهم في رحلة الشتاء والصيف ، وأيُّ أمن ، وأيُّ مهابة بعد هذا؟

ومع الحجيج يُجلب الطعام وتُجلب الأرزاق ، وصدق الله العظيم : { لإِيلاَفِ قُرَيْشٍ * إِيلاَفِهِمْ رِحْلَةَ الشتآء والصيف * فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هذا البيت * الذي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ } [قريش : 1-4] .

وكيف بعد هذا الأمن والأمان يخاف مَنْ يؤمن بمحمد أنْ يُتخطَّف من أرضه؟ إنها مقولة لا مدلولَ لها .

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (58)

كلمة { وَكَمْ . . } [القصص : 58] كم هنا خبرية تفيد الكثرة ، كأنك تركتَ الجواب ليدل بنفسه على الكثرة ، كما تقول لمن ينكر جميلك ، ولا تريد أنْ تُعدد أياديك عليه : كم أحسنتُ إليك ، يعني : أنا لن أُعدِّد ، وسوف أرضى بما تقوله أنت لأنك واثق أن الإجابة سوف تكون في صالحك ، وعندها لا يملك إلا أن يقول : نعم هي كثيرة . فكم هنا تعني الكثرة ، وينطق بها

المخاطب لتكون حجة عليه .
ومعنى : { مِن قَرْيَةٍ . . . } [القصص : 58] من للعموم أي : من بداية ما يُقال له قرية { بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا } [القصص : 58] البطر : أن تنسى شُكْر المُنعم على نعمه ، أي : أنه سبحانه لم يرد ذكره على بالك وأنت تتقلَّبَ في نِعمه ، أو يكون البطر باستخدام النعمة في معصية المنعم عز وجل .
ومن البطر أن يتعالى المرء على النعمة ، أو يستقلها ويراها أقلّ من مستواه ، كالولد الذي تأتي له أمه مثلاً بطبق العدس فيتبرَّم به ، وربما لا يأكل ، فتقول الأم كما نقول في العامية؛ أنت (بتتبطر) على نعمة ربنا؟ كلمة في لغتنا العامية لكن لها أصل في الفصحى .
إذن : من البطر أنْ تتجبَّر ، أو تتكبر ، أو تتعالى على نعمة الله ، فلا ترضى بها ، وتطلب أعلى منها .
ومعنى { مَعِيشَتَهَا } [القصص : 58] أي : أسباب معيشتها { فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الوارثين } [القصص : 58] فما داموا قد بطروا نعمة الله فلا بُدَّ أن يسلبها من أيديهم ، وإنْ سُلبتْ نِعم الله من بلد هلكوا ، أو رحلوا عنها { إِلاَّ قَلِيلاً } [القصص : 58] هم الذين يقيمون بعد هلاك ديارهم .
{ وَكُنَّا نَحْنُ الوارثين } [القصص : 58] نرثهم لأنهم لم يتركوا مَنْ يرثهم ، وإذا تُرِك مكان بلا خليفة يرثه آل ميراثه إلى الله تعالى .
وفي آية أخرى يعالج الحق سبحانه هذه القضية بصورة أوسع ، يقول تعالى : { وَضَرَبَ الله مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ الله . . . } [النحل : 112] يعني : بطرت بنعمه تعالى { فَأَذَاقَهَا الله لِبَاسَ الجوع والخوف . . . } [النحل : 112] .
ومعنى الكفر بالله : سَتْر وجود الله ، والسَّتْر يقتضي مستوراً ، فكأن الأصل أن الله تعالى موجود ، لكن الكافر يستر هذا الوجود ، وهكذا يكون الكفر نفسه دليلاً على الإيمان ، فالإيمان هو الأصل والكفر طارئ عليه .
ومثال ذلك قولنا : إن الباطل جُنْدي من جنود الحق ، فحين يستشري الباطل يذوق الناس مرارته ، ويكتوون بناره ، فيعودون إلى الحق وإلى الصواب ، ويطلبون فيه المخرج حين تعضُّهم الأحداث .
وكذلك نقول بنفس المنطق : الألم أول جنود الشفاء؛ لذلك نجد أن أخطر الأمراض هو المرض الذي يتلصص على المريض دون أنْ يُشعره بأيِّ ألم ، فلا يدرى به إلا وقد استفحل أمره ، وتفاقم خطره وعزَّ علاجه ، لذلك نسميه – والعياذ بالله – المرض الخبيث .

ففي قوله تعالى : { فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ الله . . . } [النحل : 112] .
دليل على وجود النعم ، ومع ذلك كفروا بها أي : ستروها ، إما بعدم البحث في أسبابها ، والتكاسل عن استخراجها ، أو ستروها عن المستحق لها وضنُّوا لها على العاجز الذي لا يستطيع الكسب؛ لذلك يسلبهم الله هذه النعم ويحرمهم منها رغم قدرتهم .
وهناك أشياء لو ظلت موجودة لأعطتْ رتابة ، ربما فهموا منها أن هذه الأشياء إنما تأتيهم تلقائياً بطبيعة الأشياء ، وحين يسلب الله منهم نعمه ويطقع هذه الرتابة ، فإنما ليفهموا أن الرتابة في التكليفات تُضعِف الحكمة من التكليف ، كيف؟
نقول : الحق - تبارك وتعالى - حرَّم علينا أشياء وأحلَّ لنا أشياء ، فمثلاً حرَّم الله علينا الخمر حتى أصبحنا لا نشربها ولا حتى تخطر ببالنا ، فأصبحت عادة رتيبة عندنا ، والله تعالى يريد أنْ يُديم على الإنسان تكليف العبادة ، حتى لا يعتادها فيفعلها بالعادة ، فيكسر هذه العادة مثلاً في صوم رمضان .
ويُحرِّم عليك ما كان حلالاً لك طوال العام ، وقد اعتدْتَ عليه ، فيأتي رمضان وتكليف الصيام ليُحرِّم عليك الطعام الذي كنت تأكله بالأمس ، ذلك لتظل حرارة العبادة موجودةً تُشوِّق العبد إليها ، وتُعوِّده الانضباط في أداء التكاليف .
ثم يذكر العقاب على الكفر بنعمة الله { فَأَذَاقَهَا الله لِبَاسَ الجوع والخوف . . . } [النحل : 112] والجوع له مظهران : أنْ تطلبه البطن في أول الأمر ، فإنْ زاد الجوع ضعُفَتْ الجوارح ، وتألمتْ الأعضاء كلها ، وذاقتْ ألم الجوع ، والله تعالى يريد أنْ يُرينا إحاطة هذا الألم ، فشبَّهه باللباس الذي يحيط بالجسم كله ، ويلفّه من كل نواحيه .
وهذه سُنَّة الله في القُرى الظالمة ، كما قال سبحانه : { وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ القرى . . . } .

وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ (59)

إذن : لا بُدَّ أن نُعْلِم بالمنهج ، ويأتي رسول يقول : افعل كذا ، ولا تفعل كذا ، حتى إذا حَلَّ العذاب بالكافرين يكون بالعدْل ، وبعد إلزامهم الحجة ، لا أنْ نترك الناس يذنبون ، ثم نقول لهم : هذا حرام .
وسبق أنْ قُلْنا ما قاله القانون : لا عقوبة إلا بتجريم ، ولا تجريم إلا بنصٍّ ، ولا نصَّ بإعلام . وما كان الله ليهلك قرية ظلماً ، إنما عقوبةً لهم على ما فعلوا .
والقرية لها تسلسل فنقول : (نَجْع) وهو المكان الذي تسكنه أسرة واحدة ، و (كَفْر) لعدة أسر ، ثم (قرية) ثم (أم القرى) وهي الحضر أو العاصمة ، وقد نزل القرآن في أمة مُتبدية ، تعيش على الترحال ، وتقيم في الخيام تتنقل بها بين منابت الكلأ ، فقالوا (أم القرى) للمكان

الذي تجد به القرى ، وتتوفر فيه من مقومات الحياة ما لا يوجد في النجوع والكفور والقرى الصغيرة ، كما يعيش الآن أهل الريف على قضاء حوائجهم من (البندر) ، كأنّ أُمّ القرى لها حنان ، يشمل صغار البلاد حولها .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الحياة . . . } .

وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ (60)

معنى : { مِّن شَيْءٍ . . . } [القصص : 60] من أيِّ شيء من مُقوِّمات الحياة ، ومن كمالياتها { فَمَتَاعُ الحياة الدنيا وَزِينَتُهَا . . . } [القصص : 60] فمهما بلغ هذا من السُّمو ، فإنه متاع عمره قليل ، كما قال سبحانه : { قُلْ مَتَاعُ الدنيا قَلِيلٌ } [النساء : 77] .

لذلك طلبنا منكم ألاَّ تنشغلوا بهذا المتاع ، وألاَّ تجعلوه غايةً ، لأن بقاءك فيها مظنون ، ومتاعك فيها على قَدْر نشاطك وحركتك .

وسبق أنْ قلنا : إن آفة النعيم في الدنيا إما أن يتركك أو تتركه ، وأن عمرك في الدنيا ليس هو عمر الدنيا ، إنما مدة بقائك أنت فيها ، ومهما بلغتَ من الدنيا فلا بُدَّ من الموت .

لذلك يدلُّنا ربنا - عَزَّ وجَلَّ - على حياة أخرى باقية مُتيقَّنة لا يفارقك نعيمها ولا تفارقه .

{ وَمَا عِندَ الله خَيْرٌ وأبقى أَفَلاَ تَعْقِلُونَ } [القصص : 60] .

{ خَيْرٌ . . . } [القصص : 60] لأن النعيم فيها ليس على قَدْر نشاطك ، إنما على قَدْر الله وعطائه وكرمه ، { وأبقى . . . } [القصص : 60] لأنه دائم لا ينقطع ، فلو قارن العاقل بين متاع الدنيا ومتاع الآخرة لاختار الآخرة .

لذلك ، فإن الصحابي الذي حدَّثه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أجر الشهيد ، وتيقَّن أنه ليس بينه وبين الجنة إلا أنْ يُقتل في سبيل الله ، وكان في يده تمرات يأكلها فألقاها ، ورأى أن مدة شغله بمضغها طويلة؛ لأنها تحول بينه وبين هذه الغاية ، ألقاها وأسرع إلى الجهاد لينال الشهادة .

لماذا؟ لأنه أجرى مقارنة بين متاع الدنيا ومتاع الآخرة .

والحق - سبحانه وتعالى - حين يُجري هذه المقارنة بين الكفار وبين المؤمنين يقول : { قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلاَّ إِحْدَى الحسنيين . . . } [التوبة : 52] إما أن ننتصر عليكم ونُذلكم ، ونأخذ خيراتكم ، وإما ننال الشهادة فنذهب إلى خير مما تركنا { وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ الله بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا . . . } [التوبة : 52] .

إذن : لا تتربصون بنا إلا خيراً ، ولا نتربّص بكم إلا شراً .

وفي موضع آخر قال سبحانه : { بَلْ تُؤْثِرُونَ الحياة الدنيا * والآخرة خَيْرٌ وأبقى } [الأعلى : 16 - 17] لذلك ذيَّل الآية هنا بقوله تعالى : { أَفَلاَ تَعْقِلُونَ } [القصص : 60] لأن

العقل لو قارن بين الدنيا والآخرة لا بُدَّ أنْ يختار الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه : { أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاَقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ . . . . } .

أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (61)

تُعد هذه الآية شرحاً وتأكيداً لما قبلها ، والوعد : بشارة بخير ، وإذا بشَّرك مُساوٍ لك بخير أتى خيره على قدر إمكاناته ، وربما حالت الأسباب دون الوفاء بوعده ، فإنْ كان الوعد من الله جاء الوفاء على قدر إمكاناته تعالى في العطاء ، ثم إنَّ وعده تعالى لا يتخلف { وَمَنْ أوفى بِعَهْدِهِ مِنَ الله . . . } [التوبة : 111] .

لذلك قال { وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاَقِيهِ . . . } [القصص : 61] أي : حتماً { ثُمَّ هُوَ يَوْمَ القيامة مِنَ المحضرين } [القصص : 61] أي : للعذاب .

وهذه الكلمة { المحضرين } [القصص : 61] لا تستعمل في القرآن إلا للعذاب ، وربما الذي وضع كلمة (مُحضر) قصد هذا المعنى؛ لأن المحضر لا يأتي أبداً بخير .

ويقول تعالى في موضع آخر : { وَلَقَدْ عَلِمَتِ الجنة إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ } [الصافات : 158] .

وقال تعالى : { وَلَوْلاَ نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ المحضرين } [الصافات : 57] ثم يقول سبحانه مُؤكِّداً هذا الإحضار يوم القيامة حتى لا يظن الكافر أن بإمكانه الهرب : { وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ . . . } .

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (62)

والسؤال هنا للذين أشركوا ، لا لمن أُشرك بهم ، وكلمة { وَيَوْمَ . . . } [القصص : 62] منصوبة على الظرفية ، لا بُدَّ أن نُقدِّر لها فعلاً يناسبها ، فالتقدير : واذكر يوم يناديهم ، والأمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكن لمن يذكره رسول الله؟ يذكره للكافرين بهذا اليوم يوم القيامة .

والآية تعطينا لقطة من لقطات هذا اليوم الذي هو يوم الواقعة التي لا واقعةَ بعدها ، ويوم الحاقَّة أي الثابتة التي لا تَزَحْزُحَ عنها ، ويوم الصَّاخة أي : التي تصخّ الآذان التي انصرفتْ عنها في الدنيا ، ويوم الطامة التي تطمُّ ، ويوم الدين ، أي : الذي ينفع فيه الدين .

والحق سبحانه يذكر هذه اللقطة لأمرين :

الأول : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عُودي وأُوذِي وهزِيء به وسُخِر منه ، واجتمعت عليه كل وسائل النكالَ من خصومة فبيَّتوا به بمكر ، وصنعوا له سحراً . . إلخ .

وحين تجد دعوة تُقابَل بهذه الشراسة ، فاعلم أنها ما قُوبلت هذه المقابلة إلا لأنها ستهدم فساداً ينتفع به قوم ترهبهم كلمة الإصلاح؛ لأنها تصيبهم في مصالحهم وفي شهواتهم وفي جاههم وعنجهيتهم وطغيانهم ، فطبيعي أن يقفوا في وجهها .

لذلك نجد كثيراً من الغربيين يعرفون عظمة الإسلام من شراسة عداوة خصومه ، يقولون : لو لم يكُنْ هذا الدين ضد فسادهم ما ائتمروا عليه ، ولو كان أمراً هيِّناً لتركوه للزمن يمحوه ، لكنهم أيقنوا أنه الحق الذي سيُذهِب باطلهم ، ويقضي على طغيانهم .

فالحق سبحانه يأمر رسوله صلى الله عليه وسلم أنْ يذكر ذلك اليوم يذكره لنفسه ، ويذكره لقومه ليعتبروا ، فربما إذا سمعوا ما في هذا اليوم من القسوة والخزي والنكال ربما راجعوا أنفسهم فتابوا إلى الله .

إذن : ليس حظ الله تعالى من هذا العمل أنْ يُرهبهم إنما ليحذرهم ، لئلا يقع منهم الكفر الذي يُوقِفهم هذا الموقف ، كما تُبشِّع لولدك عاقبة الإهمال ، وتُحذِّره من الرسوب لينفر من أسبابه ، ويبحث عن أسباب النجاح .

يقول تعالى : { وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ . . . } [القصص : 62] وقد ناداهم في الدنيا : يا أيها الناس ، يا بني آدم فصمُّوا آذانهم ، وأعرضوا عن نداء الله ، واليوم يناديهم نداءً لا يملكون أنْ يصمُّوا آذانهم عنه؛ لأنه { لِّمَنِ الملك اليوم لِلَّهِ الواحد القهار } [غافر : 16] فكأن الحق يُذكِّرهم بهذا اليوم ، لعلهم يرعوون ، ولعلهم يرجعون .

الأمر الثاني : أن الآية جاءت تسلية لسيدنا رسول الله يقول له ربه : لا تيأس مما يصنعون معك ، ولا يحزنك كيدهم وعنادهم؛ لأنني سأصنع بهم كيت وكيت . وأنت تستطيع أن تدرك سِرَّ هذا الإيعاز النفسي في نفس المضطهد وفي نفس المظلوم حين يشكو لك ولدك أن أخاه ضربه أو أهانه فتقول أنت لتُرضيه : انتظر سوف أفعل به كذا وكذا ، فترى الولد ينبهر بهذه العقوبة المسموعة ويسعد بها ، وكذلك حين يسمع رسول الله العقوبة التي تنال أعداءه على ما حدث منهم يسعد بها ، وتُسرِّي عن نفسه ما يلاقي .

ومضمون النداء { أَيْنَ شُرَكَآئِيَ الذين كُنتُمْ تَزْعُمُونَ } [القصص : 62] فلم يقُلْ شركائي ويسكت ، إنما وصفهم { الذين كُنتُمْ تَزْعُمُونَ } [القصص : 62] لأنه سبحانه واحد لا شريك له ، وهؤلاء شركاء في زعمهم فقط ، والزعم كما يقولون : مطية الكذب؛ لذلك لن يجدوا جواباً لهذا السؤال { أَيْنَ شُرَكَآئِيَ الذين كُنتُمْ تَزْعُمُونَ } [القصص : 62] .

ولو كان أمامهم شركاء لقالوا : ها هم الذين أضلُّونا ، فأذِقْهم يا رب العذاب ضِعْفين ، لكنهم لم يجيبوا فهذا دليل على أنهم غَير موجودين ، لقد وقف هؤلاء المشركين حائرين ، لا يدرون جواباً

كما قال تعالى : { فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأنبآء . . . } [القصص : 66] .
ثم يقول الحق سبحانه : { قَالَ الذين حَقَّ عَلَيْهِمُ القول . . . } .

قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (63)

والكلام هنا للشركاء الذين أضلوا المشركين وأغووْهم ، ومعنى { حَقَّ عَلَيْهِمُ . . . } [القصص : 63] أي : ثبت ووقع ، فهو أمر لا محالة منه ، ولم يعد هناك مجال لزحزحته عنهم ، كما قال سبحانه في موضع آخر : { فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ } [الصافات : 31] .
وقال الحق سبحانه وتعالى : { وَوَقَعَ القول عَلَيهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمْ لاَ يَنطِقُونَ } [النمل : 85] .

لكن ، ما هو القول الذي وقع وثبت لهم وحَقَّ عليهم؟ القول : أن كلَّ واحد له مكان عندي في الجنة على فَرْض أنكم جميعاً آمنتم ، وكل واحد له مكان في النار على فَرْض أنكم جميعاً كفرتم .
وماذا قالوا؟ قالوا : { رَبَّنَا هؤلاء الذين أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا . . . } [القصص : 63]
سبحان الله الآن تقولون ربنا وتعترفون بربوبيته تعالى ، كما قال تعالى في شأن فرعون : { آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ المفسدين } [يونس : 91] .
الآن تعترفون بعد أنْ سُلِب منكم الاختيار ، ولم تعُد لكم إرادة حتى على جوارحكم وأبعاضكم ، فيدُكَ التي كنت تبطش بها ، ورِجْلك التي كنت تسعى بها ولسانك . . كلها خرجت عن إرادتك وطَوْع أمرك؛ لأنها الآن طَوْعٌ لأمر الله { يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } [النور : 24] .
ومعنى { هؤلاء الذين أَغْوَيْنَآ . . . } [القصص : 63] أي : المشركين { أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا . . . } [القصص : 63] أي : لنكون سواء ، هذه عِلَّة غوايتهم ، أن يكونوا في الخُسْران سواء ، وإلا فأهل الباطل يسعون جاهدين للإيقاع بأهل الحق ليشاركوهم باطلهم ، وليكونوا أمثالهم .
وهذه المسألة تعطينا السيال النفسي لكل منحرف حين يرى ملتزماً مستقيماً ، لا يشاركه فساده وانحرافه ، فيعزّ عليه أنْ يكون في الهاوية وحده ، ولماذا يمتاز عنه الآخرون؟ واقرأ قوله تعالى : { وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً . . . } [النساء : 89] .
ألا ترى أهل الباطل والفساد والفجور يهزءُون من أهل الحق ويسخرون منهم ، ليُزهدوهم في الخير والصلاح ، وليغروهم بما هم فيه ، حتى أصبح الإنسان الملتزم بدينه وشرع ربه لا يسلَم من ألسنتهم ، كما يقول تعالى : { إِنَّ الذين أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ الذين آمَنُواْ يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ } [المطففين : 29 – 30] .

وليت الأمر ينتهي عند الغَمْز واللمز ، إنما يتمادى هؤلاء ، فيجعلون من سخريتهم بأهل الإيمان والطاعة مادةً للمسامرة والتسلية { وَإِذَا انقلبوا إلى أَهْلِهِمُ انقلبوا فَكِهِينَ } [المطففين : 31] يعني : فرحين مسرورين بما نالوه من أهل الطاعة ، مما يدلّ على أنهم جميعاً تُسعِدهم هذه المسألة وتُرضي شيئاً في نفوسهم المريضة الحاقدة .

لكن المؤمن من طبيعته يحب أنْ يُكرم ، وأنْ ينأى بنفسه عن مجاراة هؤلاء ، لذلك يتولَّى ربه – عز وجل – الدفاع عنه يقول له : لا تحزن فسوف نقتصُّ لك ، ونسخر منهم ، ونجعلهم أضحوكة في يوم بَاقٍ لا ينتهي فيه عذابهم : { فاليوم الذين آمَنُواْ مِنَ الكفار يَضْحَكُونَ * عَلَى الأرآئك يَنظُرُونَ * هَلْ ثُوِّبَ الكفار مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ }

[المطففين : 34-36] .

وكأن الحق – تبارك وتعالى – يسترضي عباده المؤمنين : أيعجبكم ما آلوا إليه؟ أقَدرْنا أن نجازيهم على ما اقترفوه في حقكم؟ نعم يا رب ، فسخرية الكفار من أهل الإيمان في دار الباطل الفانية انقلبت سخرية منهم في دار الحق الباقية ، وهي سخرية دائمة لا نهاية لها .

إذن : { أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا . . . } [القصص : 63] يعني : حتى نكون سواء ، لا يكون أحدنا أحسن من الآخر ، ومن هذا المنطلق أغوى إبليس آدمَ ، لأنه لما طغى وطُرِد من رحمة الله ، ومن الصفائية التي كان ينعمَ بها مع الملائكة . أراد أنْ يأخذ آدم بل وذريته إلى هذا المصير ، فقد حَزَّ في نفسه أن يلاقي هذا المصير وحده ، في حين ينعَم آدم وذريته برحمة الله ورضوانه .

لذلك نجد إبليس – لعنه الله – لا يكتفي بأن تُغوي ذريته ذريةَ آدم ، إنما يطلب من الله أنْ يُنظره إلى يوم البعث ليباشر بنفسه هذه الغواية ، فهو (المعلم) الكبير ، وكأنه يحذر أن إمكانات ذريته في الغواية قد لا ترضيه؛ لذلك يتولى بنفسه هذه المهمة فيقول : { لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ المستقيم } [الأعراف : 16] .

والبعض يفهم قوله تعالى : { قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ المُنظَرِينَ } [الأعراف : 14-15] أن الله تعالى أجاب إبليس إلى ما طلب ، لكن { إِنَّكَ مِنَ المُنظَرِينَ } [الأعراف : 15] ليست إجابةً ، إنما تقرير لشيء حادث بالفعل قبل أن يطلب ، فالمعنى أن سؤالك ليس له معنى؛ لأنك من المنظرين فعلاً ، لماذا؟ قالوا : لأن الله تعالى يريد أنْ يظلَّ إبليس الذي أغوى آدم وأخرجه من الجنة باقياً أمام ذريته ليُذكِّرهم دائماً : هذا الذي أغوى أباكم آدم .

وقولهم : { رَبَّنَا هؤلاء الذين أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا . . . } [القصص : 63] لنا وقفة مع { هؤلاء } [القصص : 63] وهي اسم إشارة للجمع بنوعيه ، تقول : هؤلاء الرجال ، وهؤلاء النساء ، وهي عبارة عن : الهاء للتنبيه ، وأولاء اسم إشارة ، وكذلك في هذا ، هذه ، هذان ، هاتان ، فالهاء فيها للتنبيه لتنبيه السامع أنك ستتكلم ليعطيك سمعه ، ويهتم بما تقول ، فلا يفوته

من كلامك شيء .

هذا حين تخاطب مثلك لأنه يحتاج إلى تنبيه ، أما إذا خاطبت ربك – عز وجل – فمن سوء الأدب أنْ تستخدم في خطابه أداة التنبيه ، كما استخدمها المشركون ، فما داموا قد قالوا { رَبَّنَا . . . } [القصص : 63] فليس من الأدب أن يقولوا { هؤلاء . . . } [القصص : 63] أيُنبِّهون الله عز وجل؟

لذلك نلحظ هذا الأدب في خطاب نبي الله موسى – عليه السلام – فيما حكاه عنه القرآن : { وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَومِكَ ياموسى * قَالَ هُمْ أولاء على أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لترضى } [طه : 84] فقال (أولاء) بدون هاء التنبيه تأدُّباً مع ربه عَزَّ وجَلَّ .

ونلحظ أنك لا تجد خطاباً من الكفار إلا باستخدام هؤلاء : { رَبَّنَا هؤلاء أَضَلُّونَا . . . } [الأعراف : 38] { رَبَّنَا هؤلاءآء شُرَكَآؤُنَا } [النحل : 86] أما المؤمن فلا يليق به أبداً أن يُنبِّه الله تعالى ، بل ولا تصدر من مؤمن لمؤمن لأنه دائماً منتبه .

ثم يقولون : { تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كانوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ } [القصص : 63] الآن ينكُصون كما قالوا من قبل { رَبَّنَا . . . } [القصص : 63] يقولون الآن { تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ . . } [القصص : 63] لكن هيهات تنفعهم هذه البراءة ، لقد انتهى وقتها ، ومضى زمن التكليف والاختيار ، والآن وقت الحساب وسلَبْ الإرادة والاختيار ، وما أشبههم بفرعون حين قال الله له : { آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ المفسدين } [يونس : 91] .

وقولهم : { مَا كانوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ } [القصص : 63] يقول الشركاء : ما كان معنا قوة قهر نحملكم بها على عبادتنا ، ولا قوة سلطان أو حجة نقنعكم بها ، إنما كنتم في انتظار إشارة منا ، كما قال كبيرهم إبليس : { وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فاستجبتم لِي فَلاَ تَلُومُونِي ولوموا أَنفُسَكُمْ . . . } [إبراهيم : 22] .

إذن : فهؤلاء المشركون كانوا يعبدون أنفسهم وذواتهم؛ لأن الشركاء كانوا أصناماً أو غيرها ، وليس لهم منهج يتكلَّمون به ، ويدْعُون الناس إلى عبادتهم به ، وإلا فماذا قالت الأصنام أو الشمس أو النجوم لمن عبدها؟ بِمَ أمرتهم ، وعمَّ نهتْهم؟

إذن : هو إله بلا منهج وبلا تكليف ، وهذا ما يريده المشركون؛ لأن الذي يُتعب الناس في قضية الإيمان بالألوهية ما تقتضيه من تكاليف ، وما تفرضه من أمرأو نهي يحول بين النفس البشرية وما تشتهي ، ويُوقفها عند حدود لا تتعداها .

إذن : { مَا كانوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ } [القصص : 63] بل يعبدون ذواتهم ، ويعبدون شهواتهم ورغباتهم ، وما أسهل أن يعبد الإنسان آلهة لا تلزمه بشيء ، فيسير في حياته على هواه ، وهذه هي التي روجَتْ لعبادة هذه الآلهة .

لذلك فإن الحق سبحانه يريد أنْ يلزم الإنسان حجة أن نفسه هي الوسيلة الأولى لشهواته ، وإلا فلو أن المسألة كلها وسوسة شيطان ، فمَن أغوى إبليس بالعصيان أولاً على حَدِّ قَوْل الشاعر : إبليسُ لما عَصى مَنْ كان وسْوَسَهُ؟ ... إذن : فهي كبرياء النفس ورغباتها ، وليس للشيطان إلا أنْ يُلوِّح لها فتقع؛ لذلك جاء في الحديث الشريف : « إذا أقبل رمضان فُتحت أبواب الجنة ، وغُلِّقت أبواب النار ، وسُلْسلت الشياطين » .

وما دامت الشياطين سُلسلت ، فليس لها حركة مع الإنس؛ لأن الله تعالى يعلم منّا أنَّا نُعلِّق كل معاصينا على الشيطان ، فكأنه سبحانه يقول : ها هي الشياطين صُفِّدت وسُلْسِلت ، فمَنْ أغواكم وزيَّن لكم حال سَلْسلتها؟ إذن : هي نفسك التي تَوسوس لك؛ لذلك نقول : كل معصية تقع في رمضان ليس للشيطان فيها نصيب ، إنما هي شهوة النفس .

وسبق أنْ بيّنا كيف نُفرِّق بين المعصية متى تكون من الشيطان؟ ومتى تكون شهوة نفس؟ إنْ كانت المعصية تُوقفك عندها لا تتزحزح عنها إلى غيرها ، فاعلم أنها من نفسك ، أما إنْ عزَّتْ عليك معصية ففكَّرْتَ في غيرها ، فهي من الشيطان؛ لأنه والعياذ بالله يريدك عاصياً على أي وجه ، وبأيِّ طريقة فينقلك إلى معصية أخرى يستطيع أنْ يُوقِعك فيها ، على خلاف شهوة النفس ، فهي تريد شيئاً بذاته لا تريد غيره .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَقِيلَ ادعوا شُرَكَآءَكُمْ . . . } .

وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ (64)

وسبق أن ناداهم { أَيْنَ شُرَكَآئِيَ الذين كُنتُمْ تَزْعُمُونَ } [القصص : 62] أي : في زعمكم؛ لأنه سبحانه ليس له شركاء ، وهنا يقول لهم { ادعوا شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ العذاب لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ } [القصص : 64] ولم يقُلْ شركائي ، مع أنهم اتخذوهم شركاء لله .

فمعنى { شُرَكَآءَكُمْ . . . } [القصص : 64] أفي دعوى الألوهية؟ لا ، لأنهم تابعون لهم ، إذن : فما معنى { شُرَكَآءَكُمْ . . . } [القصص : 64] ؟ قالوا : الإضافة تأتي بمعانٍ ثلاثة : إما بمعنى (من) مثل : أردب قمح أي : من قمح ، أو بمعنى (في) مثل : مكرالليل أي : مكر في الليل ، أو : بمعنى (لام) الملكية مثل : قلم زيد أي : قلم لزيد .

فالمعنى هنا { شُرَكَآءَكُمْ . . . } [القصص : 64] أي : من جنسكم أو فيكم يعني : لا يتميز عنكم بشيء ، والإله لا بُدَّ أن يكون من جنس أعلى ، فإنْ كان من جنسكم ، فهو مُسَاوٍ لكم ، لا يصلح أن تتخذوه إلهاً .

ومعنى { ادعوا شُرَكَآءَكُمْ . . } [القصص : 64] يعني : نادوهم لينصروكم ، ويشفعوا لكم ، كما قلتم : { هؤلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ الله } [يونس : 18] .

وقلتم : { مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى الله زلفى } [الزمر : 3] .

إذن : فنادوهم ليُقربوكم من الله ، وليشفعوا لكم ، والذي يقوم بهذه المهمة لا بُدَّ أنْ يكون له منزلة عند الله يضمنها ، وهل يضمن هؤلاء الشركاء منزلة عند الله؟ كيف وهم لا يضمنونها لأنفسهم؟

{ فَدَعَوْهُمْ . . . } [القصص : 64] يا شركاءنا ، يا مَنْ قُلْتم لنا كذا وكذا أدركونا { فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ . . . } [القصص : 64] لأنهم مشغولون بأنفسهم { وَرَأَوُاْ العذاب لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ } [القصص : 64] يعني : لو كانوا يهتدون بهَدْي الله ، وهَدْي رسوله ، ويروْن العذاب الذي أنذرهم به حقيقة وواقعاً لا يتخلفون عنه لَمَا حدث لهم هذا ، ولما واجهوا هذه العاقبة .

أو : أنهم لما رأوا العذاب حقيقة في الآخرة تمنَّوا لو أنهم كانوا مهتدين .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ . . . } .

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (65) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ (66)

قال هنا أيضاً { يُنَادِيهِمْ . . . } [القصص : 65] فما الغرض من كل هذه النداءات؟ إنها للتقريع وللسخرية منهم ، وممَّنْ عبدوهم واتبعوهم من دون الله ، ومضمون النداء : { مَاذَآ أَجَبْتُمُ المرسلين } [القصص : 65] والإجابة : موافقة المطلوب من الطالب ، فماذا كانت إجابتكم لهم بعد أن آمنتم بإله ، أأخذتُم بما جاءوا به من أحكام؟ أعلمتم منهم علماً يقينياً حقاً؟ وهذا الاستفهام للتعجيز؛ لأنهم إنْ حاولوا الإجابة فلن يجدوا إجابة فيخزون ويخجلون؛ لذلك يقول بعدها { فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأنبآء . . . } [القصص : 66] أي : خفِيَتْ عليهم الحجج والأعذار وعموا عنها فلم يروْها { فَهُمْ لاَ يَتَسَآءَلُونَ } [القصص : 66] لا يملكون إلا السكوت كما قالوا : جواب ما يكره السكوت ، وكما قال سبحانه : { وَلاَ يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً } [المعارج : 10] .

وهؤلاء لا يتساءلون؛ لأنهم في الجهل سواء ، وفي الضلال شركاء ، وكل منهم مشغول بنفسه { يَوْمَ يَفِرُّ المرء مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وصاحبته وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امرىء مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ } [عبس : 34-37] .

وكما سُئِل المشركون : { مَاذَآ أَجَبْتُمُ المرسلين } [القصص : 65] في موضع آخر يسأل الرسل : { يَوْمَ يَجْمَعُ الله الرسل فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ . . . } [المائدة : 109] أي : فيما علمتم من العلم ، وأوله : علم اليقين الأعلى ، وثانيها : علم الأحكام ، فبماذا أجابكم الناس؟ وتأمل هنا أدب الرسل ومدى فهمهم في مقام الجواب لله ، وهم يعلمون تماماً بماذا أجاب

أقوامهم ، وأن منهم مَنْ آمن بهم ، وتفانى في خدمة دعوتهم وضحّى واستشهد ، ومنهم مَنْ كفر وعاند ، ومع ذلك يقولون : { قَالُواْ لاَ عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الغيوب } [المائدة : **109**] .
فكيف يقولون : { لاَ عِلْمَ لَنَآ . . } [المائدة : **109**] وهم يعلمون؟ قالوا : لأنهم غير واثقين أن مَنْ آمن آمن عن عقيدة أم لا ، فهم يأخذون بظواهر الناس ، أما بواطنهم فلا يعلمها إلا الله ، كأنهم يقولون : أنت يا ربنا تسأل عن إجابة الحق لا عن إجابة النفاق ، وإجابة الحق نحن لا نعرفها ، وأنت سبحانك علاّم الغيوب .
إذن : جعلوا الحق - تبارك وتعالى - هو السُّلْطة التشريعية ، والسلطة القضائية ، والسلطة التنفيذية في محكمة العدل الإلهي التي سيُعلن فيها على رؤوس الأشهاد { لِّمَنِ الملك اليوم . . . } [غافر : **16**] .
والسؤال عند العرب يُطلق ، إما للمعرفة حيث تسأل لتعرف ، كما يسأل التلميذ أستاذه ، أو يكون السؤال للإقرار بما تعرف ، كما يسأل الأستاذ تلميذه ليقرّ على نفسه ، ومن ذلك قوله تعالى : { فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَآنٌّ } [الرحمن : **39**] أي : سؤالَ علم؛ لأننا نعلم .
وقوله تعالى : { وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَّسْئُولُونَ } [الصافات : **24**] أي : سؤال إقرار منهم ، وإنْ كان كلامي يوم القيامة حجة ، لأنه لا مردَّ له ، لكن مع ذلك نسألهم ليقروا هم ، وليشهدوا على أنفسهم .
والحق - تبارك وتعالى - يدلُّك على أنه تعالى يُبشّع مظاهر يوم القيامة على الكافرين ، لا لأنه كاره لهم ، بل يريدهم أنْ يستحضروا هذه الصورة البشعة لعلّهم يرعوون ويتوبون؛ لذلك يفتح لهم باب التوبة لأنه رب ورحيم .

لذلك جاء في الحديث القدسي : « قالت الأرض : يا رب إئذن لي أنْ أخسف بابن آدم فقد طَعِم خيرك ومنع شكرك . وقالت الجبال : يا رب إئذن لي أنْ أخِرَّ على ابن آدم فقد طَعِم خيرك ومنع شكرك . فقال تعالى : دعوني وخلقي لو خلقتموهم لرحمتموهم ، دعوهم فإنْ تابوا إليَّ فأنا حبيبهم ، وأنْ لم يتوبوا فأنا طبيبهم » .
أعالجهم بالترغيب مرة ، وبالترهيب أخرى ، أشوّقهم إلى الجنة ، وأخوّفهم من النار ، وأفتح باب التوبة ، وفتْح باب التوبة ليس رحمة من الله للتائب فقط ، ولكن رحمة لكل مَنْ يشقى بعصيان غير التائب .
ولو أغلق باب التوبة في وجه العاصي ليئس وتحول إلى (فاقد) يشقى به المجتمع طوال حياته ، إذن : ففتْح باب التوبة رحمة بالتائب ، ورحمة بمجتمعه ، بل وبالإنسانية كلها ، رحمة بالعاصي وبمَن اكتوى بنار المعصية .

فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ (67)

لماذا استخدم هنا (عسى) الدالة على الرجاء بعد أنْ قال { مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً . . . } [القصص : 67] ولم يقل : يكون من المفلحين فيقطع لهم بالفلاح؟

قالوا : لأنه ربما تاب ، لكن عسى أن يستمر على توبته ليستديم الفلاح أو نقول أن (عسى) من الله تدل على التحقيق ، وسبق أنْ قُلْنا : إن الرجاءات على درجات : فالرجاء في المتكلم أقوى من الرجاء في الغائب ، فإنْ كان الرجاء في الله فهو أقوى الرجاءات كلها .

لذلك يقول سبحانه في خطابه لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : { عسى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً } [الإسراء : 79] فأيُّ رجاء أقوى من الرجاء في الله؟

إذن : (عسى) رجاء حين تصدر ممن لا يملك إنفاذ المرجو ، وتحقيق حين تصدر ممَّنْ يملك إنفاذ المرجو ، وهو الحق سبحانه وتعالى .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ . . . } .

وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (68)

كنا ننتظر أنْ يُخبرنا السياق بما سيقع على المشركين من العذاب ، لكن تأتي الآية { وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ . . . } [القصص : 68] وكأن الحق سبحانه يقول : أنا الذي أعرف أين المصلحة ، وأعرف كيف أُريحكم من شرّهم ، فدعوني أخلق ما أشاء ، وأختار ما أشاء ، فأنا الرب المتعهد للمربي بالتربية التي تُوصله إلى المهمة منه .

والمربِّي قسمان : إما مؤمن وإما كافر ، ولا بُدَّ أنْ يشقى المؤمن بفعل الكافر ، وأنْ يمتد هذا الشقاء إنْ بقي الكافر على كفره؛ لذلك شَرعتُ له التوبة ، وقَبِلْتُ منه الرجوع ، وهذا أول ما يريح المؤمنين .

ومعنى : { مَا كَانَ لَهُمُ الخيرة . . . } [القصص : 68] يعني : لا خيارَ لكم ، فدعوني لأختار لكم ، ثم نفِّذوا ما أختاره أنا .

أو : أن هذه الآية { وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ . . . } [القصص : 68] قيلت للردِّ على قولهم : { لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ } [الزخرف : 31] . يقصدون الوليد بن المغيرة أو عروة بن مسعود الثقفي ، فردَّ الله عليهم : { أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الحياة الدنيا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ . . . } [الزخرف : 32] .

فكيف يطمعون في أنْ يختاروا هم وسائل الرحمة ، ونحن الذين قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ، فجعلنا هذا غنياً ، وهذا فقيراً ، وهذا قوياً ، وهذا ضعيفاً ، فمسائل الدنيا أنا متمكن

منهم فيها ، فهل يريدون أنْ يتحكموا في مسائل الآخرة وفي رحمة الله يوجِّهونها حسب اختيارهم؟!!

{ مَاكَانَ لَهُمُ الخيرة . . } [القصص : 68] أي : الاختيار في مثل هذه المسائل .

ويجوز { مَاكَانَ لَهُمُ الخيرة . . . } [القصص : 68] أي : المؤمنون ماكان لهم أنْ يعترضوا على قبول توبة الله على المشركين الذين آذوهم ، يقولون : لماذا تقبل منهم التوبة وقد فعلوا بنا كذا وكذا ، وقد كنا نود أن نراهم يتقلبون في العذاب؟

والحق تبارك وتعالى يختار ما يشاء ، ويفعل ما يريد ، وحين يقبل التوبة من المشرك لا يرحمه وحده ، ولكن يرحمكم أنتم أيضاً حين يُريحكم من شرّه .

وقوله : { سُبْحَانَ الله وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ } [القصص : 68] أي : تعالى الله وتنزَّه عما يريدون من أنْ يُنزِلوا الحق سبحانه على مرادات أصحاب الأهواء من البشر ، ولو أن الحق سبحانه نزل على مرادات أصحاب الأهواء من البشر – وأهواؤهم مختلفة – لفسدتْ حياتهم جميعاً .

ألا ترى أن البشر مختلفون جميعاً في الرغبات والأهواء ، بل وفي مسائل الحياة كلها ، فترى الجماعة منهم في سنٍّ واحدة ، وفي مركز اجتماعي واحد ، فإذا توجَّهوا لشراء سلعة مثلاً اختار كل منهم نوعاً ولوناً مختلفاً عن الآخر .

وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (69)

ما تُكنُّ صدورهم أي : السر { يَعْلَمُ السر وَأَخْفَى } [طه : 7] والسر : ما تركته في نفسك محبوساً ، وأسررْتَه عن الخَلْق لا يعرفه إلا أنت ، أو السر : ما أسررت به إلى الغير ، وساعتها لن يبقى سِراً ، وإذا ضاق صدرك بأمرك ، فصدر غيرك أضيق .

وإذا كان الحق سبحانه يمتنُّ علينا بأن علمه واسع يعلم السر ، فهو يعلم الجهر من باب أَوْلَى؛ لأن الجهر يشترك فيه جميع الناس ويعرفونه . أما الأخفى من السر ، فلأنه سبحانه يعلم ما تُسِره في نفسك قبل أنْ يوجد في صدرك ، وهو وحده الذي يعلم الأشياء قبل أن توجد .

ولك أن تسأل : إذا كان من صفاته تعالى أنه يعلم السر وما هو أخفى من السر ، فماذا عن الجهر وهو شيء معلوم للجميع؟ وهذه المسألة استوقفتْ بعض المستشرقين وأتباعهم من المسلمين (المنحلين) الذين يجارونهم .

وحين نستقرئ آيات القرآن نجد أن الله تعالى سوَّى في علمه تعالى بين السر والجهر ، فقال سبحانه : { سَوَآءٌ مِّنْكُمْ مَّنْ أَسَرَّ القول وَمَنْ جَهَرَ بِهِ . . . } [الرعد : 10] .

وقال سبحانه : { وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ اجهروا بِهِ . . . } [الملك : 13] .

والآية التي معنا : { وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ } [القصص : 69] وفي هذه

الآيات قدّم السر على الجهر ، أما في قوله تعالى : { سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تنسى * إِلاَّ مَا شَآءَ الله إِنَّهُ يَعْلَمُ الجهر وَمَا يخفى } [الأعلى : 6-7] .

وقال سبحانه : { إِنَّهُ يَعْلَمُ الجهر مِنَ القول وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ } [الأنبياء : 110] فقدَّم العلم بالجهر على العلم بالسرِّ ، ولا يقدم الجهر إلا إذا كان له ملحظية خفاء عن السر ، وهذه الملحظية غفل عنها السطحيون ، فأخطأوا في فهم الآية .

فأنت مثلاً لو أسررتَ في نفسك شيئاً ، فربما ظهر في سقطات لسانك أو على ملامح وجهك ، وربما خانك التعبير فدلَّ على ما أسررتْه ، ألم يقل الحق سبحانه وتعالى : { وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ القول . . . } [محمد : 30] .

إذن : هناك قرائن وعلامات نعرف بها السر ، أما الجهر وهو من الجماعة ليس جهراً واحداً؛ لأنه مقابل بالجمع : { إِنَّهُ يَعْلَمُ الجهر مِنَ القول وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ } [الأنبياء : 110] فالمعنى : ويعلم ما تجهرون وما تكتمون .

ولك أن تتابع مظاهرة لجمع غفير من الناس ، يهتف كل منهم هتافاً ، أتستطيع أن تميز بين هذه الهتافات ، وأنْ تُرجع كلاً منها إلى صاحبها؟ هذا هو اللغز في الجهر والملحظ الذي فاتهم تدبُّره ، لذلك امتن الله علينا بعلمه للجهر من القول الذي لا نعلمه نحن مهما أوتينا من آلات فَرْز الأصوات وتمييزها .

لذلك يقولون : لا تستطيع أنْ تُحدِّد جريمة في جمهور من الناس؛ لأن الأصوات والأفعال مختلطة ، يستتر كلٌّ منها في الآخر كما يقولون : الفرد بالجمع يُعْصَم .

ويقولون : الجماهير ببغائية ، كما قال شوقي في مصرع كليوباترا ، لما انهزموا في يوم (أكتيوما) وأشاعوا أنهم انتصروا ، لكن هذه الحيلة لا تنطلي على العقلاء من القوم ، فيقول أحدهم للآخر عن غوغائية الجماهير :

اسْمع الشَّعْبَ دُيُونُ ... كَيْفَ يُوحُون إليْهِ
مَلأ الجوَّ هتافاً ... بِحيَاتَيْ قَاتليْهِ
أثَّر البهتانُ فيه ... وَانْطلى الزُّور عليْه
يَا لَهُ مِنْ ببغاء ... عقلُه في أُذُنَيْه

إذن : فَعِلْم الجهر هنا مَيْزة تستحق أنْ يمتنَّ الله بها ، كما يمتنُّ سبحانه بعلم السر .

وقال سبحانه { وَرَبُّكَ يَعْلَمُ . . . } [القصص : 69] ليُطمئن رسول الله؛ لأنه سبحانه ربه ، والمتولي لتربيته والعناية به ، يقول له : لا تحزن مما يقولون ، فأنا أعلم سِرَّهم وجهرهم ، فإنْ كنتَ لا تعرف ما يقولون فأنا أعرفه ، وسوف أخبرك به ، ألم يقل سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم : { وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلاَ يُعَذِّبُنَا الله بِمَا نَقُولُ . . . } [المجادلة : 8] .

فأخبره ربه بما يدور حتى في النفوس ، كأنه سبحانه يقول لرسوله : إياك أن تظن أنني سأؤاخذهم بما عرفتَ من أفعالهم فحسب ، بل بما لا تعلم مما فعلوه ، ليطمئن رسول الله أنه سبحانه يُحصي عليهم كل شيء .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَهُوَ الله لا إله إلاَّ هُوَ . . . } .

وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآَخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (70)

الله : هو المعبود بحقٍّ ، وله صفات الكمال كلها ، وهو سبحانه { لا إله إلاَّ هُوَ . . . } [القصص : 70] وما دام هو وحده سبحانه ، فلا أحد يفتن عليه ، أو يستدرك عليه بشيء ، وسبق أن قال لهم : هاتوا شركاءكم لنفصل في مسألة العبادة علانية و (نفاصل) من صاحب هذه السلعة : أي يوم القيامة .

ومعنى : { الأولى . . . } [القصص : 70] أي : الخَلْق الذي خلقه الله ، والكون الذي أعدَّه لاستقبال خليفته في الأرض : الشمس والقمر والنجوم والشجر والجبال والماء والهواء والأرض ، فقبل أنْ يأتي الإنسان أعدَّ الله الكونَ لاستقباله .

لذلك حينما يتكلم الحق سبحانه عن آدم لا يقول : إنه أول الخَلْق ، إنما أول بني آدم ، فقد سبقه في الخلق عوالم كثيرة؛ لذلك يقول تعالى : { هَلْ أتى عَلَى الإنسان حِينٌ مِّنَ الدهر لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً } [الإنسان : 1] أي : لم يكن له وجود .

وإعداد الكون لاستقبال الإنسان جميل يستوجب الحمد والثناء ، فقد خلق الله لك الكون كله ، ثم جعلك تنتفع به مع عدم قدرتك عليه أو وصولك إليه ، فالشمس تخدمك ، وأنت لا تقدر عليها ولا تملكها ، وهي تعمل لك دون صيانة منك ، ودون أن تحتاج قطعة غيار ، وكذلك الكون كله يسير في خدمتك وقضاء مصالحك ، وهذا كله يستحق الحمد .

وبعد أنْ خلقك الله في كون أُعِدّ لخدمتك تركك ترتع فيه ، ذرة في ظهر أبيك ، ونطفة في بطن أمك إلى أنْ تخرج للوجود ، فيضمك حضنها ، ولا يكلفك إلا حين تبلغ مبلغ الرجال وسِنّ الرشد ، ومنحك العقل والنضج لتصبح قادراً على إنجاب مثلك ، وهذه علامة النضج النهائي في تكوينك كالثمرة لا تخرج مثلها إلا بعد نُضْجها واستوائها .

لذلك نجد في حكمة الله تعالى ألاَّ يعطي الثمرة حلاوتها إلا بعد نُضْج بذرتها ، بحيث حين تزرعها بعد أكْلها تنبت مثلها ، ولو أُكلت قبل نُضْجها لما أنبتت بذرتها ، ولا نُقرض هذا النوع؛ لذلك ترى الثمرة الناضجة إذا لم تقطفها سقطت لك على الأرض لتقول لك : أنا جاهزة .

لذلك نلحظ عندنا في الريف شجرة التوت أو شجرة المشمس مثلاً يسقط الثمر الناضج على الأرض ، ثم ينبت نباتاً جديداً ، يحفظ النوع ، ولو سقطت الثمار غير ناضجة لما أنبتت .

وكذلك الإنسان لا ينجب مثله إلا بعد نُضْجه ، وعندها يُكلِّفه الله ويسأله ويحاسبه . إذن : على

الإنسان أنْ يسترجع فضل الله عليه حتى قبل أنْ يستدعيه إلى الوجود ، وأنْ يثق أن الذي يُكلِّفه الآن ويأمره وينهاه هو ربُّه وخالقه ومُربِّيه ، ولن يكلِّفه إلا بما يُصلحه ، فعليه أنْ يسمع ، وأنْ يطيع .

وقوله تعالى : { والآخرة . . . } [القصص : 70] يعني : له الحمد في القيامة ، كما قال سبحانه : { وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الحمد للَّهِ رَبِّ العالمين } [يونس : 10] فيحمد الله في الآخرة؛ لأنه كان يمتعني في الدنيا إلى أمد ، ويمتعني في الدنيا على قَدْر إمكاناتي ، أما في الآخرة فيعطيني بلا أمد ، وعلى قَدْر إمكاناته هو سبحانه ، فحين نرى هذا النعيم لا نملك إلا أنْ نقول : الحمد لله ، وهكذا اجتمع لله تعالى الحمد في الأولى ، والحمد في الآخرة .

وقوله تعالى : { وَلَهُ الحكم وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } [القصص : 70] لأن الآخرة ما كانت إلا للحكم وللفصل في الخصومات ، حيث يعرف كلٌّ ما له وما عليه ، فلا تظن أن الذين آذوْك وظلموك سيُفلِتون من قبضتنا .

{ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } [القصص : 70] أي : للحساب ، وفي قراءة (تَرْجعون) لأنهم سيرجعون إلينا ويأتوننا بأنفسهم ، كأنهم مضبوطون على ذلك ، كالمنبه تضبطه على الزمن ، كذلك هم إذا جاء موعدهم جاءونا من تلقاء أنفسهم ، دون أن يسوقهم أحد .

وعلى قراءة { تُرْجَعُونَ } [القصص : 70] إياكم أن تظنوا أنكم بإمكانكم أن تتأبَّوْا علينا ، كما تأبَّيتم على رسُلنا في الدنيا؛ لأن الداعي في الدنيا كان يأخذكم بالرفق واللين ، أما داعي الآخرة فيجمعكم قَسْراً ورَغْماً عنكم ، ولا تستطيعون منه فكاكا { يَوْمَ يُدَعُّونَ إلى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا } [الطور : 13] .

ثم يقول الحق سبحانه : { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ الله عَلَيْكُمُ . . . } .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (71) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (72)

يُعدِّد الحق – تبارك وتعالى – نعمه على عبيده في شيئين يتعلقان بحركة الحياة وسكونها ، فالحركة تأتي بالخير للناس ، والسكون يأتي بالراحة للمتعَب من الحركة ، والإنسان بطبيعته لا يستطيع أن يعطي ويتعب إلا بعد راحة ، والذي يتحدَّى هذه الطبيعة فيسهر الليل ويعمل بالنهار لا بُدَّ أنْ ينقطع ، وأن تُنهَك قواه فلا يستمر .

لذلك يقول تعالى : { والليل إِذَا يغشى * والنهار إِذَا تجلى * وَمَا خَلَقَ الذكر والأنثى * إِنَّ سَعْيَكُمْ لشتى } [الليل : 1-4] .

فكلٌّ من الليل والنهار له مهمة ، وكذلك الرجل والمرأة ، فإياكم أنْ تخلطوا هذه المهام ، وإلا فسدت الحياة وأتعبتكم الأحداث ، فقبل الكهرباء ودخول (التليفزيون والفيديو) المنازل كان يومنا يبدأ في نشاط مع صلاة الفجر ، لأننا كنا ننام بعد صلاة العشاء ، أما الآن فالحال كما ترى ، كنا نستقبل يومنا بحركة سليمة نشطة؛ لأننا نستقبل الليل بسكون سليم وهدوء تام .

والحق سبحانه في معرض تعداد نعمه علينا يقول { أَرَأَيْتُمْ . . . } [القصص : 71] يعني : أخبروني ماذا تفعلون { إن جَعَلَ الله عَلَيْكُمُ الليل سَرْمَداً إلى يَوْمِ القيامة . . . } [القصص : 71] يعني : طوال حياتكم { مَنْ إله غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِضِيَآءٍ . . . } [القصص : 71]

والسرمد : الدائم المستمر .

وقال { بِضِيَآءٍ . . . } [القصص : 71] ولم يقل بنور؛ لأن النور قد يأتي من النجوم ، وقد يأتي من القمر ، أمّا الضياء وهو نور وأشعة وحرارة ، فلا يأتي إلا من الشمس .

لذلك يقول سبحانه : { هُوَ الذي جَعَلَ الشمس ضِيَآءً والقمر نُوراً . . . } [يونس : 5] .

وقال : { مَنْ إله غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِضِيَآءٍ . . . } [القصص : 71] ولم يقُلْ : مَنْ يأتيكم بضياء ليلفت نظرنا إلى أن هذه المسألة لا يقدر عليها إلا إله ، ولا إله إلا الله ، وفي الضياء تبصرون الأشياء ، وتسيرون على هُدىً ، فتؤدون حركات حياتكم دون اصطدام أو اضطراب ، وبالضياء أعايش الأشياء في سلامة لي ولها ، وإلاَّ لو سِرْنا في الظلام لتحطمنا أو حطّمنا ما حولنا؛ لأنك حين تسير في الظلام إمّا أنْ تحطم ما هو أقل منك ، أو يحطمك ما هو أقوى منك .

وكما يكون الضياء في الماديات يكون كذلك له دور في المعنويات ، وضياء المعنويات القيم التي تحكم حركة الحياة وتعدلها ، وتحميك أنْ تُحطِّم مَنْ هو أضعف منك ، أو أنْ يُحطمك الأوقى منك؛ لذلك كان منطقياً أن يقول تعالى : { هُوَ الذي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلاَئِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِّنَ الظلمات إِلَى النور . . . . } [الأحزاب : 43] .

والمراد : من ظلمات المعاني إلى نور القيم ، لا ظلمات المادة لأنني لا أستغني عنه لراحتي ، فله مهمة عندي لا تقلّ عن مهمة النور لذلك يقول تعالى في وصفه لنوره عز وجل { نُّورٌ على نُورٍ . . . } [النور : 35] .

نور مادي تُبصرون به الأشياء من حولكم ، فلا تتخبطون بها ، فتسلَم حركتكم ، وهذا النور المادي يشترك فيه المؤمن والكافر ، وينتفع به المطيع والعاصي ، فلم يضِنّ به على أحد من خَلْقه ، أما النور المعنوي نور الهداية ونور اليقين والقيم ، فهذا يرسله الله على يدَيْ رسُله ، فإذا أخذ المؤمن النورين انتفع بهما في الدنيا ، وامتد نفعه بهما إلى يوم القيامة؛ لذلك قال بعدها :

{ يَهْدِي الله لِنُورِهِ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ الله الأمثال لِلنَّاسِ . . . } [النور : 35] .

ولأن الآية الكريمة بدأت بقُلْ ، فمن المناسب أنْ تختم بقوله تعالى : { أَفَلاَ تَسْمَعُونَ . . . } [

القصص : 71] يعني : اسمعوا ما أقول لكم وتدبروه .
ثم يمتنُّ الله تعالى بالآية المقابلة لليل ، وهي آية النهار : { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ الله عَلَيْكُمُ الليل سَرْمَداً إلى يَوْمِ القيامة . . . } [القصص : 72] يعني : دائم لا نهاية له { مَنْ إله غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفلاَ تُبْصِرُونَ } [القصص : 72] .
تلحظ أن هاتين الآيتين على نَسَق واحد ، لكن تذييلهما مختلف ، مما يدلُّ على بلاغة وإعجاز القرآن ، فلكلِّ معنىً ما يناسبه ، ففي آية الليل قال { أَفلاَ تَسْمَعُونَ } [القصص : 71] وفي آية النهار قال : { أَفلاَ تُبْصِرُونَ } [القصص : 72] ذلك لأن العين لا عملَ لها في الليل إنما للأذن ، فأنت تسمع دون أنْ ترى ، وبالأذن يتمُّ الاستدعاء .
أما في النهار وفي وجود الضوء ، فالعمل للعين حيث تبصر ، فهو إذن ختام حكيم للآيات يضع المعنى فيما يناسبه .
ثم يُجمل الله تعالى هاتين الآيتين في قوله سبحانه : { وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ . . . } .

وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (73)

بعد أنْ فصَّل الله تعالى القولَ في الليل والنهار كلّ على حدة جمعهما؛ لأنهما معاً مظهر من مظاهر رحمة الله ، وفي الآية ملمح بلاغي يسمونه « اللف والنشر » ، فبعد أن جمع الله تعالى الليل والنهار أخبر عنهما بقوله : { لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبتَغُواْ مِن فَضْلِهِ . . } [القصص : 73] ثقة منه تعالى بفطْنة السامع ، وأنه سيردُّ كلاً منهما إلى ما يناسبه ، فالليل يقابل { لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبتَغُواْ مِن فَضْلِهِ . . . } [القصص : 73] ، والنهار يقابل { وَلِتَبتَغُواْ مِن فَضْلِهِ . . . } [القصص : 73] .
فاللفُّ أي : جَمْع المحكوم عليه معاً في جانب والحكم في جانب آخر ، والنشرْ : ردّ كلِّ حكم إلى صاحبه .
وضربنا لذلك مثلاً بقول التيمورية :
قَلْبِي وجَفْنِي واللسَانُ وخَالِقِي ... رَاضٍ وبَاكٍ شَاكِرٌ وغَفُور
فجمعتْ المحكوم عليه في الشطر الأول والحكم في الشطر الثاني ، وعليك أنْ تعيد كلَّ حكم إلى صاحبه .
والليل والنهار آيتان متكاملتان ، وبهما تنتظم حركة الحياة؛ لأنك إنْ لم ترتح لا تقوى على العمل؛ لأن لك طاقة ، وفي جسمك مُولِّدات للطاقة ، فساعةَ تتعب تجد أن أعضاءك تراخَتْ وأُجهدَتْ ، وهذا إنذار لك ، تُنبِّهك جوارحك لم تَعُدْ صالحاً للحركة ، ولا بُدَّ لك من الراحة لتستعيد نشاطك من جديد .
والراحة تكون بقدر التعب ، فربما ترتاح حين تقف مثلاً في حالة السير ، فإنْ لم يُرِحْك الوقوف

تجلس أو تضطجع ، فإنْ زاد التعب غلبك النوم ، وهو الرَّدْع الذاتي الذي يكبح جماح صاحبه إنْ تمرد على الطبيعة التي خلقها الله فيه .

ومن عجب أن البعض يخرج عن هذه الطبيعة ، فيأخذ مُنشِّطات حتى لا يغلبه النوم ، ويأخذ مُهدِّئات لينام ، ولو أسلم نفسه لطبيعتها ، فنام حينما يحضره النوم ، وعمل حينما يجد في نفسه نشاطاً للعمل لأراحَ نفسه من كثير من المتاعب .

لذلك يقولون : النوم ضيف إنْ طلبك أراحك ، وإنْ طلبته أعْنتك ، وحتى الآن ، ومع تقدُّم العلوم لم يصلوا إلى سرِّ النوم ، وكيف يأخذ الإنسان في هدوء ولُطْف دون أنْ يشعر ماهيتهَ ، وأتحدى أن يعرف أحد منا كيف ينام .

لذلك جعل الله النوم آية من آياته تعالى ، مثل الليل والنهار والشمس والقمر ، فقال سبحانه :
{ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بالليل والنهار . . . } [الروم : 23] .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ . . . } .

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (74)

تقدمت المناداة قبل ذلك مرتين ومع ذلك لا يوجد تكرار لهذا المعنى؛ لأن كلَّ نداء منها له مقصوده الخاص ، فالنداء في الأولى خاص بمَنْ أشركوهم مع الله وما قالوه أمام الله تعالى : { رَبَّنَا هؤلاء الذين أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا . . . } [القصص : 63] .

أما الثانية ، فالنداء فيها للمشركين { مَاذَآ أَجَبْتُمُ المرسلين } [القصص : 65] .

أما هنا ، فيهتم النداء بمسألة الشهادة عليهم . إذن : فكلمة (أين) و (شركائي) و (الذين كنتم تزعمون) قَدْر مشترك بين الآيات الثلاثة ، لكن المطلوب في كل قَدْر غير المطلوب في القَدْر الآخر ، فليس في الأمر تكرار ، إنما توكيد في الكل .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنَا . . . } .

وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (75)

أي : أخرجنا من كل أمة نبيّها ، وأحضرناه ليكون شاهداً عليها { فَقُلْنَا هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ . . } [القصص : 75] أرونا شركاءكم الذين اتخذتموهم من دون الله ، أين هم ليدافعوا عنكم؟ لكن هيهات ، فقد اتخذتموهم من دون الله ، أين هم ليدافعوا عنكم؟ لكن هيهات ، فقد ضلُّوا عنهم ، وهربوا منهم .

{ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأنبآء يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لاَ يَتَسَآءَلُونَ } [القصص : 66] .

إذن : غاب شركاؤكم ، وغاب شهودكم ، لكن شهودنا موجودون { وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً . . . } [القصص : 75] يشهد أنه بلَّغهم منهج الله فإنْ قُلْتم : لقد أغوانا الشيطان وأغوانا المضلون من الإنس ، نردّ عليكم بأننا ما تركناكم لإغوائهم ، فيكون لكم عذر ، إنما أرسلنا إليكم رسلاً لهدايتكم ، وقد بلّغكم الرسل .

وفي موضع آخر يقول تعالى : { فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ على هؤلاء شَهِيداً } [النساء : 41] .

فماذا يكون موقفهم يوم تشهد أنت عليهم بأنك بلَّغت ، وأعذرتَ في البلاغ ، وأنك اضطهدت منهم ، وأوذيت ، وقد ضلَّ عنهم شركاؤهم ، ولم يجدوا مَنْ يشهد لهم أو يدافع عنهم؟ عندها تسقط أعذارهم وتكون المحكمة قد (تنوَّرت) .

ثم يقول تعالى : { فَقُلْنَا هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ . . . } [القصص : 75] أي : قولوا : إن رسلنا لم يُبلِّغوكم منهجنا ، وهاتوا حجة تدفع عنكم ، فلما تحيَّروا وأُسقط في أيديهم حيث غاب شهداهم وحضر الشهداء عليهم { فعلموا أَنَّ الحق لِلَّهِ . . . } [القصص : 75] .

وفوجئوا كما قال تعالى عنهم : { وَوَجَدَ الله عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ . . . } [النور : 39] .

وقال : { وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِراً . . . } [الكهف : 49] .

فوجئوا بما لم يُصدِّقوا به ولم يؤمنوا به ، لكن ما وجه هذه المفاجأة ، وقد أخبرناهم بها في الدنيا وأعطيناهم مناعة كان من الواجب أنْ يأخذوا بها ، وأنْ يستعدوا لهذا الموقف ، فالعاقل حين تُحذره من وعورة الطريق الذي سيسلكه وما فيه من مخاطر وأهوال حين يحتاط لنفسه أنْ يكون ناصحه كاذباً ، على حَدِّ قول الشاعر :

زَعَم المنجِّمُ والطبيبُ كلاهُما ... لا تُبعَثُ الأجسَادُ قُلْتُ إليكُما
إن صَحَّ قولكُمَا فلسْتُ بخاسِرٍ ... أوْ صَحَّ قَوْلي فالخَسَار عليكُما

وما عليك إنْ حملتَ بندقية في هذا الطريق المخوف ، ثم لم تجد شيئاً يخيفك؟ إذن : أنتم إنْ لم تخسروا فلن تكسبوا شيئاً ، ونحن إنْ لم نكسب لن نخسر .

وقوله : { وَضَلَّ عَنْهُمْ . . . } [القصص : 75] أي : غاب { مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ } [القصص : 75] من ادّعاه الشركاء .

بعد أن أعطانا الحق – تبارك وتعالى – لقطة من لقطات يوم القيامة ، والقيامة لا تخيف إلا مَنْ يؤمن بها ، أما مَنْ لا يؤمن بالآخرة والقيامة فلا بُدَّ له من رادع آخر؛ لأن الحق سبحانه يريد أنْ يحمي صلاح الكون وحركة الحياة .

ولو اقتصر الجزاء على القيامة لعربد غير المؤمنين واستشرى فسادهم ، ولَشقي الناس بهم ، والله تعالى يريد أنْ يحمي حركة الحياة من المفسدين من غير المؤمنين بالآخرة ، فيجعل لهم عذاباً في الدنيا قبل عذاب الآخرة .

يقول تعالى : { وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ . . . } [الطور : 47] يعني : قبل عذاب الآخرة .

فالذي يقع للكفار في الدنيا رَدْع لكل ظالم يحاول أنْ يعتدي ، وأنْ يقف في وجه الحق؛ لذلك يعطينا ربنا – عز وجل – صورة لهذا العذاب الدنيوي للمفسدين في الأرض ، فيقول سبحانه : { إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ موسى فبغى عَلَيْهِمْ . . . } .

إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76)

فلم يتكلم عن قارون وجزائه في الآخرة ، إنما يجعله مثلاً وعِبرة واضحة في الدنيا لكل مَنْ لم يؤمن بيوم القيامة لعلَّه يرتدع .

والنبي صلى الله عليه وسلم اضطهده كفار قريش ، ووقفوا في وجه دعوته ، وآذوْا صحابته ، حتى أصبحوا غير قادرين على حماية أنفسهم ، ومع ذلك ينزل القرآن على رسول الله يقول : { سَيُهْزَمُ الجمع وَيُوَلُّونَ الدبر } [القمر : 45] .

فيتعجب عمر رضي الله عنه : أيُّ جمع هذا؟ فنحن غير قادرين على حماية أنفسنا ، فلما وقعتْ بدر وانهزم الكفار وقُتِلوا . قال عمر : نعم صدق الله { سَيُهْزَمُ الجمع وَيُوَلُّونَ الدبر } [القمر : 45] .

لذلك يقولون : لا يموت ظالم في الدنيا حتى ينتقم الله منه ، ولم يَرَ الناس فيه ما يدل على انتقام الله منه تعجّبوا وقال أحدهم : لا بُدَّ أن الله انتقم منه دون أن نشعر ، فإنْ أفلتَ من عذاب الدنيا ، فوراء هذه الدار أخرى يعاقب فيها المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ، وعَدْل الله – عز وجل – يقتضي هذه المحاسبة .

والحق – تبارك وتعالى – يجعل من قارون عبرةً لكل مَنْ لا يؤمن بالآخرة ليخاف من عذاب الله ، ويحذر عقابه ، والعبرة هنا بمَنْ؟ بقارون رأس من رؤوس القوم ، وأغنى أغنيائهم ، والفتوة فيهم ، فحين يأخذه الله يكون في أَخَذه عبرة لمن دونه .

وحدَّثونا أن صديقاً لنا كان يعمل بجمرك الأسكندرية ، فتجمّع عليه بعض زملائه من الفتوات الذين يريدون فَرْضَ سيطرتهم على الآخرين ، فما كان منه إلا أنْ أخذ كبيرهم ، فألقاه في الأرض ، وعندها تفرَّق الآخرون وانصرفوا عنه .

ومن هذا المنطلق أخذ الله تعالى قارون ، وهو الفتوة ، ورمز الغِنى والجاه بين قومه ، فقال تعالى : { إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ موسى . . . } [القصص : 76] إذن : حينما نتأمل حياة موسى عليه السلام نجده قد مُنِي بصناديد الكفر ، فقد واجه فرعون الذي ادَّعى الألوهية ، وواجه هامان ، ثم موسى السامري الذي خانه في قومه في غيبته ، فدعاهم إلى عبادة العجل .

ومُني من قومه بقارون ، ومعنى : من قومه ، إما لأنه كان من رحمه من بني إسرائيل ، أو من قومه يعني : الذين يعيشون معه . والقرآن لم يتعرض لهذه المسألة بأكثر من هذا ، لكن المفسرين يقولون : إنه ابن عمه . فهو : قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوي ابن يعقوب وموسى هو ابن عمران بن قاهث بن لاوي بن يعقوب .

وللمؤرخين كلام في العداوة بين موسى وقارون ، قالوا : حينما سأل موسى عليه السلام ربه أنْ يشدَّ عضده بأخيه هارون ، أجابه سبحانه { قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ ياموسى } [طه : 36] وليست هذه أول مرة بل { وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أخرى } [طه : 37] وأرسل الله معه أخاه هارون؛ لأنه أفصح من موسى لساناً ، وجعلهما شريكين في الرسالة ، وخاطبهما معاً { اذهبآ . . . } [طه : 43] ليؤكد أنَّ الرسالة ليست من باطن موسى .

وإنْ رأيت الخطاب في القرآن لموسى بمفرده ، فاعلم أن هارون مُلاحَظ فيه ، ومن ذلك لما دعا موسى على قوم فرعون ، فقال : { رَبَّنَآ إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الحياة الدنيا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطمس على أَمْوَالِهِمْ واشدد على قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حتى يَرَوُاْ العذاب الأليم } [يونس : 88] .

فالذي دعا موسى ، ومع ذلك لما أجابه ربه قال : { قَدْ أُجِيبَتْ دَّعْوَتُكُمَا . . . } [يونس : 89] وهذا دليل على أن هارون لم يكن رسولاً من باطن موسى ، إنما من الحق سبحانه ، وأيضاً دليل على أن المؤمِّن على الدعاء كالداعي ، فكان موسى يدعو وهارون يقول : آمين .

ولما ذهب موسى لميقات ربه قال لأخيه { اخلفني فِي قَوْمِي . . . } [الأعراف : 142] وفي غيبة موسى حدثتْ مسألة العجل ، وغضب موسى من أخيه هارون ، فلما هدأتْ بينهما الأمور حدث تخصيص في رسالة كل منهما ، فأعطى هارون (الحبورة) والحَبْر : هو العالم الذي يُعَد مرجعاً ، كما أُعطِي (القربان) أي : التقرب إلى الله .

وعندها غضب قارون؛ لأنه خرج من هذه المسألة صِفْر اليدين ، وامتاز عنه أولاد عمومته بالرسالة والمنزلة ، رغم ما كان عنده من أموال كثيرة .

ثم إن موسى – عليه السلام – طلب من قارون زكاة ماله ، دينار في كل ألف دينار ، ودرهم في كل ألف درهم ، فرفض قارون وامتنع ، بل وألَّبَ الناس ضد موسى – عليه السلام .

ثم دبَّر له فضيحة؛ ليصرف الناس عنه ، حيث أغرى امرأة بغياً فأعطاها طِسْتاً بالذهب ، على أن تدَّعي على موسى وتتهمه ، فجاء موسى عليه السلام ليخطب في الناس ، ويُبيِّن لهم الأحكام فقال : مَنْ يسرق نقطع يده ، ومَنْ يزني نجلده إن كان غير محصن ، ونرجمه إنْ كان محصناً ، فقام له قارون وقال : فإن كنتَ أنت يا موسى؟ فقال : وإنْ كنتُ أنا .

وهنا قامت المرأة البغيُّ وقالت : هو راودني عن نفسي ، فقال لها : والذي فلق البحر لَتقُولِنّ

الصدق فارتعدتْ المرأة ، واعترفت بما دبَّره قارون ، فانفضح أمره وبدأت العداوة بينه وبين موسى عليه السلام .

وبدأ قارون في البَغْي والطغيان حتى أخذه الله ، وقال في حقه هذه الآيات : { إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ موسى فبغى عَلَيْهِمْ . . . } [القصص : 76] .

والبغي : تجاوز الحدّ في الظلم ، خاصة وقد كان عنده من المال ما يُعينه على الظلم ، وما يُسخِّر به الناس لخدمة أهدافه ، وكأنه يمثل مركز قوة بين قومه ، والبغي إما بالاستيلاء على حقوق الغير ، أو باحتقارهم وازدرائهم ، وإما بالبطر .

ثم يذكر حيثية هذا البغي : { وَآتَيْنَاهُ مِنَ الكنوز مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بالعصبة أُوْلِي القوة . . } [القصص : 76] .

كلمة (مفاتح) كما في قوله تعالى : { وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغيب . . . } [الأنعام : 59] .

ولو قلنا : مفاتح جمع ، فما مفردها؟ لا تقُلْ مفتاح؛ لأن مفتاح جمعها مفاتيح ، أما مفاتح ، فمفردها (مَفْتح) وهي آلة الفتح كالمفتاح ، وهي على وزن (مبرد) فالمعنى : أن مفاتيح خزائنه لو حملتْها عصبة تنوء بها ، وهذه كناية عن كثرة أمواله ، نقول : ناء به الحِمْل ، أو ناء بالحمل ، إذا ثقُل عليه ، ونحن لا نميز الخفيف من الثقيل بالعين أو اللمس أو الشم إنما لا بُدَّ من حملة للإحساس بوزنه .

وقلنا : إن هذه الحاسة هي حاسة العَضَل ، فالحملْ الثقيل يُجهد العضلة ، فتشعر بالثقل ، على خلاف على حملتَ شيئاً خفيفاً لا تكاد تشعر بوزنه لخفْته ، ولو حاولتَ أنْ تجمع أوزاناً في حيز ضيق كحقيبة (هاندباج) فإن الثقل يفضحك؛ لأنك تنوء به .

والعُصْبة : هم القوم الذين يتعصَّبون لمبدأ من المبادئ بدون هَوىً بينهم ، ومنه قول إخوة يوسف : { لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إلى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ . . . } [يوسف : 8] .

إنها كلمة حق خرجت من أفواههم دون قصد منهم؛ لأنهم فعلاً كانوا قوةً متعصبين بعضهم لبعض في مواجهة يوسف وأخيه ، وكانا صغيرين لا قوةَ لهما ولا شوكة ، وكانوا جميعاً من أم واحدة ، ويوسف وأخوه من أم أخرى ، فطبيعي أن يميل قلب يعقوب عليه السلام مع الضعيف .

وقالوا : العصبة من الثلاثة إلى العشرة ، وقد حددهم القرآن بقوله : { إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً . . } [يوسف : 4] وهم أخوته ومنهم بنيامين { والشمس والقمر . . } [يوسف : 4] أي : أباه وأمه . فمن هاتين الآيتين نستطيع تحديد العصبة .

وبهذا التفكير الذي يقوم على ضم الآيات بعضها إلى بعض حَلَّ الإمام علي – رضي الله عنه – مسألة تُعدُّ معضلة عند البعض ، حيث جاءه مَنْ يقول له : تزوجت امرأة وولدتْ بعد ستة أشهر ، ومعلوم أن المرأة تلد لتسعة أشهر ، فلا بُدَّ أنها حملت قبل أنْ تتزوج .

فقال الإمام علي : أقل الحمل ستة أشهر ، فقال السائل : ومن أين تأخذها يا أبا الحسن؟ قال : نأخذها من قوله تعالى : { وَفِصَالُهُ ثَلاَثُونَ شَهْراً . . . . } [الأحقاف : 15] وفي آية أخرى قال سبحانه : { والوالدات يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ . . . } [البقرة : 233] .

يعني : أربعة وعشرين شهراً ، وبطرح الأربعة والعشرين شهراً من الثلاثين يكون الناتج ستة أشهر ، هي أقل مدة للحمل . وهكذا تتكاتف آيات القرآن ، ويكمل بعضها بعضاً ، ومن الخطأ أن نأخذ كل آية على حدة ، ونفصلها عن غيرها في ذات الموضوع .

ثم يقول سبحانه : { إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لاَ تَفْرَحْ إِنَّ الله لاَ يُحِبُّ الفرحين . . . } [القصص : 76] والنهي هنا عن الفرح المحظور ، فالفرح : انبساط النفس لأمر يسرُّ الإنسان ، وفَرْق بين أمر يسرُّك؛ لأنه يُمتعك ، وأمر يسرُّك لأنه ينفعك ، فالمتعة غير المنفعة .

فمثلاً ، مريض السكر قد يأكل المواد السكرية لأنها تُحدِث له متعة ، مع أنها مضرة بالنسبة له ، إذن : فالفرح ينبغي أن يكون بالشيء النافع ، لأن الله تعالى لم يجعل المتعة إلا في النافع .

فحينما يقولون له { لاَ تَفْرَحْ . . } [القصص : 76] أي : فرح المتعة ، وإنما الفرح بالشيء النافع ، ولو لم تكن فيه متعة كالذي يتناول الدواء المر الذي يعود عليه بالشفاء ، لذلك يقول تعالى :

{ قُلْ بِفَضْلِ الله وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ . . . } [يونس : 58] .

ويقول تعالى : { وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المؤمنون * بِنَصْرِ الله . . . } [الروم : 4-5] فسماه الله فرحاً؛ لأنه فرح بشيء نافع؛ لأن انتصار الدعوة يعني أن مبدءك الذي آمنتَ به ، وحاربت من أجله سيسيطر وسيعود عليك وعلى العالم بالنفع .

ومن فرح المتعة المحظور ما حكاه القرآن : { فَرِحَ المخلفون بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ الله . . . } [التوبة : 81] هذا هو فرح المتعة؛ لأنهم كارهون لرسول الله ، رافضون للخروج معه ، ويسرُّهم قعودهم ، وتركه يخرج للقتال وحده .

فقوله تعالى : { لاَ تَفْرَحْ إِنَّ الله لاَ يُحِبُّ الفرحين } [القصص : 76] أي : فرح المتعة الذي لا ينظر إلى مَغبّة الأشياء وعواقبها ، فشارب الخمر يشربها لما لها من متعة مؤقتة ، لكن يتبعها ضرر بالغ ، ونسمع الآن مَنْ يقول عن الرقص مثلاً؛ إنه فن جميل وفن رَاقٍ؛ لأنه يجد فيه متعة ما ، لكن شرط الفن الجميل الراقي أن يظل جميلاً ، لكن أنْ ينقلب بعد ذلك إلى قُبْح ويُورِث قبحاً ، كما يحدث في الرقص ، فلا يُعَدُّ جميلاً .

ثم يقول الحق سبحانه : { وابتغ فِيمَآ آتَاكَ . . . } .

وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (77)

معنى { وابتغ . . . } [القصص : 77] أي : اطلب { فِيمَآ آتَاكَ الله . . . } [القصص : 77] بما أنعم عليك من الرزق { الدار الآخرة . . . } [القصص : 77] لأنك إن ابتغيت برزق الله لك الحياة الدنيا ، فسوف يَفْنى معك في الدنيا ، لكن إنْ نقلتَهُ للآخرة لأبقيتَ عليه نعيماً دائماً لا يزول .

وحين تحب نعيم الدنيا وتحتضنه وتتشبث به ، فاعلم أن دنياك لن تمهلك ، فإما أنْ تفوت هذا النعيمَ بالموت ، أو يفوتك هو حين تفتقر . إذن : إن كنت عاشقاً ومُحباً للمال ولبقائه في حَوْزتك ، فانقله إلى الدار الباقية ، ليظل في حضنك دائماً نعيماً باقياً لا يفارقك ، فسارع إذن واجعله يسبقك إلى الآخرة .

« وفي الحديث الشريف لما سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أم المؤمنين عائشة عن الشاة التي أُهديَتْ له قالت بعد أن تصدقت بها : ذهبتْ إلا كتفها ، فقال صلى الله عليه وسلم : » بل بقيتْ إلا كتفها « .

ويقول صلى الله عليه وسلم : » ليس لك من مالك إلا ما أكلتَ فافنيتَ ، أو لبستَ فأبليتَ ، أو تصدقْتَ فأبقيْتَ « .

لذلك كان أولو العزم حين يدخل على أحدهم سائل يسأله ، يقول له : مرحباً بمَنْ جاء يحمل زادي إلى الآخرة بغير أجرة .

والإمام علي – رضي الله عنه – جاءه رجل يسأله : أأنا من أهل الدنيا ، أم من أهل الآخرة؟ فقال : جواب هذا السؤال ليس عندي ، بل عندك أنت ، وأنت الحكم في هذه المسألة . فإنْ دخل عليك مَنْ تعودت أنه يعطيك ، ودخل عليك مَنْ تعودت أنْ يأخذ منك ، فإنْ كنتَ تبشُّ لمن يعطي ، فأنت من أهل الدنيا ، وإنْ كنتَ تبشُّ لمَنْ يسألك ويأخذ منك ، فأنت من أهل الآخرة ، لأن الإنسان يحب من يعمر له ما يحب ، فإنْ كنتَ محباً للدنيا فيسعدك مَنْ يعطيك ، وإنْ كنتَ محباً للآخرة فيسعدك مَنْ يأخذ منك .

وإذا كان ربنا – عز وجل – يوصينا بأن نبتغي الآخرة ، فهذا لا يعني أن نترك الدنيا : { وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدنيا . . . } [القصص : 77] لكن هذه الآية يأخذها البعض دليلاً على الانغماس في الدنيا ومتعها .

وحين نتأمل { وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدنيا . . . } [القصص : 77] نفهم أن العاقل كان يجب عليه أنْ ينظر إلى الدنيا على أنها لا تستحق الاهتمام ، لكن ربه لفته إليها ليأخذ بشيء منها تقتضيه حركة حياته . فالمعنى : كان ينبغي عليَّ أنْ أنساها فذكِّرني الله بها .

ولأهل المعرفة في هذه المسألة مَلْمح دقيق : يقولون : نصيبك من الشيء ما ينالك منه ، لا عن مفارقة إنما عن ملازمة ودوام ، وعلى هذا فنصيبك من الدنيا هو الحسنة التي تبقى لك ، وتظل

معك ، وتصحبك بعد الدنيا إلى الآخرة ، فكأن نصيبك من الدنيا يصُبُّ في نصيبك من الآخرة ، فتخدم دنياك آخرتك .

أو : يكون المعنى موجهاً للبخيل الممسك على نفسه ، فيُذكِّره ربه { وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدنيا . . . } [القصص : 77] يعني : خُذْ منها القَدْر الذي يعينك على أمر الآخرة ، لذلك قالوا عن الدنيا : هي أهم من أن تُنْسى – لأنها الوسيلة إلى الآخرة – وأتفه من أن تكون غاية؛ لأن بعدها غاية أخرى وأبقى وأدوم .
ثم يقول سبحانه : { وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ الله إِلَيْكَ . . } [القصص : 77] الحق سبحانه يريد أنْ يتخلَّق خَلْقه بخُلُقه ، كما جاء في الأثر « تخلقوا بأخلاق الله » .
فكما أحسن الله إليك أحسِنْ إلى الناس ، وكما تحب أنْ يغفر الله لك ، اغفر لغيرك إساءته { أَلاَ تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ الله لَكُمْ . . . } [النور : 22] .
وما دام ربك يعطيك ، فعليك أنْ تعطي دون مخالفة الفقر؛ لأن الله تعالى هو الذي استدعاك للوجود؛ لذلك تكفَّل بنفقتك وتربيتك ورعايتك . لذلك حين ترى العاجز عن الكسب – وقد جعله ربه على هذه الحال لحكمة – حين يمد يده إليك ، فاعلم أنه يمدُّها لله ، وأنك مناول عن الله تعالى .
ونلحظ هذا المعنى في قوله تعالى : { مَّن ذَا الذي يُقْرِضُ الله قَرْضاً حَسَناً . . } [الحديد : 11] .
فسمَّى الصدقة قرضاً لله ، لماذا؟ لأن هذا العبد عبدي ، مسئول مني أن أرزقه ، وقد ابتليتُه لحكمة عندي – حتى لا يظنّ أحد أن المسألة ذاتية فيه ، فيعتبر به غيره – فمَنْ إذن يقرضني لأسُدَّ حاجة أخيكم؟
وقال تعالى : { يُقْرِضُ الله . . . } [الحديد : 11] مع أنه سبحانه الواهب؛ لأنه أراد أن يحترم ملكيتك ، وأن يحترم انتفاعك ، وسَعْيك . . كما لو أراد والد أنْ يُجري لأحد أبنائه عملية جراحية مثلاً وهو فقير وإخوته أغنياء ، فيقول لأولاده : اقرضوني من أموالكم لأجري الجراحة لأخيكم ، وسوف أردُّ عليكم هذا القرض .
« وفي الحديث الشريف أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على ابنته فاطمة – رضوان الله عليها – فوجدها تجلو درهماً فسألها : ماذا تصنعين به »؟ قالت : أجلوه ، قال : « لِمَ »؟ قالت : لأني نويت أن أتصدق به ، وأعلم أنه يقع في يد الله قبل أن يقع في يد الفقير « .
إذن : فالمال مال الله ، وأنت مناول عن الله تعالى .
وقد وقف بعض المستشرقين عند هذه المسألة؛ لأنهم يقرأون الآيات والأحاديث مجرد قراءة سطحية غير واعية ، فيتوهمون أنها متضاربة . فقالوا هنا : الله تعالى يقول : { مَّن ذَا الذي يُقْرِضُ

الله قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ . . . } [الحديد : 11] .
وقال في موضع آخر : { مَن جَآءَ بالحسنة فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا . . . } [الأنعام : 160] وفي الحديث الشريف : » مكتوب على باب الجنة : الصدقة بعشر أمثالها ، والقرض بثمانية عشر « .

فظاهر الحديث يختلف مع الآية الكريمة – هذا في نظرهم – لأنهم لا يملكون الملَكة العربية في استقبال البيان القرآني . وبتأمل الآيات والأحاديث نجد اتفاقهما على أن الحسنة أو الصدقة بعشر أمثالها ، فالخلاف – ظاهراً – في قوله تعالى :

{ فَيُضَاعِفَهُ لَهُ . . . } [الحديد : 11] وقول النبي صلى الله عليه وسلم : « والقرض بثمانية عشر » .
وليس بينهما اختلاف ، فساعة تصدَّق الإنسان بدرهم مثلاً أعطاه الله عشرة منها بدرهم الذي تصدَّق به ، فكأنه أعطاه تسعة ، فحين تُضَاعف التسعة ، تصبح ثمانية عشرة .
ثم يقول سبحانه : { وَلاَ تَبْغِ الفساد فِي الأرض إِنَّ الله لاَ يُحِبُّ المفسدين } [القصص : 77] والفساد يأتي من الخروج عن منهج الله ، فإنْ غيَّرت فيه فقد أفسدتَ ، فالفساد كما يكون في المادة يكون في المنهج ، وفي المعنويات ، يقول سبحانه : { وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأرض بَعْدَ إِصْلاَحِهَا . . . } [الأعراف : 56] .
فالحق سبحانه خلق كل شيء على هيئة الصلاح لإسعاد خلقه ، فلا تعمد إليه أنت فتفسده ، ومن هذا الصلاح المنهج ، بل المنهج وهو قوام الحياة المعنوية – أَوْلَى من قِوام الحياة المادية .
إذن : فلتكُنْ مؤدباً مع الكون من حولك ، فإذا لم تستطع أنْ تزيده حُسْناً فلا أقلَّ من أنْ تدعه كما هو دون أنْ تفسده ، وضربنا لذلك مثلاً ببئر الماء قد تعمد إليه فتطمسه ، وقد تبني حوله سوراً يحميه .
هذه مسائل خَمْس توجَّه بها قوم قارون لنصحه بها ، منها الأمر ، ومنها النهي ، ولا بُدَّ أنهم وجدوا منه ما يناقضها ، لا بُدَّ أنهم وجدوه بَطِراً أَشِراً مغروراً بماله ، فقالوا له : { لاَ تَفْرَحْ إِنَّ الله لاَ يُحِبُّ الفرحين } [القصص : 76] .
ووجدوه قد نسي نصيبه من الدنيا فَلم يتزود منها للآخرة ، فقالوا له { وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدنيا . . . } [القصص : 77] ، ووجدوه يضنُّ على نفسه فلا ينفق في الخير ، فقالوا له : { وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ الله إِلَيْكَ . . . } [القصص : 77] يعني : عَدِّ نعمتك إلى الغير ، كما تعدَّت نعمة الله إليك . . وهكذا ما أمروه أمراً ، ولا نَهَوْهُ نَهياً إلا وهو مخالف له ، وإلا لَمَا أمروه ولَمَا نَهَوْهُ .

ثم يقول قارون رداً على هذه المسائل الخمس التي توجَّه بها قومه إليه : { قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ . . . } .

قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (78)

لكن ما وجه هذا الردّ { إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ عندي . . . } [القصص : 78] على المطلوبات الخمسة التي طلبوها منه؟ كأنه يقول لهم : لا دخلَ لكم هذه الأمور؛ لأن الذي أعطاني المال علم أنني أهْلٌ له ، وأنني استحقه؛ لذلك ائتمنني عليه ، ولسْتُ في حاجة لنصيحتكم .
أو يكون المعنى { إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ عندي } [القصص : 78] يعني : بمجهودي ومزاولة الأعمال التي تُغِل عليَّ هذا المال ، وكان قارون مشهوراً بحُسْن الصوت في قراءة التوراة ، وكان حافظاً لها . وكان حسن الصورة ، وعلى درجة عالية بمعرفة أحكام التوراة .
فعجيب أن يكون عنده كل هذا العلم ويقول { إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ عندي . . . } [القصص : 78] ولا يعلم أن الله قد أهلك من قبله قروناً كانوا أشدَّ منه قوة ، وأكثر منه مالاً وعدداً .
{ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ الله قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ القرون مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً . . . } [القصص : 78] فكيف فاتتْه هذه المسألة مع عِلْمه بالتوراة؟
ومعنى { أَوَلَمْ يَعْلَمْ . . . } [القصص : 78] أي : من ضمن ما علم { مِنَ القرون . . . } [القصص : 78] أناس كانوا أكثر منه مالاً ، وقد أخذهم الله وهم أمم لا أفراد ، وكلمة { جَمْعاً . . } [القصص : 78] يجوز أن تكون مصدراً يعني : جمع المال ، أو : اسم للجماعة أي : له عُصْبة .
وبعد ذلك قال سبحانه : { وَلاَ يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ المجرمون } [القصص : 78] وعلامة أنهم لا يُسألون أن الله تعالى يأخذهم دون إنذار يأخذهم على غِرَّة ، فلن يقول لقارون : أنت فعلت كذا وكذا ، وسأفعل بك كذا وكذا ، وأخسف بك وبدارك الأرض ، فأفعالك معلومة لك ، والحيثيات السابقة كفيلة بأنْ يُفاجئك العذاب .
وهكذا يتوقع أنْ يأتيه الخَسْف والعذاب في أيّ وقت ، إذن : لن نسألهم ، ولن نُجري معهم تحقيقاً كتحقيق النيابة أو (البوليس) ، حيث لا فائدة من سؤالهم ، وليس لهم عندنا إلا العقاب .
وبعد هذا كله وبعد أنْ نصحه قومه ما يزال قارون متغطرساً بَطِراً لم يَرْعَو ولم يرتدع ، بل ظل فَرِحاً باغياً مفسداً ، ويحكي عنه القرآن : { فَخَرَجَ على قَوْمِهِ . . . } .

فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (79)

قلنا : إن قارون كان بطبيعة الحال غنياً وجيهاً ، حَسَن الصوت والصورة ، كثير العدد ، كثير المال ، فكيف لو أضفت إلى هذا كله أن يخرج في زينته وفي موكب عظيم ، وفي أبهة { فَخَرَجَ على قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ . . . } [القصص : 79] .

وللعلماء كلام كثير في هذه الزينة التي خرج فيها قارون ، فقد كان فيها ألف جارية من صفاتهن كذا وكذا ، وألف فرس . . إلخ ، حتى أن الناس انبهروا به وبزينته ، بل وانقسموا بسببه قسمين : جماعة فُتِنوا به ، وأخذهم بريق النعمة والزينة والزهو وترف الحياة ، ومدُّوا أعينهم إلى ما هو فيه من متعة الدنيا .

وفي هؤلاء يقول تعالى : { قَالَ الذين يُرِيدُونَ الحياة الدنيا ياليت لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ } [القصص : 79] وقد خاطب الحق - تبارك وتعالى - نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بقوله : { وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إلى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الحياة الدنيا . . . } [طه : 131] .

والمعنى : لا تنظر إلى ما في يد غيرك ، واحترم قدر الله في خَلْق الله ، واعلم أنك إنْ فرحت بالنعمة عند غيرك أتاك خيرها يطرق بابك وخدمتْك كأنها عندك ، وإنْ كرهتها وحسدته عليها تأبَّت عليك ، وحُرِمْت نفعها؛ لأن النعمة أعشق لصاحبها من عشقه لها ، فكيف تأتيه وهو كاره لها عند غيره؟

لذلك من صفات المؤمن أن يحب الخير عند أخيه كما يحبه لنفسه ، وحين لا تحب النعمة عند غيرك ، فما أذنبه هو؟ فكأنك تعترض على قدر الله فيه ، وما دُمْتَ قد تأبيت واعترضت على قدر المنعم ، فلا بُدَّ أن يحرمك منها .

لذلك يقول سبحانه في موضع آخر : { وَلاَ تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ الله بِهِ بَعْضَكُمْ على بَعْضٍ . . . } [النساء : 32] .

لأن لكل منكم مهمة ودوراً في الحياة ، ولكل منكم مواهبه وميزاته التي يمتاز بها عن الآخرين ، ولا بُدَّ أن يكون فيك خصال أحسن ممن تحسده ، لكنك غافل عنها غير متنبه لها .

وسبق أن قلنا : إن الحق سبحانه قد وزَّع أسباب فَضْله على خَلْقه؛ لأننا جميعاً أمام الله سواء ، وهو سبحانه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً؛ لذلك قلنا : إن مجموع مواهب كل فرد تساوي مجموع مواهب الآخر ، فقد تزيد أنت عني في خصلة ، وأزيد عنك في أخرى ، فهذا يمتاز بالذكاء ، وهذا بالصحة ، وهذا بالعلم ، وهذا بالحِلْم . . إلخ .

لأن حركة الحياة تتطلب كل هذه الإمكانيات ، فبها تتكامل الحياة ، وليس من الممكن أن تتوفر كل هذه المزايا لشخص واحد يقوم بكل الأعمال ، بل إنْ تميزْتَ في عملك ، وأتقنتَ مهمتك فلك الشكر .

ومن العجيب ألاَّ تنتفع أنت بنبوغك ، في حين ينتفع به غيرك ، ومن ذلك قولهم مثلاً (باب

النجار مخلع) ، فلماذا لا يصنع باباً لنفسه ، وهو نجار؟ قالوا : لأنه الباب الوحيد الذي لا يتقاضى عليه أجراً .

إذن : حينما تجد غيرك مُتفوِّقاً في شيء فلا تحقد عليه؛ لأن تفوقه سيعود عليك ، وضربنا لذلك مثلاً بشيء بسيط؛ حين تمسك المقصَّ بيدك اليمنى لتقصَّ أظافر اليد اليسرى تجد أن اليد اليمنى – لأنها مرنة سهلة الحركة – تقصُّ أظافر اليسرى بدقة ، أما حين تقصُّ اليسرى أظافر اليمنى فإنها لا تعطيك نفس المهارة التي كانت لليمنى . إذن : فحُسْن اليمنى تعدَّى لليُسْرى ونفعها . وهكذا إذا رأيتَ أخاك قد تفوَّق في شيء أو أحسن في صُنْعه فاحمد الله؛ لأن حُسْنه وتفوقه سيعود عليك ، وقد لا يعود عليه هو ، فلا تحسده ، ولا تحقد عليه ، بل ادْعُ له بالمزيد؛ لأنك ستنتفع به في يوم من الأيام .
لكن ماذا قال أهل الدنيا الذين بُهِروا بزينة قارون؟ قالوا : { ياليت لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ . . } [القصص : 79] يعني : كما نقول نحن (حظه بمب) ؛ لأن هؤلاء لا يعنيهم إلا أمر الدنيا ومُتعها وزُخْرفها ، أما أهل العلم وأهل المعرفة فلهم رأْيٌ مخالف ، ونظرة أبعد للأمور؛ لذلك ردُّوا عليهم : { وَقَالَ الذين أُوتُواْ العلم . . . } .

وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (80)

فما كان الحق – تبارك وتعالى – ليترك أهل الدنيا وأهل الباطل يُشكِّكون الناس في قَدَر الله ، ويتمردون على قسمته حتى الكفر والزندقة ، والله سبحانه لا يُخِلي الناس من أهل الحق الذين يُعدِّلون ميزان حركة الحياة :
إنَّ الذي جَعَلَ الحقِيقةَ عَلْقماً ... لم يخلْ من أَهْلِ الحقيقة جيلا
وما دام أن الله تعالى قال في الجماعة الأولى : { قَالَ الذين يُرِيدُونَ الحياة الدنيا . . . } [القصص : 79] فهم لا يروْنَ غيرها ، ولا يطمحون لأبعد منها ، وقال في الأخرى : { وَقَالَ الذين أُوتُواْ العلم . . . } [القصص : 80] فهذا يعني : أن أهل الدنيا (سطحيون) ، لم يكن عندهم علم ينفعهم ، لذلك وقعوا في هذا المأزق الذي نجا منه أهل العلم ، حينما أجروا مقارنة بين الطمع في الدنيا والطمع في الآخرة .
كما قلنا سابقاً : إن عمر الدنيا بالنسبة لك : لا تقُلْ من آدم إلى قيام الساعة؛ فعمرك أنت فيها عمر موقوت ، لا بُدَّ أنْ يفنى . إذن : العاقل مَنْ يختار الباقية على الفانية ، لذلك أهل الدنيا قالوا { ياليت لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَارُونُ . . . } [القصص : 79] .
أما أهل العلم والمعرفة فردُّوا عليهم : { وَيْلَكُمْ . . . } [القصص : 80] أي : الويل لكم

بسبب هذا التفكير السطحي ، وتمنّي ما عند قارون الويل والهلاك لكم بما حسدتُم الناس ، وبما حقدتُم عليهم وباعتراضكم على أقدار الله في خَلْقه .

فأنتم تستحقون الهلاك بهذا؛ لذلك قال الله عنهم في موضع آخر : { ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الحياة الدنيا . . . } [الروم : 6-7] .

يعني : لا يعرفون حقيقة الأشياء ، ولو عرفوا ما قالوا هذا الكلام ، وما تمنَّوْا هذه الأمنية .

ثم يلفت أهل العلم والمعرفة أنظار أهل الدنيا ، ويُوجِّهونهم الوجهة الصحيحة : { ثَوَابُ الله خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً . . . } [القصص : 80] أي : ثواب الله خير من الدنيا ، ومما عند قارون ، وكيف تتمنون ما عنده ، وقد شجبتم تصرفاته ، ونهيتموه عنها ، ولِمَ ترضوَها؟

ومعنى : { وَلاَ يُلَقَّاهَآ إِلاَّ الصابرون } [القصص : 80] أي : يُلقّي الإيمان والعمل الصالح والهداية ، ليُقبِلَ على عمل الآخرة ، ويُفضلها عن الدنيا ، أي : يُلقّى قضية العلم بالحقائق ، ولا تخدعه ظواهر الأشياء . هذه لا يجدها ولا يُوفّق إليها إلا الصابرون ، كما قال سبحانه في آية أخرى : { وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الذين صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّاهَآ إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ } [فصلت : 35] .

والصبر : احتمال ما يؤذي في الظاهر ، لكنه يُنعَم في الباطن . وله مراحل ، فالله تعالى كلَّفنا بطاعات فيها أوامر ، وكلَّفنا أنْ نبتعد عن معاصٍ ، وفيها نواهٍ ، وأنزل علينا أقداراً قد لا تستطيبها نفوسنا ، فهذه مراحل ثلاث .

فالطاعات ثقيلة وشاقة على النفس؛ لذلك يقول تعالى عن الصلاة : { وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الخاشعين } [البقرة : 45] فهناك دَواع شتَّى تصرفك عن الصلاة ، وتحاول أنْ تُقعدك عنها ، فتجد عند قيامك للصلاة كسلاً وتثاقلاً .

واقرأ قوله تعالى عن الصلاة مخاطباً نبيه صلى الله عليه وسلم :

{ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بالصلاة واصطبر عَلَيْهَا . . . } [طه : 132] وهذا دليل على أنها صعبة وشاقَّة على النفس ، لكن إذا تعودتْ عليها ، وألفتها النفس صارتْ أحبَّ الأشياء إليك ، وأخفّها على نفسك ، بل وقرَّة عَيْن لك .

والنبي صلى الله عليه وسلم يُعلِّمنا هذا الدرس في قوله لمؤذنه بلال : « أرحنا بها يا بلال » لا أرحنا منها تلك المقالة التي يقولها لسان حالنا الآن .

ويقول أيضاً صلى الله عليه وسلم : « وجُعلَت قرة عيني في الصلاة » وخصَّ الصلاة بالذات من بين سائر العبادات؛ لأنها تتكرر في اليوم خمس مرات ، فهي ملازمة للمؤمن يعايشها على مدى يومه وليلته بخلاف الأركان الأخرى ، فمنها ما هو مرة واحدة في العام ، أو مرة واحدة في العمر كله .

هذا هو النوع الأول من الصبر ، وهو الصبر على مشقة الطاعة .

الثاني : الصبر عن شهوة المعصية ، ولا تنْسَ أنه أول صبر تصادفه في حياتك أنْ تصبر على نفسك؛ لذلك يقول الشاعر :

إذَا رُمْتَ أنْ تُسْتقِرضَ المال مُنفقاً ... عَلَى شَهَواتِ النفْسِ في زَمَن العُسْرِ

فَسَل نفسَكَ الإنفاقَ من كَنْز صَبْرها ... عليْكَ وإنْظَاراً إلى سَاعةِ اليُسْر

فإنْ فعلتْ كنتَ الغنيَّ وإنْ ... أبتْ فكل مَنُوع بعدها واسِع العُذْر

فبدل أن تقترض لقضاء شهوة نفس عاجلة ، فأوْلَى بك أن تصبر إلى أن تجد سعة وتيسيراً ، فصبرك على نفسك أهون من صبر الناس عليك ، وإنْ تسعْكَ نفسك ، فلا عُذْر لأحد بعد ذلك إنْ منعك .

الثالث : صَبر على الأقدار المؤلمة التي لا تفطن أنت إلى الحكمة منها ، فالأقدار ما دامتْ من حكيم ، ومُجريها عليك ربٌّ ، إذن لا بُدَّ أن لها حكمة فيك ، فخُذ القضية القدرية مُجريها عليك ، فهو سبحانه ربك ، وليس عدوك ، وأنت عبده وصنعته ، ألم تقرأ قول الرسول في الحديث الشريف : « الخلق كلهم عيال الله ، فأحبُّهم إليه أرأفهم بعياله » .

إذن : حين تجري عليك الأقدار المؤلمة ، فيكفيك للصبر عليها أنْ تعلم أنها حكمة الله ، ويكفيك أن مُجريها عليك ربك ، فإنْ جاءت الأقدار المؤلمة بسبب تقصيرك ، فلا تلومنَّ إلا نفسك ، كالطالب الذي يُهمل دروسه ويتكاسل ، فيفشل في الامتحان ، فالفشل نتيجة إهماله وتكاسله .

أما الذي يذاكر ويجدّ ويُبكِّر إلى الامتحان مُسْتبشراً فتصدمه سيارة مثلاً في الطريق ، تمنعه من أداء امتحانه ، فهذا هو القدر المؤلم الذي له حكمة ، وربما داخله شيء من الغرور ، وعوَّل على مذاكرته ، ونسي توفيق الله له ، فأراد الله أنْ يُلقّنه هذا الدرس ليعلمه أن الأمر في النهاية بيد الله وبمعونته ، وأنه الخاسر إنْ لم تصادفه هذه المعونة ، على حَدِّ قول الشاعر :

إذَا لم يكُنْ عَوْنٌ مِنَ الله للفتَى ... فَأَوَّلُ مَا يَجْني عليْهِ اجتهادُهُ

فعليك إذن أنْ تنظر إنْ كانت المصيبة نتيجة لما قدمت ، فلا تلومنَّ إلا نفسك ، فإنْ كنتَ قد أخذت بالأسباب ، واستوفيتَ ما طُلب منك ، ثم أصابتْك المصيبة ، فاعلم أن لله فيها حكمة ، وعليك أنْ تحترم حكمة الله وقدره في خَلْقه .

وباعتبار آخر ، يمكن أن نقسم المصائب إلى قسمين : قسم لك فيه غريم ، كأن يعتدي عليك غيرك بضرب أو قتل أو نحوه ، وقسم ليس لك فيه غريم كالموت والمرض مثلاً .

وقد أعطانا الحق – سبحانه وتعالى – حكماً في كل منهما ، ففي النوع الأول حيث لا غريمَ لك ، يقول تعالى على لسان لقمان وهو يوصي ولده : { واصبر على مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأمور } [لقمان : **17**] .

ويقول فيما لك فيه غريم : { وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ . . . } [الشورى : **43**] فما دام قد ذكر

المغفرة ودعاك إليها ، فلا بُدَّ أن أمامك غريماً ، ينبغي أنْ تصبر عليه ، وأن تغفر له ، والغريم يهيجني إلى المعصية وإلى الانتقام ، فكلما رأيته أتميَّز غيظاً ، فالصبر في هذه الحالة أشد ويحتاج إلى عزيمة قوية .

لذلك قال سبحانه : { وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأمور } [الشورى : **43**] ولم يقل كما في الأولى : { إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأمور } [لقمان : **17**] إنما بصيغة التأكيد باللام (لَمِنْ) .

ويُعلِّمنا ربنا - تبارك وتعالى - كيف نعالج غَيْظ النفوس أمام الغريم ، فيقول سبحانه : { والكاظمين الغيظ والعافين عَنِ الناس والله يُحِبُّ المحسنين } [آل عمران : **134**] .

هذه مراحل ثلاث ، تتدرج بك حسب ما عندك من استعداد للخير وقدرة على التسامح ، فأولها : أن تكظم غيظك ، وهذا يعني أن الغيظ موجود ، لكنك تكتمه في نفسك ، فإن ارتقيتَ عفوتَ بأن تُخرج الغيظ والغِلَّ من نفسك ، كأن شيئاً لم يحدث ، فإن ارتقيتَ إلى المرتبة الأعلى أحسنتَ؛ لأن الله تعالى يحب المحسنين ، والإحسان أن تقدم الخير وتبادر به مَنْ أساء إليك ، فتجعله رداً على إساءته .

ولا شكَّ أن هذه المراحل تحتاج إلى مجاهدة ، فهي قاسية على النفس ، وقلما تجد مَنْ يعمل بها؛ لذلك ما جعلها الله على وجه الإلزام ، إنما ندب إليها وحثّ عليها ، فإنْ أخذتَ بأُولاَها فلا شيء عليك؛ لأن الله تعالى أباح لك أن ترد الإساءة بمثلها ، فإنْ كظمتَ غيظك فأنت على خير ، وإن اخترتَ لنفسك الرقي في طاعة ربك ، فنِعمْ الرجل أنت ، ويكفيك { والله يُحِبُّ المحسنين } [آل عمران : **134**] .

ويكفيك أن المسيء بإساءته إليك جعل الله في جانبك ، فهو مع إساءته إليك يستحق مكافأة منك ، كما قال أحد العارفين : ألا أُحسن لمن جعل الله في جانبي؟

وضربنا لذلك مثلاً بالوالد حين يجد أن أحد الأولاد اعتدى على الآخر ، فيميل ناحية المُعْتَدى عليه ويتودَّد إليه ، ويحاول إرضاءه ، حتى إن المعتدي ليغتاظ ويندم على أنه أساء إلى أخيه ، كذلك الحق - تبارك وتعالى - إن اعتدى بعض خَلْقه على بعض يحتضن المظلوم ، وينصره على مَنْ ظَلَمَه .

ثم يُفاجأ قارون بالعقاب الذي يستحقه : { فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأرض . . . } .

فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ (81)

والخسف : أن تنشقَّ الأرض فتبتلع ما عليها ، كالذي يقول (يا أرض انشقي وابلعيني) ، والخسف كان به وبداره التي فيها كنوزه وخزائنه وما يملك { فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ

الله . . . } [القصص : 81] ، فما نفعه مال ، ولا دافع عنه أهل { وَمَا كَانَ مِنَ المنتصرين } [القصص : 81] أي : بذاته . فلم تكُنْ له عُصْبَة تحميه ، ولا استطاع هو حماية نفسه ، فمَنْ يدفع عذاب الله إن حلّ ، ومَنْ يمنعه وينقذه إنْ خُسِفت به الأرض؟!

وهنا ينبغي أن نتساءل : كيف الآن حال مَنْ اغتروا به ، وفُتِنوا بماله وزينته؟

يقول الحق سبحانه : { وَأَصْبَحَ الذين تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُ . . . } .

وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (82)

لقد كانوا بالأمس يقولون { ياليت لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَارُونُ . . . } [القصص : 79] ، لكن اليوم وبعد أن عاينوا ما حاق به من عذاب الله وبأسه الذي لا يُردُّ عن القوم الكافرين - اليوم يثوبون إلى رُشْدهم ويقولون : { وَيْكَأَنَّ الله يَبْسُطُ الرزق لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ . . . } [القصص : 82] .

كلما (وَىْ) اسم فعل مثل : أُفٍّ وهيهات ، وتدل على الندم والتحسُّر على ما حدث منك ، فهي تنديد وتَخْطيءٌ للفعل ، وقد تُقال (وَيْ) للتعجب . فقولهم (وي) ندماً ما كان منهم من تمني النعمة التي تنعَّم بها قارون وتخطيئاً ً لأنفسهم ، بعد أنْ شاهدوا الخَسْف التي تنعَّم بها قارون وتخطيئاً لأنفسهم ، بعد أنْ شاهدوا الخَسْف به وبداره ، وهم يندمون الآن ويُخطِّئون أنفسهم؛ لأن الله تعالى في رزقه حكمة وقدراً .

{ يَبْسُطُ الرزق لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ . . . } [القصص : 82] أي : يقبض ويُضيق ، وليس بسْط الرزق دليل كرامة ، ولا تضييقه دليلَ إهانة ، بدليل أن الله يبسط الرزق لقارون ، ثم أخذه أخْذ عزيز مقتدر .

وقد تعرضتْ سورة الفجر لهذه المسألة في قوله تعالى : { فَأَمَّا الإنسان إِذَا مَا ابتلاه رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ ربي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّآ إِذَا مَا ابتلاه فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ ربي أَهَانَنِ } [الفجر : 15-16] .

فالأول اعتبر الرزق الواسع دليل الكرامة ، والآخر اعتبر التضييق دليلَ إهانة ، فردَّ الحق سبحانه عليهما ليُصحح هذه النظرة فقال : {كَلاَّ . . . } [الفجر : 17] يعني : أنتما خاطئان ، فلا سعةَ الرزق دليلُ كرامة ، ولا تضييقه دليلُ إهانة ، وإلا فكيف يكون إيتاء المال دليلَ كرامة ، وأنا أعطي بعض الناس المال ، فلا يُؤدُّون حقَّ الله فيه؟ {كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ اليتيم * وَلاَ تَحَاضُّونَ على طَعَامِ المسكين * وَتَأْكُلُونَ التراث أَكْلاً لَّمّاً * وَتُحِبُّونَ المال حُبّاً جَمّاً } [الفجر : 17-20] .

إذن : فأيُّ كرامة في مال يكون وبالاً على صاحبه ، وابتلاء لا يُوفَّق فيه ، فلو سُلب هذا المال

من صاحبه لكان خيراً له ، فما أشبهَ هذا المال بالسلاح في يد الذي لا يُحسِن استعماله ، فربما قتل نفسه به .

وقوله تعالى : { وَيْكَأَنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الكافرون } [القصص : 82] تعجُّب من أنه لا يفلح الكافرون عند الله تعالى .

وبعد ذلك يأتي الحق سبحانه بقضية عامة ليفصل في هذه المسألة : { تِلْكَ الدار الآخرة . . . } .

تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (83)

لأنه لا يصح أنْ يعلو الإنسان على بني جنسه ، ولا على بيئته إلا بشيء ذاتي فيه ، فلا يصح أنْ يعلوَ بقوته؛ لأنه قد يمرض ، فيصير إلى الضعف ، ولا بماله لأنه قد يُسلب منه .

إذن : إياك أن تعلو على غيرك بشيء موهوب لك ، إنْ أردتَ فبشيء ذاتي فيك ، وليس فيك شيء ذاتي ، فلست أفضلَ من أحد حتى تعلو عليه ، كما أن الدنيا أغيار ، وربما انتقل ما عندك إليهم ، فهل يسرُّك إنْ صار غيرك غنياً أو قوياً أنْ يتعالى عليك؟

ثم أنت لا تستطيع العلو إلا بالاعتماد على قوة أعلى منك تسندك ، وجرِّب بنفسك وحاول أن تقفز إلى أعلى كلاعب السيرك ، ثم أمسك نفسك في هذا العلو ، وطبعاً لن تستطيع ، لماذا؟ لأنه لا ذاتية لك في العُلو .

وما دام الأمر كذلك ، فإياك أنْ تعلو؛ لأنك بعلوِّك تُحْفِظُ الآخرين؛ فإنْ حصل لك العكس شمتوا فيك ، وأيضاً لأن الإنسان لا يعلو في بيئة ولا في مكان إلا إذا رأى كل مَنْ حوله دونه ، وحين ترى أن كل الناس دونك فأنت لم تتنبه إلى أسرار فَضْلِ الله في خَلْقه .

ولو تأملت لوجدتَ في كل منهم خصلة ليست عندك ، ولو قدَّرت أن الناس جميعاً عيالُ الله وخَلْقه ، وليس منا مَنْ بينه وبين الله نسب أو قرابة ونحن جميعاً عنده تعالى سواء ، وقد وزّع المواهب بيننا جميعاً بالتساوي ، وبالتالي لا يمتاز أحد على أحد ، فلم التعالي إذن؟ ولِمَ الكبر؟

وأيضاً الذي يتعالى لا يتعالى إلا في غفلة منه عن ملاحظة كبرياء ربه ، وإلا فالذي يستحضر عظمة ربه وكبرياءه لا بُدَّ له أنْ يتواضع ، وأنْ يتضاءل أمام كبريائه تعالى ، وأنْ يستحي أن يتكبر على خَلْقه .

والنبي صلى الله عليه وسلم يُعلِّمنا كيف نحترم الآخرين؟ وكيف نتواضع لهم؟ فلما دخل عليه الصحابي الجليل عدي بن حاتم قام عن كرامة مجلسه له ، يعني : إن كانْ جالساً على (وسادة مثلاً) يقوم عنها ، ويعطيها لصاحبه ليجلس هو عليها .

وهكذا يحرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على المساواة في المجلس؛ لذلك قال عدي بن حاتم لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أشهد أنك لا تريد عُلُواً في الأرض ، وأشهد ألا إله إلا الله ،

وأن محمداً رسول الله ، وأسلم .

وعجيب ما نراه مثلاً في مساجدنا ، وهي بيوت الله وأَوْلَى الأماكن بهذه المساواة ، فتراهم إذا دخل أحد أصحاب النفوذ يفرشون له مُصلّى ليصلي عليها ، مع أن المسجد مفروش ، وعلى أعلى مستوى من النظافة ، فلماذا هذا التمييز؟

ومع ذلك نجد منهم مَنْ يزيح هذه المصلَّى جانباً ، ويصلي كما يصلي بقية الناس ، وأظن أن الذي يقبل أنْ تُوضع له هذه المصلى أظنه يبتغي علواً في الأرض .

والحق سبحانه يريد للإنسان أن يعيش سويَّ الحركة في أسوياء لتظل القلوب متآلفة ، لا يداخلها ضغن ، وإذا خلَتْ القلوب من الضِّغن وَسِع الناسَ جميعاً رغيفُ عيشٍ واحد .

ثم يقول سبحانه : { والعاقبة لِلْمُتَّقِينَ } [القصص : 83] أي : العاقبة الخيِّرة ، والعاقبة الحسنة في النعيم المقيم الدائم للمتقين .

ثم يقول الحق سبحانه : { مَن جَآءَ بالحسنة فَلَهُ خَيْرٌ . . . } .

مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (84)

قلنا : إن كلمة (خير) تُطلق ويُراد بها ما يقابل الشر ، كما في قوله تعالى : { فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ } [الزلزلة : 7-8] .

وتُطلق ويُراد بها الأحسن في الخير ، تقول : هذا خير من هذا ، فكلاهما فيه خير ، ومنه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المؤمن القوي خير وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كُلٍّ خير » فهي بمعنى التفضيل ، أي : أخير منها ، ومن ذلك قول الشاعر :

زَيْدٌ خِيارُ النَّاسِ ... وابْنُ الأَخْيرِ

فجاء بصيغة التفضيل على الأصل ، وتقول : هذا حَسَن ، وذلك أحسن .

فالمعنى هنا : { مَن جَآءَ بالحسنة فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا . . . } [القصص : 84] أي : خير يجيئه من طريقها ، أو إذا عمل خيراً أعطاه الله أخير منه وأحسَن ، والمراد أن الحسنة بعشر أمثالها .

والحق سبحانه يعطينا صورة توضيحية لهذه المسألة ، فيقول سبحانه : { مَّثَلُ الذين يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ الله كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ والله يُضَاعِفُ لِمَن يَشَآءُ والله وَاسِعٌ عَلِيمٌ } [البقرة : 261] .

فقوله تعالى : { مَن جَآءَ بالحسنة . . . } [القصص : 84] قضية عقدية ، تثبت وتُقرِّر الثواب للمطيع ، والعقاب للعاصي ، ومعنى { مَن جَآءَ بالحسنة . . . } [القصص : 84] أي : أتى بها حدثاً لم يكُنْ موجوداً ، فحين تفعل أنت الحسنة فقد أوجدتَها بما خلق الله فيك من قدرة على الطاعة وطاقة لفعل الخير .

أو المعنى : جاء بالحسنة إلى الله أخيراً لينال ثوابها ، ولا مانع أن تتجمع له هذه المجيئات كلها ليُقبل بها على الله ، فيجازيه بها في الآخرة .

لكن ، هل ثواب الحسنة مقصور فقط على الآخرة ، أم أن الدين بقضاياه جاء لسعادة الدنيا وسعادة الآخرة؟ فما دام الدين لسعادة الدارين فللحسنة أثر أيضاً في الدنيا ، لكن مجموعها يكون لك في الآخرة .

وهذه الآية جاءت بعد الحديث عن قارون ، وبعد أن نصحه قومه ، وجاء في نصحهم : { وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ الله إِلَيْكَ . . . } [القصص : 77] إذن : فطلبهم أن يُحسن كما أحسن الله إليه جاء في مجال ذكر الحسنة ، والحسنة أهي الشيء الذي يستطيبه الإنسان؟ لا ، لأن الإنسان قد يستطيب الشيء ثم يجلب عليه المضرة ، وقد يكره الشيء ولا يستطيبه ، ويأتي له بالنفع .

فمن إذن الذي يحدد الحسنة والسيئة؟ ما دام الناس مختلفين في هذه المسألة ، فلا يحددها إلا الله تعالى ، الذي خلق الناس ، ويعلم ما يُصلحهم ، وهو سبحانه الذي يعلم خصائص الأشياء ، ويعلم ما يترتب عليها من آثار ، أما الإنسان فقد خلقه الله صالحاً للخير ، وصالحاً للشر ، يعمل الحسن ، ويعمل القبيح ، وربما اختلطت عليه المسائل .

لذلك يقولون في تعريف الحسنة : هي ما حسَّنه الشرع ، لا ما حسَّنْتها أنت ، فنحن مثلاً نستسيغ بعض الأطعمة ، ونجد فيها متعة ولذة ، مع أنها مُضرة ، في حين نأنف مثلاً من أكل الطعام المسلوق ، مع أنه أفيد وأنفع؛ لذلك يقول تعالى في صفة الطعام :

{ فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَّرِيئاً . . . } [النساء : 4] لأن الطعام قد يكون هنيئاً تجد له متعة ، لكنه غير مريء ويُسبِّب لك المتاعب بعد ذلك .

الحق سبحانه يقول هنا : { مَن جَآءَ بالحسنة فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا . . . } [القصص : 84] فالحسنة خير ، لكن ، الثواب عليها خيرٌ منها أي : أخير؛ لأنه عطاء دائم باقٍ لا ينقطع ، أو خير يأتيك بسببها . كما يقول أصحاب الألغاز واللعب بالكلمات : محمد خير من ربه ، والمعنى : خير يصلنا من الله ، ولا داعي لمثل هذه الألغاز طالما تحتمل معنى غير مقبول .

ثم يقول سبحانه : { وَمَن جَآءَ بالسيئة . . . } [القصص : 84] لم يقُل الحق سبحانه : فله أشر منها ، قياساً على الحسنة فنضاعف السيئة كما ضاعفنا الحسنة ، وهذه المسألة مظهر من مظاهر رحمة الله بخَلْقه ، هذه الرحمة التي تتعدَّى حتى إلى العُصَاة من خَلْقه .

لذلك قال { فَلاَ يُجْزَى الذين عَمِلُواْ السيئات إِلاَّ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } [القصص : 84] أي : على قَدْرها دون زيادة .

واقرأ إنْ شئتَ قوله تعالى في سورة (عم) : { إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً * حَدَآئِقَ وَأَعْنَاباً * وَكَوَاعِبَ

أَتْرَاباً * وَكَأْساً دِهَاقاً * لاَّ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ كِذَّاباً * جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَاباً } [النبأ : 31-36] .

فحسباناً هنا لا تعني أن الجزاء بحساب على قدر العمل ، إنما تعني كافيهم في كل ناحية من نواحي الخير ، ومنه قولنا : حسبي الله يعني : كافيني .

وفي المقابل يقول سبحانه في السيئة : { جَزَآءً وِفَاقاً } [النبأ : 26] أي : على قدرها موافقاً لها .

إذن : فربنا - عز وجل - يعاملنا بالفضل لا بالعدل؛ ليغري الناس بفعل الحسنة ، وأنت حين تفعل الحسنة فأنت واحد تُقدِّم حسنتك إلى كل الناس ، وفي المقابل يعود عليك أثر حسنات الجماهير كلها ، فينالك من كل واحد منهم حسنة ، وكأنه (أوكازيون) حسنات يعود عليك أنت .

ثم يقول الحق سبحانه لنبيه : { إِنَّ الذي فَرَضَ عَلَيْكَ . . . } .

إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (85)

معنى فرض : ألزم وأوجب وحتَّم . وأصل الفَرْض الحزّ والقطع ، كما تقطع شيئاً بالسكين مثلاً تُسمّى فرضاً؛ لأنها خرجتْ عن طبيعة تكوينها ، كذلك القرآن يُخرج النفس عن طبيعة مُشْتهاها ، ويقطع عليها مشيئتها ، ويردّها إلى مشيئة الله؛ لذلك يقول سبحانه في أول سورة النور : { سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا . . . } [النور : 1] .

يعني : حتَّمناها وألزمنا بها ، والإلزام يعني ردّ النفس إلى ما يريده خالقها منها ، بصرْف النظر عما تشتهيه هي ، فقد يأمرها بما تكره ، وينهاها عما تحب . إذن : يقطع سيال النفس؛ لأنها عادة ما تكون أمَّارة بالسوء ، تنظر إلى العاجل ، ولا تهتم بالآجل ولا تعمل له حساباً .

فالقرآن منهج الله بافعل ولا تفعل ، هو الذي يكبح جماح النفس ، ويُحدِّد لها مجال مشيئتها؛ لأن الخالق - عز وجل - خلق النفس ، وجعل مشيئتها صالحة لعمل الخير ، ولعمل الشر .

وسبق أن تكلمنا عن الفرق بين عباد وعبيد وقلنا : إن الخَلْق جميعاً عبيد الله ، المؤمن منهم والكافر ، وإنْ تأبَّى الكافر على الله في الإيمان ، فهو مقهور له تعالى في مسائل أخرى ، كالمرض والموت وغيره ، ثم أعطانا الله تعالى مجالاً للاختيار ، ليثيب من يُثيب بحق ، يُعذِّب بحق .

والعاقل حينما يرى أنه مقهور لله في قدريات لا يستطيع منها فكاكاً ، وليس له فيها تصرف ، فيتنازل عن مراده ، وعن اختياره لمراد ربه واختيار ربه ، ويرضى أنْ يكون مُسيَّراً في كل شيء ، وهنا يتحولون من عبيد إلى عباد .

فالعباد إذن هم الذين يخرجون عن اختياراتهم الممنوحة لهم من الله إلى مراد الله في الحكم ، وبهذا

المنطق يكون الجميع في الآخرة عباداً؛ لأنه لا اختيار لهم ، ويستوي في ذلك المؤمن والكافر ، يوم يقول سبحانه : { لِّمَنِ الملك اليوم لِلَّهِ الواحد القهار } [غافر : 16] .

وسُمِّي إنزال القرآن فَرْضاً لما في القرآن من تكاليف ، وهي عادةً ما تكون شاقة على النفس ، أَلاَ ترى قوله تعالى عن الصلاة ، وهي أم العبادات : { وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الخاشعين } [البقرة : 45] .

فلا يعرف منزلتها ومكانتها إلا خاشع؛ لذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول لبلال : « أرحنا بها يا بلال » ويقول : « وجُعِلَتْ قرة عيني في الصلاة » ؛ لأنه أحبها وعشقها ، حتى صارت قُرَّة عينه ، ومُنْتهى راحته .

إذن : أول ما يفرض التكليف لا بُدَّ أن يكون شاقاً؛ لذلك يحتاج إلى صلاة إيمان وجَلَد يقين ، بحيث تثق في أن العمل الشاق عليك الآن سيجلب لك الخير والسعادة الباقية الدائمة في الآخرة .

ويقول تعالى عن القتال : {كُتِبَ عَلَيْكُمُ القتال وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ . . . . } [البقرة : 216] فلا شكَّ أنه مكروه للنفس ، لكن إن استحضرت الجزاء ، وعرفتَ أنه : إما النصر ، وإما الشهادة ، فإنه يحلو لك حتى تعشقه ، وتبادر أنت إليه ، كالصحابي في بدر بعد أن سمع ما للشهيد من الأجر وكان في فمه تمرة يمضغها فقال : « أليس بيني وبين الجنة إلا أنْ أقاتل فأُقتل »؟ ثم ألقى التمرة وأسرع إلى ساحة القتال .

لذلك الحق سبحانه يُضخم الجزاءات في نفس المؤمن؛ ليقبل على العمل بحب وشهوة . ومن هنا يقول بعض العارفين الذين عشقوا الخير حتى أصبح شهوةَ نفْس عندهم : أخشى ألاَّ يُثيبني الله على الطاعة ، لماذا؟ يقول : لأنني أصبحتُ أشتهيها ، أي : كما يشتهي أهل المعصية المعصية . وحين يصل الإيمان بصاحبه إلى درجة أنه يعشق الطاعة ، فقد أصبح ربانياً يثق فيما عند الله من الجزاء .

« وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقوم الليل حتى تورمَتْ قدماه ، فلما سألتْه السيدة عائشة : ألم يغفر لك ربك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال : » أفلا أكون عبداً شكوراً «؟ »

ومعنى : { لَرَآدُّكَ إلى مَعَادٍ . . . } [القصص : 85] يعني : يجازيك أفضل الجزاء ، ونزلتْ هذه الآية لما اضطهد أهلُ مكة رسولَ الله وآذوْه ، حتى اضطروه للذهاب إلى الطائف ليبحث فيها عن نصير ، لكنهم لم يكونوا أقلَّ قسوة من أهل مكة ، فعزَّ على رسول الله النصير فيها ، وعاد منكسراً حزيناً لم يجد مَنْ يدخل في جواره ، إلى أن أجاره مطعم بن عدي .

وتأمل حين يكون رسول الله بجلالة قدره لا يجد مَنْ يناصره ، أو يُدخله في جواره ، أما الصحابة فلم تكُنْ لهم شوكة بعد ، ولا قوة لحماية رسول الله ، وفي هذه الفترة لاقوا المشاق في سبيل

الدعوة ، فحاصرهم الكفار في شِعْب أبي طالب ، وفرضوا عليهم المقاطعة التامة حتى عزلوهم عن الناس ، ومنعوا عنهم الطعام والشراب ، والبيع والشراء ، حتى الزواج ، وحتى اضطروا إلى أكل المخلَّفات وأوراق الشجر .

لذلك أمرهم الله بالهجرة ، والهجرة تكون إلى دار أمن ، أو إلى دار الإيمان ، إلى دار أمن كالهجرة إلى الحبشة حيث قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مُبيِّناً حيثية الهجرة إليها : « إن فيها ملكاً لا يُظلم عنده أحد » يعني : النجاشي ملك الحبشة ، وفعلاً صدق فيه قول رسول الله ، فلما أرسلتْ قريش في إثرهم مَنْ يكلم النجاشي في طلبهم وإعادتهم إلى مكة ، رفض أن يسلمهم ، وأن يُمكِّن قريشاً منهم ، مع أن هدايا قريش كانت عظيمة ، والإغراء كان كبيراً .

وهذا يدل على عظمة رسول الله ، وعلى فكره الواسع ، وعلى دراسة الخريطة من حوله ، ومعرفة مَنْ يصلح لهجرة صحابته إليه ، فاختياره ملك الحبشة لا يأتي إلا إما بإلهام من الله ، أو بذكاء كبير ، وهو رجل أمي في أمة أمية ، ولو لم يذهب وفد قريش في طلب المهاجرين ما ظهر لنا الدليل على صدق مقولة رسول الله .

ونتيجة « لا يظلم عنده أحد » فقد شرَّفه الله بالإسلام فأسلم ووكَّله رسول الله في أن يُزوِّجه من السيدة أم حبيبة بنت أبي سفيان ، وكانت رضي الله عنها من المهاجرين الأوائل إلى الحبشة مع زوجها الذي تنصَّر هناك ، وبقيتْ هي على دينها وتمسكتْ بعقيدتها .

وفي هذا دليل أولاً : على مدى ما كان يلاقيه المؤمنون من إيذاء الكافرين ، ثانياً : دليل على الطاعة الواعية للزوج ، فقد آثرت الخروج مع زوجها لا عِشْقاً له ، ولا هياماً به ، إنما فراراً معه بدينها؛ لذلك لما تنصَّر لم تتردد في تركه؛ لذلك طلبها رسول الله لنفسه ، ثم لما مات النجاشي صلى عليه رسول الله وترحَّم عليه . هذه هي هجرة الإيمان إلى دار الأمن .

ثم كانت الهجرة بعد ذلك إلى دار الإيمان ، إلى المدينة ، بعد بيعة العقبة الأولى والثانية ، وبعد أن وجد رسول الله أنصاراً يتحملون معه أعباء الدعوة ، وقد ضرب الأنصار في المدينة أروع مَثَل في التضحية التي ليس لها مثيل في تاريخ البشرية .

ذلك أن الرجل أغير ما يكون على زوجته ، فلا يضِنّ على غيره بما يملك ، فتعطيني سيارتك أركبها ، أو بيتك أسكن فيه ، أو ثوبك ألبسه ، وأتقمَّش به ، أما الزوجة فتظل مصونة لا يجرؤ أحد على النظر إليها .

لكن كان للأنصار في هذه المسألة نظرة أخرى حين أشركوا إخوانهم المهاجرين في كل شيء حتى في زوجاتهم ، فقد راعوا فيهم خروجهم من أهلهم وبلادهم ، وراعوا غربتهم وما لهم من إرْبة وحاجة النساء .

فكان الواحد منهم يقول لأخيه : انظر إلى زوجاتي ، فأيتهنّ أعجبتك أُطلِّقها ، وتتزوجها أنت ،

هذه تضحية لا نجد لها مثيلاً في تاريخ الناس حتى عند الكفرة .
ثم أُمِر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهجرة إلى المدينة ، فخرج خُفْية في حين خرج عمر مثلاً جهراً وعلانية ، حتى إنه وقف ينادي في أهل مكة بأعلى صوته يتحدى أهلها عند خروجه : مَنْ أراد أنْ تثكله أمه ، أو ييُتم ولده ، أو تُرمَّل زوجته فليلْقني خلف هذا الوادي .
أما رسول الله فقد خرج خُفْية ، وهذه المسألة يقف عندها البعض أو تَخْفي عليه الحكمة منها ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم كان دائماً أُسْوة للضعيف ، أما القوي فلا يحتاج إلى حماية أحد ، ولا عليه إنْ خرج علانية؛ لذلك لا يستحي أحد أن يتخفى كما تخفى رسول الله .
ثم إنك حين تتأمل : نعم خرج رسول الله خُفْية لكنها خُفْية التحدي ، فقد خرج من بين فتيانهم المتربصين به ، وعفَّر وجوههم بالتراب ، وهو يقول : « شاهت الوجوه » .
ومع ذلك لم يمنعه تأييد الله له أنْ يأخذ بأسباب النجاة ، فخالف الطريق؛ لأن كفار مكة كانوا يعرفون أن وجهته المدينة لما عقد بيعة العقبة مع الأنصار؛ لذلك ترصدوا له على طريقها ، وأرسلوا العيون للبحث عنه ، وجعلوا جُعْلاً لمن يأتيهم به صلى الله عليه وسلم .
والمتأمل في حادث الهجرة يجد أنها خطة محكمة تراعي كل جوانب الموقف ، كأن الله تعالى يريد أنْ يُعلِّمنا في شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم ألاَّ نهمل الأسباب ، وألاَّ نتصادم مع الواقع ما دُمْنا قادرين على ذلك .

فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة وهي بلده ، وأحب البلاد إلى قلبه قال : « اللهم إنك أخرجتني من أحب البلاد إليَّ ، فأسكنِّي أحب البلاد إليك » .
لذلك إنْ كانت مكةُ محبوبةً لرسول الله ، فالمدينة محبوبة لله؛ لذلك بعد أن خرج رسول الله من مكة وقارب المدينة حَنَّ قلبه إلى مكة ، فطمأنه ربه بهذه الآية : { إِنَّ الذي فَرَضَ عَلَيْكَ القرآن لَرَآدُّكَ إلى مَعَادٍ . . . } [القصص : 85] .
فالذي فرض عليك مشقة التكاليف ، وحمَّلك مشاق الدعوة والإقناع بها ، وتنفيذ أحكامها ، هو الذي سيردُّك إلى بلدك ردَّ نصر ، وردّ فتح ، وما أشبهَ ردِّ رسول الله إلى بلده بردِّ موسى عليه السلام إلى أمه في قوله تعالى لأم موسى : { إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ . . . } [القصص : 7] ليس رَدَّاً عادياً ، إنما { وَجَاعِلُوهُ مِنَ المرسلين } [القصص : 7] .
إذن : سيُردُّ إليك ولدك ، لكن سيُرد رسولاً منتصراً . وكما صدق الله في ردِّ موسى يصدق في ردِّ محمد .
ومعنى { مَعَادٍ . . . } [القصص : 85] ليس هو الموعد كما يظن البعض ، إنما يراد به المكان الذي تعود إليه بعد أن تفارقه ، فالمعنى : سنردُّك إلى المكان الذي تحِنُّ إليه ، ويتعلق به قلبك .
أو نردك إلى (معاد) أي : إلينا ، كما قال تعالى : { فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الذي نَعِدُهُمْ أَوْ

نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ } [غافر : 77] ولا مانع من إرادة المعنيين معاً .

ثم يقول سبحانه : { قُل ربي أَعْلَمُ مَن جَآءَ بالهدى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ } [القصص : 85] الحق تبارك وتعالى يعلِّم رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم الجدل العفيف ، لا الجدل العنيف ، يُعلِّمه كيف يردُّ على ما قالوا عن الذي يؤمن به (صبأ فلان) يعني : خرج عن دين آبائه وهم يعتقدون أنه الحق ، فكأن الذي يؤمن في نظرهم خرج من الحق إلى الباطل .

إذن : فهذه عقول تحتاج إلى سياسة وجدل ، كما قال سبحانه : { وَجَادِلْهُم بالتي هِيَ أَحْسَنُ . . . } [النحل : 125] ؛ لأن الجدل العنيف يزيد خصمك عناداً ولجاجة ، أما الجدل العنيف فيستميل القلوب ويعطفها نحوك؛ لذلك يرد رسول الله بقوله : { قُل ربي أَعْلَمُ مَن جَآءَ بالهدى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ } [القصص : 85] أي : جاء بالهدى من عند الله وهو النبي صلى الله عليه وسلم : { وَمَنْ هُوَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ } [القصص : 85] .

ثم يعطي الحق – تبارك وتعالى – لنبيه صلى الله عليه وسلم دليلاً من واقع حياته؛ ليطمئن على أنه مُؤيَّد من ربه ، وأنه سبحانه سيفي له بما وعد ، ولن يتخلى عنه ، وكيف يختاره للرسالة ، ثم يتخلى عنه؟

وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ (86)

يعني : إذا كنت تتعجب ، أو تستبعد أنْ نردَّك إلى بلدك؛ لأن الكفار يقفون لك بالمرصاد ، حتى أصبحت لا تُصدِّق أنْ تعود إليها ، فانظر إلى أصل الرسالة معك : هل كنت تفكر أو يتسامى طموحك إلى أنْ تكون رسولاً؟ إنه أمر لم يكُنْ في بالك ، ومع ذلك أعطاك الله إياه واختارك له ، فالذي أعطاك الرسالة ولم تكُنْ في بالك كيف يحرمك من أمر أنت تحبه وتشتاق إليه؟

إذن : تقوم هذه الآية مقامَ الدليل والبرهان على صِدْق { لَرَآدُّكَ إلى مَعَادٍ . . . } [القصص : 85] وفي موضع آخر يؤكد الحق سبحانه هذا المعنى ، فيقول سبحانه : { وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكتاب وَلاَ الإيمان ولكن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَآءُ . . . } [الشورى : 52] فالذي أعطاك الرسالة لا يعجز أن يحقق لك ما تريد .

وقوله تعالى : { إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ . . . } [القصص : 86] هذا استثناء يسمونه استثناء منقطعاً .

والمعنى : ما كنت ترجو أن يُلْقى إليك الكتاب إنما ألقيناه ، وما ألقيناه إليك إلا رحمة لك من ربك .

وما دام هؤلاء الكفار عاندوك وأخرجوك ، فإياك أنْ تلين لهم { فَلاَ تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِّلْكَافِرِينَ } [القصص : 86] أي : معيناً لهم مسانداً ، وكانوا قد اقترحوا على رسول الله أن يعبد آلهتهم سنة ، ويعبدون إلهه سنة ، فحذره الله أنْ يُعينهم على ضلالهم ، أو يجاريه في باطلهم ، لذلك كان النبي

صلى الله عليه وسلم لا يناصر ظالماً أو مجرماً ، حتى إن كان من أتباعه .
وسبق أن ذكرنا في تأويل قوله تعالى : { إِنَّآ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكتاب بالحق لِتَحْكُمَ بَيْنَ الناس بِمَآ أَرَاكَ الله وَلاَ تَكُنْ لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيماً } [النساء : 105] قصة اليهودي زيد بن السمين لما جاءه المسلم طُعْمة بن أبيريق ، وأودع عنده دِرْعاً له ، وكان هذا الدرع مسروقاً من آخر اسمه قتادة بن النعمانَ ، فلما افتقده قتادة بحث عنه حتى وجده في بيت اليهودي ، وكان السارق قد وضعه في كيس للدقيق ، فدلَّ أثر الدقيق على مكان الدرع فاتهموا اليهودي بالسرقة ، ولما عرفوا حقيقة الموقف أشفقوا أن ينتصر اليهودي على المسلم ، خاصة وهم حديثو عهد بالإسلام ، حريصون على ألاّ تُشوه صورته .
لذلك شرحوا لرسول الله هذه المسألة ، لعله يجد لها مخرجاً ، فأدار رسول الله المسألة في رأسه قبل أنْ يأخذ فيها حُكْماً؛ وعندها نزل الوحي على رسول الله : { إِنَّآ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكتاب بالحق لِتَحْكُمَ بَيْنَ الناس . . . } [النساء : 105] أي : جميع الناس ، المؤمن والكافر { بِمَآ أَرَاكَ الله وَلاَ تَكُنْ لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيماً } [النساء : 105] أي : تخاصم من أجلهم ولصالحهم { واستغفر الله إِنَّ الله كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً } [النساء : 106] أي : مما خطر ببالك في هذه المسألة .
وفي بعض الآيات نجد في ظاهرها قسوة على رسول الله وشدة مثل : { وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأقاويل * لأَخَذْنَا مِنْهُ باليمين * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوتين }

[الحاقة : 44-46] .
وكل ما يكون في القرآن من هذا القبيل لا يُقصد به سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إنما الحق سبحانه يريد أن يعطي للأمة نموذجاً يلفت أنظارهم ، وكأنه تعالى يقول لنا : انتبهوا فإذا كان الخطاب لرسول الله بهذه الطريقة ، فكيف يكون الخطاب لكم؟
كأن يكون عندك خادم يعبث بالأشياء حوله ، فتُوجِّه الكلام أنت إلى ولدك : والله لو عبثتَ بشيء لأفعلنَّ بك كذا وكذا ، فتوجِّه الزجر إلى الولد ، وأنت تقصد الخادم ، على حَدِّ المثل القائل (إياك أعني واسمعي يا جارة) .
لذلك يقول بعض العارفين :
مَا كان في القُرآن مِنْ نِذَارةٍ ... إلى النبيّ صَاحبِ البشَارةِ
فكُنْ لَبيباً وافْهَم الإشَارةَ ... إيّاك أعني واسْمعِي يَا جَارة
يعني : اسمعوا يا أمة محمد ، كيف أخاطبه ، وأُوجِّه إليه النذارة ، مع أنه البشير .
ثم يقول الحق سبحانه : { وَلاَ يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ الله بَعْدَ . . . } .

وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (87)

قوله تعالى : { وَلاَ يَصُدُّنَّكَ . . . } [القصص : 87] أي : لا يصرفنك ولا يمنعنَّك المشركون { عَنْ آيَاتِ الله . . . } [القصص : 87] أي : قراءها وتبليغها للناس ، وقوله : { وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ المشركين } [القصص : 87] هذا أيضاً داخل في (إياك أعني واسمعي يا جارة) لأن رسول الله أبعد ما يكون عن الشرك ، وليس مظنة له .

وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (88)

قوله تعالى : { وَلاَ تَدْعُ مَعَ الله إلها آخَرَ . . . } [القصص : 88] كسابقتها؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس مظنة أن يدعو مع الله إلهاً آخر { لاَ إله إِلاَّ هُوَ . . . } [القصص : 88] أي : لا معبودَ بحق إلا هو .
ولو كان معه سبحانه وتعالى آلهة أخرى لواجهوه : { قُلْ لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ إلى ذِي العرش سَبِيلاً } [الإسراء : 42] أي : سَعَوْا إليه لينازعوه الألوهية ، أو ليتقرَّبوا إليه .
{ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ . . . } [القصص : 88] الوجه في عُرْفنا ما به المواجهة في الإنسان ، وكل شيء يصف به الحق سبحانه نفسه علينا أنْ نصفه سبحانه به ، بناءً على وصفه في إطار قوله سبحانه { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ . . . } [الشورى : 11] .
فالحق سبحانه له وجه ، لكن ليس ككل الوجوه ، وهكذا في كل الصفات التي يشترك فيها الحق سبحانه مع الخَلْق ، وأنت آمنتَ بوجود الله ، وأن وجوده ذاتي ، ليس كوجودك أنت .
وقوله : { كُلُّ شَيْءٍ . . . } [القصص : 88] كلمة شيء يقولون : إنها جنس الأجناس يعني : أي موجود طرأ عليه الوجود يسمى (شيء) مهما كان تافهاً ضئيلاً . وقد تكلم العلماء في أيطلق على الله تعالى أنه شيء لأنه موجود؟
قالوا : ننظر في أصل الكلمة (شيء) من شاء شيئاً ، فالشيء شاءه غيره ، فأوجده؛ لذلك لا يقال لله تعالى شيء؛ لأنه سبحانه ما شاءه أحد ، بل هو سبحانه موجود بذاته .
وفي آية أخرى يقول تعالى في عمومية الشيء : { وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ . . . . } [الإسراء : 44] يعني : كل ما يُقال له شيء موجود سبق وجوده عدم ، إلا يسبح بحمد الله ، البعض قال : هو تسبيح دلالة على موجدها ، وليس تسبيح مقالة حقيقية ، لكن قوله سبحانه { ولكن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ . . . } [الإسراء : 44] يدل على أنه تسبيح حقيقي ، فكل شيء يُسبِّح بلغته وبما يناسبه .
وقد أثبت الله تعالى منطقاً للطير وتسبيحاً للجبال ، ولو فهمتَ لغة هذه الأشياء لأمكنك أنْ تعرف تسبيحها ، لكن كيف نطمع في معرفة لغات الحجر والشجر ، ونحن لا نفهم لغات بعضنا ، فإذا لم تكن تعرف مثلاً الإنجليزية ، أتعرف ماذا يقول المتحدث بها لو سبّح بها الله وهو بشر مثلك يتكلَّم بنفس طريقتك وبنفس الأصوات؟

لذلك يقولون في معجزاته صلى الله عليه وسلم : سبَّح الحصى في يده ، والصواب أن نقول : سمع رسول الله تسبيح الحصى في يده ، وإلاَّ فالحصى يُسبّح في يد رسول الله ، ويُسبّح في يد أبي جهل . ومن ذلك أيضاً حنين الجذع لرسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم ألم يقل الحق سبحانه : { وأوحى رَبُّكَ إلى النحل . . . } [النحل : 68] .

ألم يَقُلْ عن الأرض : { بِأَنَّ رَبَّكَ أوحى لَهَا } [الزلزلة : 5] ؟ ألم يُثبت للنملة كلاماً؟ ألم يكلم الهدهد سليمان عليه السلام ، وفهم منه سليمان؟

إذن : لكل جنس من المخلوقات لغته التي يفهمها أفراده عن بعض { كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ . . . } [النور : 41] وإنْ شاء الله أطلع بعض خَلْقه على هذه اللغات ، وأفهمه إياها .

ومعنى : { هَالِكٌ . . . } [القصص : 88] البعض يظن أن الهلاك خاصٌّ بما فيه روح كالإنسان والحيوان ، لكن لو وقفنا عند قوله تعالى : { لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ ويحيى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ . . . } [الأنفال : 42] .

إذن : فالهلاك يقابله الحياة ، فكل شيء يهلك كانت له حياة تناسبه ، وإنْ كنا لا نفهم إلا حياتنا نحن ، والتي تذهب بخروج الروح .

ومعنى : { إِلاَّ وَجْهَهُ . . . } [القصص : 88] أي : إلا ذاته تعالى ، ولم يقُلْ : إلا هو؛ لأنه تعالى ليس شيئاً ، وللوجه هنا معنى آخر ، كما نقول : فعلتُ ذلك ابتغاءَ وجه الله يعني : فعلت والله في بالي ، فالمعنى : كل شيء هالك ، إلا ما كان لوجه الله ، فلا يهلك أبداً؛ لأنه يبقى لك وتنال خيره في الدنيا وثوابه في الآخرة .

ثم يقول سبحانه : { لَهُ الحكم وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } [القصص : 88] أي : له الحكم في الآخرة يوم يقول : { لِّمَنِ الملك اليوم . . . } [غافر : 16] لكن لماذا خصَّ الملك يوم القيامة ، وهو سبحانه له المُلْك الدائم في الدنيا وفي الآخرة؟ قالوا : لأن هناك مُلْكاً في الدنيا ، يُملِّكه لخَلْقه ، كما قال سبحانه في النمرود : { أَنْ آتَاهُ الله الملك . . . } [البقرة : 258] وقال سبحانه : { تُؤْتِي الملك مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ الملك مِمَّنْ تَشَآءُ . . . } [آل عمران : 26] .

إذن : فالمُلْك مُلْك الله ، وهو سبحانه الذي يُملِّك خَلْقه في الدنيا دنيا الأسباب ، لكن في الآخرة تُنزع الملكية من أيِّ أحد إلا لله وحده . حتى إرادة الإنسان على جوارحه تُسلَب منه ، فتشهد عليه بما كان منه في الدنيا .

وإنْ أردتَ أن تعرف الآن صِدْق هذه المسألة فانظر إلى الأمور القدرية التي تجري عليك ، كالمرَض وكالموت وغيرها ، هل تستطيع أن تتأبى عليها؟

ثم يقول سبحانه : { وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } [القصص : 88] أي : للحساب في الآخرة؛ لأن الله

تعالى لم يخلقنا عَبثاً ، ولن يتركنا هملاً ، بل لا بد من الرجوع إليه ليحاسب كلاً منكم على ما قدَّم ، وما دُمْتم قد عرفتم ذلك ، فعليكم أن تحترموا المرجع إلى الله ، وتنظروا ماذا طلب منكم .
والمتتبع لهذا الفعل في القرآن يجد أنه جاء مرة مبنياً للمجهول (تُرجعون) وهو للكافر الذي تأبَّى على الله ، فنقول له : ستُرجع إلى الله ، وتُقذف في النار غَصباً عنك ، ورَغْماً عن أنفك ، فإنْ تأبَّيْتَ على الله في الدنيا ، فلن تتأبَّى عليه في الآخرة ، ويأتي مبنياً للمعلوم (ترجعون) وهو للمؤمن الذي يشتاق لثواب الآخرة فيتهافت بنفسه ويُقبل عليه .

الم (1)

سبق أنْ تكلمنا كثيراً عن الحروف المقطعة في بدايات سور القرآن ، كلما تكررت هذه الظاهرة نتكلم عن مجالات الأذهان في فهمها ، وما دام الحق سبحانه يُكررها فعلينا أيضاً أن نُكرِّر الحديث عنها ، ولماذا ينثر الله هذه الظاهرة في سور القرآن؟ لتظل دائماً على البال .
وقلنا : إن القرآن الكريم مبنيٌّ في كل آياته وسوره على الوَصْل ، لا على الوقف ، اقرأ : { <مُدْهَامَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ * فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ } [الرحمن : 64-67] .
فلم يقل { فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ } [الرحمن : 65] ويقف ، إنما وصل : { فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ } [الرحمن : 66] لأن القرآن موصول ، لا فصلَ أبداً بين آياته؛ لذلك ليس في القرآن من وقف واجب ، إنما لك أن تقف لضيق النفَس ، لكن حينما تعيد تعيد بالوصل .
وكذلك القرآن مبنيٌّ على الوَصْل في السور ، فحين تنتهي سورة لا تنتهي على سكون ، فلم يَقُلْ - سبحانه وتعالى - وإليه ترجعونْ بسكون النون ، إنما (تُرْجَعُونَ بسْمِ الله الرَّحْمنِ الرَّحيم) ليبدأ سورة أخرى موصولة .
فهذه إذن سمة عامة في آيات القرآن وسُوره إلا في الحروف المقطَّعة في أوائل السور ، فهي مبنية على الوقف ألفْ لامْ ميمْ هكذا بالسكون ولم يقل : ألفٌ لامٌ ميمٌ على الوَصْل ، لماذا؟ لأنها حروف مُقطَّعة ، قد يظنها البعض كلمة واحدة ، ففصَل بينها بالوقف .
لذلك يقول صلى الله عليه وسلم : « لا أقول الم حرف . ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » وليؤكد هذا المعنى جعلها على الوقف ، كل حرف على حدة .
وتكلمنا على هذه الحروف وقلنا : إنها خامات القرآن ، فمن مثل هذه الحروف يُنسج كلام الله ، وقلنا : إنك إنْ أردتَ أن تُميِّز مهارة النسْج عند بعض العمال مثلاً لا تعطي أحدهم قطناً ، والآخر صوفاً ، والآخر حريراً مثلاً؛ لأنك لا تستطيع التمييز بينهم ، لأن الخامات مختلفة ، فالحرير بطبيعته سيكون أنعم وأرقّ . فإنْ أردتَ معرفة المهارة فوحِّد المادة الخام عند الجميع .
فكأن الحق - تبارك وتعالى - يقول لنا : إن القرآن مُعْجز ، بدليل أنكم تملكون نفس حروفه ،

ومع ذلك عجزتُمْ عن معارضته ، فقد استخدم القرآن نفس حروفكم ، ونفس كلماتكم وألفاظكم ، وجاء بها في صورة بليغة ، عَزَّ عليكم الإتيان بمثلها .
إذن : اختلف أسلوب القرآن ، لأن الله تعالى هو الذي يتكلم . فمعنى (ألم) هذه نفس حروفكم فأتوا بمثلها .
أو : (ألم) تحمل معنى من المعاني؛ لأن ألف لام ميم أسماء حروف ، وأسماء الحروف لا يعرفها إلا المتعلم ، فالأُميُّ يقول (كتب) لكن لا يعرف أسماء حروفها ، وتقول للولد الصغير في المدرسة : تهجَّ كتب فيقول لك (كاف فتحة كَ) و (تاء فتحة تَ) و (باء فتحة بَ) .
إذن : لا يعرف أسماء الحروف إلا المتعلم ، وسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أمياً ، فمن أين نطق بأسماء الحروف الم ، طه ، يس ، ق .

. . إلخ . إذن : لا بُدَّ أن ربه علّمه ولقّنه هذه الحروف ، ومن هنا جاءت أهمية التلقين والتلقيّ في تعلُّم القرآن ، وإلا فكيف يُفرِّق المتعلم بين (الم) هنا وبين { أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ } [الشرح : 1] فينطق الأولى على الوقْف ، والأخرى على الوَصْل ، ينطق الأولى بأسماء الحروف ، والثانية بمُسمَّياتها؟
وتحمل (الم) أيضاً معنى التنبيه للسامع ، فالقرآن نزل بأسلوب العرب ولغتهم ، فلا بُدَّ أن تتوفر له خصائص العربية والعربية الراقية ، فلو قرأنا مثلاً في الشعر الجاهلي نجد عمرو بن كلثوم يقول :
أَلاَ هُبِّي بصَحْنِك فَاصْبِحينا ... ولاَ تُبقِي خمور الأندرينا
نسأل : ماذا أفادت (أَلاَ) هنا ، والمعنى يصح بدونها؟ (ألا) لها معنى عند العربي؛ لأنها تنبهه إنْ كان غافلاً حتى لا يفوته شيء من كلام مُحدِّثه ، حينما يُفَاجأ به ، كما تنادي أنت الآن مَنْ لا تعرفه فتقول : (اسمع يا . . .) كأنك تقول له : تنبه لأنني سأكلمك .
والتنبيه جاء في اللغة من أن المتكلم يتكلَّم برغبته في أي وقت ، أما السامع فقد يكون غافلاً غير مُنتبه ، أو ليس عند استعداد لأنْ يسمعَ ، فيحتاج لمن يُنبِّهه ليفهم ما يُقال له ، إنما لو فاجأتَه بالمراد ، فربما فاته منه شيء قبل أنْ يتنبه لك .
وكذلك في (الم) حروف للتنبيه ، على أنه سيأتي كلام نفيس اسمعه جيداً ، إياك أنْ يضيع منك حرف واحد منه . كما يصح أنْ يكون لهذه الحروف معانٍ أخرى ، يفهمها غيرنا ممَّنْ فتح الله عليهم . فهي – إذن – معين لا ينضب ، يأخذ منه كُلٌّ على قَدْره .
ثم يقول الحق سبحانه : { أَحَسِبَ الناس أَن . . . } .

أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2)

الفعل (حسِب) بالكسر في الماضي ، وبالفتح في المضارع (يحسَب) يعني : ظن . أما (حسَب) والمضارع (يحسِب) بالكسر أي : عَدَّ .

فالمعنى : { أَحَسِبَ الناس . . . } [العنكبوت : 2] أي : ظنوا . والهمزة للاستفهام ، وهي تفيد نفي هذه الظن وإنكاره ، لأنهم حَسِبوا وظنوا أنْ يتركهم الله دون فتنة وتمحيص واختبار .

والحق سبحانه يريد أن يحمل أولوا العزم رسالة الإسلام؛ لأن الإسلام لا يتصدَّى لحمل دعوته إلا أقوياءُ الإيمان الذين يقدرون على حمل مشاق الدعوة وأمانة تبليغها .

والإيمان ليس كلمة تُقال ، إنما مسئولية كبرى ، هذه المسئولية هي التي منعتْ كفار مكة أنْ يؤمنوا؛ لأنهم يعلمون أن كلمة لا إله إلا الله ليست مجرد كلمة وإلا لَقَالوها ، إنما هي منهج حياة له متطلبات . إنها تعني : لا مُطَاعَ إلا الله ، ولا معبود بحقٍّ إلا الله ، وهم لا يريدون هذه المسألة لتظل لهم مكانتهم وسلطتهم الزمنية .

لذلك يقول سبحانه هنا : { أَحَسِبَ الناس أَن يتركوا أَن يقولوا آمَنَّا . . . } [العنكبوت : 2] فالإيمان ليس قَوْلاً فحسب؛ لأن القول قد يكون صِدْقاً ، وقد يكون كذباً ، فلا بُدَّ بعد القول من الاختبار وتمحيص الإيمان { وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ } [العنكبوت : 2] فإنْ صبر على الابتلاءات وعلى المحن فهو صادق الإيمان .

ويؤكد سبحانه هذا المعنى في آية أخرى : { وَمِنَ الناس مَن يَعْبُدُ الله على حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطمأن بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقلب على وَجْهِهِ خَسِرَ الدنيا والأخرة . . . } [الحج : 11] .

وقد محَّص الله السابقين الأولين من المؤمنين بآيات وخوارق تخالف الناموس الكوني ، فكان المؤمن يُصدِّق بها ، ويؤمن بصِدْق الرسول الذي جاء بها ، أما المتردد المتحيِّر فيُكذِّب بها ، ويراها غير معقولة .

« ومن ذلك ما كان من الصِّدِّيق أبي بكر في حادثة الإسراء والمعراج ، فلمَّا حدَّثوه بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : » إنْ كان قال فقد صدق « في حين ارتد البعض وكذَّبوا ، وكأن الحق – تبارك وتعالى – يريد من هذه الخوارق ، التي يقف أمامها العقل – أنْ يُميِّز بين الناس ليحمل أمر الدعوة أشداءُ الإيمان والعقيدة ، ومَنْ لديهم يقين بصِدْق الرسول في البلاغ عن ربه .

وسبق أنْ بيّنا غباء مَنْ كَذَّب بحادثة الإسراء والمعراج من كفار مكة الذين قالوا لرسول الله : أتدَّعي أنك أتيت بيت المقدس في ليلة ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً؟ وأنهم غفلوا أو تغافلوا عن نص الآية : { سُبْحَانَ الذي أسرى بِعَبْدِهِ . . . } [الإسراء : 1] فلم يقل محمد : إني سريت بنفسي إنما أُسْري بي .

وقلنا للرد عليهم : لو جاءك رجل يقول لك : لقد صعدتُ بولدي الرضيع قمة إفرست مثلاً ، أتقول له : كيف يصعد الرضيع قمة إفرست؟

وسبق أنْ تكلَّمنا في قضية ينبغي أن تظل في أذهانكم جميعاً ، وهي أن كل فعل يأخذ نصيبه من الزمن على قَدْر قوة فاعله ، فالوزن الذي ينقله الطفل الصغير في عدة مرات تحمله أنت في يد واحدة .

فالزمن يتناسب مع القوة تناسباً عكسياً فكلما زادت القوة قلَّ الزمن ، فالذي يذهب مثلاً إلى الأسكندرية على حمار غير الذي يذهب في سيارة أو على مَتْن طائرة . وهكذا .

إذن : قِسْ على قدر قوة الفاعل ، فإنْ كان الإسراء بقوة الله تعالى ، وهي قوة القوى فلا زمن ، وهذه مسألة يقف عندها العقل ، ولا يقبلها إلا بالإيمان .

إذن : فالحق سبحانه يُمحِّصكم ويبتليكم؛ لأنه يريدكم لمهمة عظيمة ، لا يصلح لها إلا الصنديد القوي في إيمانه ويقينه .

لذلك يقول سبحانه في أكثر من موضع : { وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الخوف والجوع وَنَقْصٍ مِّنَ الأموال والأنفس والثمرات وَبَشِّرِ الصابرين } [البقرة : 155] .

وقال : { وَلَنَبْلُوَنَّكُم حتى نَعْلَمَ المجاهدين مِنكُمْ والصابرين وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ } [محمد : 31] .

وقال : { أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الجنة وَلَمَّا يَعْلَمِ الله الذين جَاهَدُواْ مِنكُمْ . . . } [آل عمران : 142] .

فهذه الابتلاءات كالامتحان الذي نُجريه للتلاميذ لنعرف مقدرة كل منهم ، والمهمة التي يصلح للقيام بها ، ومعلوم أن الابتلاءات لا تُذَمُّ لذاتها ، إنما لنتائجها المترتبة عليها ، فما جُعِلَتْ الابتلاءات إلا لمعرفة النتائج ، وتمييز الأصلح للمهمة التي نُدِب إليها .

ومعنى { يُفْتَنُونَ } [العنكبوت : 2] يُختبرون . مأخوذة من فتنة الذهب ، حين نصهره في النار؛ لنُخرِج ما فيه من خَبَث ، ونُصفِّي معدنه الأصلح ، فيما يناسب مهمته .

ومن ذلك ما ضربه الله لنا مثلاً للحق وللباطل في قوله تعالى : { أَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فاحتمل السيل زَبَداً رَّابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النار ابتغآء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كذلك يَضْرِبُ الله الحق والباطل فَأَمَّا الزبد فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ الناس فَيَمْكُثُ فِي الأرض كذلك يَضْرِبُ الله الأمثال } [الرعد : 17] .

فالفتنة ما كانت إلا لنعرف الصادق من القَوْلة الإيمانية والكاذب فيها : الصادق سيصبر ويتحمل ، والكاذب سينكر ويتردد .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَلَقَدْ فَتَنَّا الذين مِن قَبْلِهِمْ . . . } .

وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (3)

الحق – سبحانه وتعالى – يُسلّي السابقين من أمة محمد الذين عُذِّبوا وأوذوا ، وضُرِبوا بالسياط تحت حَرِّ الشمس ، ووُضِعت الحجارة الثقال على بطونهم ، والذين جاعوا حتى أكلوا الميتة وأوراق الشجرة يُسلِّيهم : لَسْتم بدعاً في هذه الابتلاءات فاصمدوا لها كما صمد السابقون من المؤمنين .

{ وَلَقَدْ فَتَنَّا الذين مِن قَبْلِهِمْ . . . } [العنكبوت : 3] فانظر مثلاً إلى ابتلاء بني إسرائيل مع فرعون ، إذن فابتلاؤكم أهونَ وأخفّ ، وفيه رحمة من الله بكم وأنتم أيسر منهم { فَلَيَعْلَمَنَّ الله الذين صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ الكاذبين } [العنكبوت : 3] .

ولك أن تقول : ألم يكُن الله تعالى يعلم حقيقتهم قبل أنْ يبتليهم؟ بلى ، يعلم سبحانه حقيقةَ عباده ، وليس الهدف من اختبارهم العلم بحقيقتهم ، إنما الهدف أنْ يُقر العبد بما عُلِم عنه .

ومثال ذلك – ولله المثل الأعلى – حينما نقول للمدرس مثلاً : اعْطنا نتيجة هؤلاء التلاميذ ، فليس في الوقت سعة للامتحان فيقول من واقع خبرته بهم : هذا ناجح ، وهذا راسب ، وهذا الأول ، وهذا كذا . عندها يقوم الراسب ويقول : لو اختبرتني لكنت ناجحاً ، ولو اختبره معلِّمه لرسب فعلاً . إذن : فربنا – عز وجل – يختبر عباده ليُقر كل منهم بما عُلم عنه .

{ فَلَيَعْلَمَنَّ الله الذين صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ الكاذبين } [العنكبوت : 3] عِلْم ظهور وإقرار من صاحب الشأن نفسه ، بحيث لا يستطيع إنكاراً ، حيث سيشهد هو على نفسه حين تشهد عليه جوارحه .

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (4)

هنا أيضاً { حَسِبَ . . . } [العنكبوت : 4] أي : ظن الذين يعملون السيئات { أَن يَسْبِقُونَا . . . } [العنكبوت : 4] أي : يُفلتوا من عقابنا ، تقول : سبق فلان فلاناً يعني : أفلت منه وهو يطارده ، فالمعنى أنهم لن يستطيعوا الإفلات من العذاب أو الهرب منه ، وإنْ كانوا يعتقدون ذلك أو يظنونه ، فبئس هذا الظن .

{ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ } [العنكبوت : 4] أي : قَبُح حكمهم وبَطُل ، وحين نحكم على ظنهم وعلى حكمهم بالبطلان فإنما نثبت قضيتنا ، وهي أنهم لن يُفْلِتوا من عقابنا .

ثم يقول الحق سبحانه : { مَن كَانَ يَرْجُو لِقَآءَ الله فَإِنَّ . . . } .

مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (5)

معنى { يَرْجُو لِقَآءَ الله . . . } [العنكبوت : 5] يعني : يؤمن به وينتظره ويعمل من أجله ، يؤمن بأن الله الذي خلقه وأعدَّ له هذا الكون ليحيا حياته الطيبة ، وأنه سبحانه بعد ذلك

سيُعيده ويحاسبه؛ لذلك إنْ لم يعبده ويطعْه شُكْراً له على ما وهب ، فليعبده خوفاً منه أنْ يناله بسوء في الآخرة .

وأهل المعرفة يروْنَ فرقاً بين مَنْ يرجو الثواب ويرجو رحمة الله ، ومن يرجو لقاء الله لذات اللقاء ، لا خوفاً من نار ، ولا طمعاً في جنة؛ لذلك تقول رابعة العدوية :

كُلُّهم يَعْبدُونَ مِنْ خَوْفِ نَارٍ ... ويروْنَ النجاةَ حَظّاً جَزِيلاً

أَوْ بِأَنْ يَسْكُنُوا الجِنانَ فيحظَوْا ... بقُصُورٍ ويَشْربُوا سَلْسبِيلا

لَيْسَ لي بالجِنَانِ والنّارِ حَظٌّ ... أنَا لا أبتغي بحِبِي بَديلاً

أي : أحبك يا رب ، لأنك تُحَبُّ لذاتك ، لا خوفاً من نارك ، ولا طمعاً في جنتك ، وهي أيضاً القائلة : اللهم إنْ كنتَ تعلم أني أحبك طمعاً في جنتك فاحرمني منها ، وإنْ كنتَ تعلم أنِّي أعبدك خوفاً من نارك فاحرقني بها .

ويقول تعالى في سورة الكهف : { فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَاً } [الكهف : 110] ولو كانت الجنة لأن لقاء الله أعظم ، وهو الذي يُرْجى لذاته .

والحق سبحانه يؤكد هذه المسألة بأكثر من مؤكد : { فَإِنَّ أَجَلَ الله لآتٍ . . . } [العنكبوت : 5] فأكَّده بإن واللام وصيغة اسم الفاعل الدالة على تحقُّق الفعل ،كما قال سبحانه : { كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ } [القصص : 88] ولم يقل : سيهلك ، وقوله سبحانه مخاطباً نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم : { إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَّيِّتُونَ } [الزمر : 30] .

يخاطبهم بهذه الصيغة وهم ما يزالون أحياءً؛ لأن الميِّت : مَنْ يؤول أمره وإن طال عمره إلى الموت ، أما مَنْ مات فعلاً فيُسمَّى (مَيْت) .

وأنت حينما تحكم على شيء مستقبل تقول : يأتي أو سيأتي ، وتقول لمن تتوعده : سأفعل بك كذا وكذا ، فأنت جازفتَ وتكلمتَ بشيء لا تملك عنصراً من عناصره ، فلا تضمن مثلاً أنْ تعيش لغد ، وإنْ عشتَ لا تضمن أن يعيش هو ، وإنْ عاش ربما يتغير فكرك ناحيته ، أو فقدتَ القدرة على تنفيذ ما تكلمت به كأنْ يصيبك مرض أو يلُم بك حدث .

لكن حينما يتكلم مَنْ يملك ازمّة الأمور كلها ، ويعلم سبحانه أنه لن يفلت أحد منه ، فحين يحكم ، فليس للزمن اعتبار في فعله ، لذلك لم يقل سبحانه : إن أجل الله سيأتي ، بل { لآتٍ . . . } [العنكبوت : 5] على وجه التحقيق .

وسبق أنْ ذكرنا في هذا الصدد قوله تعالى عن القيامة : { أتى أَمْرُ الله فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ . . . } [النحل : 1] وقد وقف السطحيون أمام هذه الآية يقولون : وهل يستعجل الإنسان إلا ما لم يأْتِ بَعْد؟ لأنهم لا يفهمون مراد الله ، وليست لديهم مَلَكة العربية ، فالله تعالى يحكم على المستقبل ، وكأنه ماضٍ أي مُحقّق؛ لأنه تعالى لا يمنعه عن مراده مانع ، ولا يحول دونه حائل .

ولفظ الأجل جاء في القرآن في مواضع كثيرة ، منها : { وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ } [الأعراف : 34] وفي الآية التي معنا : { فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لآتٍ . . . } [العنكبوت : 5] .

والأجلان مختلفان بالنسبة للحضور الحياتي للإنسان ، فالأجل الأول يُنهي الحياة الدنيا ، والأجل الآخر يُعيد الحياة في الآخرة للقاء الله عز وجل ، إذن : فالأجلان مرتبطان .

والحق – سبحانه وتعالى – حينما يعرض لنا قضية غيبية يُؤنِسنا فيها بشيء حسيٍّ معلوم لنا ، حتى يستطيع العقل أن ينفذ من الحَسيّ إلى الغيبي غير المشاهد . وأنت ترى أن أعمار بني آدم من هذه الحياة تتفاوت : فواحد تغيض به الأرحام ، فلا يخرج للحياة ، وواحد يتنفس زفيراً واحداً ويموت . . إلخ .

وفي كل لحظة من لحظات الزمن نعاين الموت ، مَنْ يموت بعد نفَس واحد ، ومَنْ يموت بعد المائة عام . إذن : فلا رتابة في انقضاء الأجل ، لا في سِنٍّ ولا في سبب : فهذا يموت بالمرض ، وهذا بالغرق ، وهذا يموت على فراشه .

لذلك يقول الشاعر :

فَلا تحسَب السُّقْم كأسَ الممات ... وإنْ كانَ سُقْماً شَديد الأَثَر

فَرُبَّ عليلٍ تراهُ اسْتفاقَ ... ورُبَّ سَليمٍ تَرَاهُ احتُضرْ

وقال آخر :

وَقَدْ ذَهَب الممتِلي صحةً ... وصَحَّ السَّقِيمُ فَلَمْ يذْهب

وتجد السبب الجامع في الوباءات التي تعتري الناس ، فيموت واحد ويعيش آخر ، فليس في الموت رتابة ، والحق – سبحانه وتعالى – حينما يقول : { وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ } [الأعراف : 34] نجد واقع الحياة يؤكد هذا ، فلا وحدةَ في عمر ، ولا وحدةَ في سبب .

والصدق في الأجل الأول المشاهد لنا يدعونا إلى تصديق الأجل الآخر ، وأن أجل الله لآت ، فالأجل الذي أنهى الحياة بالاختلاف هو الذي يأتي بالحياة بالاتفاق ، فبنفخة واحدة سنقوم جميعاً أحياءً للحساب ، فإن اختلفنا في الأولى فسوف نتفق في الآخرة؛ لأن الأرواح عند الله من لَدُنْ آدم عليه السلام وحتى تقوم الساعة ، وبنفخة واحدة يقوم الجميع .

وسبق أن قُلْنا : إن الأزمان ثلاثة : حاضر نشهده ، وماضٍ غائب عنا لا نعرف ما كان فيه ، ومستقبل لا نعرف ما يكون فيه . والحق سبحانه يعطي لنا في الوجود المشاهد دليلَ الصدق في غير المشاهد ، فنحن مثلاً لا نعرف كيف خلقنا الخَلْق الأول إلا من خلال ما أخبرنا الله به أن أَصلْ الإنسان تراب اختلط بالماء حتى صار طيناً ، ثم حمأ مسنوناً ، ثم صلصالاً كالفخار . . إلخ .

ثم جعل نسل الإنسان من نطفة تتحول إلى علقة ، ثم إلى مضغة ، ثم إلى عظام ، ثم تُكْسى العظام لحماً . وإنْ كان العلم الحديث أرانا النطفة والعلقة والمضغة ، وأرانا كيف يتكوَّن الجنين ، فيبقى الخَلْق الأول من تراب غيباً لا يعلمه أحد .

ولا تُصدِّق من يقول : إني أعلمه؛ لأن الله تعالى حذرنا من هؤلاء المضلين في قوله : { مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السماوات والأرض وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ المضلين عَضُداً }

[الكهف : 51] .

فلا علمَ لهم بخَلْق الإنسان ، ولا علمَ لهم بخَلْق ظواهر الكون ، فلا تسمع لهم ، وخُذْ معلوماتك من كتاب ربك الذي خلق سبحانه ، ويقوم وجود المضلين الذين يقولون : إن الأرض قطعة من الشمس انفصلتْ عنها ، أو أن الإنسان أصله قرد - يقوم وجودهم ، وتقوم نظرياتهم دليلاً على صدق الحق سبحانه فيما أخبر .

وإلا ، فكيف نُصدِّق نظرية ترقِّي القرد إلى الإنسان؟ ولماذا ترقّى قرد (دارون) ولم تترقَّ باقي القرود؟

وإذا كان المؤمن مُصدِّقاً بقوله تعالى : { فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ } [الحجر : 29] لأنه آمن بالله ، وآمن بما جاء به رسول الله ، فكيف بمَنْ لا يؤمن ولا يُصدِّق؟ لذلك يُؤنِس الحق سبحانه هذه العقول المستشرفة لمعرفة حقائق الأشياء يُؤنِسها بما تشاهد : فإنْ كنتَ لا تُصدِّق مسألة الخَلْق فأنت بلا شكٍّ تشاهد مسألة الموت وتعاينه كل يوم ، والموت نَقْضٌ للحياة ، ونَقْض الشيء يأتي عكْس بنائه .

والخالق - عز وجل - أخبر أن الروح هي آخر شيء في بناء الإنسان ، لذلك هي أول شيء يُنقَض فيه عند الموت ، إذن : مشهدك في كيف تموت ، يؤكد لك صِدْق الله في كيف جئت؟

وأجل الآخرة أمر لا بُدَّ منه ليُثاب المطيع ويُعَاقب العاصي ، أَلاَ ترى إلى النظم الاجتماعية حتى عند غير المؤمنين تأخذ بهذا المبدأ لاستقامة حركة الحياة؟ فما بالك بمنهج الله تعالى في خَلْقه ، أيترك الظالم والمجرم يُفلِت من العقاب في الآخرة بعد أنْ أفلت من عقاب الدنيا؟

وكنا نردُّ بهذا المنطق على الشيوعيين : لقد عاقبتُم مَنْ طالته أيديكم من المجرمين ، فكيف بمَنْ ماتوا ولم تعاقبوهم ، أليستِ الآخرةُ تحلّ لكم هذا المأزق؟

ثم تُختمَ الآية بقوله تعالى : { وَهُوَ السميع العليم } [العنكبوت : 5] ألا ترى أنه تعالى لو قال : العليم فقط لشملَ المسموع أيضاً؛ لأن العلم يحيط بكل المدركات؟ فلماذا قال { السميع العليم } [العنكبوت : 5] ؟

قالوا : لأن اللغة العربية حينما تكلمتْ عن العمل والفعل والقول قسَّمت الجوارح أقساماً : فاللسان له القول ، وبقية الجوارح لها الفعل ، وهما جميعاً عمل ، فالقول عمل اللسان ، والفعل

عمل بقية الجوارح ، فكأن اللسان أخذ شطر العمل ، وبقية الجوارح أخذت الشطر الآخر .
وباللسان معرفة إيمانك ، حين تقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وهي أشرف ما يعمل الإنسان ، وبه بلاغ الرسول عن الله لخَلْقه ، إذن : فأفعال الجوارح الشرعية ناشئة من اللسان ومن السماع؛ لذلك جعل القول وهو عمل اللسان شطر العمل كله .
ولأهمية القول قال تعالى : { يأيها الذين آمَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ } [الصف : 2] فكل فعل ناشيء عن انصياع لقول أو سماع لقول؛ لذلك ختم سبحانه هذه الآية بقوله : { وَهُوَ السميع العليم } [العنكبوت : 5] .

وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (6)

وكلمة { جَاهَدَ . . . } [العنكبوت : 6] تناسب النجاح في الابتلاء ، والجهاد : بذْل الجهد في إنفاذ المراد ، ومنه اجتهد فلان في كذا يعني : عمل أقصى ما في وُسْعه من الجدّ والاجتهاد في أن يستنبط الحكم .
والجهاد له مجالان : مجال في النفس يجاهدها ليقْوَى بمجاهدة نفسه على مجاهدة عدوه .
وجاهد : مفاعلة ، كأن الشيء الذي تريده صعب ، يحتاج إلى جهد منك ومحاولة ، والمفاعلة تكون من الجانبين : منك ومن الشيء الذي يقابلك ، وأول ميادين الجهاد النفس البشرية؛ لأن ربك خلق فيك غرائز وعواطف لمهمة تؤديها ، ثم يأتي منهج السماء ليكبح هذه الغرائز ويُرقِّيها ، حتى لا تنطق معها إلى ما لا يُباح .
فحب الاستطلاع مثلاً غريزة محمودة في البحث العلمي والاكتشافات النافعة ، أمّا إنْ تحوّل إلى تجسُّس وتتبع لعورات الناس فهو حرام؛ الأكل والشرب غريزة لتقتات به ، وتتولد عندك القدرة على العمل ، فإنْ تحوَّل إلى نَهم وشراهة فقد خرجت بالغريزة عن مرادها والهدف منها .
وعجيب أمر الناس في تناول الطعام ، فالسيارة مثلاً لا نعطيها خليطاً من الوقود ، إنما هو نوع واحد ، أما الإنسان فلا تكفيه عدة أصناف ، كل منها لها تفاعل في الجسم ، حينما تتجمع هذه التفاعلات تضر أكثر مما تنفع .
إذن : هذه الغرائز تحتاج منك إلى مجاهدة؛ لتظل في حَدِّ الاعتدال ، عملاً بالأثر : « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع ، ولا نشرب حتى نظمأ ، وإذا شربنا لا نقنع » .
ولو عملنا بهذا الحديث لَقضيْنا على القنبلة الذرية للاقتصاد في بلادنا ، وكم تحلو لك اللقمة بعد الجوع مهما كانت بسيطة وغير مكلِّفة؛ لذلك يقولون : نعم الإدام الجوع ، ثم إذا أكلتَ لا تملأ المعدة ، ودع كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه » .
وبهذا المنهج الغذائي الحكيم نضمن بنية سليمة وعافية لا يخالطها مرض .

فالغرائز خلقها الله فيك لمهمة ، فعليك أنْ تقف بها عند مهمتك . ومثل الغرائز العواطف من حب وكُرْه وشفقه وحُزْن . . إلخ ، وهذه ليس لها قانون إلا أنْ تقفَ بها عند حدود العاطفة لا تتعداها إلى النزوع ، فأحبب مَنْ شئتَ وأبغض مَنْ شئتَ ، لكن لا تتعدَّ ولا تُرتِّب على العاطفة حكماً .

وقد ذكرنا لهذه المسألة مثالاً بسيدنا عمر – رضي الله عنه – وكان له أخٌ اسمه زيد قُتل ، ثم أسلم قاتله ، فكان عمر كلما رآه يقول له : ازْوِ عني وجهك – يعني : أنا لا أحبك – فيقول : أو عدم حبك لي يمنعني حقاً من حقوقي؟ قال : لا ، قال : إنما يبكي على الحب النساء . يعني : الحب والكره مسائل يهتم بها النساء ، والمهم العمل ، وما يترتب على هذه العواطف .

ومن المجاهدة مجاهدة مَنْ سُلِّط عليك من جبار أو نحوه ، تجاهده وتصبر على إيذائه ، فحبُّك للحق يجعلك تصبر عليه ، يقول تعالى : { وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حتى نَعْلَمَ المجاهدين مِنكُمْ والصابرين وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ } [محمد : 31] .

كل هذه بلاءات تحتاج إلى مجاهدة ، فإنْ كان لك غريم فإنْ قدرت أن تدفع أذاه بالتي هي أحسن فافعل ، وإنْ أردت أنْ تعاقب فعاقب بالمثل ، وهذه مسألة صعبة؛ لأنك لا تستطيع تقدير المثلية أو ضبطها ، بحيث لا تتعدى ، فمثلاً لو ضربك خصمك ضربة ، أتستطيع أنْ تردَّ عليه بمثلها دون زيادة؟

إذن : فلا تُدخل نفسك في هذه المتاهة ، وأَوْلَى بك أنْ تأخذ بقوله تعالى { والعافين عَنِ الناس . . . } [آل عمران : 134] وتنتهي المسألة .

فإذا كانت المصيبة لا غريمَ لك فيها ، كالمرض والموت وغيرهما من القدريات التي يُجريها الله عليك ، فقُلْ إن ربي أراد بي خيراً ، فبها تُكفِّر الذنوب والسيئات وبها أنال أجر الصابرين ، وربما أنني غفلت عن ربي أو غرَّتني النعمة ، فابتلاني الله ليلفتني إليه ويُذكِّرني به .

ومن المجاهدة مجاهدة النفس في تلقِّي المنهج بافعل ولا تفعل ، والتكليف عادةً ما يكون شاقاً على النفس يحتاج إلى مجاهدة ، وإياك أنْ تنقلَ مدلول افعل في لا تفعل ، أو تنقل مدلول لا تفعل في افعل . وحين تستقصي (افعل ولا تفعل) في منهج الله تجده يأخذ نسبة سبعة بالمائة من حركاتك في الحياة ، والباقي مباحات ، لك الحرية تفعلها أو تتركها .

وقد يتعرض الإنسان المستقيم للاستهزاء والسخرية حتى مِمَّن هو على دينه ، لأن المنحرف دائماً يشعر بنقص فيتضاءل ويصغَر أمام نفسه ، ويحاول أن يجر الآخرين إلى نفس مستواه حتى يتساوى الجميع ، وإلا فكيف تكون أنت مهتدياً مستقيماً وهو عاصٍ ضالٌّ؛ لذلك تراه يسخر منك ويُهوِّن من شأنك ، لماذا؟ ليُزهِّدك في الطاعة ، فتصير مثله .

واقرأ إنْ شئتَ قوله تعالى : { إِنَّ الذين أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ الذين آمَنُواْ يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ

يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انقلبوا إلى أَهْلِهِمُ انقلبوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قالوا إِنَّ هؤلاء لَضَالُّونَ * وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ * فاليوم الذين آمَنُواْ مِنَ الكفار يَضْحَكُونَ * عَلَى الأرآئك يَنظُرُونَ * هَلْ ثُوِّبَ الكفار مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ } [المطففين : 29–36] .

ولا شكَّ أن مثل هذا يحتاج منك إلى صبر على أذاه ، ومجاهدة للنفس حتى لا تقع في الفخِّ الذي ينصبه لك .

وقد تأتيك الوسوسة من الشيطان فيُزيِّن لك الشر ، ويُحبِّب إليك المعصية ، وعندها تذكر قول الله تعالى : { يابني ءَادَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشيطان كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِّنَ الجنة يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَآ . . . } [الأعراف : 27] .

فعليك – إذن – أن تتذكّر العداوة الأولى بين أبيك آدم وبين الشيطان لتكون منه على حذر ، وسبق أن أوضحنا كيف نفرق بين المعصية التي تأتي من النفس ، والتي تأتي من وسوسة الشيطان ، فالنفس تقف بك عند معصية بعينها لا تريد غيرها ، أما الشيطان فإنْ تأبيتَ عليه في ناحية نقلك إلى أخرى ، المهم عنده أنْ يُوقِعك على أي حال .

إذن : أعداؤك كثيرون ، يحتاجون منك إلى قوة إرادةَ وإلى مجاهدة .

ومجيء هذه الآية التي تذكر الجهاد بعد قوله تعالى { فَإِنَّ أَجَلَ الله لآتٍ وَهُوَ السميع العليم } [العنكبوت : 5] يطلب من الإنسان الذي يعتقد أن أجلَ الله بلقاء الآخرة أتٍ ، وذلك أمر لا شكَّ فيه – يطلب منه أنْ يستعدَّ لهذا اللقاء .

وقال تعالى : { فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ الله لَغَنِيٌّ عَنِ العالمين } [العنكبوت : 6] لأن الإنسان طرأ على كون مُهيأ لاستقباله بسمائه وأرضه وشمسه وقمره ومائه وهوائه ، فكل ما في الكون خادم لك ، ولن تزيد أنت في مُلْك الله شيئاً ، وكل سَعْيك وفكرك لترف حياتك أنت ، فحين تفعل الخير فلن يستفيدَ منه إلا أنت وربك غني عن عطائك .

فإنْ جاهدتَ فإنما تجاهد لنفسك ، كما لو امتنَّ عليك خادمك بالخدمة فتقول له : بل خدمتَ نفسك وخدمتَ عيالك حينما خدمتَ لتوفر لك ولهم أسباب العيش ، وأنا الذي تعبتُ وعرقتُ لأوفر لك المال الذي تأخذه .

وكذلك الحق سبحانه يقول لنا { وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ . . . } [العنكبوت : 6] أي : حينما يطبق المنهج ويسير على هُداه ، والحق سبحانه يؤكد هذه القضية في آيات عديدة { مَّنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ } [فصلت : 46] .

ويقول الحق سبحانه : { إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا . . . } [الإسراء : 7] .

ويقول سبحانه : { لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكتسبت . . . } [البقرة : 286] .

إذن : المسألة منك وإليك ، ولا دخلَ لنا فيها إلا حرْصنا على صلاح الخَلْق وسلامتهم ، كصاحب الصَّنْعة الذي يريد لصنعته أن تكون على خير وجه وأكمله ، لذلك أفيضُ عليه من قدراتي قدرة ، ومن علمي علماً ، ومن بَسْطي بَسْطاً ، ومن جبروتي جبروتاً ، وأعطيه من صفاتي . لذلك قال بعض العارفين : « تخلقوا بأخلاق الله » .

لأن العون في وهب الصفات ومجال الصفات في الفعل ليس في أنْ أفعل لك ، إنما في أنْ أُعينك لتفعل أنت ، فالواحد منا حينما يرى عاجزاً لا يستطيع حَمْل متاعه ، ماذا يفعل؟ يحمله عنه ، أي : يُعدِّي إليه أثر قوته ، إنما يظل العاجز عاجزاً والضعيف ضعيفاً كلما أراد شيئاً احتاج لمن يقوم له به .

أما الحق – سبحانه وتعالى – فيفيض عليك من قوته ، ويهبُ لك من قدرته وغِنَاه لتفعل أنت بنفسك؛ لذلك مَنْ يتخلق بأخلاق الله يقول : لا تعْطَ الفقير سمكة ، إنما علِّمه كيف يصطاد ، حتى لا يحتاج لك في كل الأوقات ، أفِضْ عليه ما يُديم له الانتفاع به .

إذن : الحق سبحانه يهَبُ القادرين القدرةَ ، ويهَبُ الأغنياء الغِنَي ، والعلماء العلمَ والحكماءَ الحكمةَ . وهذه من مظاهر عظمته تعالى ألاَّ يُعدِّي أثر الصفة إلى عباده ، إنما يُعدِّي بعض الصفة إليهم ، لتكون ذاتية فيهم .

بل ويعطي سبحانه ما هو أكثر من ذلك ، يعطيك الإرادة التي تفعل بها لمجرد أن تفكر في الفعل ، بالله ماذا تفعل لكي تقوم من مكانك؟ ماذا تفعل حينما تريد أنْ تحمل شيئاً أو تحرك عضواً من أعضائك؟ هل أمرتك أمراً؟ هل قلت لها افعلي كذا وكذا؟

حين تنظر إلى (البلدوزر) مثلاً أو (الونش) كيف يتحرك ، وكيف أن لكل حركة فيه زراً يحركها وعمليات آلية معقدة ، تأمل في نفسك حين تريد أن تقوم مثلاً بمجرد أن تفكر في القيام ، تجد نفسك قائماً ، مرادك أنت في الأعضاء أن تفعل وتنفعل لك .

إذن ، حينما يقول لك ربك : { إِنَّمَآ أَمْرُهُ إِذَآ أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ } [يس : **82**] فصدِّقه؛ لأنك شاهدتها في نفسك وفي أعضائك ، فما بالك بربك – عز وجل – أيعجز أن يفعل ما تفعله أنت؟ ماذا تفعل إنْ أردتَ أنْ تنام أو تبطش بيدك؟

لا شيء غير الإرادة في داخلك؛ لأن ربك خلع عليك من قدرته ، وأعطاك شيئاً من قوله (كُنْ) وقدرة من قدرته ، لكن لم يشأ أنْ يجعلها ذاتية فيك حتى لا تغترّ بها .

لذلك إنْ أراد سبحانه سَلَبها منك لقوله تعالى : { كَلاَّ إِنَّ الإنسان ليطغى * أَن رَّآهُ استغنى } [العلق : **6–7**] فتأتي لتحرك ذراعك مثلاً فلا يطاوعك ، لقد شُلَّ ويأبى عليك بعد أنْ كان طَوْع إرادتك ، ذلك لتعلم أنه هِبَة من الله ، إنْ شاء أخذها فهي ليست ذاتية فيك .

فالمجاهدة تشمل ميادين عديدة ، مجاهدة الغرائز والعواطف ، ومجاهدة مشقة المنهج في افعل ولا

تفعل ، ومجاهدة شياطين الإنس والجن ، ومجاهدة خصوم الإسلام الذين يريدون أنْ يُطفئوا نور الله .

وروى البخاري « أن خباب بن الأرتّ دخل على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، إننا في شدة ، ألاَ تستنصر لنا؟ ألاَ تدعو لنا؟ فقال صلى الله عليه وسلم : إنه كان الرجل فيمن قبلكم تُحفر له الحفرة ، فيُوضع فيها ، ثم يُؤتَى بالمنشار فيُقَدُّ نصفين ، ثم يُمشَطُ لحمه عن عظمه بأمشاط الحديد ، فلا يصرفه ذلك عن دين الله » .

ثم يطمئنه رسول الله على أن هذه الفترة – فترة الابتلاء – لن تطول ، فيقول : « والله لَيتِمنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخشى إلا الله والذئبَ على غنمه » .

والنبي صلى الله عليه وسلم وهو خاتم النبيين ، « يدخل عليه سيدنا أبو سعيد الخدري فيجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يشتكي حرارة الحمى ، فوضع يده على اللحاف الذي يلتحف به سيدنا رسول الله ، فيُحِسّ حرارته من تحت اللحاف ، فقال له : يا رسول الله ، إنها لشديدة عليك؟ فقال صلى الله عليه وسلم : » يا أبا سعيد ، إنه يُضعَّف لنا البلاء كما يُضعَّف لنا الجزاء . »

ذلك ليثبت أن البلاء لا يكون فقط من الأعداء ، إنما قد يكون من الله تعالى ، لماذا؟ لأن الله يباهي ملائكته بخَلْقه الطائعين المخبتين الصابرين ، فيقولون : كيف لا يحبونك ويقبلون على طاعتك ، وقد أنعمتَ عليهم بكذا وكذا ، ويذكرون حيثيات هذه الطاعة ، فيقول تعالى : وأسلب كل ذلك منهم ويحبونني ، أي : يحبونني لذاتي .

ثم تختم هذه الآية بقوله تعالى : { إِنَّ الله لَغَنِيٌّ عَنِ العالمين } [العنكبوت : 6] لأن ميادين الجهاد هذه لا يعود منها شيء إلى الله تعالى ، ولا تزيد في مُلكه شيئاً ، إنما يستفيد منها العبد؛ لأنه سبحانه الغني عن طاعة الطائعين وعبادة المتعبدين ، ليس غنياً عنهم وفقط ، إنما هو سبحانه الذي يُغنيهم ويُفيض عليهم من فَضلْه ومن غِناه .

ثم يقول الحق سبحانه : { والذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات . . . } .

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (7)

يذكر لنا – سبحانه وتعالى – النتائج { والذين آمَنُواْ . . . } [العنكبوت : 7] أي : بالله رباً ، له كل صفات الكمال المطلق ، وله طلاقة القدرة ، وله طلاقة الإرادة ، وهو المهيمن ، وهو الحاكم . . إلخ .

ثم { وَعَمِلُواْ الصالحات . . . } [العنكبوت : 7] لأن العمل الصالح نتيجة للإيمان ، وثمرة من

ثمراته ، والصالح : هو الشيء يظلُّ على طريقة الحُسْن فيه فلا يتغير ، فقد أقبلت على عالم خلقه الله لك على هيئة الصلاح فلا تفسده ، وهذا أضعف الإيمان أنْ تُبقِي الصالح على صلاحه ، فإن أردتَ الارتقاء ، فزِدْه صلاحاً .

يقول تعالى : { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأرض قالوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ } [البقرة : 11] .

فقد أعدَّ الله لنا الأرض صالحة بكل نواميسها وقوانينها ، أَلاَ ترى المناطق التي لا ينزل بها المطر يُعوِّضها الله عنه بالمياه الجوفية في باطن الأرض ، فماء المطر الزائد يسلكه الله ينابيع في الأرض ، ويجعله مخزوناً لوقت الحاجة إليه ، وتخزين الماء العذب في باطن الأرض حتى لا تُبخِّره الشمس ، يقول تعالى : { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْراً فَمَن يَأْتِيكُمْ بِمَآءٍ مَّعِينٍ } [الملك : 30] .

وضربنا مثلاً لترك الصالح على صلاحه ببئر الماء الذي يشرب منه أهل الصحراء ، فقد نرمي فيه القاذورات التي تُفسد ماءه ، وقد نرى مَنْ يُهيل فيه التراب فيطمسه ، وهذا كله من إفساد الصالح ، وربما يأتي مَنْ يبني حوله سوراً يحميه ، أو يجعل عليه آلة رَفْع ترفع الماء وتُريح الناس الذين يردونه ، فإذا لم تكُنْ من هؤلاء فلا أقلَّ من أن تدعه على حاله .

فالصالح إذن : كل عمل وفكر يزيد صلاحَ المجتمع في حركات الحياة كلها ، وإياك أن تقول إن هناك عملاً أشرف من عمل ، فكل عمل مهما رأيته هيِّناً – ما دام يؤدي خدمة للمجتمع ، ويُقدِّم الخير للناس فهو عمل شريف ، فقيمة الأعمال هي قيمة العامل الذي يُحسنِها وينفع الناس بها ، يعني : ليس هناك عمل أفضل من عمل ، إنما هنَاك عامل أفضل من عامل؛ لذلك يقولون : قيمة كل امريء مَا يُحسِنه .

وسبق أن ضربتُ لذلك مثلاً ، وما أزال أضربه ، مع أنه من أُنَاس غير مسلمين : كان نقيب العمال في فرنسا يطالب بحقوق العمال ويدافع عنهم ويُوفِّر لهم المزايا ، فلما تولى الوزارة قالوا له : أعطنا الآن الحقوق التي كنتَ تطالب بها لنا ، وربما كان يطالب لعماله بما تضيق به إمكانات وميزانيات الوزارة ، أما الآن فقد أصبح هو وزيراً ، وفي إحدى المرات تطاول عليه أحد العمال وقال : لا تنْسَ أنك كنت في يوم من الأيام ماسحَ أحذية ، فقال : نعم ، لكنني كنت أتقنها .

ثم يذكر الحق سبحانه جزاء الإيمان والعمل الصالح : { لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ . . . } [العنكبوت : 7] وهنا تتجلى العظمة الإلهية ، حيث بدأ بتكفير السيئات وقدَّمها على إعطاء الحسنات .

لأن التخلية قبل التحلية ، والقاعدة تقول : إن دَرْءَ المفسدة مُقدَّم على جَلْب المصلحة ، فهَبْ أن واحداً يريد أنْ يرميك مثلاً بحجر ، وآخر يريد أنْ يرمي لك تفاحة ، فأيهما تستقبل أولاً؟ لا شكَّ أنك ستدفع أذى الحجر عن نفسك أولاً .

والخالق – عز وجل – يعلم طبيعة عباده وما يحدث منهم من غفلة وانصراف عن المنهج يُوقِعهم

في المعصية ، وما دام أن الشرع يُعرِّف لنا الجرائم ويُقنِّن العقوبة عليها ، فهذا إذنٌ منه بأنها ستحدث .

لذلك يقول تعالى لعباده : اطمئنوا ، فسوف أطهركم من هذه الذنوب أولاً قبل أنْ أعطيكم الحسنات ، ذلك لأن الإنسان بطبعه أميل إلى السيئة منه إلى الحسنة ، فيقول سبحانه : { لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ . . . } [العنكبوت : 7] .

بل وأكثر من ذلك ، ففي آية أخرى يقول سبحانه : { إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فأولئك يُبَدِّلُ الله سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ الله غَفُوراً رَّحِيماً } [الفرقان : 70] فأيُّ كرم بعد أنْ يُبدِّل الله السيئة حسنةً ، فلا يقف الأمر عند مجرد تكفيرها ، فكأنه (أوكازيون) للمغفرة ، ما عليك إلا أنْ تغتنمه .

وفي موضع آخر يقول سبحانه : { إِنَّ الحسنات يُذْهِبْنَ السيئات . . . } [هود : 114] وفي الحديث الشريف : « . . وأتبع السيئةَ الحسنةَ تمحها » .

ثم يذكر سبحانه الحسنة بعد ذلك : { وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الذي كَانُواْ يَعْمَلُونَ } [العنكبوت : 7] قلنا : إن الحق سبحانه إذا أراد أنْ يعطي الفقير يقترض له من إخوانه الأغنياء { مَّن ذَا الذي يُقْرِضُ الله قَرْضاً حَسَناً . . . } [البقرة : 245] .

مع أنه سبحانه واهب كل النعم يحترم ملكية عباده ، ويحترم مجهوداتهم وعرقهم ، فاحترم العمل واحترم ثمرة العمل ، كما يعامل الوالد أولاده ، فيأخذ من الغني لمساعدة الفقير على أنْ يعيد إليه ماله حين مَيْسرة ، فكما أنك لا ترجع في هبتك ، كذلك ربُّك – عز وجل – لا يرجع في هبته .

وأذكر ونحن في أمريكا سألنا أحد المستشرقين يقول : هناك تعارض بين قول القرآن : { مَن جَآءَ بالحسنة فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا . . . } [الأنعام : 160] وبين قول النبي صلى الله عليه وسلم : « مكتوب على باب الجنة : الصدقة بعشر أمثالها والقرض بثمانية عشر » .

فشاء الله أن يلهم بكلمتين للردِّ عليه ، حتى لا يكون للكافرين على المؤمنين سبيل . فقلت للمترجم : نعم الحسنة بعشر أمثالها حين تتصدَّق ، لكن في القرض مثلاً لو تصدَّق بدولار فهو عند الله بعشرة دولارات ، لكن يعود عليك دولارك مرة أخرى ، فكأن لك تسعة دولارات ، فحين تضاعف تصير ثمانية عشر .

وبعد ذلك ينتقل الحق سبحانه إلى الدائرة الأولى في تكوين المجتمع ، وهي دائرة الأسرة المكوَّنة من : الأب ، والأم ، والأولاد ، فأراد سبحانه أن يُصلح اللبنة الأولى ليصلح المجتمع كله ، فقال تبارك وتعالى : { وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوَالِدَيْهِ حُسْناً . . . } .

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (8)

الوالدان يخدمان الابن حتى يكبر ، ويصير هو إلى القوة في حين يصيران هما إلى الضعف ، وإلى الحاجة لمن يخدمهما ، وحين ننظر في حال الغربيين مثلاً وكيف أن الأبناء يتركون الآباء دون رعاية ، وربما أودعوهم دار المسنين في حالة برِّهم بهم ، وفي الغالب يتركونهم دون حتى السؤال عنهم؛ لذلك تتجلى لنا عظمة الإسلام وحكمة منهج الله في مجتمع المسلمين .

لذلك قال أحد الحكماء : الزواج المبكر خير طريقة – لا لإنجاب طفل – إنما الإنجاب أب لك يعولك في طفولة شيخوختك . لذلك أراد الحق سبحانه أن يبني الأسرة على لبنات سليمة ، تضمن سلامة المجتمع المؤمن ، فقال سبحانه : { وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوَالِدَيْهِ حُسْناً . . . } [العنكبوت : 8] ، وفي موضع آخر قال سبحانه في نفس الوصية { وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً . . . } [الأحقاف : 15] .

وفَرْق بين المعنيين : { حُسْناً . . . } [العنكبوت : 8] أي : أوصيك بأنْ تعملَ لهم الحُسْن ذاته ، كما تقول : فلان عادل ، وفلان عَدْل ، فوصَّى بالحسْن ذاته . أما في { إِحْسَاناً . . . } [الأحقاف : 15] فوصية بالإحسان إليهما .

لكن ، لماذا وصَّى هنا بالحُسْن ذاته ، ووصَّى هناك بالإحسان؟

قالوا : وصَّى بالحسن ذاته في الآية التي تذكر اللدد الإيماني ، حيث قال : { وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَآ . . . } [العنكبوت : 8] والكفر يستوجب العداوة والقطيعة ، ويدعو إلى الخصومة ، فأكَّد على ضرورة تقديم الحسن إليهما؛ لا مجرد الإحسان؛ لأن الأمر يحتاج إلى قوة تكليف .

أما حين لا يكون منهما كفر ، فيكفي في برِّهما الإحسان إليهما؛ لذلك يقول سبحانه : { وَصَاحِبْهُمَا فِي الدنيا مَعْرُوفاً . . . } [لقمان : 15] .

والحق سبحانه حين يُوصي بالوالدين ، وهما السبب المباشر في الوجود إنما ليجعلهما وسيلة إيضاح لأصل الوجود ، فكما أوصاك بسبب وجودك المباشر وهما الوالدان ، فكذلك ومن باب أَوْلى يوصيك بمَنْ وهب لك أصل هذا الوجود .

فكأن الحق سبحانه يُؤنِس عباده بهذه الوصية ، ويلفت أنظارهم إلى ما يجب عليهم نحو واهب الوجود الأصلي وما يستحقه من العبادة ومن الطاعة؛ لأنه سبحانه الخالق الحقيقي ، أما الوالدان فهما وجود سببي .

هذا إيناس بالإيمان ، بيَّنه تعالى في قوله : { واعبدوا الله وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وبالوالدين إِحْسَاناً . . . } [النساء : 36] لأنهما سبب الوجود الجزئي ، والله تعالى سبب الوجود الكلي .

وهذا أيضاً من المواضع التي وقف عندها المستشرقون ، يبغُونَ فيها مَطْعناً ، ويظنون بها تعارضاً بين آيات القرآن في قوله تعالى : { وَصَاحِبْهُمَا فِي الدنيا مَعْرُوفاً . . . } [لقمان : 15] وفي موضع آخر : { لاَّ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بالله واليوم الآخر يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ الله وَرَسُولَهُ وَلَوْ كانوا

آبَآءَهُمْ . . . } [المجادلة : 22] .
وهذا التعارض لا يوجد إلا في عقول هؤلاء؛ لأنهم لا يفهمون لغة القرآن ، ولا يفرقون بين الودِّ والمعروف : الودّ مَيْل القلب ، وينشأ عن هذا الميل فِعْل الخير ، فيمن تميل إليه ، أمّا المعروف فتصنعه مع مَنْ تحب ومَنْ لا تحب ، فهو استبقاء حياة .

وهنا يقول سبحانه : { وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَآ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ } [العنكبوت : 8] يعني : تذكَّر هذا الحكم ، فسوف أسألك عنه يوم القيامة ، ففي موضع آخر { وَصَاحِبْهُمَا فِي الدنيا مَعْرُوفاً واتبع سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ } [لقمان : 15] .
فكُفْر الوالدين لا يعني السماحَ لك بإهانتهما أو إهمالهما ، فاحذر ذلك؛ لأنك ستُسأل عنه أمام الله : أصنعتَ معهما المعروف أم لا؟
وحيثيات الوصية بالوالدين : الأب والأم ذُكرت في الآية الأخرى : { وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاَثُونَ شَهْراً . . . } [الأحقاف : 15] نلحظ أن الحيثيات كلها للأم ، ولم يذكر حيثية واحدة للأب إلا في قوله تعالى : { وَقُل رَّبِّ ارحمهما كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً . . . } [الإسراء : 24] وهذه تكون في الآخرة .
قالوا : ذِكْر الحيثيات كلها للأم؛ لأن متاعب الأم كانت حال الصِّغَر ، والطِّفل ليس لديه الوعي الذي يعرف به فَضْل أمه وتحمُّلها المشاق من أجله ، وحين يكبر وتتكوَّن لديه الإدراكات يجد أنَّ الأب هو الذي يقضي له كل ما يحتاج إليه .
إذن : فحيثيات الأب معلومة مشاهدة ، أمّا حيثيات الأم فتحتاج إلى بيان .
يقول الحق سبحانه : { والذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات . . . } .

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ (9)

فقدّم الإيمان ، لأنه الأصل ، ثم العمل الصالح ، وكأن الدخول في الصالحين مسألة كبيرة ، وهي كذلك ، ويكفي أنها مُتَمنى حتى الأنبياء أنفسهم .
ثم يقول الحق سبحانه : { وَمِنَ الناس مَن يِقُولُ آمَنَّا بالله فَإِذَآ . . . } .

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ (10)

قوله تعالى : { وَمِنَ الناس مَن يِقُولُ آمَنَّا بالله . . . } [العنكبوت : 10] دليل على القول باللسان ، وعدم الصبر على الابتلاء ، فالقول هنا لا يؤيده العمل ، ولمثل هؤلاء يقول تعالى : {

يأيها الذين آمَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ } [الصف : 2] .

ويقول تعالى في صفات المنافقين : { إِذَا جَآءَكَ المنافقون قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ الله والله يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ والله يَشْهَدُ إِنَّ المنافقين لَكَاذِبُونَ } [المنافقون : 1] فالله تعالى لا يُكذِّبهم في أن محمداً رسول الله ، إنما في شهادتهم أنه رسول الله؛ لأن الشهادة لا بُدَّ لها أنْ يواطئ القلب اللسان ، وهذه لا تتوفر لهم .

ومعنى : { فَإِذَآ أُوذِيَ فِي الله . . . } [العنكبوت : 10] أي : بسبب الإيمان بالله ، فلم يفعل شيئاً يؤذى من أجله ، إلا أنه آمن { جَعَلَ فِتْنَةَ الناس كَعَذَابِ الله . . . } [العنكبوت : 10] فتنة الناس أي : تعذيبهم له علىإيمانه كعذاب الله .

إذن : خاف عذاب الناس وسَّواه بعذاب الله الذي يحيق به إنْ كفر ، وهذا غباء في المساواة بين العذابين؛ لأن عذاب الناس سينتهي ولو بموت المؤذي المعذِّب ، أما عذاب الله في الآخرة فباقٍ لا ينتهي ، والناس تُعذَّب بمقدار طاقتها ، والله سبحانه يُعذب بمقدار طاقته تعالى وقدرته ، إذن : فالقياس هنا قياس خاطئ .

وإنْ كانت هذه الآية قد نزلت في عياش بن أبي ربيعة ، فالقاعدة الأصولية تقول : إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وكان عياش بن أبي ربيعة أخا عمرو بن هشام (أبو جهل) والحارث بن هشام من الأم التي هي أسماء .

فلما أنْ أسلم عياش ثم هاجر إلى المدينة فحزنت أمه أسماء ، وقالت : لا يظلني سقف ، ولا أطعم طعاماً ، ولا أشرب شراباً ، ولا أغتسل حتى يعود عياش إلى دين آبائه ، وظلت على هذه الحال التي وصفتْ ثلاثة أيام حتى عضَّها الجوع ، فرجعت .

وكان ولداها الحارث وأبو جهل قد انطلقا إلى المدينة ليُقنعا عياشاً بالعودة لاسترضاء أمه ، وظلا يُغريانه ويُرقّقان قلبه عليها ، فوافق عياش على الذهاب إلى أمه ، لكن رفض الردة عن الإسلام ، فلما خرج الثلاثة من المدينة قاصدين مكة أوثقوه في الطريق ، وضربه أبو جهل مائة جلدة ، والحارث مائة جلدة .

لكن كان أبو جهل أرأف به من الحارث؛ لذلك أقسم عياش بالله لئن أدركه يوماً ليقتلنه حتى إنْ كان خارجاً من الحرم ، وبعد أن استرضى عياش أمه عاد إلى المدينة ، فقابل أخاه الحارث عند قباء ، ولم يكن يعلم أنه قد أسلم فعاجله ، ونفّذ ما توعده به فقتله ، ووصل خبره إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزلت الآية : { وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَئاً . . . } [النساء : 92] .

ونزلت : { وَمِنَ الناس مَن يِقُولُ آمَنَّا بالله فَإِذَآ أُوذِيَ فِي الله جَعَلَ فِتْنَةَ الناس كَعَذَابِ الله . . . } [العنكبوت : 10] أي : أراد أنْ يفرّ من عذاب الناس فكفر ، ولم يُرد أن يفرّ من عذاب الله ويؤمن .

وقوله تعالى : { وَلَئِنْ جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ . . . } [العنكبوت : 10] أي : اجعلوا لنا سهماً في المغنم { أَوَ لَيْسَ الله بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ العالمين } [العنكبوت : 10] فالله سبحانه يعلم ما يدور في صدورهم وما يتمنونه لنا؛ ولذلك يقول سبحانه عنهم : { لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً . . . } [التوبة : 47] .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَلَيَعْلَمَنَّ الله الذين . . . } .

وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ (11)

نعم ، الحق سبحانه يعلم حال عباده حتى قبل أنْ يخلقوا ، ويعلم ماذا سيحدث لهم ، إنما هناك فَرْق بين علم مُسْبق على الحدث ، وعِلْم بعد أنْ يقع الحدث نفسه؛ لأنه سبحانه لو قال : سأفعل بهم كذا وكذا؛ لأني أعلم ما يحدث منهم لقالوا : لا والله ما كان سيحدث منا شيء؛ لذلك يتركهم حتى يحدث منهم الفعل .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لِلَّذِينَ . . . } .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (12)

وهذا لَوْن من ألوان الإيذاء أن يقول الذين كفروا للذين آمنوا { اتبعوا سَبِيلَنَا . . . } [العنكبوت : 12] أي : ما نحن عليه من دين الآباء والأجداد ، وما نحن عليه من عبادة الأصنام والأوثان ، فنحن نعبد آلهة لا تكاليفَ لها ولا مطلوبات ، وأنتم تعبدون إلهاً له منهج ، وله مطلوبات بافعل كذا ولا تفعل كذا .

فالمعنى : { اتبعوا سَبِيلَنَا . . } [العنكبوت : 12] خُذوا الحكم منا { وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ . . } [العنكبوت : 12] يعني : اعملوا على مسئوليتنا ، وإنْ كانت عليكم خطايا سنحملها عنكم ، وانظر هنا إلى غباء الكافر فقد آمن هو نفسه أن هذه خطيئة ، ومع ذلك يتعرَّض لحملها ، لكن كيف يحملها؟ وكيف يكون هو المسئول عنها أمام الله – عز وجل – حين يحاسبني ربي عليها ويعاتبني على اتباعي له؟ وهل للكافر شفاعة أو قوة يدافع عنها عني في الآخرة؟

لذلك يقول تعالى بعدها : { وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ } [العنكبوت : 12] ويؤكد لنا سبحانه كذبهم أيضاً في قوله تعالى : { إِذْ تَبَرَّأَ الذين اتبعوا مِنَ الذين اتبعوا وَرَأَوُاْ العذاب . . . } [البقرة : 166] .

ويقول التابعون : { رَبَّنَآ أَرِنَا الذين أَضَلاَّنَا مِنَ الجن والإنس نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأسفلين } [فصلت : 29] .

فالمودة التي كانت بينهم في الدنيا تحولتْ إلى عداوة؛ لأنهم اجتمعوا في الدنيا على الضلال ، فتفرقوا في الآخرة ، كما قال سبحانه : { الأخلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ المتقين } [الزخرف : 67] فالمتقي ساعة يرى المتقي في الآخرة يشكره ، ويعترف له بالجميل؛ لأنه أخذ على يديه في الدنيا ، ومنعه من أسباب الهلاك ، فيحبه ويثني عليه ، وربما اعتبره عدوه في الدنيا ، أما أهل الضلال فيلعن بعضهم بعضاً ، ويتبرأ بعضهم من بعض .

إذن : فغباء الكفار بيّن في قولهم : { وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ . . } [العنكبوت : 12] ، كما هو بيّن في قولهم { اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السمآء أَوِ ائتنا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } [الأنفال : 32] .

وكما هو بيّن في قولهم : { لاَ تُنفِقُواْ على مَنْ عِندَ رَسُولِ الله . . . . } [المنافقون : 7] فهم يعرفون أنه رسول الله ، ومع ذلك يمنعون الناس من الإنفاق على الفقراء الذين عنده ، إنه غباء حتى في المواجهة .

وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (13)

وفي موضع آخر : { لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ القيامة وَمِنْ أَوْزَارِ الذين يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَآءَ مَا يَزِرُونَ } [النحل : 25] . فالأثقال هي الأوزار ، فسيحملون أثقالاً على أثقالهم ، وأوزاراً على أوزارهم ، فالأثقال الأولى بسبب ضلالهم ، والأثقال الأخرى بسبب إضلالهم للغير { وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ القيامة عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ } [العنكبوت : 13] والافتراء : تعمُّد الكذب .

وبعد أن تكلم الحق سبحانه عن المقدمات في عمومها ، أراد أن يتكلَّم عنها في خصوص الرسالات ، فقال سبحانه :

{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً . . . } .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (14)

يقول العلماء : إن نوحاً – عليه السلام – هو أول رسل الله إلى البشر ، أما مَنْ سبقه مثل آدم وإدريس عليهما السلام ، فكانوا أنبياء أوحي الله إليهم بشرع يعملون به ، فيكونون نموذجاً إيمانياً ، وقدوة سلوك طيب ، يُقلِّدهم مَنْ رآهم ، لكن لا يُعَدُّ كافراً مَنْ لم يقتدِ بهم ، أما إن اقتدى بهم ثم نكث عن سبيلهم فهو كافر .

لذلك نُفرِّق بين النبي والرسول ، بأن النبي أُوحي إليه بشرع يعمل به ولم يُؤْمر بتبليغه ، أما الرسول فقد أُوحي إليه بشرع وأُمِرَ بتبليغه فكلٌّ منهما مرسل ، لذلك يقول تعالى : { وَمَآ أَرْسَلْنَا

مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ . . . } [الحج : 52] .
إذن : فالنبي أيضاً مُرسَل ، لكنه مُرسَل لذاته .
لكن لماذا كان هذا قبل نوح بالذات؟ قالوا : لأن الرقعة الإنسانية كانت ضيقة قبل نوح ، وكان الناس حديثي عهد ، لم تنتشر بينهم الانحرافات ، فلما اتسعت الرقعة ، وتداخلت أمور الحياة احتاجت الخليقة لأنْ يرسل الله إليهم الرسل .
والحق سبحانه يأتي بهذه اللقطة الموجزة من قصة نوح – عليه السلام – مع أن له سورة مفردة ، وله لقطات كثيرة منثورة في الكتاب العزيز ، لكن هذه اللقطة تأتي لنا بالبداية والنهاية فقط وكأنها برقية (تلغرافية) في مسألة نوح :
{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إلى قَوْمِهِ . . . } [العنكبوت : 14] .
إذن : الرسول جاء من القوم ، وهذا يعني أنهم يعرفونه قبل أن يكون رسولاً ، ويُجرِّبون سلوكه وحركته في الحياة ، ويعرفون خُلقه ، ويعرفون كل تصرفاته ، فليس الرسول بعيداً عنهم أو مجهولاً لهم .
لذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما جهر بالدعوة آمن به الذين يعرفونه عن قُرْب دون أنْ يسألوه عن معجزة تؤيده ، بل بمجرد أنْ قال أنا رسول الله آمنوا به وصدَّقوه واتبعوه .
فسيدنا أبو بكر ، هل سمع من رسول الله قبل أن يؤمن به؟ لا ، إنما بمجرد أن قالوا له : إن صاحبك تنبأ قال : آمنت به ، لماذا؟ لأنه يعرف له سوابق يبني عليها إيمانه بصاحبه ، فما كان محمد ليكون صاحب خُلق عظيم مع الناس ، ثم يكذب على الله .
إذن : ففي كَوْن الرسول من قومه إيناسٌ للخَلْق؛ لذلك لما قالوا : لا نؤمن إلا إذا جاءنا الرسول ملكاً ردَّ عليهم : أأنتم ملائكة حتى ينزل عليكم مَلَك؟
{ قُل لَوْ كَانَ فِي الأرض ملائكة يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السمآء مَلَكاً رَّسُولاً } [الإسراء : 95] .
ولو فُرض أننا أرسلناه مَلَكاً أهم يروْن الملائكة؟ لا يروْنها ، فكيف إذن يُبلِّغ الملَك الناس؟ لا بُدَّ أنْ يأتيهم في صورة بشر ، ولو أتاهم في صورة بشر لقالوا نريد ملَكاً .
وقوله عز وجل : { فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً . . . } [العنكبوت : 14] هذا العدد من الممكن أن يؤدى لمعانٍ كثيرة ، فلم يقُلْ : فلبث فيهم تسعمائة وخمسين عاماً .

وفي الأعداد في القرآن أسرار كثيرة ، واقرأ مثلاً : { وَوَاعَدْنَا موسى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً . . . } [الأعراف : 142] .
وفي آية سورة البقرة قال الحق سبحانه : { وَإِذْ وَاعَدْنَا موسى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً . . . } [البقرة : 51] .

ففي سورة البقرة إجمال ، وفي آية الأعراف تفصيل . والحكمة في هذا أن موسى عليه السلام ما إن ذهب لميقات ربه حتى عبد قومه العجل في مدة الثلاثين ليلة .

ولم يشأ الله أن يترك موسى ليعود لقومه بعد الثلاثين ليلة ، بل أتمها بعشر آخر ، حتى لا يعود موسى ويرى ما فعله قومه ، فكأن العشْرَ زادتْ على الثلاثين ليلة ، ليعطيك الصورة الأخيرة الموجودة في سورة البقرة .

فالمسألة في منتهى الدقة ، ولو لم يأْتِ بالاستثناء في قوله : { إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً . . . } [العنكبوت : 14] فربما يظن السامع أن المسألة تقريبية ، لكن التقريب في عَدِّ البشر ، أما في حساب الحق سبحانه فهو منتهى الدقة ، كما لو سُئلت مثلاً عن الساعة ، فتقول : الساعة العاشرة إلا دقيقة ونصفاً ، يعني : منتهى ما في استطاعتك من حساب الوقت .

فإن قلت : فلماذا هذه اللقطة السريعة من قصة نوح عليه السلام؟ نقول : هي لتسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن قومه وقفوا منه موقف العداء والمكابرة والتكذيب ، وآذوْا أصحابه ، وضيَّقوا الخِنَاق على دعوته ، وقد طالتْ هذه المسألة حتى أخذت ثلاث عشرة سنة من عمر الدعوة ، فسلاَّه ربه : اصبر يا محمد ، فقد صبر زميل لك في الدعوة ألف سنة إلا خمسين عاماً ، يعني مدة المشقة التي تحملتها مازالت بسيطة هيِّنة ، وقد تحمَّل أولو العزم من الرسل أكثر من ذلك .

ونلحظ هنا { أَلْفَ سَنَةٍ . . . } [العنكبوت : 14] ثم استثنى منها { إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً . . . } [العنكبوت : 14] ولم يقُلْ خمسين سنة ، فاستثنى الأعوام من السنين ، ليدلَّك على أن السنة تعني أيَّ عام ، ويُرفَع الخلاف؛ لأن البعض يقول : إن السنة هي التي تبدأ من أول المحرم إلى آخر ذي الحجة ، في حين أن السنة ليس من الضروري أنْ تبدأ بالمحرم وتنتهي بذي الحجة ، إنما تبدأ في أي وقت وتنتهي في مثله بعد عام كامل .

فحين نقول : فلان عمره مثلاً عشرون سنة ، أي : من يوم مولده إلى مثله عشرين مرة ، وكذلك العام . إذن : السنة والعام والحجة ، كلها سواء أردتَ الحساب بالسنة الشمسية ، أو القمرية ، أو غيرها كما تحب .

ومعلوم أن التوقيتات عندنا توقيتات هلالية بالشهر العربي؛ لأن الشمس لا يُعرف من حركتها إلا اليوم ، إنما لا نعرف منها الشهر ، الشهر نعرفه بحركة القمر حين يُولَد الهلال ، وبالشهر نحسب السنة التي هي أثنا عشر شهراً قمرياً وتزيد أحد عشر يوماً في السنة الشمسية .

وكأن الحق سبحانه أراد أنْ يُعْلمنا أن السنة هي العام ، لا فَرْق بينهما ، ولا داعي للجاج في هذه المسألة .

ثم يذكر سبحانه نهاية هؤلاء القوم الذين كذّبوا : { فَأَخَذَهُمُ الطوفان وَهُمْ ظَالِمُونَ } [العنكبوت : 14] فالعلة في أخذهم ، لا لأنهم أعداء ، بل لأنهم ظالمون لأنفسهم بالكفر ، وهكذا تنتهي القصة أو اللقطة في آية واحدة الغرض منها تسلية النبي صلى الله عليه وسلم ، إنْ أبطأ نَصْره على الكفار .

وكلمة { فَأَخَذَهُمُ . . . } [العنكبوت : 14] الأخْذ فيه دليل على الشدة وقوة التناول ، لكن بعنف أو بغير عنف؟ إنْ كان الأخذ لخصْم فهو أخْذ بعنف وشدة ، وإنْ كان لغير خَصْم كان بلطف .

والطوفان : أن يزيد الماء عن الحاجة الرتيبة للناس ، فبعد أنْ كان وسيلة حياة ، ومنه كل شيء حتى يصبح وسيلة موت وهلاك ، وكأن الحق – سبحانه وتعالى – يريد أنْ يلفت أنظارنا إلى المتقابلات في الخَلْق حتى لا نظنَّ أن الخَلْق يسير برتابة .

فسيدنا موسى – عليه السلام – ضرب البحر بالعصا ، فتجمَّد فيه الماء حتى صار كالجبل ، وضرب بها الحجر فانبجس منه الماء .

إنها طلاقة القدرة التي لا تعتمد على الأسباب ، فالمسبِّب هو الله سبحانه يفعل ما يشاء ، فليست الأشياء بأسبابها ، إنما بمراد المسبِّب فيها؛ لذلك يقول أحمد شوقي في قصيدة النيل :

مِنْ أيّ عَهْدٍ في القُرَى تتدفقُ ... وبأيّ كفٍّ في المدائن تُغْدِقُ

ومِنَ السماءِ نزلْتَ أم على ... الجِنَان جداولاً تترقرقُ

إلى أنْ يقول :

الماء تَسْكُبه فَيْصبح عَسْجَداً ... والأرضُ تُغرقُها فيحيَا المغْرَقُ

والمأخوذ هنا هم المكذِّبون لنوح – عليه السلام – الذين ظلموا أنفسهم لما كذَّبوا رسولهم ، ولم يستمعوا للهدى ، ثم يُنجِّي الله نوحاً – عليه السلام – بالسفينة التي قال الله عنها في سورة هود : { وَقَالَ اركبوا فِيهَا بِسْمِ الله مجراها وَمُرْسَاهَا . . . } [هود : 41] .

وقد أمره الله بصناعة السفينة : { واصنع الفلك بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الذين ظلموا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ } [هود : 37] فكان نوح – عليه السلام – على علم بعاقبة المكذِّبين الظالمين من قومه ، واحتفظ بها في نفسه ، وهو يصنع السفينة كما أمره ربه .

لكن ، أكانت السفينة شيئاً معروفاً لهؤلاء القوم ، ولها مثال سابق لديهم؟ لا ، لم يكونوا يعرفون السفن ، بدليل أنهم تعجَّبوا من فعْل نوح ، وسخروا منه وهو يصنعها { وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ . . . } [هود : 38] فكان يردُّ عليهم في نفسه : { إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ } [هود : 38] فهو يعلم عاقبتهم وما يُبيِّته الله لهم .

والحق سبحانه يعطينا هذه اللقطة من قصة نوح – عليه السلام – لكي نجول في كل اللقطات ، ونستحضر مواطن العبرة فيها ، وفي قصة نوح مسائل كثيرة نستفيدها ، فقد كان القوم يعبدون

الأصنام : وداً ، وسواعاً ، ويغوث ، ويعوق ، ونسراً ، ومنها نعلم أن ودادة الأنبياء ودادة قيم ومنهج ، وودادة أعمال واقتداء ، وأن أنسابهم أنساب تقوى وورع .
فنبوّة نوح لم تمنع ولده الضالّ من الغرق ، حتى بعد أنْ دعا الله : { رَبِّ إِنَّ ابني مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الحق . . . }

[هود : 45] فيعطيه الله الحكم في هذه المسألة ، ويُصحِّح له : { إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ . . . } [هود : 46] .
وليس معنى ذلك أن أمه أتتْ به من الحرام والعياذ بالله؛ لأن الله تعالى ما كان ليُدلِّس على نبي من أنبيائه ، إنما هي كانت من الخائنين ، وخيانتها أنها كانت تفشي أسراره لخصومه ، وتخبرهم خبره؛ لذلك يقول تعالى عنها في سورة التحريم : { ضَرَبَ الله مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ امرأت نُوحٍ وامرأت لُوطٍ . . . } [التحريم : 10] .
ويُبيِّن الحق سبحانه العلة في قوله : { إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ . . . } [هود : 46] بقوله : { إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ . . . } [هود : 46] حتى لا تذهب بنا الظنون في زوجة نبي الله ، فالعلة أنه عمل غير صالح ، وبنوة الأنبياء بُنوَّة عمل ، لا بُنوَّة نَسَب .
ثم يقول الحق سبحانه : { فَأَنْجَيْنَاهُ وأَصْحَابَ السفينة . . . . } .

فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (15)

أي : فأنجينا نوحاً عليه السلام { وأَصْحَابَ السفينة . . . } [العنكبوت : 15] هم الذين يركبون معه فيها ، فهم أصحابها ، وقد صُنعت من أجلهم ، لم يصنعها نوح لذاته ، إنما صنعها لقومه الذين تعجَّبوا من صناعته لها وسَخروا منه واستهزأوا به ، فهم أصحابها في الحقيقة ، مَنْ آمن منهم ركب فيها ، ومَنْ كفر أبى وأعرض ، فكانت نهايته الغرق .
ونفهم من هذه القضية أن الحق سبحانه حينما يطلب من المؤمن شيئاً يعطيه لِمَنْ لا يجد ذلك الشيء ، سواء كان عِلْماً أو مالاً أو قدرة . . إلخ افهم أنها حق له ، وليستْ تفضلاً عليه ، فلما صنع نوح السفينة جعلها الله من حق القوم فقال { وأَصْحَابَ السفينة . . . } [العنكبوت : 15] فهي حقٌّ لهم ، فليس المراد منها أن يصنعها مثلاً ، ويُؤجرها لهم ، لا بل هو يصنعها من أجلهم .
وكذلك قوله تعالى : { والذين في أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ } [المعارج : 24] وقد ورد هذا الحق في المال مرتين في القرآن الكريم ، مرة { حَقٌّ مَّعْلُومٌ } [المعارج : 24] ، ومرة أخرى { حَقٌّ لَّلسَّآئِلِ والمحروم } [الذاريات : 19] دون أن يحدد مقداره ، ودون أنْ يُوصف بالمعلومية .
وقد سمَّاهما الله حقاً ، فالمعلوم هو الزكاة الواجبة في مقام الإيمان ، وغير المعلوم هي الصدقة؛ لأنها

لا تخضع لمقدار معين ، بل هي حَسْب أريحية المؤمن وحُبه للطاعات ، ودخوله في مقام الإحسان الذي قال الله فيه : { إنَّ المتقين فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَآ آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُواْ قَلِيلاً مِّن الليل مَا يَهْجَعُونَ * وبالأسحار هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وفي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ والمحروم } [الذاريات : 15-19] وهذه الزيادة في العبادات دليل على عِشْق التكليف وحُبِّ الطاعة والثقة بأن الله تعالى ما كلَّفنا إلا بأقلّ مما يستحق سبحانه من العبادة؛ لذلك يقول العلماء : إياك أنْ تنتقل إلى هذا المقام وتُلزِم به نفسك ، أو تجعله نَذْراً؛ لأنك إنْ فعلتَ صار في حقك فرضاً لا تستطيع أنْ تُنقِص منه .

إنما جعله لنشاطك ومقدرتك؛ لأنك إنْ تعوّدت على منهج وألزمت نفسك به ثم تراجعت ، فكأنك تقول كلمة لا ينبغي أنْ تُقال ، فكأنك – والعياذ بالله – جربت وُدّك لله فلم تجده – والعياذ بالله – أهلَ وُدٍّ فتركته .

إذن : فقوله سبحانه { وأَصْحَابَ السفينة . . . } [العنكبوت : 15] يدلنا على أنها صُنِعَتْ بأمر الله من أجلهم ، وبفراغ نوح من صناعتها كانت حقاً لهم ، لا مِلْكاً له عليه السلام .

لكن كيف نفهم { وأَصْحَابَ السفينة . . . } [العنكبوت : 15] وقد حمل فيها نوح – عليه السلام – من كُلٍّ زوجين اثنين؟ قالوا : الزوجان من غير البشر ليس لهما صُحْبة؛ لأنهما مملوكان لأصحاب الصُّحْبة .

وقوله سبحانه : { وَجَعَلْنَاهَآ آيَةً لِّلْعَالَمِينَ } [العنكبوت : 15] أي : أمراً عجيباً لم يسبق له مثيل في حياة الناس ، فقد صنعها نوح – عليه السلام – بوحي من ربه على غير مثال سابق ، فوجه كَوْنها آية أن الله تعالى أعلمه وعلّمه صناعتها؛ لأن لها مهمة إيمانية عنده ، فبها نجاة المؤمنين وغَرَق الكافرين ، وهذه الآية { لِّلْعَالَمِينَ } [العنكبوت : 15] جميعاً .

ثم يذكر الحق سبحانه إبراهيم عليه السلام ، فيقول : { وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعبدوا . . . } .

وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (16)

الواو هنا لعطف الجمل ، فالآية – معطوفة على { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً . . . } [العنكبوت : 14] إذن : فنوح وإبراهيم واقعتان مفعولاً به للفعل أرسلنا ، وللسائل أنْ يسأل : لماذا لم تُنوَّن إبراهيم كما نُوِّنت نوح؟ لم تُنوَّن كلمة إبراهيم؛ لأنها اسم ممنوع من الصرف – أي من التنوين – لأنه اسم أعجمي .

ونلحظ في هذه المسألة أن جميع أسماء الأنبياء أسماء أعجمية تُمنع من الصرف ، ما عدا الأسماء التي تبدأ بهذه الحروف (صن شمله) وهي على الترتيب : صالح ، نوح ، شعيب ، محمد ، لوط ، هود . فهذه الأسماء مصروفة مُنوَّنة ، عليهم جميعاً الصلاة والسلام .

والمعنى : { وَإِبْرَاهِيمَ . . . } [العنكبوت : 16] يعني : واذكر إبراهيم { إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعبدوا

الله واتقوه . . . } [العنكبوت : 16] وقلنا : العبادة أنْ يطيع العابدُ المعبودَ في أوامره ونواهيه ، إذن : لو جاء مَنْ يدَّعي الألوهية ، وليس له أمر نؤديه ، أو نهي نمتنع عنه فلا يصلح إلهاً .
لذلك كذب الذين قالوا : { مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى الله زلفى . . . } [الزمر : 3] لأنهم ما عبدوا الأصنام إلا لأنها ليست لها أوامر ولا نواه ، فألوهيتهم (منظرية) بلا تكليف ، فأول الأدلة على بطلان عبادة هذه الآلهة المدَّعاة أنها آلهة بلا منهج .
ثم عطف الأمر { واتقوه . . . } [العنكبوت : 16] على { اعبدوا . . . } [العنكبوت : 16] والتقوى من معانيها أنْ تطيع الأوامر ، وتجتنب النواهي ، فهي مرادفة للعبادة ، لكن إنْ عطفت على العبادة فتعني : نفِّذوا الأمر لتتقوا غضب الله ، اجعلوا بينكم وبين صفات الجلال وقاية .
وسبق أنْ قلنا : إن لله تعالى صفات جلال : كالقهار ، الجبار ، المنتقم ، المذلّ . . إلخ . وصفات جمال : كالغفار ، الرحمن ، الرحيم ، التواب ، وبالتقوى تنال متعلقات صفات الجمال ، وتمنع نفسك وتحميها من متعلقات صفات الجلال .
وقوله تعالى : { ذلكم خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ } [العنكبوت : 16] ذلكم ، أي ما تقدَّم من الأمر بالعبادة والتقوى خير لكم ، فإنْ لم تعلموا هذه القضية فلا خيرَ في علمكم ، كما قال تعالى : { ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الحياة الدنيا . . . } [الروم : 6-7] .
فالعلم الحقيقي هو العلم بقضايا الآخرة ، العلم بالأحكام وبالمنهج الذي يعطيك الخير الحقيقي طويل الأمد على خلاف علم الدنيا فإنْ نلتَ منه خيراً ، فهو خير موقوت بعمرك فيها .
وسبق أنْ قُلْنا : إن العلم هو إدراك قضية كونية تستطيع أن تدلل عليها ، وهذا يشمل كل معلومة في الحياة . أي : العلم المادي التجريبي وآثار هذا العلم في الدنيا ، أما العلم السامي الأعلى فأنْ تعلم المراد من الله لك ، وهذا للآخرة .
واقرأ في ذلك مثلاً قوله تعالى : { أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله أنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الجبال جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ الناس والدوآب والأنعام مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى الله مِنْ عِبَادِهِ العلماء إِنَّ الله عَزِيزٌ غَفُورٌ }

[فاطر : 27-28] .
فذكر سبحانه علم النبات والجماد و { وَمِنَ الناس . . } [فاطر : 28] أي : علم الإنسانيات { والدوآب . . . } [فاطر : 28] علم الحيوان ، وهكذا جمع كل الأنواع والأجناس ، ثم قال سبحانه : { إِنَّمَا يَخْشَى الله مِنْ عِبَادِهِ العلماء . . . } [فاطر : 28] مع أنه سبحانه لم يذكر هنا أيَّ حكم شرعي .

إذن : المراد هنا العلماء الذين يستنبطون قضية يقينية في الوجود ، كهذه الاكتشافات التي تخدم حركة الحياة ، وتدلُّ الناس على قدرة الله ، وبديع صُنْعه تعالى ، وتُذكِّرهم به سبحانه .

وتأمل في نفسك مثلاً وَضْع القصبة الهوائية بجوار البلعوم ، وكيف أنك لو شرقت بنصف حبة أرز لا تستريح إلا بإخراجها ، وتأمل ، وَضْع اللهاة وكيف تعمل تلقائياً دون قَصْد منك أو تحكم فيها .

تأمل الأهداب في القصبة الهوائية ، وكيف أنها تتحرك لأعلى تُخرج ما يدخل من الطعام لو اختلَّ توازن اللهاة ، فلم تُحكِم سدَّ القصبة الهوائية أثناءَ البلع .

تأمل حين تكون جالساً مطمئناً لا يقلقك شيء ، ثم في لحظة تجد نفسك محتاجاً لدورة المياه ، ماذا حدث؟ ذلك لأن في مجرى الأمعاء ما يشبه (السقاطة) التي تُخرج الفضلات بقدر ، فإذا زادتْ عما يمكن لك تحمله ، فلا بُدَّ من قضاء الحاجة والتخلص من هذه الفضلات الزائدة .

تأمل الأنف وما فيه من شعيرات في مدخل الهواء ومُخَاط بالداخل ، وأنها جُعلت هكذا لحكمة ، فالشعيرات تحجز ما يعلَق بالهواء من الغبار ، ثم يلتقط المخاط الغبارَ الدقيق الذي لا يعلق بالشعيرات ليدخل الهواء الرئتين نقياً صافياً ، تأمل الأذن من الخارج وما فيها من تعاريج مختلفة الاتجاهات ، لتصدَّ الهواء ، وتمنعه من مواجهة فتحة الأذن .

والآيات في جسم الإنسان كثيرة وفوق الحَصْر ، ولا سبيلَ إلى معرفتها إلا باستنباط العلماء لها ، وكشفهم عنها ، وهذا من نشاطات الذهن البشري ، أما العلم الذي يخرج عن نطاق الذِّهْن البشري فهو نازل من أعلى ، وهو قانون الصيانة الذي جعله الخالق سبحانه لحماية الخَلْق ، فالذي يأخذ بالعلم الدنيوي التجريبي فقط يُحرَم من الخير الباقي؛ لأن قصارى ما يعطيك علم المادة في البشر أنْ يُرفه حياتك المادية ، أمّا علم الآخرة فيُرفِّه حياتك الدنيا ويبقى لك في الآخرة .

إذن : فقوله تعالى : { ذلكم خَيْرٌ لَّكُمْ . . . } [العنكبوت : 16] أي : قانون الصيانة الرباني بافعل كذا ولا تفعل كذا ، وإياك أنْ تنقل مدلول (افعل) في (لا تفعل) أو مدلول (لا تفعل) في (افعل) ، وقد شبَّهنا هذا القانون (بالكتالوج) الذي يجعله الصانع لحماية الصنعة المادية لتؤدي مهمتها على أكمل وجه ، كذلك منهج الله بالنسبة للخَلْق ، فإنْ لم تعلموا هذه القضية فلن ينفعكم علم بعد ذلك .

يقول سبحانه : { مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخرة نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدنيا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخرة مِن نَّصِيبٍ } [الشورى : 20] .

إذن : فالخير الباقي هو الخير في الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه : { إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله أَوْثَاناً . . . } .

إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (17)

قوله تعالى : { إِنَّمَا تَعْبُدُونَ . . . } [العنكبوت : 17] أي : على حَدِّ زعمهم ، وعلى حَدِّ قولهم : { مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى الله زلفى . . . } [الزمر : 3] ، وإلا فلا عبادة لهذه الآلهة ، حيث لا أمر عندهم ولا نهي ولا منهج ، فعبادتهم إذن باطلة .

وهم يعبدون الأوثان من دون الله فإنْ ضُيِّق عليهم الخِنَاق قالوا : { مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى الله زلفى . . . } [الزمر : 3] فهم بذلك مشركون ، ومن لم يَقُلْ بهذا القول فهو كافر .

والوثن : ما نُصِب للتقديس من حجر ، أياً كان نوعه : حجر جيري ، أو جرانيت ، أو مرمر . أو كان من معدن : ذهب أو فضة أو نحاس . . إلخ أو من خشب ، وقد كان البعض منهم يصنعه من (العجوة) ، فإنْ جاع أكله ، وقد حَكَى هذا على سبيل التعجُّب سيدنا عمر رضي الله عنه .

وبأيِّ عقل أو منطق أنْ تذهب إلى الجبل وتستحسن منه حجراً فتنحته على صورة معينة ، ثم تتخذه إلهاً تعبده من دون الله ، وهو صَنْعة يدك ، وإنْ أطاحتْ به الريح أقمتَه ، وإنْ كسرته رُحْت تُصلح ما تكسَّر منه وترُمِّمه ، فأيُّ عقل يمكن أن يقبل هذا العمل؟

لذلك يخاطبهم القرآن : { قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ } [الصافات : 95] وكلما تقدَّم العالم تلاشتْ منه هذه الظاهرة؛ لأنها مسألة لم تَعُدْ تناسب العقل بأية حال .

ومعنى { وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً . . . } [العنكبوت : 17] أي : توجدون ، والإيجاد يكون من عدم ، فهم يُوجدون من عدم ، لكن أيُوجدون صِدْقاً؟ أم يُوجدون كذباً؟ إنهم يُوجدون { إِفْكاً . . . } [العنكبوت : 17] والإفك تعمُّد الكذب الذي يقلب الحقائق ، ومن ذلك قوله سبحانه : { والمؤتفكة أهوى } [النجم : 53] أي : القرى التي كفأها الله على نفسها .

وسبق أن أوضحنا أن الحقيقة هي القضية الصادقة التي توافق الواقع ، فلو قُلْت مثلاً : محمد كريم ، فلا بُدَّ أن هناك شخصاً اسمه محمد وله صفة الكرم ، فإنِ اختلف الواقع فلم يوجد محمد أو وُجِد ولم تتوفر له صفة الكرم ، فالقضية كاذبة لأنها مخالفة للواقع ، هذا هو الإفك .

فالحق سبحانه لا يعيب عليهم الخَلْق؛ لأنه أثبت للعباد خَلْقاً ، فقال سبحانه : { فَتَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الخالقين } [المؤمنون : 14] .

والفَرْق أنك تخلق من موجود ، أما الحق سبحانه فيخلق من العدم ، فأنت تُوجِد الثوب من القطن مثلاً ، وكوبَ الزجاج من الرمل ، والمحراث من الحديد . . إلخ فأوجدت معدوماً عن موجود سابق ، أما الخالق سبحانه فأوجد معدوماً عن لا موجود .

وسبق أنْ أوضحنا أن صَنْعة البشر تجمد على حالها ، فالسكين مثلاً يظل سكيناً فلا يكبر ، حتى

يصير ساطوراً مثلاً ، والكوب لا يلد لنا أكواباً أخرى . لكن خِلْقة الله سبحانه لها صفة النمو والحياة والتكاثر . . إلخ؛ لذلك أنصفك الله فوصفك بأنك خالق ، لكن هو سبحانه أحسن الخالقين .

إذن : الحق سبحانه لا يعيب على هؤلاء أنهم يخلقون ، إنما يعيب عليهم أنْ يخلقوا إفْكاً وكذباً .

ثم يقول سبحانه : { إِنَّ الذين تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فابتغوا عِندَ الله الرزق . . . } [العنكبوت : 17] في موضع آخر بيَّن لهم الحق سبحانه أنهم يعبدون آلهة لا تضر ولا تنفع ، وهنا يذكر مسألة مهمة هي استبقاء الحياة للإنسان بالقُوت الذي نسميه الرزق ، فهذه الآلهة التي تعبدونها من دون الله لا تملك لكم رزقاً ، ولو امتنع عنكم المطر وأجدبت الأرض لمتُّم من الجوع .

إذن : كان عليكم أنْ تتأملوا : من أين تأتي مقومات حياتكم ، ومَنْ صاحب الفضل فيها ، فتتوجَّهون إليه بالعبادة والطاعة ، كما نقول في المثل (اللي ياكل لقمتي يسمع كلمتي) إنما أُطعمك وتسمع لغيري؟!!

والرزق هو الشُّغل الشاغل عند الناس ، ففي أول الأمر كلنا يجتهد لنأكل ونشرب ونعيش ، فلما تتحسَّن الأمور نرغب للمستقبل ، فالموظف مثلاً يدخر لشهر ، والزارع يدخل للعام كله .

ومن أعاجيب هذه المسألة أنك تجد الإنسان والفأر والنمل هم الوحيدون بين مخلوقات الله التي تدخر للمستقبل ، أما بقية الحيوانات فتأخذ حاجتها من الطعام فقط ، وتترك الباقي دون أنْ تهتمَّ بهذه المسألة ، أو تُشغَل برزق غد أبداً ، لا يأكل أكثر من طاقته ، ولا يدخر شيئاً لغده .

لذلك يُذكِّر الله عباده بمسألة الرزق لأهميتها في حياتهم ، ومن عجيب أمر الرزق أنه أعرَفُ بمكانك وعنوانك ، منك بمكانة وعنوانه ، فإنْ قُسِم لك الرزق جاءك بطرق عليك الباب ، وإنْ حُرمت منه أعياك طلبه .

ومن أوضح الأمثلة على أن الرزق مقسوم مقدَّر من الله لكل منا أن المرأة حين تحمل يمتنع عنها الحيض الذي كان يأتيها بشكل دوريٍّ قبل الحمل ، فأين ذهب هذا الدم؟ هذا الدم هو رزق الجنين في بطن أمه لا يأخذه ولا يستفيد به غيره حتى الأم .

فإنْ قُدِّر الجنين تحول هذا الدم إلى غذاء له خاصة ، فإنْ لم يُقدَّر للأم أنْ تحمل نزل منها هذا الدم على صورة كريهة ، لا بُدّ من التخلص منه؛ لأنه ضار بالأم إنْ بقي لا بُدَّ من نزوله ، لأنه ليس رزقها هي ، بل رزق ولدها في أحشائها ، ولو لم يكُنْ هذا الدم رِزْقاً للجنين لكانت الأم تضعف كلما تكرَّرت لها عملية نزول الدم بهذه الصورة الدورية . إذن : لكل منا رِزْق لا يأخذه غيره .

لذلك يقول أحد الصالحين : عجبتُ لابن آدم يسعى فيما ضُمِن له ويترك ما طُلِب منه .

فربك قد ضمن لك رزقك فانظر إلى ما طُلِب منك ، واشغل نفسك بمراد الله فيك؛ لذلك نتعجب من هؤلاء المتسولين الذين كنا نراهم مثلاً في مواسم الحج ، وشرُّهم مَنْ يعرضون عاهاتهم وعاهات أبنائهم على الناس يتسولون بها ، وكأنهم يشتكون الخالق للخَلْق ، ويتبرَّمون بقضاء الله ، والله تعالى لا يحب أن يشكوه عبده لخلقه .

والنبي صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا بليتم فاستتروا »

ووالله لو ستر أصحاب البلاء بلاءهم ، وقعدوا في بيوتهم لَساقَ الله إليهم أرزاقهم إلى أبوابهم .

إذن : الرزق مضمون من الله؛ لذلك يمتنُّ به على عباده وينفيه عن هذه الآلهة الباطلة { لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فابتغوا عِندَ الله الرزق . . . } [العنكبوت : 17] ثم يقول سبحانه : { واعبدوه واشكروا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } [العنكبوت : 17] فإنْ لم تعبدوه لأنه يرزقكم ويطعمكم ، فاعبدوه لأن مرجعكم إليه ووقوفكم بين يديه .

وكان يكفي أن نعمه عليكم مُقدَّمة على تكليفه لكم ، لقد تركك تربع في نعمه دون أنْ يُكلِّفك شيئاً ، إلى أنْ بلغتَ سِنَّ الرشد ، وهي سِنُّ النُّضْج والبلوغ والقدرة على إنجاب مثلك ، ثم بعد ذلك تقابل تكليفه لك بالجحود؟ إن عبادة الله وطاعته لو لم تكن إلا شُكْراً له سبحانه على ما قدَّمه لك لكانت واجبة عليك .

وقوله تعالى : { واشكروا . . . } [العنكبوت : 17] لأن ربكم عز وجل يريد أن يزيدكم ، فجعل الشكر على النعمة مفتاحاً لهذه الزيادة ، فقال سبحانه : { لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ . . . } [إبراهيم : 7] فربُّك ينتظر منك كلمة الشكر ، مجرد أن تستقبل النعمة بقولك الحمد لله فقد وجبت لك الزيادة .

حتى أن بعض العارفين يرى أن الحمد لا يكون على نِعَم الله التي لا تُعَدَّ ولا تُحصى فحسب ، إنما يكون الحمد لله على أنه لا إله إلا الله ، وإلا لو كان هناك إله آخر لَحِرْنا بينهما أيهما نتبع ، فالوحدانية من أعظم نعم الواحد سبحانه التي تستوجب الشكر .

وقد أعطانا الحق سبحانه مثلاً لهذه المسألة بقوله سبحانه : { ضَرَبَ الله مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَاكِسُونَ . . . } [الزمر : 29] يعني : مملوك لشركاء مختلفين ، وليتهم متفقون { وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ . . . } [الزمر : 29] أي : مِلْك لسيد واحد { هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً . . . } [الزمر : 29] فكذلك الموحِّد لله ، والمشرك به .

ولذلك يقول بعض الصالحين في قوله تعالى : { ياأيها الذين آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ . . . } [البقرة : 172] فاللص الذي يأكل من الحرام يأكل رزقه ، فهو رزقه لكنه من الحرام ، ولو صبر على السرقة لأكله من الحلال ولسَاقه الله إليه .

فالمعنى أن الله خلقكم ورزقكم ، ولا يعني هذا أنْ تُفلِتوا منه ، فإنْ لم تُراعوا الجميل السابق فخافوا مما هو آتٍ .

وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (18)

قوله تعالى : { وَإِن تُكَذِّبُواْ . . . } [العنكبوت : 18] أي : ما قلنا لكم وما جاءكم به رسولنا؛ لأن تصديقه سيُدخلكم مدخل التكليف ، ويحملكم مشقة المنهج ، وسيُضيِّق عليكم منطقة الاختيار ، والحق سبحانه قد شرَّفك حين أعطاك حرية الاختيار ، في حين أن الكون كله لا اختيارَ له؛ لأنه تنازل عن اختياره لاختيار ربه .

كما قال سبحانه : { إِنَّا عَرَضْنَا الأمانة عَلَى السماوات والأرض والجبال فَأبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنسان إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً } [الأحزاب : 72] .

فالكون كله مسخر يؤدي مهمته ، كما يقول سبحانه : { وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ . . . } [الإسراء : 44] .

وقال سبحانه : { أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدوآب وَكَثِيرٌ مِّنَ الناس وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العذاب . . . } [الحج : 18] فالقاعدة عامة ، لا استثناء فيها ، إلا عند الإنسان ، فمنهم الطائع ومنهم العاصي .

فالمعنى : { وَإِن تُكَذِّبُواْ . . . } [العنكبوت : 18] فلستم بدعاً في التكذيب { فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ . . . } [العنكبوت : 18] لكن يجب عليكم أن تتنبهوا إلى ما صنع بالأمم المكذِّبة ، وكيف كانت عاقبتهم ، فاحذروا أنْ يُصيبكم ما أصابهم ، هذه هي المسألة التي ينبغي عليكم التنبُّه لها .

وهنا وقف بعض المتمحكين يقول : كيف يقول القرآن في خطاب قوم إبراهيم { وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ . . . } [العنكبوت : 18] مع أنه لم يسبقهم إلا أمة واحدة هي أمة نوح عليه السلام؟ يظنون أنهم وجدوا مأخذاً على القرآن .

ونقول : نعم ، كانت أمة نوح هي أمة الرسالة المقصودة بالإيمان ، لكن جاء قبلها آدم وشيث وإدريس ، وكانوا جميعاً في أمم سابقة على إبراهيم ، أو نقول : لأن مدة بقاء نوح في قومه طالت حتى أخذت ألف سنة من عمر الزمان ، وهذه الفترة تشمل قُرَابة العشرة أجيال ، والجيل – كما قالوا – مائة سنة ، كل منها أمة بذاتها .

ثم يقول تعالى : { وَمَا عَلَى الرسول إِلاَّ البلاغ المبين } [العنكبوت : 18] فمهمته مجرد البلاغ . يؤمن به مَنْ يؤمن ، ويكفر مَنْ يكفر ، الرسول لن نعطيه مكافأة أو عمولة على كل مَنْ يؤمن به ، فإياكم أنْ تظنوا أنكم بكفركم تُقلِّلون من مكافأة النبي – خاصة وقد كانوا كارهين له – فالمعنى : عليَّ البلاغ فحسب ، وقد بلَّغت فسآخذ جزائي وأجري من ربي ، فأنتم لا تكيدونني

بكفركم ، بل تكيدون أنفسكم .

لذلك كان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يحزن أشد الحزن ، ويألم إنْ تفلَّت من يده واحد من أمته فكفر ، حتى خاطبه ربه : { لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ ولكن الله يَهْدِي مَن يَشَآءُ . . . } [البقرة : 272] .

وخاطبه بقوله : { لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ } [الشعراء : 3] .

وحين نزل عليه صلى الله عليه وسلم : { والضحى * والليل إِذَا سجى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قلى * وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأولى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فترضى } [الضحى : 1–5] انتهز النبي هذه الفرصة ودعا ربه : إذن لا أرضى وواحد من أمتي في النار؛ ذلك لأنه صلى الله عليه وسلم مُحبٌّ لأمته ، حريص عليهم ، رؤوف رحيم بهم : { لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بالمؤمنين رَءُوفٌ رَّحِيمٌ } [التوبة : 128] .

ووصف الحق سبحانه البلاغ بأنه مبين ، أي : واضح ظاهر؛ لأن من البلاغ ما يكون مجرد عرض للمسألة دون تأكيد وإظهار للحجة التي تؤيد البلاغ .

ثم يقول الحق سبحانه : { أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ الله الخلق . . . } .

أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (19)

الخطاب هنا مُوجَّه إلى أمة محمد صلى الله عليه وسلم : هؤلاء الذين كذبوا من قبل ، وأنتم الذين تكذبون الآن ، فأين عقولكم؟ لو استعملتم عقولكم في تأمل الكون الذي تعيشون فيه ، والذي طرأتُم عليه ، وقد أُعِدَّ لكم بكل مُقوّمات حياتكم .

{ أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ الله الخلق . . . } [العنكبوت : 19] ويرى هنا بمعنى يعلم ، كما في قوله تعالى : { أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفيل } [الفيل : 1] أي : ألم تعلم؛ لأن رسول الله لم يَرَ حادثة الفيل ، وعدل عن (تعلم) إلى (ترى) ليلفت أنظارنا إلى أن إخبار الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم أوثق له من رؤيته بعينه .

ومن ذلك قول الصِّدِّيق أبي بكر لما سمع بحادث الإسراء والمعراج قال : « إنْ كان قال فقد صدق » .

والهمزة في { أَوَلَمْ يَرَوْاْ . . . } [العنكبوت : 19] استفهام للتقرير ، كما تقول لولدك : ألم تَرَ إلى فلان الذي أهمل دروسه ، تريد أنْ تنكر عليه أنْ يُهمل هو أيضاً ، فتقرره بعاقبة الإهمال ، وتدعه ينطقه بلسانه ، فيقول لك : الذي أهمل دروسه رَسَب .

وكما تقول لمَنْ أنكر جميلك : ألم أُحسِن إليك بكذا وكذا ، فيُقِر بها هو بدل أنْ تعددها له أنت ، فهذا أبلغ في الاعتراف .

فساعة يأتي بعده الهمزة نَفْي يسمونه استفهاماً إنكارياً ، تنكر ما هم عليه ، وتريد أن تقررهم بما

يقابله . والنفي بعد الإنكار نفي للنفي ، ونفي النفي إثبات .
فالمعنى : أيكذبون ولم يَرَوْا ما حدث للأمم المكذِّبة من قبل؟ أيكذبون ولم يَروْا آيات الله ، وقدرته شائعة في الوجود كله؟ لقد كان عليهم أن ينظروا نظرة اعتبار ليعلموا مَنْ خلق هذا الخَلْق ، وإنك لو سألتهم : مَنْ خلق هذا الكون لا يجدون جواباً ، ولا يملكون إلا أنْ يقولوا : الله ، كما حكى القرآن : { وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض لَيَقُولُنَّ الله . . . } [لقمان : 25] .
لكن ، كيف يُقِرُّون بهذه الحقيقة ويعترفون بها ، مع أنهم كافرون بالله؟ قالوا : لأنها مسألة أظهر مَن أنْ ينكرها منكر ، فكل صاحب صنعة مهما كانت ضئيلة يفخر بها وينسبها إلى نفسه ، بل وينسب إلى نفسه ما لم يصنع ، فما بالك بكَوْنٍ أُعِدَّ بهذه الدقة وبهذه العظمة ، ولم يدعه أحد لنفسه؟ والدعْوى تثبت لصاحبها ما لم يَقُمْ لها معارض .
لذلك قلنا : إن الحق سبحانه قبل أن يقول لا إله إلا أنا ، وقبل أن يطلبها منا شهد بها لنفسه تعالى : { شَهِدَ الله أَنَّهُ لاَ إله إِلاَّ هُوَ . . . } [آل عمران : 18] ؛ لأن هذه الشهادة هي التي ستجعله يقول للشيء : كُنْ فيكون ، ولو لم يكُنْ يؤمن بأنه إله ما قالها .
والحق سبحانه يقول : { أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ الله الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ . . . } [العنكبوت : 19] كيف ونحن لم نَر الإعادة ، فضلاً عن رؤيتنا للبدء؟
قالوا : نرى البدء والإعادة في مظاهر الوجود من حولنا ، فنراها في الزرع مثلاً ، وكيف أن الله تعالى يُحيي الأرض بالنبات ، ثم يأتي وقت الحصاد فيحصد ويتناثر منه الحَبّ أو البذور التي تعيد الدورة من جديد .

والوردة تجد فيها رطوبة ونضارة وألواناً بديعة ورائحة زكية ، فإذا قُطِفَتْ تبخَّر منها الماء ، فجفَّتْ وتفتتت ، وذهبت رائحتها في الجو ، ثم تخلفها وردة أخرى جديدة ، وهكذا .
انظر مثلاً إلى دورة الماء في الكون : هل زادتْ كمية الماء التي خلقها الله في الكون حين أعدَّه لحياة الإنسان منذ خلق آدم وحواء؟ الماء هو هو حتى الآن ، مع ما حدث من زيادة في عدد السكان؛ لأن عناصر الكون هي هي منذ خلقها الله ، لكن لها دورة تسير فيها بين بَدْء وإعادة .
واقرأ إن شئت قوله تعالى : { قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بالذي خَلَقَ الأرض فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ العالمين * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا . . . } [فصلت : 9-10] .
فكأن قوت العالم من الزرع وغيره مُعَدٍّ من بَدْء الخليقة ، وإلى أنْ تقوم الساعة لا يزيد ، لكنه يدور في دورة طبيعية .
ثم يقول سبحانه : { إِنَّ ذلك عَلَى الله يَسِيرٌ } [العنكبوت : 19] أيهما : الخَلْق أم الإعادة؟ أما الخلق فقد أقرُّوا به ، ولا جدالَ فيه ، إذن : فالكلام عن الإعادة ، وهل الذي خلق من عدم

يعجز عن إعادة ما خلق؟ الخَلْق الأول من عدم ، أما الإعادة فمن موجود ، فأيهما أهون في عُرْفكم وحسب منطقكم؟

لذلك يقول سبحانه : { وَهُوَ الذي يَبْدَؤُاْ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ . . . } [الروم : 27] مع أن الحق سبحانه لا يُقال في حَقِّه : هذا هيّن ، وهذا أهون؛ لكنه سبحانه يخاطبنا بما تفهمه عقولنا .

ثم يخاطب الحق سبحانه محمداً صلى الله عليه وسلم : { قُلْ سِيرُواْ فِي الأرض فانظروا . . . } .

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (20)

السير : الانتقال من مكان إلى مكان ، لكن نحن نسير في الأرض أم على الأرض؟ الحقيقة أننا كما قال سبحانه { قُلْ سِيرُواْ فِي الأرض . . . } [العنكبوت : 20] أي : نسير فيها؛ لأن الغلاف الجوي المحيط بالأرض من الأرض ، فبدونه لا تستقيم الحياة عليها ، إذن : حين تسير تسير في الأرض فهي تحتك ، وغلافها الجوي فوقك ، فكأنك بداخلها .

والعلة في السير { فانظروا كَيْفَ بَدَأَ الخلق . . . } [العنكبوت : 20] وفي آية أخرى { ثُمَّ انظروا . . } [الأنعام : 11] ؛ لأن السير من أرض لأخرى له دافعان : إما للسياحة والتأمل والاعتبار ، وإما للتجارة والاستثمار ، إنْ ضاق رزقك في بلادك . فقوله : { قُلْ سِيرُواْ فِي الأرض فانظروا . . . } [العنكبوت : 20] أي : نظر اعتبار وتأمل .

أما في { ثُمَّ انظروا . . } [الأنعام : 11] فثم تفيد العطف والتراخي ، كأنه سبحانه يقول لنا : سيروا في الأرض للاستثمار ، ثم انظروا نظرة التأمل والاعتبار ، ولا مانع من الجمع بين الغرضين .

وتذكرون أن الحق سبحانه قال في السورة السابقة (القصص) : { إِنَّ الذي فَرَضَ عَلَيْكَ القرآن لَرَآدُّكَ إلى مَعَادٍ . . . } [القصص : 85] والمراد بذلك الهجرة ، وفي هذه السورة تأتي : { ياعبادي الذين آمنوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فاعبدون } [العنكبوت : 56] .

والمعنى : إن ضاق رزقك في مكان فاطلبه في مكان آخر ، أو : إنْ لم تكُنْ الآيات الظاهرة لك كافية لتشبع عندك الرغبة في الاعتبار والتأمل فسِرْ في الأرض ، فسوف تجد فيها كثيراً من الآيات والعِبَر في اختلاف الأجناس والبيئات والثمار والأجواء . . إلخ .

لذلك يقول سبحانه : { أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ الله وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا . . . } [النساء : 97] . فالأرض كلها لله لا حدودَ فيها ، ولا فواصلَ بينها ، فلما قسَّمها الناس وجعلوا لها حدوداً تمنع الحركة فيها حدثت كثير من الإشكالات ، وصَعُبَ على الناس التنقل للسياحة أو لطلب الرزق إنْ ضاق بأحد رزقه .

وها هي السودان بجوارنا بها مساحات شاسعة من الأراضي الخِصْبة التي إنْ زُرِعت سدَّتْ حاجة

العالم العربي كله ، أنستطيع الذهاب لزراعتها؟ ساعتها سيقولون : جاءوا ليستعمرونا .
لذلك لما أتيح لي التحدث في هيئة الأمم قلت : إنه لا يمكن أنْ تُحلَّ قضايا العالم الراهنة إلا إذا طبَّقنا مبدأ الخالق – عز وجل – وعُدْنا إلى منهجه الذي وضعه لتنظيم حياتنا ، وكيف نضع بيننا هذه الحدود الحديدية والأسلاك الشائكة ، وربنا يقول : { والأرض وَضَعَهَا لِلأَنَامِ } [الرحمن : 10] .
فالأرض كلُّ الأرض للأنام كل الأنام ، ويوم نحقق هذا المبدأ فلن يضيق الرزق بأحد ، لأنه إنْ ضاقَ بك هنا طلبته هناك؛ لذلك أكثر الشكوى في عالم اليوم إمَّا من أرض بلا رجال ، أو من رجال بلا أرض ، فلماذا لا نُحِدث التكامل الذي أراده الله في كونه؟
إذن : فالسير هنا مترتب عليه الاعتبار {كَيْفَ بَدَأَ الخلق ثُمَّ الله يُنشِىءُ النشأة الآخرة . . . } [العنكبوت : 20] وما دُمْنا قد آمنا بأن الله تعالى هو الخالق بداية ، فإعادة الخَلْق أهون ، كما قال سبحانه : { أَفَعَيِينَا بالخلق الأول . . . } [ق : 15] فيشكُّوا في الخَلْق الآخر؟ لذلك يؤكد الخالق سبحانه هذه القدرة بقوله :
{ إِنَّ الله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [العنكبوت : 20] .
ثم يقول الحق سبحانه : { يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ . . . } .

يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (21)

لماذا بدأ الحق سبحانه هنا بذكر العذاب؟ في حين قدَّم المغفرة في آية أخرى : { يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ . . . } [المائدة : 18] .
قالوا : لأن الكلام هنا عن المكذّبين المعرضين وعن الكافرين ، فناسب أنْ يبدأ معهم بذكر العذاب { يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ . . . } [العنكبوت : 21] فإنْ قُلْت : فلماذا يذكر الرحمة مع الكافرين بعد أنْ هدَّدهم بالعذاب؟ نقول : لأنه رب يهدد عباده أولاً بالعذاب ليرتدعوا وليؤمنوا ، ثم يُلوِّح لهم برحمته سبحانه ليُرغِّبهم في طاعته ويلفتهم إلى الإيمان به .
وقد صَحَّ في الحديث القدسي : « رحمتي سبقت غضبي » ففي الوقت الذي يُهدِّد فيه بالعذاب يُلوِّح لعباده حتى الكافرين بأن رحمته تعالى سبقتْ غضبه .
وقوله سبحانه : { وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ } [العنكبوت : 21] أي : تُرجعون ، وجاء بصيغة تقلبون الدالة على الغَصْب والانقياد عُنْوة ليقول لهم : مهما بلغ بكم الطغيان والجبروت والتعالي بنعم الله ، فلا بُدَّ لكم من الرجوع إليه ، والمثول بين يديْه ، فتذكَّروا هذه المسألة جيداً ، حيث لا مهربَ لكم منها؛ لذلك كان مناسباً أنْ يقول بعدها : { وَمَآ أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأرض . . . } .

وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (22)

(معجزين) : جمع معجز ، وهو الذي يُعجز غيره ، تقول : أعجزتُ فلاناً يعني : جعلته عاجزاً ، والمعنى أنكم لن تفلتوا من الله ، ولن تتأبَّوْا عليه ، حين يريدكم للوقوف بين يديه ، بل تأتون صاغرين .

ونلحظ هنا أن الحق سبحانه قال : { وَمَآ أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ . . . } [العنكبوت : 22] ولم يقل مثلاً : لن تعجزوني حين أطلبكم؛ لأن نفيَ الفعل غير نفي الوصف ، فحين تقول مثلاً : أنت لا تخيط لي ثوباً ، فهذا يعني أنه يستطيع أنْ يخيط لك ثوباً لكنه لا يريد ، فالقدرة موجودة لكن ينقصها الرضا بمزاولة الفعل ، إنما حين تقول : أنت لستَ بخائط فقد نفيتَ عنه أصل المسألة .

لذلك لم ينْفِ عنهم الفعل حتى لا نتوهم إمكانية حدوثه منهم ، فالهرب والإفلات من لقاء الله في الآخرة أمر غير وارد على الذِّهْن أصلاً ، إنما نفي عنهم بالوصف من أساسه { وَمَآ أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأرض وَلاَ فِي السمآء . . . } [العنكبوت : 22] .

ثم يقول سبحانه : { وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ الله مِن وَلِيّ وَلاَ نَصِيرٍ } [العنكبوت : 22] حتى لا يقول قائل : إنْ كانوا هم غير معجزين ، فقد يكون وراءهم مَنْ يعجز الله ، أو وراءهم مَنْ يشفع لهم ، أو يدافع عنهم ، فنفى هذه أيضاً لأنه سبحانه لا يُعجزه أحد ، ولا يُعجزه شيء .

لذلك يخاطبهم بقوله : { مَا لَكُمْ لاَ تَنَاصَرُونَ } [الصافات : 25] أين الفتوات الأقوياء ينصرونكم؟

فنفى عنهم الولي ، ونفى عنهم النصير؛ لأن هناك فَرْقاً بينهما : الوليّ هو الذي يقرب منك بمودة وحُبٍ ، وهذا يستطيع أنْ ينصرك لكن بالحُسْنى وبالسياسة ، ويشفع لك إن احتجتَ إلى شفاعته ، أمّا النصير فهو الذي ينصرك بالقوة و (الفتونة) .

وهكذا نفى عنهم القدرة على الإعجاز ، ونفى عنهم الولي والنصير ، لكن ذكر { مِّن دُونِ الله . . . } [العنكبوت : 22] يعني : من الممكن أن يكون لهم وليٌّ ونصير من الله تعالى ، فإنْ أرادوا الولي الحق والنصير الحق فليؤمنوا بي ، فأنا وليُّهم وأنا نصيرهم .

وكأنه سبحانه يقول لهم : إنْ تُبْتم ورجعتم عما كنتم فيه من الكفر واعتذرتم عما كان منكم ، فأنا وليُّكم وأنا نصيركم .

وفي موضع آخر قال : { وَمَا لَكُمْ مِّن نَّاصِرِينَ } [العنكبوت : 25] ولم يقل من دون الله؛ لأن الموقف في الآخرة ، والآخرة لا توبةَ فيها ولا اعتذار ولا رجوع ، فقوله { مِّن دُونِ الله . . . } [العنكبوت : 22] لا تكون إلا في الدنيا .

ثم يقول الحق سبحانه : { والذين كَفَرُواْ بِآيَاتِ . . . } .

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (23)

فإنْ أصرَّ الكافر على كُفْره وعبادته للأصنام التي لا تنفع ولا تضر ، ولم تُجْدِ معه موعظة ولا تذكير فلا ملجأ له ولا منفذ له إلى رحمة الله؛ لأنه عبد أولياء لا ينفعونه بشيء وكفر بي ، فليس له مَنْ يحميه مني ، ولا مَنْ ينصره من الأصنام التي عبدها ، فليس له إلا اليأس .

واليأس : قَطْع الرجاء من الأمر ، وقد قطع رجاء الكافرين؛ لأنهم عبدوا ما لا ينفع ولا يضر ، وكفروا بمَنْ بيده النفع ، وبيده الضُّر .

وقلنا : إن المراد بآيات الله إما الآيات الكونية التي تُثبت قدرة الله ، وتلفت إلى حكمة الخالق - عز وجل - كالليل والنهار والشمس والقمر ، أو آيات المعجزات التي تصاحب الرسل؛ ليؤيدهم الله بها ويُظهِر صِدْقهم في البلاغ عن الله؛ فكفروا بآيات القرآن الحاملة للأحكام .

وقد كفر هؤلاء بكل هذه الآيات ، فلم يُصدِّقوا منها شيئاً ، وما داموا قد كفروا بهذه الآيات ، وكفروا أيضاً بلقاء الله في الآخرة؛ فرحمة الله بعيدة عنهم ، وهم يائسون منها .

لذلك كانت عاقبتهم { وأولئك لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [العنكبوت : 23] ثم يقول الحق سبحانه : { فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن . . . } .

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (24)

كنا ننتظر منهم جواباً منطقياً ، بعد أنْ دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وبيَّن لهم بطلان عبادة آلهتهم ، وأنها لا تضر ولا تنفع ، كان عليهم أن يجادلوه ، وأن يدافعوا عن آلهتهم ، وأن يُظهِروا حجتهم في عبادتهم .

إنما يأتي جوابهم دالاً على إفلاسهم { فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ اقتلوه أَوْ حَرِّقُوهُ . . . } [العنكبوت : 24] أهذا جواب على ما قيل لكم؟ إنه مجرد هروب من المواجهة ، وإفلاس في الحجة ، إنه جواب مَنْ لم يجد جواباً ، وليس لديه إلا التهديد والتلويح بالقوة وبالبطش ، فهذه لغة مَنْ لا حجة عنده .

لكن ، لماذا سمَّاه القرآن جواباً؟ قالوا : لأنهم لو لم يتكلموا بهذا الكلام لقيل عنهم أنهم لم يلتفتوا إلى كلام نبيهم ولم يأبهوا به ، وأن كلامه لا وزنَ له ، ولا يُرَد عليه ، فإنْ كان كلامهم لا يُعَد جواباً فهو في صورة الجواب ، وإنْ كان جواباً فاسداً .

وقولهم : { اقتلوه . . . } [العنكبوت : 24] نعلم أن القتل هو هدم البنية هدماً يتبعه خروج الروح لأنها لا تجد بنية سليمة تسكنها ، أما الموت فتخرج الروح أولاً ، ثم تهدم البنية حين تتحلل في التراب ، إذن : فهما سواء في أنهما هلاك .

وسبق أن أوضحنا هذه المسألة بلمبة الكهرباء التي تضيء ، فالكهرباء لا توجد في اللمبة ، إنما في شيء خارج عنها ، لكن يظهر أثر الكهرباء في اللمبة إنْ كانت سليمة صالحة لإستقبال التيار

، فإنْ كسرتَها فلا تجد فيها أثراً للكهرباء ولا تضيء ، وقد تمنع عنها الكهرباء وهي سليمة .
ثم قالوا { أَوْ حَرِّقُوهُ . . . } [العنكبوت : 24] وهل التحريق بعد القتل يُعَد ارتقاءً في العقوبة؟ لا شكَّ أن القتل أبلغ من التحريق ، فقد يُحرق شخص ، وتتم نجدته وإسعافه فلا يموت ، فالقتل تأكيد للموت ، أمّا التحريق فلا يعني بالضرورة الموت ، فلماذا لم يقولوا فقد اقتلوه وتنتهي المسألة ، أو يُصعدوا العقوبة فيقولوا : حرِّقوه أو اقتلوه؟
إنهم بدأوا بأقصى ما عندهم من عقوبة لشدة حَنَقهم عليه فقالوا { اقتلوه . . . } [العنكبوت : 24] ثم تراءى لهم رأي آخر : ولماذا لا نحرقه بالنار ، فربما يعود ويرجع عن دعوته حينما يجد ألم التحريق ، وهذا يُعَد كسباً لهم ، وتُحسَب الجولة لصالحهم .
لكن مَن الذي قال { اقتلوه . . . } [العنكبوت : 24] ؟ من الآمر بالقتل ، ومَنِ المأمور؟ لقد اتفقوا جميعاً على قتله ، فالآمر والمأمور سواء ، وهذا واضح من الآية : { فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ . . . } [العنكبوت : 24] فالقوم جميعاً تواطئوا على هذه المسألة . أو أن الآمر هم رؤساء القوم وكبارهم الذين يأتمر الناس بأمرهم ، أما التنفيذ فمهمة الأتباع .
ونحن نرى ثورة الجمهور وانفعاله حينما تقع جريمة مثلاً ، فالكل يغضب ويقول : اقتلوه ، اسجنوه ، فكلهم قائل ، وكلهم مقول له .
ثم يقول سبحانه { فَأَنْجَاهُ الله مِنَ النار .

. . } [العنكبوت : 24] وهنا يعترض الفلاسفة : كيف والنار من طبيعتها الإحراق؟ كيف يتخلف هذا القانون؟ لكن كيف معجزة إنْ لم تأتِ على هذه الصورة؟
إن الحق سبحانه خلق الخَلْق وجعل فيه نواميس تفعل فعلها وتؤدي مهمتها تلقائياً ، فالأرض مثلاً حينما تحرثها ، وتلقي فيها الحَبَّ ، ثم ترويها ، الناموس أن تنبت ، وحتى لا يظن ظانٌّ أن الكون إنما يسير على وَفْق هذه النواميس ، لا وَفْقَ قدرة الله نجد أنه سبحانه يخرق هذه النواميس ليثبت لنا قيوميته على خَلْقه وطلاقة قدرته فيه .
لذلك إن لم يكُنْ لك رزق في حرثك هذا ، فلا ينبت النبات ، أو ينبت ثم تصيبه آفة أو إعصار فيُهلكه قبل استوائه . إذن : فالمسألة قيومية لله تعالى وليست (ميكانيكا) .
وقد خرق الله نواميس الكون لموسى – عليه السلام – حينما ضرب البحر ، فصار كل فِرْق كالطَّوْد العظيم ، وتحولت سيولة الماء إلى جبل صلب . وخرق نواميس الكون لإبراهيم حينما قال للنار : { قُلْنَا يانار كُونِي بَرْداً وسلاما على إِبْرَاهِيمَ } [الأنبياء : 69] .
وخرق النواميس ليثبت الإعجاز ، وليثبت أن يد الله تعالى لا تزال مسيطرة على مُلْكه سبحانه ، لا أنه خلق النواميس وتركها تعمل في الكون دون تدخُّل منه سبحانه كما يقول الفلاسفة ، فالحق سبحانه خلق النواميس لتفعل ، ولكن قيوميته تعالى وقدرته تُعطِّل النواميس .

{ فَأَنْجَاهُ الله مِنَ النار إِنَّ فِي ذلك لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [العنكبوت : 24] ونذكر في قصة السفينة أن الله تعالى قال عنها : { وَجَعَلْنَاهَآ آيَةً لِّلْعَالَمِينَ } [العنكبوت : 15] آية وهنا قال { لآيَاتٍ . . . } [العنكبوت : 24] وهناك قال { لِّلْعَالَمِينَ } [العنكبوت : 15] وهنا قال : { لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [العنكبوت : 24] فالاختلاف إذن بين السياقين في أمرين :

قال في السفينة { آيَةً . . . } [العنكبوت : 15] لأن العجيب في أمر السفينة ليس في صناعتها ، فمَنَ رآها يمكن أنْ يصنع مثلها ، إنما الآية فيها أن الله تعالى أعلمه بها قبل الحاجة إليها ، ثم منع عنها الزوابع والأعاصير أن تلعب بها وتُغرق ركابها .

أمّا في مسألة الإحراق فعجائب كثيرة وآيات شتى ، فكان من الممكن ألاَّ يمكنهم الله منه ، وكان من الممكن بعد أن أمسكوا به وألقوه في النار أنْ يُنزل الله مطراً يطفيء نارهم وينجو إبراهيم ، أو يسخر له من القوم أهل رأفة ورحمة ينقذونه من الإلقاء في النار .

لكن لم يحدث شيء من هذا ، حيث أمكنهم الله منه حتى ألقوه في النار وهي مشتعلة ، وهو مُوثق بالحبال ، ومع ذلك لم تُصِبه النار بسوء ، وظهرتْ الآيات بينات واضحات أمام أعين الجميع .

الأمر الآخر : قال هناك { لِّلْعَالَمِينَ } [العنكبوت : 15] لأن السفينة حينما رسَتْ ونجا ركابها ظلَّتْ باقية في مكانها يراها الناس جميعاً ويتأملونها ، فقد كان لها أثر باقٍ قائم مُشَاهد .

أمّا في مسألة إبراهيم – عليه السلام – فقال { لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [العنكبوت : 24] لأن نجاة إبراهيم – عليه السلام – كانت عبرة لمن شاهدها فقط ، ونحن نؤمن بها لأن الله أخبرنا بها ، ونحن مؤمنون بالله ، فهي آيات للمؤمنين بالله لا للعالمين .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَقَالَ إِنَّمَا اتخذتم مِّن دُونِ الله أَوْثَاناً . . . } .

وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (25)

المعنى : إنْ كنتم لم تؤمنوا بالآيات الكونية الدالة على قدرة الله ، ولم تؤمنوا بالمعجزة التي رأيتموها حين نجاني ربي من النار ، وكان عليكم أنْ تؤمنوا بأنه لا يقدر على ذلك إلا الله ، فلماذا إصراركم على الكفر؟

فلا بُدَّ أنكم كفرتم بالله وعبدتم الأصنام ، لا لأنكم مقتنعون بعبادتها ، ولا لأنها تستحق العبادة ، إنما عبدتموها { مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الحياة الدنيا . . . } [العنكبوت : 25] يعني : نفاقاً ينافق به بعضكم بعضاً ومجاملة؛ لأنكم رأيتم رؤوس القوم فيكم يعبدونها فقلَّدتموهم دون اقتناع منكم بما تعبدون ، أو مودةً لآبائكم الأولين ، وسَيْراً على نهجهم ، كما حكى القرآن : { إِنَّا وَجَدْنَآ آبَآءَنَا على أُمَّةٍ وَإِنَّا على آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ } [الزخرف : 23] .

وفي آية أخرى { قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَآ . . . } [المائدة : 104] .
لكن هذه المودة وهذه المجاملة وهذا النفاق عمرها (الحياة الدنيا) فحسب ، وفي الآخرة ستتقطع بينكم هذه المودات : { الأخلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ . . . } [الزخرف : 67] يعني : ستنقلب هذه المودة وهذه المجاملة إلى عداوة ، بل وإلى معركة حكاها القرآن : { رَبَّنَآ أَرِنَا الذين أَضَلاَّنَا مِنَ الجن والإنس نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا . . . } [فصلت : 29] .
وقال : { إِذْ تَبَرَّأَ الذين اتبعوا مِنَ الذين اتبعوا وَرَأَوُاْ العذاب وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأسباب } [البقرة : 166] .
ويقرر هنا أيضاً هذه الحقيقة : { ثُمَّ يَوْمَ القيامة يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَمَأْوَاكُمُ النار وَمَا لَكُمْ مِّن نَّاصِرِينَ } [العنكبوت : 25] ذلك لأن المقدمات التي سبقتْ كانت تقتضي أنْ يؤمنوا ، فما كان منهم إلا الإصرار على الكفر .
وفي الوقت الذي تنقلب فيه مودة الكافرين عداوة تنقلب عداوة المؤمنين الذين تعاونوا على الطاعة إلى حُبٍّ ومودة ، فيقول المؤمن لأخيه الذي جَرَّه إلى الطاعة وحمله عليها - على كُرْه منه وضيق - جزاك الله خيراً لقد أنقذتني .
ولا ينتهي الأمر عند هذه العقوبة التي يُوقعونها بأنفسهم من التبرؤ واللعن ، بل ينصرفون إلى عقوبة أشدّ { وَمَأْوَاكُمُ النار وَمَا لَكُمْ مِّن نَّاصِرِينَ } [العنكبوت : 25] ونلحظ هنا أن الحق سبحانه لم يقُلْ : وما لكم من دون الله؛ لأن الكلام في الآخرة حيث لا توبةَ لهم ولا رجوعَ ، فقد انتفى أن يكون لهم ولي أو نصير من الله .
كذلك لا ناصرَ لهم من أوليائهم الذين عبدوهم من دون الله حيث يطلبون النُّصْرة من أحجار وأصنام ، لا تنطق ولا تجيب .
وهكذا تنتهي هذه اللقطة السريعة من قصة سيدنا إبراهيم - عليه السلام - وله تاريخ طويل ، وهو شيخ المرسلين وأبو الأنبياء ، وإنْ أردتَ أن تحكي قصته لأخذتْ منك وقتاً طويلاً ، ويكفي أن الله تعالى قال عنه : { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً . . . } [النحل : 120] .
ثم يقول الحق سبحانه : { فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ . . . . } .

فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (26)

أي : أن قوم إبراهيم - عليه السلام - ظلوا على كفرهم ، والذي آمن به لوط - عليه السلام - وكان ابن أخيه ، وكانوا في العراق ، ثم سينتقلون بعد ذلك إلى الشام .
وكلمة { فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ . . . } [العنكبوت : 26] حين نتتبع كلمة آمن في القرآن الكريم نجد أنها تدور حول الأمن والطمأنينة والراحة والهدوء ، لكنها تختلف في المدلولات حسب اختلاف موقعها الإعرابي ، فهنا { فَآمَنَ لَهُ . . . } [العنكبوت : 26] وهل يؤمن لوط لإبراهيم؟

والإيمان كما نقول يؤمن بالله فما دام السياق { فَآمَنَ لَهُ . . . } [العنكبوت : 26] فلا بُد أن المعنى مختلف ، ولا يقصد هنا الإيمان بالله .

ومعنى (آمن) هنا كما في قوله تعالى عن قريش : { وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ } [قريش : 4] فالفعل هنا مُتعدٍّ ، فالذي آمن الله ، آمن قريشاً من الخوف . وكذلك في قوله تعالى : { هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ . . . } [يوسف : 64] ومعنى { فَآمَنَ لَهُ . . . } [العنكبوت : 26] أي : صدقه .

ومنه قوله تعالى : { وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ } [يوسف : 17] أي : بمصدِّق ، أما آمنت بالله : اعتقدت وجوده بصفات الكمال المطلق فيه سبحانه .

ولوط لا يصدق بإبراهيم ، إلا إذا كان مؤمناً بإله أرسله ، فكأنه آمن بالله ثم صدَّقه فيما جاء به وقصة لوط عليه السلام لها موضع آخر فُصِّلَت فيه ، إنما جاء ذكره هنا؛ لأنه حصيلة الصفقة الجدلية والجهادية بين إبراهيم وقومه ، فبعد أنْ دعاهم إلى الله ما آمن له إلا لوط ابن أخيه .

وأذكر أن الشيخ موسى – رحمه الله عليه – وكان يُدرس لنا التفسير ، وجاءت قصة لوط عليه السلام فقلت له : لماذا ننسب رذيلة قوم لوط إليه فنقول : لوطي . وما جاء لوط إلا ليحارب هذه الرذيلة ويقضي عليها؟

فقال الشيخ : فماذا نقول عنها إذن؟ قلت : إن اللغة العربية واسعة الاشتقاق ، فمثلاً عند النسب إلى عبد الأشهل قالوا : أشهلي ، ولعبد العزيز قالوا : عبدزي ، ولبختنصر قالوا : بختي ، والآن نقول في النسب إلى دار العلوم دَرْعمي . . . إلخ فلماذا لا نتبع هذه الطريقة؟ فنأخذ القاف المفتوحة ، والواو الساكنة من قوم ، ونأخذ الطاء من لوط ، ثم ياء النسب فنقول (قَوْطي) ونُجنِّب نبي الله لوطاً عليه السلام أن ننسب إليه ما لا يليق أن يُنسب إليه .

وقد حضرت احتفالاً لتكريم طه حسين ، فكان مما قلته في تكريمه : (لك في العلم مبدأ طَحَسْني) ؛ لأنه كثيراً ما نجد بين العلماء اسم طه ، واسم حسين .

إذن : فقوله تعالى { فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ . . . } [العنكبوت : 26] جاءت جملة اعتراضية في قصة إبراهيم عليه السلام؛ لأنه المحصلة النهائية لدعوة إبراهيم في قومه؛ لذلك يعود السياق مرة أخرى إلى إبراهيم { وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إلى ربي . . . } [العنكبوت : 26] أي : منصرف عن هذا المكان؛ لأنه غير صالح لاستتباب الدعوة .

ومادة هجر وما يُشتق منها تدلُّ على ترْك شيء إلى شيء آخر ، لكن هَجَرَ تعني أن سبب الهَجْر منك وبرغبتك ، إنما هاجر فيها مفاعلة مثل شارك وقاتل ، والنبي صلى الله عليه وسلم لم يهجر مكة ، إنما هاجر منها إلى المدينة .

وهذا يعني أنه لم يهاجر برغبته ، إنما آذاه قومه واضطروه للخروج من بلده ، إذن : فلهم دَخْل في الهجرة ، وهم طرف ثَانٍ فيها .

لذلك يقول المتنبي :

إذَا ترحّلْتَ عَنْ قوْمٍ وقَدْ قَدَرُوا ... أَلاَّ تُفارِقَهُم فالرَّاحِلُونَ هُمُو

ومن دقة الأداء القرآني في هذه المسألة أنْ يسمي نقلة رسول الله من مكة إلى المدينة هجرة من الثلاثي ، ولا يقول مهاجرة؛ لأنه ساعة يهاجر يكره المكان الذي تركه ، لكن هنا قال في الفعل : هاجر . وفي الاسم قال : هجرة ولم يقل مهاجرة .

وسبق أنْ ذكرنا أن هجرة المؤمنين الأولى إلى الحبشة كانت هجرة لدار أمن فحسب ، لا دار الإيمان ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما وجَّههم إلى الحبشة بالذات قال : « لأن فيها ملكاً لا يُظْلم عنده أحد » .

وكأنه صلى الله عليه وسلم بُسِطت له خريطة الأرض كلها ، فاختار منها هذه البقعة؛ لأنه قد تبيَّن له أنها دار أمن لمن آمن من صحابته ، أمّا الهجرة إلى المدينة فكانت هجرة إلى دار إيمان ، بدليل ما رأيناه من مواقف الأنصار مع المهاجرين .

وهنا يقول إبراهيم عليه السلام : { إِنِّي مُهَاجِرٌ إلى ربي . . . } [العنكبوت : 26] فالمكان إذن غير مقصود له ، إنما وجهة ربي هي المقصودة ، وإلا فَلَك أن تقول : كيف تهاجر إلى ربك ، وربك في كل مكان هنا وهناك؟

فالمعنى : مهاجر امتثالاً لأمر ربي ومتوجه وجهة هو آمر بها؛ لأنه من الممكن أن تنتقل من مكان إلى مكان بأمر رئيسك مثلاً ، وقد كانت لك رغبة في الانتقال إلى هذا المكان فترحب بالموضوع؛ لأنه حقق رغبة في نفسك ، فأنت - إذن - لا تذهب لأمر صدر لك ، إنما لرغبة عندك .

لذلك جاء في الحديث : « فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومَنْ كانت هجرته لدنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

فالمعنى { إِنِّي مُهَاجِرٌ إلى ربي . . . } [العنكبوت : 26] يعني : ليس الانتقال على رغبتي وحَسْب هواي ، إنما حسب الوجهة التي يُوجّهني إليها ربي . وأذكر أنه كان لهذه المسألة واقع في تاريخنا ، وكنا جماعة من سبعين رجلاً ، وقد صدر منا أمر لا يناسب رئيسنا ، فأصدر قراراً بنقلنا جميعاً وشتَّتنا من أماكننا ، فذهبنا عند التنفيذ نستعطفه عَلَّه يرجع في قراره ، لكنه صمم عليه ، وقال : كيف أكون رئيساً ولا أستطيع إنفاذ أمري على المرؤوسين؟

فقال له أحدنا وكان جريئاً : سنذهب إلى حيث شئتَ ، لكن اعلموا أنكم لن تذهبوا بنا إلى مكان ليس فيه الله .

وكانت هذه كلمة الحق التي هزَّتْ الرجل ، وأعادت إليه صوابه ، فالحق له صَوْلة ، وفعلاً سارت الأمور كما نريد ، وتنازل الرئيس عن قراره .

فمعنى : { مُهَاجِرٌ إلى ربي . . . } [العنكبوت : 26] أن ربي هو الذي يُوجِّهني ، وهو سبحانه في كل مكان . يؤيد ذلك قوله سبحانه : { فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ الله . . } [البقرة : 115]
وكأن الحق سبحانه يقول لنا : اعلموا أنني ما وجَّهتكم في صلاتكم إلى الكعبة إلا لأؤكد هذا المعنى : لأنك تتجه إليها من أي مكان كنت ، ومن أية جهة فحيثما توجهتَ فهي قبلتُك .
ثم يقول : { إِنَّهُ هُوَ العزيز الحكيم } [العنكبوت : 26] اختار الخليل إبراهيم – عليه السلام – من صفات ربه { العزيز } [العنكبوت : 26] أي : الذي لا يُغلب وهو يَغْلب . وهذه الصفة تناسب ما كان من محاولة إحراقه ، وكأنه يقول للقوم : أنا ذاهب إلى حصن مَنْ لا يُغْلب .

و { الحكيم } [العنكبوت : 26] أي : في تصرفاته ، فلا بُدَّ أنه سبحانه سينقلني إلى مكان يناسب دعوتي ، وأناس يستحقون هذه الدعوة بما لديهم من آذان صاغية للحق ، وقلوب وأفئدة متشوقة إليه ، وتنتظر كلمة الحق التي أعرضتم أنتم عنها .
ثم يقول الحق سبحانه : { وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ . . . } .

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (27)

وجاء وقت الجزاء لينال إبراهيم – عليه السلام – من ربه جزاء صبره على الابتلاء ، وثباته على الإيمان ، ألم يقُلْ لجبريل لما جاءه يعرض عليه المساعدة وهو في طريقه إلى النار : يا إبراهيم ، ألك حاجة؟ فيقول إبراهيم : أما إليك فلا . لذلك يجازيه ربه ، ويخرق له النواميس ، ويواليه بالنعم والآلاء ، حتى مدحه سبحانه بقوله : { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ . . . } [النحل : 120] .

وكان عليه السلام رجلاً خاملاً في القوم ، بدليل قولهم عنه لما حطّم أصنامهم : { قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ } [الأنبياء : 60] فهو غير مشهور بينهم ، مُهْمَل الذكر ، لا يعرفه أحد ، فلما والى الله والاه قال : لأجعلنك خليل الله وشيخ المرسلين ولأُجرينَّ ذِكْرك ، بعد أنْ كنت مغموراً على كل لسان ، وها نحن نذكره عليه السلام في التشهد في كل صلاة .
واقرأ قول إبراهيم في دعائه لربه؛ ليؤكد هذا المعنى : { واجعل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخرين } [الشعراء : 84] وكأنه يقول : يا رب إن قومي يستقلونني ، فاجعل لي ذِكْراً عندك .
ومعلوم أن للتناسل والتكاثر نواميسَ ، فلما أنْ أنجبت السيدة هاجر إسماعيل – عليه السلام – غضبت الحرة سارة : كيف تنجب هاجر وهي الأَمَة وتتميز عليها ، لكن كيف السبيل إلى الإنجاب وسِنُّها تسعون سنة ، وسِنّ إبراهيم حينئذٍ مائة؟
قانون الطبيعة ونواميس الخَلْق تقول لا إنجاب في هذه السن ، لكن سأخرق لك القانون ،

وأجعلك تُنجب هبة من عندي { وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ . . . } [العنكبوت : 27] ثم { وَيَعْقُوبَ . . . } [العنكبوت : 27] .

وفي آية أخرى قال : { وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً . . . } [الأنبياء : 72] .

أي : زيادة ، لأنه صبر على ذَبْح إسماعيل ، فقال له ربه : ارفع يدك فقد أديتَ ما عليك ، ونجحت في الامتحان ، فسوف أفديه لك ، بل وأهبك أخاً له ، وسأعطيك من ذريته يعقوب . وسأجعلهم فَضْلاً عن ذلك رسلاً { وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النبوة والكتاب . . . } [العنكبوت : 27] لذلك حين نستقريء موكب الأنبياء نجد جمهرتهم من ذرية إبراهيم عليه السلام كل من جاء بعده من ذريته .

والذرية المذكورة هنا يُرَاد بها إسحق ويعقوب ، وهما المُوهبَان من سارة ، أمّا إسماعيل فجاء بالقانون العام الطبيعي الذي يشترك فيه إبراهيم وغيره .

وكأن الحق – سبحانه وتعالى – في هذه المسألة يُدلِّل على طلاقة القدرة بأسباب تظهر فيها قدرة المسبِّب ، فيقول لإبراهيم : إن كان قومك قد كفروا بك ولم يؤمنوا ، فسأهبُكَ ذرية ليست مؤمنة مهدية فحسب ، إنما هادية للناس جميعاً .

وإذا كانت ذرية إسحق ويعقوب قد أخذتْ أربعة آلاف سنة من موكب النبوات ، فقد جاء من ذرية إسماعيل خاتم الأنبياء وإمام المتقين محمد صلى الله عليه وسلم ، وستظل رسالته باقية خالدة إلى يوم القيامة ، فالرسل من ذرية إسحق كانوا متفرقين في الأمم ، ولهم أزمنة محددة ، أما رسالة محمد فعامة للزمان وللمكان ، لا معقِّبَ له برسول بعده إلى يوم القيامة .

وقوله تعالى : { والكتاب . . . } [العنكبوت : 27] أي : الكتب التي نزلتْ على الأنبياء من ذريته ، وهي : القرآن والإنجيل والتوراة والزبور .

ثم يقول سبحانه : { وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدنيا . . . } [العنكبوت : 27] قالوا : إنه كان خامل الذِّكْر فنبغ شأنه وعلا ذِكْره ، وكان فقيراً ، فأغناه الله حتى حدَّث المحدِّثون عنه في السِّيَر أنه كان يملك من الماشية ما يسأم الإنسان أنْ يَعدَّها ، وكان له من كلاب الحراسة اثنا عشر كلباً . . إلخ وهذا أجره في الدنيا فقط .

{ وَإِنَّهُ فِي الآخرة لَمِنَ الصالحين } [العنكبوت : 27] يعني : لن نقول له أذهبت طيباتك في حياتك الدنيا ، بل هو في الآخرة من الصالحين ، وهذا مُتمنَّى الأنبياء . إذن : فأجْره في الدنيا لم يُنقص من أجره في الآخرة .

لكن ، لماذا وصف الله نبيه إبراهيم في الآخرة بأنه من الصالحين؟ قالوا : لأن إبراهيم أُثِر عنه ثلاث كلمات يسميها المتصيِّدون للأخطاء ، ثلاث كذبات أو ذنوب : الأولى قوله لملك مصر لما سأله عن سارة قال : أختي ، والثانية لما قال لقومه حينما دَعَوْه للخروج معهم لعيدهم : إني

سقيم . والثالثة قوله : { بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا . . . } [الأنبياء : 63] أي : عندما حطَّم الأصنام .

ويقول هؤلاء المتصيدون : إنها أقوال منافية لعصمة الأنبياء . لكن ما قولكم إنْ كان صاحب الأمر والحكم شهد له بالصلاح في الآخرة؟

ثم إن المتأمل في هذه الأقوال يجدها من قبيل المعاريض التي قال عنها النبي صلى الله عليه وسلم : « إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب » فقوله عن سارة : إنها أختي ، هي فعلاً أخته في الإيمان ، وربما لو قال زوجتي لقتله الملك ليتزوجها هو .

أما قوله { إِنّي سَقِيمٌ . . . } [الصافات : 89] فهو اعتذار عن مشهد كافر لا ينبغي للمؤمن حضوره ، كما أن السِّقْم يكون للبدن ، ويكون للقلب فيحتمل أن يكون قصده سقيم القلب لما يراه من كفر القوم .

وقوله { بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا . . . } [الأنبياء : 63] أراد به إظهار الحجة وإقامة الدليل على بطلان عبادة الأصنام ، فأراد أنْ يُنطقهم هم بما يريد أن يقوله؛ ليقررهم بأنها أصنام لا تضر ولا تنفع ولا تتحرك .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ . . . } .

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (28)

هنا ينتقل السياق من قصة إبراهيم لقصة ابن أخيه لوط ، ونلحظ أن القرآن في الكلام عن نوح وإبراهيم ولوط بدأ الحديث بذكره أولاً ، وعادة القرآن حينما يتكلم عن الرسل يذكر القوم أولاً ، كما قال تعالى : { وإلى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً . . . } [الأعراف : 65] ، { وإلى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً . . . } [الأعراف : 73] ، { وإلى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً . . . } [الأعراف : 85] . قالوا : لأن قوم نوح ، وقوم إبراهيم ، وقوم لوط لم يكُنْ لهم اسم معروف ، فذكر أنبياءهم أولاً ، أمَّا عاد وثمود ومدين فأسماء لأناس معروفين ، ولهم قرى معروفة ، فالأصل أن القوم هم المقصودون بالرسالة والهداية؛ لذلك يُذكَرون أولاً فهم الأصل في الرسالة ، أما الرسول فليستْ الرسالة وظيفة يجعلها الله لواحد من الناس .

{ وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الفاحشة مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ العالمين } [العنكبوت : 28] وسمى خسيسة قومه فاحشة؛ لذلك قال العلماء في عقوبتها : يصير عليها ما يصير على الفاحشة من الجزاء؛ لأن الحق سبحانه سمى الزنا فاحشة فقال { إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً . . . } [النساء : 22] والزنا شُرِع له الرجم ، وكذلك يكون جزاء مَنْ يفعل فِعْلة قوم لوط الرجم .

وقوله : { مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ العالمين } [العنكبوت : 28] لا يعني هذا أن أحداً لم يفعلها قبلهم ، لكنها إنْ فُعِلت فهي فردية ، ليست وباءً منتشراً كما في هؤلاء .

أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (29)

قوله : { أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرجال . . . } [العنكبوت : 29] دلالة على انحراف الغريزة الجنسية عندهم ، والغريزة الجنسية جعلها الله في الإنسان لبقاء النوع ، فالحكمة منها التناسل ، والتناسل لا يكون إلا بين ذكر وأنثى ، حيث تستقبل الأُنثى الحيوان المنوي الذكَري الذي تحتضنه البويضة الأنثوية ، وتعلق في جدار الرحم وتكوّن الجنين؛ لذلك سمَّى الله تعالى المرأة حَرْثاً؛ لأنها مكان الاستنبات ، وشَرْط في إتيان المرأة أن يكون في مكان الاستنبات .

لذلك ، فالجماعة الذين كانوا ينادون بتشريع للمرأة يسمح للرجل بأن يأتيها كيفما يشاء ، احتجوا بقوله تعالى : { نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أنى شِئْتُمْ . . . } [البقرة : 223] .

ونقول لهؤلاء : لقد أخطأتم في فَهْم الآية ، فالحَرْث هو الزرع المستنبت من الأرض ، فمعنى { أنى شِئْتُمْ . . . } [البقرة : 223] أي : أنهن حرث ، إذن : فاحتجاجهم باطل ، وبطلانه يأتي من عدم فهمهم لمعنى الحرث ، وعليه يكون المعنى ائتوهن على أيِّ وجه من الوجوه شريطة أن يكون في مكان الحَرْث .

ولحكمة ربط الحق سبحانه بقاء النوع بالغريزة الجنسية ، وجعل لها لذة ومتَعة تفوق أيَّ لذة أخرى في الحياة ، فمثلاً أنت ترى المنظر الجميل فتُسَرُّ به عينك ، وتسمع الصوت العَذْب فتسعد به أذنك . . . إلخ فكل منافذ الإدراك لديك لها أشياء تمتعها .

لكن بأيِّ هذه الحواس تُدْرَك اللذة الجنسية؟ وأيّ ملكة فيك تُسَرُّ منها؟ كلُّ الحواس وكُلُّ الملكات تستمتع بها؛ لذلك لا يستطيع الإنسان مقاومتها ، حتى قالوا : إنها اللحظة الوحيدة التي يمكن للإنسان فيها أنْ يغفل عن ربه؛ لذلك أمرنا بعدها بالاغتسال .

ولولا أن الخالق - عز وجل - ربط مسألة بقاء النوع بهذه اللذة لَزهد فيها كثير من الناس ، لما لها من تبعات ومسئوليات ومشاكل ، لا بُدَّ منها في تربية الأولاد .

وسبق أن ذكرنا الحكمة القائلة : « جَدَع الحلال أنفَ الغيرة » فالرجل يغَار على ابنته مثلاً ، ولا يقبل مجرد نظر الغرباء إليها ، ويثور إذا تعرَّض لها أحد ، فإذا جاءه الشاب يطرق بابه ليخطب ابنته رحَّب به ، واستقبله أهل البيت بالزغاريد وعلى الرَّحْب والسعة ، فسقوا (الشربات) وأقاموا الزينات ، فما الفرق بين الحالين؟ في الأولى كان دمه يغلي ، والآن تنزل كلمات الله في عقد القرآن على قلبه بَرْداً وسلاماً .

أما خسيسة قوم لوط { أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرجال . . . } [العنكبوت : 29] فهي انحراف عن الطبيعة السَّوية لا بقاءَ فيها للنوع ، ومثلها إتيان المرأة في غير مكان الحرث .

وقوله تعالى : { وَتَقْطَعُونَ السبيل . . . } [العنكبوت : 29] أي : تقطعون الطريق على بقاء

النوع؛ لأن الزنا وإنْ جاء بالولد فإنه لا يُوفر له البقاء الكريم الشريف في المجتمع . فالحق سبحانه جعل لبقاء النوع طريقاً واحداً ، فلا تسلك غير هذا الطريق ، لا مع رجل ولا مع امرأة .
والسبيل كلمة مطلقة وتعني الطريق ، سواء كان الطريق المادي أي : الشارع الذي نمشي فيه أو : المعنوي وهو الطريقة التي نسير عليها ، ومنها قوله تعالى :

{ قُلْ هذه سبيلي . . . } [يوسف : 108] أي : طريقي ومنهجي؛ لذلك السبيل القيمي سبيل واحد ، حتى لا نتصادم ولا نتخاصم في حركة الحياة المعنوية ، أمّا السبيل المادي فمتعدد حتى لا نتزاحم في حركة الحياة المادية .
والسبيل المادي (الطريق) الذي نسير فيه يُعَدُّ سمة الحضارة في أي أُمة ، ونذكر أن هتلر قبل أن يدخل الحرب سنة 1939 جعل كل همِّة في إنشاء شبكة من الطرق؛ لأن حركة الحرب غير العادية تحتاج إلى طرق إضافية أيام الحرب ، ومن ذلك مثلاً الطريق الذي يُسمُّونه طريق المعاهدة ، أي معاهدة سنة 1936 .
إذن : كلما وُجدت حركة زائدة احتاجت إلى طرق إضافية ، وهذه الطرق تتناسب والمكان الذي تنشأ فيه ، فالطرق في المدن نُسمِّيها شوارع وفي الخلاء نسميها طرقاً تناسب المساحة داخل المباني ، ومنها تتفرع الحارات ، وهي أقل منها ، ومن الحارة تتفرع العَطْفة ، وهي أقل من الحارة ، وكلما ازدحمتْ البلاد لجأ الناس إلى توسيع نظام الحركة لتيسير مصالح الناس .
كما نرى في القاهرة مثلاً من أنفاق وكَبَارٍ ، حتى لا تُعاق الحركة ، وحتى نوفر للناس انسيابية فيها .

والأنفاق أنسب للجمال في المدن ، والكبارى أجمل في الفضاء ، حيث ترى مع ارتفاع الكباري آفاقاً أوسع ومناظر أجمل ، أما إنْ حدث عكس ذلك فأُنشئت الكبارى داخل الشوارع فإنها تُقلِّل من جمال المكان وتُحوِّل الشارع إلى أشبه ما يكون بعنابر الورش ، كما أنها تؤذي سكان العمارات المجاورة لها .
وعلى الدولة أن تراعي هذه الأمور عند التخطيط ، ألم نقرأ قوله تعالى : { ثُمَّ السبيل يَسَّرَهُ } [عبس : 20] لا بُدَّ أن نُيسِّر السبل للسالكين؛ لأن معايش الناس وحركتهم تعتمد على الحركة في هذه الطرق .
فقوله تعالى : { وَتَقْطَعُونَ السبيل . . . } [العنكبوت : 29] فكان من قوم لوط قُطَّاع طرق كالذين يخرجون على الناس في أسفارهم وحركتهم ، فيأخذون أموالهم وينهبون ما معهم ، وإنْ تأبوا عليهم قتلوهم . وبعد أن قطعوا السبيل على الناس قطعوا السبيل على بقاء النوع .
يقول سبحانه في حقهم : { وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ المنكر . . . } [العنكبوت : 29] فكانوا لا يتورعون عن فِعْل القبيح وقوله فيجلسون في الطرقات يستهزئون بالمارة ويؤذونهم كالذين يجلسون

الآن على المقاهي ويتسكعون في الطرق ويؤذون خَلْق الله ، ويتجاهرون بالقبيح من القول والفعل ، فلا يسْلَم من إيذائهم أحد .

لذلك يعلمنا النبي صلى الله عليه وسلم آداب الطريق ، « فيقول لمن سأله : » وما حَقُّ الطريق يا رسول الله؟ قال : غَضُّ البصر ، وكَفُّ الأذى ، وردُّ السلام « .

وقد انتشر بين قوم لوط سوء الأخلاق ، بحيث لا ينهى بعضهم بعضاً ، كما قال سبحانه عن اليهود أنهم : { كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ . . . } [المائدة : 79] .

والنادي : مكان تجمُّع القوم ، ومنه قوله تعالى : { فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ } [العلق : 17] أي : مكان تجمُّع رؤوس القوم وكبارهم ، كما نرى الآن : نادي كذا ، ونادي كذا .

والنادي وهو مكان عام يُعَدُّ المرحلة الأخيرة لانضباط السلوك الذي يجب أن يكون في المجتمع ، فأنت مثلاً لك حجرة في بيتك خاصة بك ، ولك فيها انضباط خاص بنفسك ، وكذلك في صالة البيت لك انضباط أوسع ، وفي الشارع لك انضباط أوسع .

والانضباط يتناسب مع الواقع الذي تعيشه ، فحين تكون مثلاً بين أناس لا يعرفونك لا يكون انضباطك بنفس الدرجة التي تحرص عليها بين مَنْ تعرفهم كالموظف في مكتبه ، والطالب في مدرسته .

إذن : فهؤلاء القوم قطعوا السبيل في بقاء النوع ، حيث أتوا غير مَأْتِيّ وانحرفوا عن الفطرة السَّوية ، وقطعوا السبيل المادي ، فأخافوا الناس وروَّعوهم ونهبوا أموالهم ، وأخذوهم من الطرق بغرض هذه الفِعْلة النكراء ، ثم كانوا يتبجحون بأفعالهم هذه ، ويجاهرون بها في أنديتهم وأماكن تجمعاتهم .

فبماذا أجابه القوم؟

{ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ ائتنا بِعَذَابِ الله إِن كُنتَ مِنَ الصادقين } [العنكبوت : 29] أي : من الصادقين في أنك مُبلِّغ عن الله ، فنحن من العاصين ، وأرنا العذاب الذي تتوعدنا به ، وقولهم { ائتنا بِعَذَابِ الله . . . } [العنكبوت : 29] مع أن العذاب شيء مؤلم ، ولا يطلب أحد إيلام نفسه ، فهذا دليل على عدم فهمهم لهذا الكلام ، وأنهم غير متأكدين من صدقه ، وإلا لو وَثِقوا بصدقه ما طلبوا العذاب .

وفي موضع آخر ، حكى القرآن عنهم : { فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قالوا أخرجوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ } [النمل : 56] .

إذن : حدث منهم موقفان وجوابان : الأول { ائتنا بِعَذَابِ الله . . . } [العنكبوت : 29] فلما لم يُجبهم إلى هذا الطلب الأحمق ، وظل يتابع دعوته لهم ، فلم ييأس منهم لجأوا إلى حيلة أخرى ، فقالوا { أخرجوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ . . . } [النمل : 56] والعلة { إِنَّهُمْ أُنَاسٌ

يَتَطَهَّرُونَ } [النمل : 56] لأن الطَّهْر في نظر هؤلاء عيب ، والاستقامة جريمة ، وهذا دليل على فساد عقولهم ، وفساد قياسهم في الحكم .
ثم يقول الحق سبحانه : { قَالَ رَبِّ انصرني . . . } .

قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (30)

وفَرْق بين الفاسد في ذاته والمفسد لغيره ، فيا ليتهم كانوا فاسدين في أنفسهم ، إنما كانوا فاسدين مفسدين ، يتعدَّى فسادهم إلى غيرهم .

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (31)

جاء هنا إبراهيم – عليه السلام – في سياق قصة لوط ، كما جاء لوط في سياق قصة إبراهيم .
ومعنى { رُسُلُنَآ . . . } [العنكبوت : 31] أي : من الملائكة؛ لأن الله تعالى قال : { الله يَصْطَفِي مِنَ الملائكة رُسُلاً وَمِنَ الناس . . . } [الحج : 75] .
وقد جاءت الملائكة لإبراهيم بالبشرى ، ولم يذكر مضمون البُشْرى هنا ، وهو البشارة بإسحق ويعقوب وذرية صالحة منهما ، وجاءته بإنذار بأن الله سيُهلك أهل هذه القرية ، وبالبشرى والإنذار يحدث التوازن؛ لأننا نُبشِّر إبراهيم بذرية صالحة مُصْلحة في الكون ، ونهلك أهل القرية الذين انحرفوا عن منهج الله .
وتلحظ في الآية أنها لم تذكر العلة في البُشْرى فلم تقل لأنه كان مؤمناً ومجاهداً وعادلاً ، إنما ذكرت العلة في إهلاك أهل القرية { أَهْلَهَا كَانُواْ ظَالِمِينَ } [العنكبوت : 31] لماذا؟ لأن المتفضّل لا يمنُّ بفضله على أنه عمل بمقابل ، لكن المعذب يبين سبب العذاب .
فماذا كان الانفعال الأوليّ عند إبراهيم – عليه السلام – ساعةَ سمع البُشْرى والإنذار؟ لم يسأل عن البشرى ، مع أنه كان متلهفاً عليها ، إنما شغلته مسألة إهلاك القرية ، وفيها ابن أخيه لوط .
لذلك قال : { قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً قَالُواْ . . . } .

قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (32)

فلم يستشرف إبراهيم للبشرى ، واهتم بمسألة إهلاك قرية قوم لوط؛ لأن فيها لوطاً مما يدلُّ على أن الإنسان لا يشغله الخير لنفسه عن الشر لغيره ، وهنا ردَّ الملائكة { نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا . . . } [العنكبوت : 32] فهذه مسألة لا تخفى علينا .
ثم يُطمئنونه على ابن أخيه { لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ . . . } [العنكبوت : 32] وأهله : تشمل كل

الأهل؛ لذلك استثنوا منهم { إلاَّ امرأته كَانَتْ مِنَ الغابرين } [العنكبوت : 32] .
والغابرون : جمع غابر ، ولها استعمالان في اللغة : نقول : الزمان الغابر أي الماضي ، وغابر بمعنى باقٍ أيضاً ، فهي إذن تحمل المعنى وضده؛ ذلك لأنهم جاءوا لإهلاك هذه القرية ، وامرأة لوط باقية لتهلك معهم ، وتذهب مع مَنْ سيذهبون بالإهلاك ، فهي إذن باقية في العذاب . فجاءت الكلمة { مِنَ الغابرين } [العنكبوت : 32] لتؤدي هذين المعنيين .
ثم يقول الحق سبحانه : { وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً . . . } .

وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (33)

شهد إبراهيم هذا الموقف مع لوط ، وعلم سبب حضورهم إليه ، لكن لماذا سيء بهم ، مع أنهم رسل الله ملائكة جاءوه على أحسن صورة؟ قالوا : لأن المَلَك يأتي على أجمل صورة ، حتى إذا أردنا أن نمدح شخصاً بالجمال نقول : مثل الملاك ، ومن ذلك قول النسوة لامرأة العزيز عن يوسف عليه السلام : { مَا هذا بَشَراً إِنْ هاذآ إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ } [يوسف : 31] .
فلما رآهم لوط على هذه الصورة خاف عليهم ، بدل أنْ يفرح بمرآهم الجميل؛ لأن قومه قوم سوء وأهل رذيلة ، ولا بُدَّ أنْ ينالوا ضيوفه بسوء؛ لذلك { سِيءَ بِهِمْ . . . } [العنكبوت : 33] أي : أصابه السوء بسببهم { وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً . . . } [العنكبوت : 33] الذرع هو طول الذراعين ، فنقول : فلان باعُه طويل . يعني : يتناول الأشياء بسهولة؛ لأن يده طويلة ، فالمعنى : ضاق بهم ذَرْعاً . يعني : لم يتسع جهده لحمايتهم من القوم .
ونلحظ هنا اختلاف السياق بين الآيتين : { وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَاهِيمَ . . . } [العنكبوت : 31] أما في لوط فقال : { وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً . . . } [العنكبوت : 33] لأنهم تأخروا بعض الشيء عند إبراهيم عليه السلام .
فلما أن أصابه السوء بمرآهم ، بدل أنْ يسعد بهم ، وخاف عليهم طمأنوه { وَقَالُواْ لاَ تَخَفْ وَلاَ تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امرأتك كَانَتْ مِنَ الغابرين } [العنكبوت : 33] لا تخفْ علينا من هؤلاء الأراذل ، فلسنا بشراً ، إنما نحن ملائكة ما جئنا إلا لنريحك منهم ، ونقطع جذور هذه الفِعْلة الخبيثة ، وسوف ننجيك وأهلك من العذاب النازل بهم .
ثم يستثنون من أهله { إِلاَّ امرأتك . . . } [العنكبوت : 33] فكثيراً ما ضايقته ، وأفشتْ أسراره ، ودلَّتْ القوم على ضيوفه {كَانَتْ مِنَ الغابرين } [العنكبوت : 33] الباقين في العذاب .
لكن ، ما الطريقة التي ستقضون بها على هؤلاء القوم؟

إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (34)

الرجز : العذاب ينزل عليهم من السماء ، والحجارة التي يمطرهم الله بها { بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ } [العنكبوت : 34] أي : بسبب فِسْقهم وخروجهم عن منهج الله .

وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (35)

لأن هذا العذاب استأصلهم ، وقضى عليهم ، وجعلهم عبرة لكل عاقل متأمل وآية في الكون لكل عابر بها ، كما قال سبحانه : { وَإِنَّكُمْ لَّتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ } [الصافات : 137]
إذن : فالعبرة باقية بأهل سَدُوم كلما مر الناس بقُراهم .
لذلك قال الله عنها { آيَةً بَيِّنَةً } [العنكبوت : 35] الآية : الشيء العجيب الذي يدعو للتأمل { بَيِّنَةً . . . } [العنكبوت : 35] واضحة كدليل باقٍ ، وظاهر لا يخفى على أحد { لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } [العنكبوت : 35] يعني : يبحثون ويتأملون بسبب ما حاق بهذه القرى ، وما نزل بها من عذاب الله .
ثم يقول الحق سبحانه : { وإلى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ . . . } .

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (36)

مدين : اسم من أسماء أولاد إبراهيم عليه السلام ، وسُمِّيت باسمه القبيلة؛ لأنهم كانوا عادة ما يُسمُّون القوم باسم أبرز أشخاصها ، فانتقل الاسم من الشخص إلى القبيلة ، ثم إلى المكان ، بدليل قوله تعالى في موضع آخر : { وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ . . . } [القصص : 23] فصارت مدين عَلَماً على البقعة ، وقالوا : إنها من الطور إلى الفرات .
هذه برقية موجزة لقصة مدين وأخيهم شعيب ، وقد ذُكِرت أيضاً في قصة موسى عليه السلام .
وقال { أَخَاهُمْ . . . } [العنكبوت : 36] ليدلّك أن الله تعالى حين يصطفي للرسالة يصطفي مَنْ له وُدٌّ بالقوم ، ولهم معرفة به وبأخلاقه وسيرته ، ولهم به تجربة سابقة ، فهو عندهم مُصلح غير مُفْسِد ، حتى إذا ما بلَّغهم عن الله صدَّقوه ، وكانت له مُقدِّمات تُيسِّر له سبيل الهداية .
وقوله : { فَقَالَ ياقوم اعبدوا الله . . . } [العنكبوت : 36] كلمة { ياقوم . . . } [العنكبوت : 36] : القوم لا تُقال إلا للرجال؛ لأنهم هم الذين يقومون لمهمات الأمور ، ويتحملون المشاق؛ لذلك يقول تعالى : { ياأيها الذين آمَنُواْ لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عسى أَن يَكُونُواْ خَيْراً مِّنْهُمْ وَلاَ نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عسى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ . . . } [الحجرات : 11]
فأطلق القوم ، وهم الرجال في مقابل النساء .

والعبادة : قلنا : طاعة الأمر والنهي { اعبدوا الله . . . } [العنكبوت : 36] أطيعوه فيما أمر ، وانتهوا عما نهى عنه ما دُمْتم قد آمنتم به إلهاً خالقاً ، فلا بُدَّ أنْ تسمعوا كلامه فيما ينصحكم به من توجيه بافعل ولا تفعل .

وتعلم أنه سبحانه بصفات الكمال أوجدك وأوجد لك الأشياء ، فأنت بعبادتك له لا تضيف إليه صفة جديدة ، فهو إله قبل أن توجد أنت ، وخالق بكامل القدرة قبل أنْ توجد ، وخلق لك الكون قبل أنْ توجد .

ثم بعد ذلك تعصاه وتكفر به ، فلا يحرمك خيره ، ولا يمنع عنك نعمه . إذن : فهو سبحانه يستحق منك العبادة والطاعة؛ لأن طاعته تعود عليك أنت بالخير .

لذلك سبق أنْ قُلْنَا إن كلمة (العبودية) كلمة مذمومة تشمئز منها النفس ، إنْ كانت عبودية للبشر؛ لأن عبودية البشر للبشر يأخذ فيها السيد خير عبده ، لكن عبودية البشر لله تعالى يأخذ العبد خير سيده ، فالعبودية لله عزٌّ وقوة ومنَعة وللبشر ذُلٌّ وهوان؛ لذلك نرى كل المصلحين يحاربون العبودية للبشر ، ويدعون العبيد إلى التحرر .

فأوَّل شيء أمر به شعيب قومه { اعبدوا الله . . . } [العنكبوت : 36] كذلك قال إبراهيم لقومه { اعبدوا الله واتقوه . . . } [العنكبوت : 16] ، لكن لوطاً عليه السلام لم يأمر قومه بعبادة الله ، إنما اهتم بمسألة الفاحشة التي استشرتْ فيهم ، مع أن كل الرسل جاءوا للأمر بعبادة الله .

ونقول في هذه المسألة : لم يأمر لوط قومه بعبادة الله؛ لأنه كان من شيعة إبراهيم عليه السلام ومؤمناً بديانته ، بدليل قوله تعالى : { فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ . . . } [العنكبوت : 26] فهو تابع له؛ لذلك ينفذ التعاليم التي جاء بها إبراهيم ، فلم يأمر بالعبادة لأن إبراهيم أمر القوم بها ، لكنه تحمَّل مسألة أخرى ، وخصَّه الله بمهمة جديدة ، هي إخراج قومه من ممارسة الفاحشة التي انتشرت بينهم .

وقوله تعالى : { وارجوا اليوم الأخر . . . } [العنكبوت : 36] فلا بُدَّ أن اليوم الآخر لم يكُنْ في بالهم ، ولم يحسبوا له حساباً ، كأنهم سيفلتون من الله ، ولن يرجعوا إليه؛ لذلك يُذكِّرهم بهذا اليوم ، ويحثُّهم على العمل من أجله .

وكيف لا نعمل حساباً لليوم الآخر؟ ونحن في الدنيا نعامل أنفسنا بنفس منطق اليوم الآخر؟ فأنت مثلاً تتعب وتشقى في زراعة الأرض ، وتتحمل مشاق الحرْث والبَذْر والسقي . . إلخ طوال العام ، لكن حين تجمع زرعك يوم الحصاد ، ويوم تملأ به مخازنك تنسى أيام التعب والمشقة ، وساعتها يندم الكسول الذي قعد عن العمل والسعي ، يوم الحصاد سترى أن أردب القمح الذي أخذتَه من المخزن وظننتَ أنه نقص من حسابك قد عاد إليك عشرة أرادبّ ، فأخْذُك لم يقلل إنما زاد .

وكذلك اليوم الآخر نفهمه بهذا المنطق ، فنتحمل مشاقّ العبادة والطاعات في الدنيا لننال النعيم الباقي في الآخرة؛ لأن نعيم الدنيا مهما كان ، يُنغصه عليك أمران : إما أنْ تفوته أنت بالموت ، أو يفوتك هو بالفقر .

أما في الآخرة فلا يفوتك نعيمها ولا تفوته . إذن : فالأَوْلى بك أنْ تزرع للآخرة ، وأن تعمل لها ألف حساب ، فإنْ كان في العبادة مشقة ، وللإيمان تَبعات ، فانظروا إلى عِظَم الجزاء ، وإذا استحضرتَ الثواب على الطاعة هانتْ عليك مشقة الطاعة ، وإذا استفظعت العقاب على المعصية ، زهدتَ فيها ونأيْتَ عنها .

إذن : الذي يجعل الإنسانَ يتمادى في المعصية أنه لا يستحضر العقاب عليها ، ويزهد في الطاعة؛ لأنه لا يستحضر ثوابها .

لذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » والمعنى : لو استحضر الإيمان ما فعل ، إنما غفل عن إيمانه فوقع في المعصية .

ومَن استحضر ثواب الطاعة وجد لها حلاوة في نفسه ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة : « أرحنا بها يا بلال » .

وقوله : { وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأرض مُفْسِدِينَ } [العنكبوت : 36] العثو : الفساد المستور والفساد يقال للظاهر ، فالمعنى : لا تعثَوا في الأرض عثواً ، فالمفعول المطلق بمعنى الفعل ، فقوله تعالى : { وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأرض مُفْسِدِينَ } [العنكبوت : 36] كما نقول : اجلس قعوداً .

والفاء في قوله : { فَقَالَ ياقوم اعبدوا الله . . . } [العنكبوت : 36] تدل على أنها تعطف هذا الكلام على كلام سابق ، والتقدير : وأرسلنا إلى مدين أخاهم شعيباً فقال : يا قوم إني رسول الله إليكم ، ثم ذكر المطلوب منهم { ياقوم اعبدوا الله . . . } [العنكبوت : 36]

والجمع بين عبادة الله ورجاء اليوم الآخر يعني : لا تفصلوا العبادة عن غايتها والثواب عليها ، ولا تفصلوا المعصية عن عقابها .

وقوله : { وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأرض مُفْسِدِينَ } [العنكبوت : 36] فلا أقول لكم : أصلحوا فلا أقلَّ من أن تتركوا الصالح على صلاحه لا تفسدوه؛ لأن الخالق – عز وجل – أعدَّ لنا الكون على هيئة الصلاح ، وعلينا أنْ نُبقيه على صلاحه .

فالنيل مثلاً هبة من هِبَات الخالق ، وشُريان للحياة يجري بالماء الزلال ، وتذكرون يوم كان الفيضان يأتي بالطمي فترى الماء مثل الطحينة تماماً ، وكذا نملأ منه (الزير) ، وبعد قليل يترسب الطمي آخذاً معه كل الشوائب ، ويبقى الماء صافياً زلالاً . أما الآن فقد أصابه التلوث وفسَد ماؤه بما يُلْقى فيه من مُخلَّفات ، وأصبحنا نحن أول مَنْ يعاني آثار هذا التلوث .

لذلك أصبح ساكن المدن مهما توفرت له سُبُل الحضارة لا يرتاح إلا إذا خرج من المدينة إلى أحضان الطبيعة البِكْر التي ظلتْ على طبيعتها كما خلقها الله ، لا ضوضاء ، ولا ملوثات ، ولا كهرباء ، ولا مدنية .
ثم يقول الحق سبحانه : { فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرجفة . . . } .

فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (37)

فلماذا يُكذّب الناس دعوة الخير؟
قالوا : لا يُكذِّب دعوة الخير إلا المستفيدون من الشر؛ لأن الخير سيقطع عليهم الطريق ، ويسحب منهم مكانتهم وسلطتهم وسيادتهم ، فكل الذين عارضوا رسل الله كانوا أكابر القوم ورؤساءهم ، وقد ألفوا السيادة والعظمة ، واعتادوا أن يكون الناس عبيداً لهم ، فكيف إذن يُفسِحون الطريق للرسل ليأخذوا منهم هذه المكانة؟
وإلا ، فلماذا كان عبد الله بن أُبَيّ يكره رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ لأنه يوم وصل رسول الله إلى المدينة كانوا يُعِدُّون التاج لعبد الله بن أبي ، لينصبوه مَلِكاً على المدينة ، فلما جاءها رسول الله شغلوا بهذا الحدث الكبير ، وانصرفوا عن هذه المسألة .
لكن ، ماذا قال شعيب لقومه حتى يُكذِّبوه؟ لقد قال لهم أمرين هما : { اعبدوا الله وارجوا اليوم الأخر } [العنكبوت : 36] ونهي واحد في { وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأرض مُفْسِدِينَ } [العنكبوت : 36] ومعلوم أن الأمر والنهي قوْل لا يحتمل الصِّدْق ، ولا يحتمل الكذب؛ لأنه إنشاء وليس خبراً ، لأنه ما معنى الكذب؟ الكذب أن تقول لشيء وقع أنه لم يقع ، أو لشيء لم يقع أنه وقع ، وهذا يسمونه خبراً .
فإنْ وافق كلامك الواقعَ فهو صِدْق ، وإنْ خالف الواقع فهو كذب ، إذن : كيف نحكم على ما لم تقع له نسبة أنه صِدْق أو كذب؟ حينما تقول مثلاً : قِفْ . هل نقول لك إنك كاذب؟ لا ، لأن واقع الإنشاء لا يأتي إلا بعد أنْ تتكلم ، لذلك قسَّموا الكلام العربي إلى خبر وإنشاء .
ولكي نبسط هذه المسألة على المتعلم نقول : المتكلم حين يتكلم يأتي بنسبة اسمها نسبة كلامية ، قبل أن يتكلم بها جالتْ في ذهنه ، فقبل أن أقول : زيد مجتهد دارتْ في ذهني هذه المسألة ، وكان في الواقع يوجد شخص اسمه زيد وهو مجتهد فعلاً .
إذن : عندنا نسبة ذهنية ، ونسبة كلامية ، ونسبة واقعية ، فإنْ وُجِدت النسبة الواقعية قبل الذهنية والكلامية ، فالكلام هنا خبر يُوصَف بالصدق أو يُوصَف بالكذب .
إذن : النسبة الواقعية لا تأتي نتيجة النسبة الكلامية ، إنما حين تقول : قف فتأتي النسبة الواقعية نتيجة النسبة الكلامية ، وما دامت النسبة الواقعية تأخرتْ عن الكلامية ، فلا يُوصَف القول إذن لا بصدْق ولا بكذب .

ونعود إلى قول نبي الله شعيب نجده عبارة عن أمرين : { اعبدوا الله وارجوا اليوم الأخر . . . } [العنكبوت : 36] ونهي واحد : { وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأرض مُفْسِدِينَ } [العنكبوت : 36] والأمر والنهي من الإنشاء الذي لا يُوصَف بالصِّدْق ولا بالكذب ، فكيف إذن يُكذِّبونه؟

فأول إشكال : { فَكَذَّبُوهُ . . . } [العنكبوت : 37] ومنشأ هذا الإشكال عدم وجود الملَكَة العربية التي يفهمون بها كلام الله . فالحق سبحانه قال هنا { فَكَذَّبُوهُ . . . } [العنكبوت : 37] لأنه أمرهم بعبادة الله وهو رسول من عند الله فيأمرهم بعبادته؛ لأن عبادته تعالى واجبة عليهم ، وما أمرهم إلا ليُؤدُّوا الواجب عليهم ، واليوم الآخر كائن لا محالة فارجوه ، والإفساد في الأرض مُحرم .

إذن : فالمعنى يحمل معنى الخبر ، فالأمران هنا ، والنهي أمر واجب فكذَّبوه لعلّة الأمرين ، ولعلَّة النهي .

ومعنى { اعبدوا الله . . . } [العنكبوت : 36] خصُّوه سبحانه بالعبادة ، وهي الطاعة في الأمر والانتهاء عن المنهي عنه ، وهذه العبادة مطلوبة من الكل ، وهي شريعة كل الأنبياء والرسل : { شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدين مَا وصى بِهِ نُوحاً والذي أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وموسى وعيسى أَنْ أَقِيمُواْ الدين وَلاَ تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ . . . } [الشورى : 13] .

إذن : فمسألة العبادة والإيمان باليوم الآخر من القضايا العامة التي لا تختلف فيها الرسالات ، أما الشرائع : افعل كذا ، ولا تفعل كذا فتختلف من نبي لآخر .

ومعنى : { وارجوا اليوم الأخر . . } [العنكبوت : 36] أي : اعملوا ما يناسب رجاءكم لليوم الآخر ، وأنت لماذا تحب اليوم الآخر ، ولماذا ترجوه؟ لا يحبه ولا يرجوه إلا مَنْ عمل عملاً صالحاً فينتظره لينال جزاء عمله وثواب سَعْيه ، وإلا لو كانت الأخرى لقال : وخافوا اليوم الآخر .

إذن : الرجاء معناه : اعملوا ما يُؤهّلكم لأنْ ترجُوا اليوم الآخر ، والإنسان لا يرجو إلا النافع له . وهنا لك أنْ تسأل : هل إذا آمن الإنسان ونفَّذ أحكام ربه أمراً ونهياً ، فجزاؤهم في الآخرة رجاء يرجوه أم حَقٌّ له؟ المفروض أن يقول للطائعين : ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ، فهي واجبة له ومن حَقِّه ، فكيف يسميه القرآن رجاءً وهو واقع؟

قالوا : لأن جزاءنا في الجنة فَضْلٌ من الله ، لأنه سبحانه خلقنا وخلق لنا ، وأمدَّنا بالطاقات والنعم قبل أنْ يُكلِّفنا شيئاً ، فحين تعبد الله حقَّ العبادة فإنك لا تقضي ثمن جميله عليك ، ولا توفيه سبحانه ما يستحق ، فإذا أثابك في الآخرة فبمحْض فَضْله وكرمه .

لذلك قال سبحانه : { قُلْ بِفَضْلِ الله وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ } [يونس : 58] .

كما لو أنكَ استخدمت أجيراً بمائة جنيه مثلاً في الشهر ، وقبل أن يعمل لك شيئاً أعطيته أجره

فهل يطلب منك أجراً آخر؟ فلو جئتَ في آخر الشهر وأعطيته عشرة جنيهات ، فهي فَضْل منك وتكرُّم .
لذلك قال { وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأرض مُفْسِدِينَ } [العنكبوت : 36] لأن الجزاء في الآخرة عند التحقيق والتعقُّل محض فَضلْ من الله؛ لذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم : « لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمَّدني الله برحمته » .
والنهي في : { وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأرض مُفْسِدِينَ } [العنكبوت : 36] أي : لا تفسدوا فساداً ظاهراً ، أو : لا تعملوا أعمالاً هي في ظنكم نافعة وهي ضارة ، تذكرون زمان كان القطن هو المحصول الرئيسي في مصر ومصدر الدَّخلْ ، وكانت تهدده دودة القطن فنقاومه مقاومة يدوية ، إلى أنْ خرج علينا الأمريكان بالمبيدات ، واستخدمنا مادة اسمها (دي دي تي) فقضتْ على الدودة في بادئ الأمر ، وظنَّ الفلاح أن هذه المشكلة قد حُلّت .

لكن بعد سنوات تعودتْ الدودة على هذه المادة ، وأصبح عندها حصانة ، وكأن (الدي دي تي) أصبح (كيفاً) عندها ، وبدأنا نحن نعاني الأمرَّين من آثار هذه المبيدات في الماء ، وفي التربة ، وفي الزراعة ، وفي صحة الإنسان والحيوان . إذن : ينبغي النظر في العواقب قبل البدء في الشيء ، وأنْ يُقاسَ الضرر والنفع .
كذلك الحال عندما اخترعوا السيارات ، وقالوا : إنها ستريح الناس في أسفارهم وفي حمل أمتعتهم ، وبعد ما توصل العالم إليه من ثورة في وسائل النقل لو قارنا نفعها بضررها لوجدنا أن ضررها أكبر لما تُسبِّبه من تلوث ، ولو عُدْنا إلى الوسائل البدائية ، واستخدمنا الدواب لكان أفضل .
وأذكر عندما جئنا إلى مصر سنة 1936 – 1938 وجدنا في الميادين العامة مواقفَ للحمير ، مثل مواقف السيارات الآن ، وكانت هي الوسيلة الوحيدة للانتقال ، ويكفي أن رَوَثَ الحمار يُخصِّب الأرض ، أمّا عوادم السيارات فتسبب أخطر الأمراض وتؤدي للموت .
فماذا بعد أنْ كذَّب قومُ شعيب نبيهم؟
كانت سنة الله في الأنبياء قبل محمد صلى الله عليه وسلم أن يُبلِّغ الرسول رسالة ربه ، لكن لا يُؤمر بحمل السيف ضد الكفار ، إنما إنْ كذّبوا بالآيات عاقبهم رب العزة سبحانه ، وتُحسم المسألة بهلاك المكذِّبين .
وكوْن الحق – تبارك وتعالى – لا يأمر الناسَ بقتال الكفار هذا أمر منطقي ، والدليل رأيناه في بني إسرائيل لما طلبوا من الله أنْ يفرض عليهم القتال ، فقال : { هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ القتال أَلاَّ تُقَاتِلُواْ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ الله وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ القتال تَوَلَّوْاْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ . . } [البقرة : 246] .
ولم يُؤْمر بالقتال لنشر الدعوة إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم

ومَنْ آمن معه مأمونون على هذا ، ولأنه صلى الله عليه وسلم آخر الرسل والأنبياء ، فلا بُدَّ أن يستوفي كل الشروط .
ونتيجة التكذيب { فَأَخَذَتْهُمُ الرجفة فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ } [العنكبوت : 37] وهذا عقاب الله؛ لأنه كان سبحانه يتولّى المكذِّب . وفي (الحجر) وفي (هود) قال (الصيحة) وحتى لا تتهم الآيات بالتضارب نقول : الصيحة : صوت شديد مزعج ، وهذا الصوت لا نسمعه إلا بتذبذب الهواء بشدة ، ولو كان تذبذب الهواء بلطف ما سميت صيحة .
إذن : الصيحة تخلخل في الهواء بشدة؛ لا بد أنْ ينتج عنه رجفة أي : هزة شديدة كالتي تهدم بالبيوت والعمارات نتيجة قنبلة مثلاً ، فالصيحة وُجدت أولاً ، تبعتها الرجفة ، لكن القرآن مرة يذكر الأصل فيقول (الصيحة) ومرة يذكر النتيجة فيقول (الرجفة) .
{ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ } [العنكبوت : 37] قال (فَأَصْبَحُوا) ولم يقُلْ مثلاً : فصاروا ليُحدِّد وَقْت أخذهم بالصباح ، والعادة أن تكون الإغارة وقت الصباح قبل أن يستعد خَصْمك لملاقاتك ، فما يزال في أعقاب النوم خاملاً ، وإلى الآن يفضل رجال الحرب والقادة أن تبدأ الحرب في الصباح ، حيث يُفَاجأ بها العدو .

وقد أصبح هذا الوقت قضية عامة ، تُعَدُّ مخالفتها من قبيل المكْر والخدعة في الحرب ، كما خالفها قادتنا في حرب أكتوبر 73 ، حيث فاجأوا عدوهم في وقت الظهيرة ، وقد تمت لهم المفاجأة ، وأخذوا عدوهم على غِرَّة؛ لأنهم غيَّروا الوقت المعتاد ، وهو الصبح .
إذن : على الإنسان ألاَّ يتخذ في أموره قضية رتيبة ، بل يُخضِع أموره لما يناسبها .
ومن الطرائف : حرص الرجل على أنْ يوقظ ولده مبكراً ليذهب إلى عمله ، ويقضي مصالحه ، فقال له الوالد : ابن فلان استيقظ مبكراً ، فوجد محفظة بها مائة جنيه ، فقال الولد – وكان كسولاً لا يريد أن يستيقظ مبكراً : هذه المحفظة وقعتْ من واحد استيقظ قبله .
ومعنى { جَاثِمِينَ } [العنكبوت : 37] يعني : هامدين بلا حراك .
ثم تنتقل بنا الآيات إلى لقطات أخرى موجزة من مواكب الرسالات ، وكأنها برقيات : { وَعَاداً وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ . . . } .

وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (38)

نلحظ في هذه البرقيات السريعة أنها تذكر المقدمة ، ثم النهاية مباشرة { وَعَاداً وَثَمُودَاْ . . . } [العنكبوت : 38] هذه المقدمة { وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ . . . } [العنكبوت : 38] هذا موجز لما نزل بهم ، وكأن الحق سبحانه يقول لنا : لن أحكي لكم ما حاق بهم؛ لأنكم

تشاهدون ديارهم ، وتمرون عليها ليل نهار { وَإِنَّكُمْ لَّتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وبالليل أَفَلاَ تَعْقِلُونَ } [الصافات : 137-138] .

والآن مع الثورة العلمية استطاعوا تصوير ما في باطن الأرض ، وظهرت كثير من الآثار لهذه القرى عاد وثمود والأحقاف ، واقرأ قوله سبحانه وتعالى : { أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ العماد } [الفجر : 6-7] .

وطبيعي الآن أن نجد آثار السابقين تحت التراب ، ولا بُدَّ أن نحفر لنصل إليها؛ لأن عوامل التعرية طمرتْها بمرور الزمن ، ولِمَ لا والواحد منّا لو غاب عن بيته شهراً يعود فيجد التراب يغطي أسطح الأشياء ، مع أنه أغلق الأبواب والنوافذ ، ولك أن تحسب نسبة التراب هذه على مدى آلاف السنين في أماكن مكشوفة .

وحكَوْا أن الزوابع والعواصف الرملية في رمال الأحقاف مثلاً كانت تغطي قافلة بأكملها ، إذن : كيف ننتظر أن تكون آثار هذه القرى باقية على سطح الأرض؟ والآن نشاهد في الطرق الصحراوية مثلاً إذا هبَّتْ عاصفة واحدة فإنها تغطي الطرق بحيث تعوق حركة المرور إلى أنْ تُزَاح عنها هذه الطبقة من الرمال .

إذن : علينا أن نقول : نعم يا رب رأينا مساكنهم ومررنا بها - ولو من خلال الصور الحديثة التي التقطت لهذه القرى { وَزَيَّنَ لَهُمُ الشيطان أَعْمَالَهُمْ . . . } [العنكبوت : 38] يعني : أغواهم بالكفر ، وأقنعهم أنه الأسلوب السليم والأمثل في حركة الحياة { فَصَدَّهُمْ عَنِ السبيل . . . } [العنكبوت : 38] فما دام قد زيَّن لهم سبيل الشيطان فلا بُدَّ أنْ يصدَّهم عن سبيل الإيمان { وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ } [العنكبوت : 38] يعني : لم نأخذهم على غِرَّة .

لأن المبدأ الذي اختاره الله تعالى لخلقه { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً } [الإسراء : 15] رسولاً يُبيِّن لهم وينذرهم ، ويحذرهم عاقبة الكفر؛ لذلك لم يأخذهم الله تعالى إلا بعد أنْ أرسل إليهم رسولاً فكذَّبوه .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ . . . } .

وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (39)

مازالت الآيات تُحدِّثنا عن مواكب الرسالات ، لكنها تتكلم عن المكذِّبين عاداً وثمود ، وهنا { وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ . . . } [العنكبوت : 39] والدليل على قوله سبحانه في الآية السابقة { وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ } [العنكبوت : 38] قوله تعالى هنا { وَلَقَدْ جَآءَهُمْ موسى بالبينات . . . } [العنكبوت : 39] أي : بالأمور الواضحة التي لا تدع مجالاً للشك في صدق الحق سبحانه ، وفي صِدْق الرسول في البلاغ عن الله .

{ فاستكبروا فِي الأرض . . . } [العنكبوت : 39] استكبر : يعني افتعل الكِبْر ، فلم يقُلْ تكبَّر ، إنما استكبر كأنه في ذاته ما كان ينبغي له أنْ يستكبر؛ لأن الذي يتكبّر يتكبَّر بشيء ذاتي فيه ، إنما بشيء موهوب؟ لأنه قد يسلب منه ، فكيف يتكبَّر به؟
لذلك نقول للمتكبِّر أنه غفلت عينه عن مَرأْى ربه في آثار خَلْقه ، فلو كان ربه في باله لاستحى أنْ يتكبّر .
فالإنسان لو أنه يلحظ كبرياء ربه لَصَغُر في نفسه ، ولاستحى أن يتكبَّر ، كما أن المتكبر بقوته وعافيته غبي؛ لأنه لم ينظر في حال الضعيف الذي يتعالى عليه ، فلربما يفوقه في شيء آخر ، أو عنده عبقرية في أمر أهم من الفتوة والقوة ، ثم ألم ينظر هذا الفتوة أنها مسألة عرضية ، انتقلتْ إليه من غيره ، وسوف تنتقل منه إلى غيره .
إذن : فقارون وفرعون وهامان لما جاءهم موسى بآيات الله الواضحات استكبروا في الأرض ، وأنفوا أن يتبعوا لا بطبيعتهم وطبيعة وجود ذلك فيهم ، إنما افتعالاً لغير حق { وَمَا كَانُواْ سَابِقِينَ } [العنكبوت : 39] فنفى عنهم أن يكونوا سابقين ، كما قال سبحانه : { وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ } [الواقعة : 60] .
والسبق لا يُمدح ولا يُذم في ذاته ، لكن بنتيجته : إلى أيِّ شيء سبق؟ كما نسمع الآن يقولون : فلان رجعي ، والرجعية لا تُذَم في ذاتها ، وربما كان الإنسان مُسْرفاً على نفسه ، ثم رجع إلى منهج ربه ، فنِعِمْ هذه الرجعية ، فالسبق لا يُذَم لذاته ، واقرأ إنْ شئت قوله تعالى : { وسارعوا إلى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ . . . } [آل عمران : 133] أي : سابقوا .
والمعنى هنا { وَمَا كَانُواْ سَابِقِينَ } [العنكبوت : 39] أن هناك مضمارَ سباق ، فمن سبق قالوا : أحرز قَصَب السبق ، فإنْ كان مضمار السباق هذا في الآخرة أيسبقنا أحد ليفلتَ من أخْذنا له؟ إنهم لن يسبقونا ، ولن يُفلِتوا من قبضتنا ، ولن يُعجِزوا قدرتنا على إدراكهم .
ويقول الحق سبحانه : { فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّن أَرْسَلْنَا . . . } .

فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (40)

الكلام هنا عن المكذِّبين والكافرين الذين سبق ذكرهم : قوم عاد ، وثمود ، ومدين ، وقوم لوط ، وقارون ، وفرعون ، وهامان ، فكان من المناسب أنْ يذكر الحق سبحانه تعليقاً يشمل كُلَّ هؤلاء لأنهم طائفة واحدة . فقال : { فَكُلاًّ . . . } [العنكبوت : 40] أي : كل مَنْ سبق ذكرهم من المكذّبين فالتنوين في { فَكُلاًّ . . . } [العنكبوت : 40] عوض عن كل من تقدَّم ذكرهم ، كالتنوين في : { وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ } [الواقعة : 84] فهو عِوَض عن جملة { فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الحلقوم } [الواقعة : 83] .

وقوله سبحانه : { أَخَذْنَا بِذَنبِهِ . . . } [العنكبوت : 40] والأخذ يناسب قوة الأخذ وقدرته؛ لذلك يقول سبحانه عن أخْذه للمكذِّبين { أَخْذَ عِزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ } [القمر : 42] فالعزيز : الذي يغلب ولا يُغلب ، والمقتدر أي : القادر على الأَخْذ ، بحيث لا يمتنع منه أحد؛ فهو عزيز .

والأخذ هنا بسبب الذنوب { بِذَنبِهِ . . . } [العنكبوت : 40] ليس ظلماً ولا جبروتاً ولا جزافاً ، إنما جزاءً بذنوبهم وعدلاً؛ ولذلك يأتي في تذييل الآية :

{ وَمَا كَانَ الله لِيَظْلِمَهُمْ ولكن كانوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } [العنكبوت : 40] .

ثم يُفصِّل الحق سبحانه وتعالى وسائل أَخْذه لهؤلاء المكذبين : { فَمِنْهُم مَّن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً . . . } [العنكبوت : 40] الحاصب : هو الحصَى الصِّغار ترمي لا لتجرح ، ولكن يُحْمي عليها لتكون وتلسع حين يرميهم بها الريح ، ولم يقُلْ هنا : أرسلنا عليهم ناراً مثلاً؛ لأن النار ربما إنْ أحرقته يموت وينقطع ألمه ، لكن رَمْيهم بالحجارة المحمية تلسعهم وتُديم آلامهم ، كما نسمعهم يقولون : سأحرقه لكن على نار باردة؛ ذلك ليطيل أمد إيلامه .

ثم يقول سبحانه : { وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصيحة . . . } [العنكبوت : 40] وهو الصوت الشديد الذي تتزلزل منه الأرض ، وهم ثمود { وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأرض . . . } [العنكبوت : 40] أي : قارون { وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا . . . } [العنكبوت : 40] وهم قوم نوح ، وفرعون .

هذه وسائل أربعة لإهلاك المكذِّبين ، النار في الحصباء ، والهواء في الصيحة ، والتراب في الخسف ، ثم الماء في الإغراق ، ورحم الله الفخر الرازي حين قال في هذه الآية أنها جمعت العناصر التي بها وجود الإنسان والعناصر الأساسية أربعة : الماء والنار والتراب والهواء . وكانوا يقولون عنها في الماضي العناصر الأربعة ، لكن العلم فرَّق بعد ذلك بين العنصر والمادة .

فالمادة تتحلَّل إلى عناصر ، أمّا العناصر فلا يتحلل لأقل منه ، فهو عبارة عن ذرات متكررة لا يأتي منها شيء آخر ، فالهواء مادة يمكن أنْ نُحلِّله إلى أكسجين و . . . إلخ وكذلك الماء مادة تتكوَّن من عدة عناصر وذرات إلى أن جاء (مندليف) ووضع جدولاً للعناصر ، وجعل لكل منهما رقماً أسماها الأرقام الذرية ، فهذا العنصر مثلاً رقم واحد يعني : يتكون من ذرة واحدة ، وهذا رقم اثنين يعني يتكون من ذرتين . . إلخ إلى أنْ وصل إلى رقم 93 ، لكن وجد في وسط هذه الأرقام أرقاماً ناقصة اكتشفها العلماء فيما بعد .

فمثلاً ، جاءت مدام كوري ، واكتشفت عنصر الراديوم ، فوجدوا فعلاً أن رقمه من الأرقام الناقصة في جدول (مندليف) ، فوضعوه في موضعه ، وهذا يدل على أن الكون مخلوق بعناصر مرتبة وصلت مع التقدم العلمي الآن إلى 105 عناصر .

ولما حلَّل العلماء عناصر التربة المخصبة التي نأكل منها المزروعات وجدوها 16 عنصراً ، تبدأ بالأكجسين كأعلى نسبة ، وتنتهي بالمنجنيز كأقل نسبة ، لأنها لم تصل إلى الواحد من الألف .
فلما حلَّلوا عناصر جسم الإنسان وجدوا نفس هذه العناصر الستة عشرة . .
وكأن الحق – سبحانه وتعالى – أقام حتى الكفار ليثبتوا الدليل على صِدْقه تعالى في خَلْق الإنسان من طين ، لنعلم أن الحق سبحانه حينما يريد أنْ يُظهِر سِرّاً من أسرار كونه يأتي ربه ولو على أيدي الكفار .
وأول مَنْ قال بالعناصر الأربعة التي يتكون منها الكون فيلسوف اليونان أرسطو الذي توفي سنة 384 قبل الميلاد ، وعلى أساس هذه العناصر الأربع كانوا يحسبون النجم ، فمثلاً عن الزواج يحسبون نجم الزوج والزوجة حسب هذه العناصر ، فوجدوا نجم الزوج هواءً ، ونجم الزوجة ناراً ، فقالوا (هيجعلوها حريقة) ، وفي مرة أخرى وجدوا الزوجة مائية والزوج ترابياً فقالوا (هيعملوها معجنة) .
ومعلوم أن الحق سبحانه لطلاقة قدرته وتعالى يجعل عناصر البقاء هي نفسها عناصر الفناء ، وهو سبحانه القادر على أنْ يُنجي ويُهلك بالشيء الواحد ، كما أهلك فرعون بالماء ، وأنجى موسى – عليه السلام – بالماء .
كذلك حين نتأمل هذه العناصر الأربعة نجدها عناصر تكوين الإنسان ، حيث خلقه الله من ماء وتراب فكان طيناً ، ثم جفَّ بالحرارة حتى صار صلصالاً كالفخار ، ثم هو بعد ذلك يتنفس الهواء ، فبنفس هذه العناصر التي كان منها الخَلْق يكون بها الهلاك .
والحق – سبحانه وتعالى – يريد من خَلْقه أنْ يُقبلوا على الكون في كل مظاهره وآياته بيقظة ليستنبطوا ما فيه من مواطن العبر والأسرار؛ لذلك نجد أن كل الاكتشافات جاءت ، نتيجة دِقَّة الملاحظة لظواهر الكون .
ويلفتنا ربنا إلى أهمية العلم التجريبي ، فيقول : { وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السماوات والأرض يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ } [يوسف : 105] فينبغي إذن أن نتأمل فيما نرى وما توصَّل الإنسان إلى عصر البخار وإلى قانون الطَّفْو عند أرشميدس ، وما توصل إلى الكهرباء والجاذبية والبنسلين إلا بالتأمل الدقيق لظواهر الأشياء ، لذلك فالملاحظة هي أساس كل علم تجريبي أولاً ، ثم التجريب ثانياً ، ثم إعادة التجريب لتخرج النتيجة العلمية .
والهواء سبب أساسي في حياة الإنسان ، وبه يحدث التوازن في الكون ، لكن إنْ أراد الحق سبحانه جعله زوبعة أو إعصاراً مدمراً . وسبق أن قلنا : إنك تصبر على الطعام شهراً ، وعلى الماء عشرة أيام ، لكن لا تصبر على الهواء إلا بمقدار شهيق وزفير ، فالهواء إذن أهم سبب من أسباب بقاء الحياة؛ لذلك نسمعهم يقولون في شدة الكيد : (والله لأكتم أنفاسه) لأنها السبيل المباشر إلى الموت؛ لذلك فالهواء عامل أساسي في وسائل الإهلاك المذكورة .

وبالهواء تحفظ الأشياء توازنها ، فالجبال العالية والعمارات الشاهقة ما قامت بقوة المسلحات والخرسانات ، إنما بتوازن الهواء ، بدليل أنك لو فرَّغْتَ جانباً منها من الهواء لانهارتْ في هذا الجانب فوراً .

وبهذه النظرية يحدث الدمار بالقنابل؛ لأنها تعتمد على نظرية تفريغ الهواء وما يسمونه مفاعل القبض ومفاعل البسط ، فما قامتْ الأشياء من حولك إلا لأن الهواء يحيط بها من كل جهاتها .

وقلنا : إن القرآن الكريم حينما يحدثنا عن الهواء يحدثنا عنه بدقة الخالق الخبير ، فكل ريح مفردة جاءت للتدمير والإهلاك ، وكل ريح بصيغة الجمع للنماء والخير والإعمار ، واقرأ إن شئت قوله تعالى : { وَأَرْسَلْنَا الرياح لَوَاقِحَ . . . } [الحجر : 22] .

وقوله سبحانه : { وَأَمَا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ } [الحاقة : 6] لأنها ريح واحدة تهبُّ من جهة واحدة فتدمر .

ثم تُختم الآية بهذه الحقيقة : { وَمَا كَانَ الله لِيَظْلِمَهُمْ ولكن كانوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } [العنكبوت : 40] لأن الخالق – عز وجل – كرَّم الإنسان { وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي ءَادَمَ . . . } [الإسراء : 70] كرَّمه من بين جميع المخلوقات بالعقل والاختيار ، فإذا نظرتَ في الكون واستقرأتَ أجناس الوجود لوجدتَ الإنسان سيد هذا الكون كله .

فالأجناس في الكون مرتبة : الإنسان ودونه مرتبة الحيوان ، ثم النبات ، ثم الجماد ، فالجماد إذا أخذ ظاهرة من ظواهر فَضْل الحق عليه من النمو يصير نباتاً ، وإذا أخذ النبات ظاهرة من ظواهر فيض الحق على الخَلْق فأعطاه مثلاً الإحساس يصير حيواناً ، فإذا تجلى عليه الحق سبحانه بفضله وأعطاه نعمة العقل يصير إنساناً .

لكن هل النبات حين يأخذ خاصية النمو فَفُضِّل عن الجماد يخرج عن الجمادية؟ لا إنما تظل فيه الجمادية بدليل أنه إذا امتنع عنه النمو يعود جماداً كالحجر ، وكذلك الحيوان أخذ ظاهرة الحسِّ وتميَّز بها عن النبات ، لكن تظل فيه النباتية حيث ينمو ويكبر .

والإنسان وهو سيد الكون الذي كرَّمه ربه بالعقل تظل فيه الجمادية بدليل أثر الجاذبية عليه ، فإذا ألقى بنفسه من مكان عالٍ لا يستطيع أن يمسك نفسه في الهواء ، وكذلك تظل فيه النباتية والحيوانية ، ففيه إذن كل خصائص الأجناس الأخرى دونه ، ويزيد عليهم العقل .

لذلك لا يكلّفه الله إلا بعد أنْ ينضج عقله ويبلغ ، وبشرط أن يسلم من العطب في عقله كالجنون مثلاً ، وأن يكون مختاراً فالمكره لا تكليفَ عليه؛ لأنه غير مختار .

والإنسان الذي كرَّمه ربه بالعقل والاختيار ، وفضَّله على كل أجناس الوجود لا يليق به أن يخضع أو يعبد إلا أعلى منه درجة ، أما أنْ يتدنى فيعبد ما هو أقل منه رتبة ، فهذا شيء عجيب لا يليق به ، فالعابد لا بُدَّ أنْ يكون أدنى درجةً من المعبود ، وأنت بالحكم أعلى درجة مما تحتك من الحيوان والنبات والجماد ، فكيف تجعله يتصرف فيك ، مع أنه من تصرفاتك أنت حين تُوجِده

نَحْتاً ، وتقيمه في المكان الذي تريده وإن انكسر تصلحه؟!!
إذن : كرَّمك ربك ، وأهنْتَ نفسك ، ورضيت لها بالدونية ، جعلك سيداً وجعلت نفسك عبداً لأحقر المخلوقات؛ لذلك يقول تعالى في الحديث القدسي

« يا ابن آدم ، خلقتُك من أجلي ، وخلقتُ الكون كله من أجلك ، فلا تشتغل بما هو لك عما أنت له » .

إذن : { وَمَا كَانَ الله لِيَظْلِمَهُمْ . . . } [العنكبوت : 40] أي : لا ينبغي لله تعالى أنْ يظلمهم ، فساعةَ تسمع ما كان لك أنْ تفعل كذا ، فالمعنى أنك تقدر على هذا ، لكن لا يصح منك ، فالحق سبحانه ينفي الظلم عن نفسه ، لا لأنه لا يقدر عليه ، إنما لا ينبغي له أنْ يظلم؛ لأن الظلم يعني أن تأخذ حقَّ الغير ، والله سبحانه مالك كل شيء ، فلماذا يظلم إذن .

ومثال ذلك نَفْي انبغاء قول الشعر من رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال سبحانه : { وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشعر وَمَا يَنبَغِي لَهُ . . . . } [يس : 69] فالنبي صلى الله عليه وسلم كان يستطيع أن يقول شعراً ، فلديه كل أدواته ، لكن لا ينبغي للرسول أن يكون شاعراً؛ لأنهم كذابون ، وفي كل واد يهيمون ، ففَرْق بين انبغاء الشيء ووجوده فعلاً .

ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى : { وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ } [فصلت : 46] بصيغة المبالغة ظلام ، ولم يقل ظالم ، لماذا؟ لأن الله تعالى إنْ أباح لنفسه سبحانه الظلم ، فسيأتي على قَدْر قوته تعالى ، فلا يقال له ظالم إنما ظلاَّم - وتعالى الله عن هذا عُلُواً كبيراً .

ولما تكلمنا عن المبالغة وصيغها قلنا : إن المبالغة قد تكون في الحدث ذاته ، كأن تأكل في الوجبة الواحدة رغيفاً ، ويأكل غيرك خمسة مثلاً ، أو تكون في تكرار الحدث ، فأنت تأكل ثلاث وجبات ، وغيرك يأكل ستاً ، فنقول : فلان آكل ، وفلان أَكُول أو أكال ، فالمبالغة نشأتْ إما من تضخيم الحدث ذاته ، أو من تكراره .

ففي قوله تعالى : { وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ } [فصلت : 46] لم يقل للعبد ، إذن : تعدُّد الناس يقتضي تعدُّد الظلم - إن تُصور - فجاء هنا بصيغة المبالغة (ظَلاَّم) .

وهناك قضية لغوية في مسألة المبالغة تقول : إن نَفْي المبالغة لا ينفي الأصل ، وإثبات الأصل لا يثبت المبالغة ، فحين نقول مثلاً : فلان أكول ، فهو آكل من باب أَوْلَى ، وحين نقول : فلان آكل ، فلا يعني هذا أنه أكول . فنَفْي المبالغة في { وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ } [فصلت : 46] لا ينفي الأصل (ظالم) ، وحاشا لله تعالى أن يكون ظالماً .

وقوله تعالى : { ولكن كانوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } [العنكبوت : 40] وظلمهم لأنفسهم جاء من تدنّيهم وإهانتهم لأنفسهم بالكفر بعد أنْ كرّمهم الله ، وكان عليهم أنْ يُصعّدوا هذا التكريم ، لا أن يُهينوا أنفسهم بعبادة الأدنى منهم .

وبعد أن حدثتنا الآيات عن الكافرين الذين اتخذوا الشركاء مع الله ، وعن المكذِّبين للرسل وما كان من عقابهم ، تعطينا مثلاً يُقرِّب لنا هذه الحقائق ، فيقول سبحانه : { مَثَلُ الذين اتخذوا مِن دُونِ الله . . . } .

مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (41)

كلمة (مَثَلُ) وردت بمشتقاتها في القرآن الكريم مرات عدة ، ومادة الميم والثاء واللام جاءت لتعبر عن معنى يجب أنْ نعرفه ، فإذا قيل (مِثْل) بسكون الثاء ، فمعناها التشبيه ، لكن تشبيه مفرد بمفرد .
كما في قوله تعالى : { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ . . . } [الشورى : 11] وقوله تعالى : { وَجَزَآءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا . . . } [الشورى : 40] .
أما (مَثَل) بالفتح ، فتعني تشبيه قصة أو متعدّد بمتعدّد ، كما في قوله تعالى : { واضرب لَهُم مَّثَلَ الحياة الدنيا كَمَآءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السماء . . . } [الكهف : 45] .
فالحق – سبحانه وتعالى – لا يُشبِّه شيئاً بشيء إنما يُشبه صورة متكاملة بصورة أخرى : فالحياة الدنيا في وجودها وزهرتها وزخرفها وخضرتها ومتاعها ، ثم انتهائها بعد ذلك إلى زوال مثل الماء حين ينزل من السماء فيختلط بتربة الأرض ، فينبت النبات المزهر الجميل ، والذي سرعان ما يتحول إلى حطام .
لذلك اعترض بعض المتمحكين على أسلوب القرآن في قول الحق سبحانه وتعالى عن موسى عليه السلام : { إِنَّ مَثَلَ عيسى عِندَ الله كَمَثَلِ ءَادَمَ . . . } [آل عمران : 59] .
ووجه اعتراضه أن (مَثَل) جاءت تُشبه مفرداً بمفرد ، وهو عيسى بآدم عليهما السلام ، ونحن نقول : إنها تشبه صورة متكاملة بأخرى ونقول : هذا الاعتراض ناتج عن عدم فهم المعنى المراد من الآية ، فالحق سبحانه لا يُشبِّه عيسى بآدم كأشخاص ، إنما يُشبِّه قصة خَلْق آدم بقصة خلق عيسى ، فآدم خُلِق من غير أب ، وكذلك عيسى خُلِق من غير أب .
والمعنى : إنْ كنتم قد عجبتم من أن عيسى خُلِق بدون أب ، فكان ينبغي عليكم أنْ تعجبُوا أكثر من خَلْق آدم؛ لأنه جاء بلا أب وبلا أم ، وإذا كنتم اتخذتم عيسى إلهاً؛ لأنه جاء بلا أب ، فالقياس إذنْ يقتضي أن تكون الفتنة في آدم لا في عيسى .
والمسألة أن الله تعالى شاء أن يعلن خلْقه عن طلاقة قدرته في أنه لا يخلق بشكل مخصوص ، إنما يخلق كما يشاء سبحانه من أب وأم ، أو من دون أب ، ومن دون أم ، ويخلق من أب فقط ، أو من أم فقط .
إذن : هذه المسألة لا تخضع للأسباب ، إنما لإرادة المسبِّب سبحانه ، فإذا أراد قال للشيء : كُنْ

فيكون . وقد يجتمع الزوجان ، ويكتب عليهما العقم ، فلا ينجبان ، وقد يصلح الله العقيم فتلد ، ويُصلح العجوز فتنجب – والأدلة على ذلك واضحة – إذن : فطلاقة القدرة في هذه المسألة تستوعب كل الصور ، بحيث لا يحدها حَدٌّ .

والحق سبحانه حين يضرب لنا الأمثال يريد بذلك أنْ يُبيّن لنا الشيء الغامض بشيء واضح ، والمبهم بشيء بيّن ، والمجمل بشيء مُفصَّل ، وقد جرى القرآن في ذلك على عادة العرب ، حيث استخدموا الأمثال في البيان والتوضيح .

ويُحكَي أن أحدهم ، وكان صاحب سمعة طيبة وسيرة حسنة بين الناس ، فحسده آخر ، وأراد أنْ يلصق به تهمة تُشوّه صورته ، وتذهب بمكانته بين الناس فاتهمه بالتردد على أرملة حسناء ، وقد رآه الناس فعلاً يذهب إلى بيتها ، فتخرج له امرأة فيعطيها شيئاً معه .

ولما تحقق الناس من المسألة وجدوها عجوزاً لها أولاد صغار وهم فقراء ، وهذا الرجل يعطف عليهم ويفيض عليهم مما رزقه الله ، فلما عرفوا ذلك عن الرجل عظَّموه ، ورفعوا من شأنه ، وزاد في نظرهم مجداً وفضلاً .

وقد أخذ الشاعر هذا المعنى وعبَّر عنه قائلاً مستخدماً المثل :

وإِذَا أرادَ الله نَشْر فَضِيلةٍ طُويَتْ ... أَتاحَ لَهَا لِسَانَ حَسُود

لَوْلا اشْتِعالُ النارِ فيما جاورَتْ ... مَا كان يعرف طِيب عَرْفِ العُودِ

والعود نوع من البخور ، طيب الرائحة ، لا تنتشر رائحته إلا حين يُحرَق .

ومن مشتقاتها أيضاً (مَثُلَة) كما في قوله تعالى : { وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ المثلات . . . } [الرعد : 6] وهي العقوبات التي حاقتْ بالأمم المكذِّبة ، حتى جعلتها عبرةً لغيرها .

فإذا اشتهر المثَل انتشر على الألسنة ، وضربه الناس مثلاً كما اشتهر حاتم الطائي بالكرم والجود حتى صار مضرب المثل فيه ، وقد تشتهر بيننا عبارة موجزة ، فتصير مثلاً يضرب في مناسبها كما نقول للتلميذ الذي يهمل طوال العام ، ثم يجتهد ليلة الامتحان (قبل الرماء تملأ الكنائن) مع الاحتفاظ بنص المثل في كل مناسبة ، وإن لم يكُنْ هناك رمي ولا كنائن .

كما أن المثل يقال كما هو دون تغيير ، سواء أكان للمفرد ، أم المثنى ، أم الجمع المذكر ، أو للمؤنث . كذلك نقول (ماذا وراءك يا عصامِ) بالكسر؛ لأنها قيلت في أصل المثَل لامرأة .

يقول الحق سبحانه : { مَثَلُ الذين اتخذوا مِن دُونِ الله أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ العنكبوت اتخذت بَيْتاً . . . } [العنكبوت : 41] .

فهذا مثل في قمة العقيدة ، ضربه الله لنا للتوضيح وللبيان ، ولتقريب المسائل إلى عقولنا ، وإياك أن تقول للمثل الذي ضربه الله لك : ماذا أراد الله بهذا؟ لأن الله تعالى قال : { إِنَّ الله لاَ يَسْتَحْى أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا . . . } [البقرة : 26] .

فالبعض يرى أن البعوضة هذه شيء تافه ، فكيف يجعله الله مثلاً؟ والتحقيق أن البعوضة خَلْق من خَلْق الله ، فيها من العجائب والأسرار ما يدعوك للتأمل والنظر ، وليست شيئاً تافهاً كما تظن ، بل يكفيك فَخْراً أنْ تصل إلى سِرِّ العظمة فيها .
ففي هذا المخلوق الضئيل كل مُقوِّمات الحياة والإدراك ، فهل تعرف فيها موضع العقل وموضع جهازها الدموي . . إلخ وفضلاً عن الذباب والناموس وصغار المخلوقات ألا ترى الميكروبات التي لا تراها بعينك المجردة ومع ذلك يصيبك وأنت القوى بما يؤرقك وينغص عليك .
إذن : لا تقُلْ لماذا يضرب الله الأمثال بهذه الأشياء لأن الله { إِنَّ الله لاَ يَسْتَحْى أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا . . . } [البقرة : 26] ما فوقها أي : في الصِّغَر والاستدلال . أي : ما دونها صِغَراً؛ لأن عظمة الخلق كما تكون بالشيء الأكثر ضخامة تكون كذلك بالشيء الأقلّ حجماً الأكثر دِقَّة .
لو نظرتَ مثلاً إلى ساعة (بج بن) وهي أضخم وأشهر ساعة في العالم ، وعليها يضبط العالم الوقت لوجدتَها شيئاً ضخماً من حيث الحجم ليراها القادم من بعيد ، ويستطيع قراءتها ، فدلَّتْ على عظمة الصِّنْعة ومهارة المهندسين الذين قاموا ببنائها ، فعظمتها في ضخامتها وفخامتها ، فإذا نظرتَ إلى نفس الساعة التي جعلوها في فصِّ الخاتم لوجدتَ فيها أيضاً عظمة ومهارة جاءت من دِقَّة الصنعة في صِغَر الحجم .

كذلك الراديو أول ما ظهر كان في حجم (النورج) ، والآن أصبح صغيراً في حجم الجيب .
ومن مخلوقات الله ما دق؛ لدرجة أنك لا تستطيع إدراكه بحواسك ، والعجيب أن يطلب الإنسان أنْ يرى الله جهرة ، وهو لا يستطيع أنْ يرى آثار خَلْقه وصَنْعته . فأنت لا ترى الجن ، ولا ترى الميكروب والجراثيم ، ولا ترى حتى روحك التي بين جنبيك والتي بها حياتُك ، لا يرى هذه الأشياء ولا يدركها بوسائل الإدراك الأخرى ، فمن عظمته تعالى أنه يدرك الأبصار ، ولا تدركه الأبصار .
نعود إلى المثَل الذي ضربه الله لنا : { مَثَلُ الذين اتخذوا مِن دُونِ الله أَوْلِيَآءَ . . . } [العنكبوت : 41] أي : شركاء وشفعاء { كَمَثَلِ العنكبوت . . . } [العنكبوت : 41] هذا المخلوق الضعيف الذي ينسج خيوطه بهذه الدقة التي نراها ، والذي نسج خيوطه على الغار في هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واشترك مع الحمامة في التعمية على الكفار .
{ اتخذت بَيْتاً . . . } [العنكبوت : 41] أي : من هذه الخيوط الواهية { وَإِنَّ أَوْهَنَ البيوت لَبَيْتُ العنكبوت . . . } [العنكبوت : 41] فخطأ العنكبوت ليس في اتخاذ البيت ، إنما في اتخاذ هذه الخيوط الواهية بيتاً له وهبّة ريح كافية للإطاحة بها ، ويشترط في البيت أن يكون حصيناً يحمي صاحبه ، وأن تكون له أبواب ونوافذ وحوائط . . إلخ . أما لو اتخذها شبكة لصيد

فرائسه لكان أنسب ، وكذلك الكفار اتخذوا من الأصنام آلهة ، ولو اتخذوها دلالة على قدرة الحق في الخَلْق لكان أنسب وأَجْدَى .

وكما أن بيت العنكبوت تهدمه هَبَّة ريح وتُقطعه وأنت مثلاً تنظف بيتك ، وربما تقتل العنكبوت نفسه ، فكذلك طبْق الأصل يفعل الله بأعمال الكافرين : { وَقَدِمْنَآ إلى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مَّنثُوراً } [الفرقان : **23**] .

وكذلك يضرب لهم مثلاً آخر : { مَّثَلُ الذين كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشتدت بِهِ الريح فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ . . . } [إبراهيم : **18**] .

ومعنى : { لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ } [العنكبوت : **41**] أي : حقيقة الأشياء ، فشبكة العنكبوت لا تصلح بيتاً ، ولكن تصلح مصيدةً للحشرات ، وكذلك الأصنام والأحجار لا تنفع لأنْ تكون آلهة تُعبد ، إنما لأنْ تكون دلالة على قدرة الخالق – عز وجل – فلو فكَّروا فيها وفي أسرار خَلْقها لاهتدوا من خلالها للإيمان .

فهي – إذن – دليلُ قدرة لو كانوا يعلمون ، فالجبل هذا الصخر الذي تنحتون منه أصنامكم هو أول خادم لكم ، ولمن هو أَدْنى منكم من الحيوان والنبات ، وسبق أن قلنا : إن الجماد يخدم النبات ، ويخدم الحيوان ، وهم جميعاً في خدمة الإنسان .

إذن : فالجماد خادم الخدامين ، ومع ذلك جعلتموه إلهاً ، فانظروا إذن إلى هذه النقلة ، وإلى خِسَّة فكركم ، وسوء طباعكم حيث جعلتم أدنى الأشياء وأحقرها أعلى الأشياء وأشرفها – أي : في زعمكم .

فكيف وقد ميَّزك الله على كل الأجناس؟ لقد كان ينبغي منك أن تبحث عن شيء أعلى منك يناسب عبادتك له ، وساعتها لن تجد إلا الله تتخذه إلهاً .

بل واقرأ إنْ شِئْتَ عن الجماد قوله تعالى : { قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بالذي خَلَقَ الأرض فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ العالمين * وَجَعَلَ فِيهَا . . . } [فصلت : **9–10**] أي : في الأرض { رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا في أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ } [فصلت : **10**] .

فكأن الجبال الصَّماء الراسية هي مخازن القوت للناس على مَرِّ الزمان ، فمنها تتفتت الصخور ، ويتكوَّن الطمي الذي يحمله إلينا الماء في أيام الفيضانات ، ومنها تتكون الطبقة المخصبة في السهول والوديان ، فتكون مصدر خصْب ونماء دائم ومتجدد لا ينقطع . وتذكرون أيام الفيضان وما كان يحمله نيل مصر إلينا من خير متجدد كل عام ، وكيف أن الماء كان يأتينا أشبه ما يكون بالطحينة من كثرة ما به من الطمي .

فياليت عُبَّاد الأصنام الذين نحتوا الصخور أصناماً تأملوا هذه الآيات الدالة على قدرة الخالق

سبحانه بدل أن يعبدوها من دون الله .

وفي موضع آخر يضرب لنا الحق سبحانه مثلاً في قمة العقيدة أيضاً فيقول سبحانه : { ضَرَبَ الله مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الحمد للَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ } [الزمر : 29] .

ففَرْق بين عبد مملوك لسيد واحد يتلقَّى منه وحده الأمر والنهي ، وبين عبد مملوك لعدة شركاء ، وليتهم متفقون ، لكن { شُرَكَآءُ مُتَشَاكِسُونَ . . . } [الزمر : 29] مختلفون لكلٍّ أوامر ، ولكلٍّ منهم مطالب ، فكيف إذن يُرضيهم؟ وكيف يقوم بحقوقهم وهم يتجاذبونه؟

فالذي يعبد الله وحده لا شريك له كالعبد لسيد واحد ، والذين يعبدون الأصنام كالعبد فيه شركاء متشاكسون . إذن : فالحق سبحانه يضرب الأمثال للناس في الحقائق ليُبيِّنها لهم بياناً واضحاً .

ثم يقول الحق سبحانه : { إِنَّ الله يَعْلَمُ مَا . . . } .